فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

432-431
تموز 2022

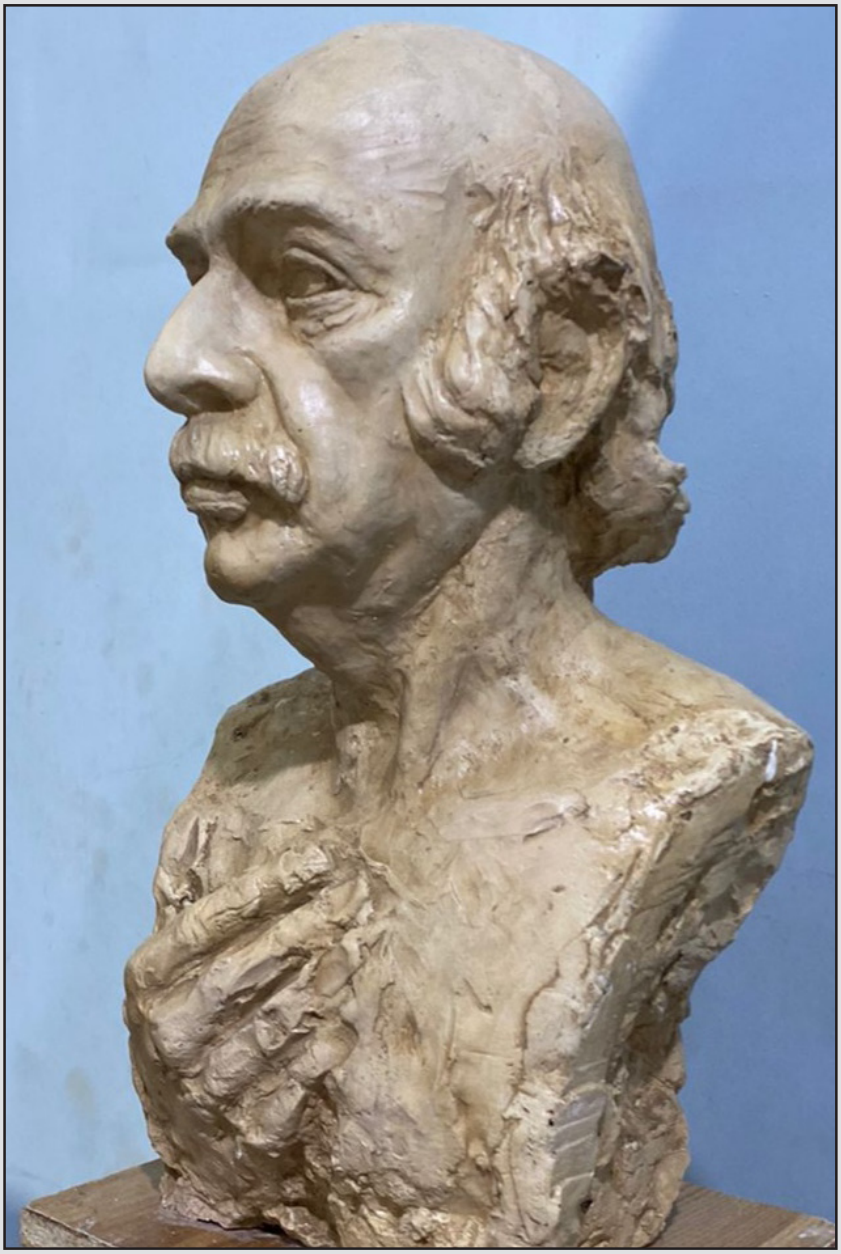

ملف الشاعر الكبير مظفر النواب

ملف ثورة 14 تموز 1958

مقالات
كاظم المقدادي
حاكم محسن الربيعي
إسماعيل نوري الربيعي
حسام الدين فياض
عبد العزيز حجو
قاسم حنون
صباح قدوري
مارف كويى

نصوص قديمة
هادي العلوي

نصوص مترجمة
فرانك ديب

أدب وفن
حسب الله يحيى
إبراهيم أحمد
افراح لطفي عبد الله
ناجح المعموري
عمر السراي
نادية هناوي
عقيل ماجد حامد
نجم حيدر
خالد الحلّي
شوقي العياش
جيمس سكوت بيل

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

العدد: 431-432
تموز: 2022

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف الشاعر الكبير مظفر النواب

8- الاستجابة الثقافية ومحو الذات..شعر مظفر النواب وإعادة صياغة تجربتنا الحياتية ..... سمير الخليل
18- مظفر النواب بين الحداثي والملحمي ..... علي ابو عراق
24- مظفر النواب.. قصّة شعب باسل ..... حسين الهنداوي
29- مظفر النواب: شاعر احترف الحرية في قول ما ينبغي أن يُقال ..... حميد الخاقاني
37- لقاء مظفر النواب في دمشق ..... احمد خلف
44- مظفر النواب: وطني علمني أن اقرأ كل الأشياء وأن أتمسك بقناعاتي ..... كاظم المقدادي

ملف ثورة 14 تموز1958

68- ثورة 14 تموز 1958: بناء الانموذج الاقتصادي القياسي ..... مظهر محمد صالح
80- ثورة 14 تموز والسياسة التعليمية في البلاد ..... إبراهيم إسماعيل
86- ثورة 14 تموز بين الحقائق الرقمية وزيف الأيديولوجيا ..... فرحان قاسم
97- خلاصة الملف التشريعي لثورة 14 / تموز / 1958 المجيدة..... هادي عزيز علي
109- إضاءات وجيزة ..المثقفون وثورة 14 تموز 1958 ..... رضا الظاهر
117- ثورة 14 تموز والتشكيل .. حداثة الأثر ورمزية الدلالة ..... جواد الزيدي

مقالات

122- العواصف الغبارية في العراق.. ضوء على أبرز العوامل والتداعيات ..... كاظم المقدادي
134- ملامح من الاقتصاد العراقي وارتفاع الاسعار ..... حاكم محسن الربيعي
145- خيانة الذاكرة..ثورة العشرين؛قراءة في ضوء منهجية الدراسات الثقافية .....إسماعيل نوري الربيعي
155- نظرية المادية الثقافية عند ريموند ويليامز ..... حسام الدين فياض
160- اللعب ودوره في تنمية مهارات الطفل ..... عبد العزيز ججو
170- الثقافة في كواليس C.I.A ..... قاسم حنون
180- هامش على مقال: محاسبة القيمة في رأس مال ماركس: اليد الخفية ..... صباح قدوري
184- توضيح لابد منه ..... مارف كويى

نصوص قديمة

186- الصراع الطبقي في الاسلام ..... هادي العلوي

نصوص مترجمة

200- الاشتراكية - مراجعة وآفاق لـ فرانك ديب ..... ترجمة: رشيد غويلب

أدب وفن

210- 14- تموز.. ثورة وطنية ..... حسب الله يحيى
211- حسب الشيخ جعفر: ذكريات نصف قرن في القلب! ..... إبراهيم أحمد
217- ومضات سريعة عن العلم والدين ..... افراح لطفي عبد الله
220- الناصرية التي في العلا ..... ناجح المعموري
227- مقابلة مع الشاعر عمر السراي
232- حرج الانتقاء والإحالة في كتاب (السرديّة الحرجة) ..... نادية هناوي
240- يوربيدس .. عراقياً ..... عقيل ماجد حامد
244- المثاقفة في لغة الخطاب النقدي الجمالي المعاصر ..... نجم حيدر
250- هواجس تحاصرها غيوم ..... خالد الحلّي
252- الرجع.. ربما ..... شوقي العياش
259- الحبكة والبناء في الكتابة .. لـ جيمس سكوت بيل ..... ترجمة: خضير اللامي

لوحتا غلافي العدد للفنان عبد الحميد العابد

كلمة العدد

العراق بين مطرقة التغيرات المناخية وسندان السياسة

شيئاً فشيئاً صار الاحتباس الحراري قضية مفروغا منها الى حد كبير، سواء على المستوى الرسمي، ام الشعبي. فهي لم تعد جدلا أكاديميا محصورا بين العلماء والمختصين، ومعهم بعض المهتمين بقضايا البيئة. يتناقشون في ما بينهم في مسائل ثقوب الأوزون وارتفاع مستوى ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوي. او يتباحثون في مواضيع التغيّر المناخي وأثره في ذوبان جليد الأقطاب، وارتفاع مستوى المحيطات والبحار، وهم قلقون من التقاعس في مجابهة الخطر المحدق. بل صارت ازمة المناخ حقيقة جلية وواقعا معاشا بالنسبة للبشرية، او غالبيتها على اقل تقدير. فموجات الحر المستمرة، وحرائق الغابات المتكررة، والجفاف والفيضانات وغيرها الكثير أثبتت بما لا يقبل الشك ما كان سابقا يعد ترفا علميا. بل ان دراسات حديثة أشرت بكل وضوح الى المستقبل القاسي والخطر الذي ينتظر البشرية ان هي لم تتدارك الامر. وفي اعتراف واضح وصريح بمسؤولية البشرية عن انبعاث الجزء الاكبر من الغازات الدفيئة، التي تتسبب بالتغيرات المناخية وارتفاع درجات الحرارة، تتضافر منذ سنوات العديد من التدابير والجهود الدولية في مجال ما بات يعرف بـ"سياسات المناخ".

اما بخصوص العراق، فالواقع اشد قسوة، والمفارقة أكثر غرابة. فإضافة الى الازمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والامنية التي يئن تحت وطأتها العراقيون، تأتي أزمة المناخ القاسية لتضيف وبالا آخراً على رؤوسهم. ففي هذه السنة، وقبل وصول أولى موجات حر صيفهم الطويل القاتلة، التي تعايشوا معها سنينا طويلة، جاءت مشاهد العواصف الترابية المتكررة، بسحبها الملونة الفوارة وهي تحتل سماءهم ثم تصب جام غضبها عليهم، فتغشي عيونهم وتحجب رؤياها، ولتغطي رمالها بيوتهم واثاث منازلهم وسياراتهم وتخنق انفاسهم وحياتهم.

وبهذا الخصوص، تشير العديد من الدراسات الى ان العراق سيكون من بين البلدان الخمسة الأكثر عرضة لتغير المناخ وبالتالي لانحسار الغطاء النباتي. فدرجات الحرارة في ارتفاع متزايد، كما وتراكمت حدة الجفاف في السنوات الاخيرة بسبب قلة الامطار وانخفاض مناسيب نهري دجلة والفرات وتلاشي واختفاء البحيرات والمسطحات المائية. وبالتالي أصبح العراق من أكثر البلدان تصحرا وتدهورا في خصوبة أراضيه، فالعراق يفقد سنويا 100 ألف دونم من أراضيه الزراعية، والصحاري تشكل الان ما يقارب 39 % من مساحته، وهي في تزايد مستمر.

وهذا يعني انه خلال عقود أو حتى أعوام من الان سيرتفع عدد أيام العواصف الترابية والرمال، لتغطي كل غالبية أيام السنة، كما تذكر بعض التوقعات الرسمية. كما ان معدلات درجات الحرارة ستستمر في الصعود.

وهنا نأتي الى وجه المفارقة الغريب. في مقابل واقع العراق المأساوي هذا، وفي مقابل مستقبله الكابوسي المتوقع، يبرز بوضوح لافت ضعف وضآلة الدور الحكومي والرسمي في التعامل مع هذه المخاطر والتحديات. بالتأكيد عند الحديث عن ضعف الإجراءات الحكومية في مكافحة التغير المناخي والتصحر، لا يقصد نهائيا ارتفاع درجات الحرارة وقلة الامطار، فهذه "امورٌ قدرية". وهي ربما تحتاج، كما صرح أحد المسؤولين المعنيين بشؤون الغابات والبستنة، الى الدعاء والاستغفار والاستسقاء. لكن ماذا بالنسبة لجهود الحكومات والمؤسسات المتخصصة لضمان حصة عادلة ومنصفة من الإيرادات المائية لنهري دجلة والفرات بعد انخفاضها الهائل الذي تسببت فيه السياسات المائية لدول الجوار؟! بهذا الصدد، يبدو اننا خسرنا حرب المياه - وهي حرب بكل ما في كلمة حرب من معنى - مع دول الجوار. انها حرب أخرى نخسرها، ولكن دون ان ندخلها حتى، بل دون ان تبدأ. يبدو ان أسهل طريقة لمعالجة شحة المياه عند الحكومة هي تخفيض الخطة الزراعية، وليذهب الفلاحون الى الجحيم. والجحيم هو ان يغيروا أنماط حياتهم، وان يعيشوا في عشوائيات أطراف المدن والعاصمة ومراكز المحافظات، التي ينزحون اليها باستمرار.

وماذا بالنسبة لما كشفت عنه وزارة الزراعة منذ مدة، من ان العراق يحتاج الى أكثر من 15 مليون شجرة لتشكل احزمة خضراء تقف في وجه زحف الكثبان الرملية، وتخفف من حدة العواصف الرملية؟! هل جرى الشروع بتنفيذ حملات للتشجير ومشاريع تثبيت الكثبان الرملية، ومن يتابعها والى اين وصلت؟! وماذا بالنسبة لتصريح وزارة البيئة التي اعتبرت غالبية حملات التشجير الجارية في البلاد غير مجدية بذلك لأنها لم تتم بأشجار مستدامة؟!

عند امعان النظر في إجراءات الحكومات العراقية المخجلة لمجابهة التصحر والتغيّر المناخي، وعند مراقبة البؤس والفقر والتهميش، بأكثر صورهم مدعاة للفزع والسخط، وهم يزدادون اتساعا وعمقا، وعند متابعة الازمات وهي تطحن العراقيين تحت رحاها، عند كل ذلك وغيره الكثير تبرز امامنا حقيقة واحدة عارية. قد يجوز لنا التعبير عنها بجملة واحدة صارخة، جملة قد تبدو مضللة بصراحتها للوهلة الاولى، ولكنها كأي حقيقة أخرى، صادمة وقد تغشي العين بقساوتها: ان الحل لمشاكل العراق أوله ومنتهاه هو مسألة "السلطة"؛ فبدون تغيير حقيقي شامل يتضمن إزالة المنظومة السياسية الحالية بنهجها وفكرها، بشخوصها ورموزها، لا يمكن الشروع اصلا ببناء غد أفضل. فأحلام العراقيين وهمهم الاكبر، بعد ان استمدوا وضوح رؤيتهم من مرارات السنوات الماضية، ومن الخذلان، والاهم من تجاربهم النضالية لن تكون في قادم الأيام أقل من مسألة السلطة.

وإذ نحتفل مع العراقيين بذكرى ثورة تموز 1958، فإننا نستلهم وإياهم دروسها جميعا، بنجاحاتها واخفاقاتها، دروس تمتد منذ ان غُرست بذورها الاولى عام الوثبة 1948 الى ان انتكست عام 1963. فالاستناد على الأجنبي دفع الى الثورة، ومجابهة الشعب المتظاهر الأعزل بالسلاح قاد الى الثورة، واغلاق الطريق امام المشاركة الديمقراطية الحقيقية أدى الى الثورة، كما ان التفرد والتفرق والصراع كانت من أسباب نكستها.

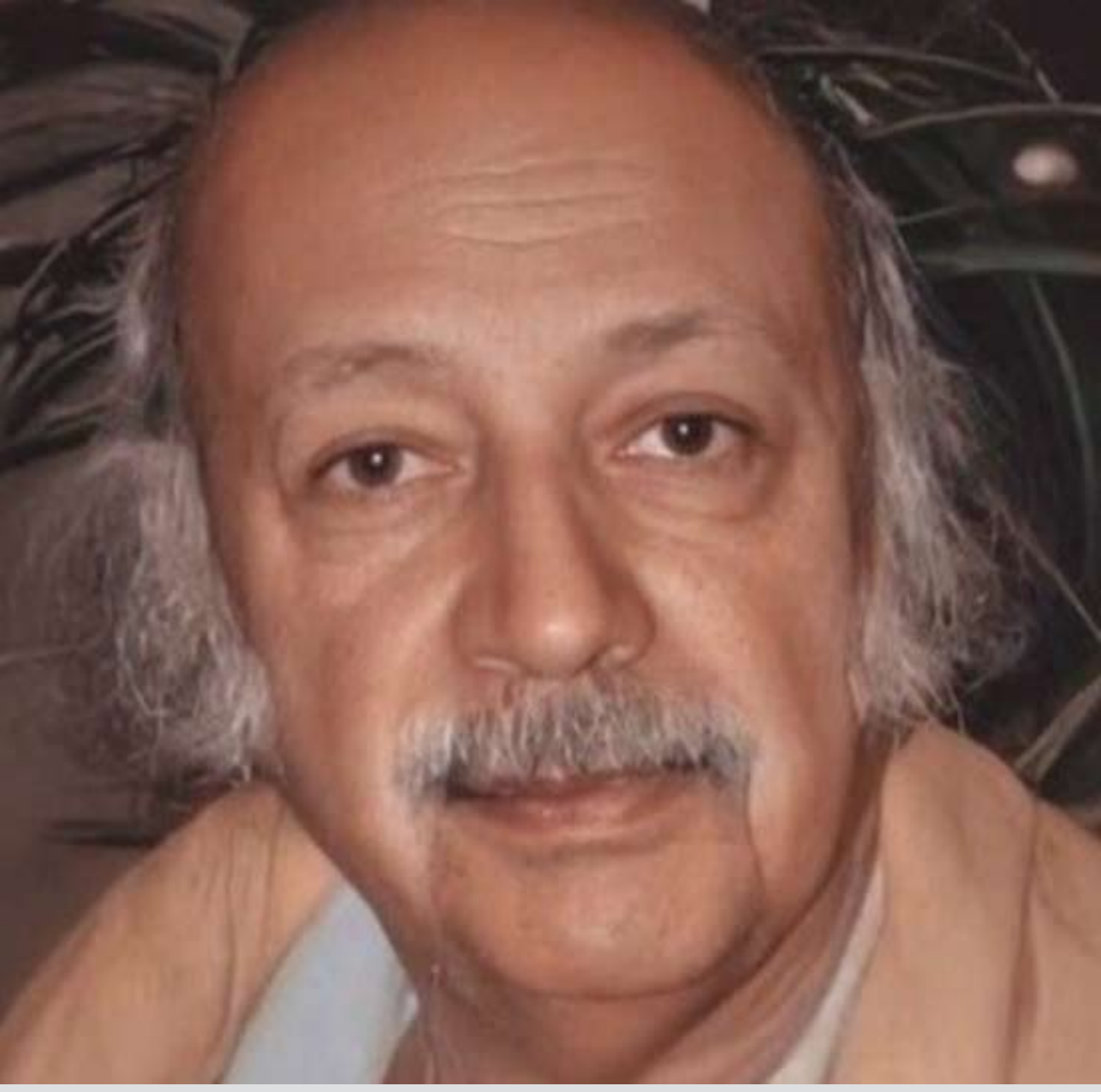

ملف
الشاعر الكبير مظفر النواب

الاستجابة الثقافية ومحو الذات...
شعر مظفر النواب وإعادة صياغة تجربتنا الحياتية

د. سمير الخليل

إنَّ شعرية "مظفر النواب" تلخص حياته، فكل قصيدة تعد محطة مكانية توقف عندها لبعض الوقت وتملأها جيداً في كل أبعادها وأفرغ شحنته الشعرية عند عتبتها، لذلك صار الزمان في عرف "النواب" هو ((الوجود الذي لا يكون موجوداً أثناء وجوده، والذي يكون موجوداً أثناء لا وجوده)) حسب تخريج "هيغل"[1].

في مجموعته الشعرية الكاملة[2]، وجدنا أن "النواب" قد عالج أفكاراً هامة وقضايا متنوعة، والتصدي لقراءتها أو مقاربتها يستدعي منا إيجاد مبررات مشروعة للانتقال من قضية إلى أخرى ومناقشتها ضمن المسوغات المعقولة، وذلك لتبرير وجود هذا الكم المنطقي من المساءلات والمشكليات النقدية، ما دمنا نرى بأن الجدل حول سلسلة من القضايا الثقافية يدور حول دراسة أفعال لغوية صنعت القصائد أو صنعتها القصائد.

وسنعطي لأنفسنا كامل الحرية في تعليل الانتقال بين الوحدات التواصلية في لغة الشعر النوابي من منظور ثقافي صرف، إذ أن الأمر يتعلق بقضايا مرتهنة بأفعال قولية، أي أنه يتعلق بكشوفات وإيحاءات وفضائح ترتكبها القوى الحاكمة بعقل ممنهج وقلب مبرمج على آلية القتل والاضطهاد والقمع الوحشي المفرط. كما سنعفي أنفسنا من تعليل القصائد من منظور شكلي أو أسلوبي إذ أن الوحدات التداولية في جميع القصائد قد قامت سلفاً بتأويل علاقاتها المرجعية المتميزة بالواقع الخارجي المبتلى والممتحن، علاقة بعد علاقة، بينما يتوجب علينا بعد جهد استقصائي أن نكشف عن الصلة القائمة بين القضايا والواقع.

وسنرى بعد حين، إنَّ "النواب" لم يكتف بابداء عناية خاصة بظاهرة إنعدام – ضرورة الاستئناف بين القضايا المنتمية إلى أنماط استعمال متباينة (وهي أفعال القول) بل اعتبر، فضلاً عن ذلك، بأن انعدام – الضرورة هذا يمثل فصلاً نوعياً يختص بالجدل الثقافي (على خلاف نقاد الأدب التقليديين الذين اعتبروا انعدام – الضرورة بمثابة نقيضة نظرية أو مثلبة منهجية) لذلك، فهمنا مبكراً، إنَّ الدخول بقوة في لعبة الجدل الثقافي التي تكتنف الخطاب الشعري (والأدبي عموماً) في ضوء التوقعات القرائية تستحق منا كل الاهتمام في وضع تواصل نموذجي مع شعرية شامخة في السماء، متجذرة في الأرض، كقامة شاعرها "مظفر النواب".

• المعاني النبيلة وسياقاتها:

إنَّ نموذج القصيدة النوابية يجعل تحديد المواضيع المتناولة في القصائد وظيفة قابلة للجدل المستمر لإعادة تنظيم المعاني

المعطاة بوتيرة عالية وعلى أفضل مستوى من التماسك، هذا المنهج التداولي في القراءة -عادة- ما ينفي أو يبعد الاتجاه الأحادي في القراءة، لأننا، وبضغط من القصائد ذاتها، نعود باستمرار إلى معالجة المواضيع المطروحة في القصائد وآلية إعادة تنظيمها وربطها مع السياق الذي جاءت منه. فعالم القصيدة النوابية لا يحتاج إلى تنقيح جزئي أو كلي، ثابت أو مستمر، لأنه عالم يعج بالمعاني النقية المنقحة أصلاً بفعل مسارب (فلاتر أو مصافي أو مرشحات) الخبرة الشخصية والخبرة العامة، وهي خبرات نضالية بامتياز.

من هنا، تغدو القراءة امتداداً للتجربة المطروحة في النص، لذا فإن التعالق بينهما يؤدي إلى دفع الوعي القرائي إلى أن يكون في مستوى التجربة المقروءة، وهي تجربة حدثت في الماضي النضالي القريب تحديداً، وبذلك تحوز على الاستحسان والتثمين، ولحظة التثمين هي لحظة راهنة، إبنة الحاضر، وهنا يظهر التعالق بين الماضي (التجربة) وما يحدث الآن (أن التثمين) وهو تعالق يفرز تفاعلاً قرائياً جاداً بين ما حدث في الماضي وما يحدث في الحاضر، كل ذلك يجري أثناء القراءة ومن جرائها، فاكتساب الخبرة من التجربة المزروعة في النص ليس مجرد إضافة قرائية، بل إعادة شحذ ما وعيناه في تجاربنا الحياتية، وما خبرناه من اندماجنا مع المعترك السياسي- الاجتماعي.

إنَّ القصيدة النوابية - وهذه إحدى خرافاتها واختراقاتها- عندما نقرأها تعيد تركيب ما نملكه بجدارة قل نظيرها. ولنقرأ الآتي:

((أي إلهي.. إنَّ لي أمنية ثالثة/ أن يرجع اللحن عراقياً/ وإن كان حزين/ ولقد شط المذاق/ لم يعد يذكرني منذ اختلفنا أحد في الحفل/ غير الاحتراق/ كان حفلاً أمميا/ إنما قد دُعي النفط ولم يدع العراق)). (ص3 وما بعدها). ((إذا كنت بلا أمل/ يا صاحب هذا الفلك المتعب أنت تسميه المركب/ لا بأس عليك تفاءل ما شئت/ إطلق ما ترتاح من الأسماء عليه/ وصيف وبغي متفقان على نفط البصرة/ والمتوكل مشغول عن ذاك بشامة حسن في خصيته/ فدع الريح تهدهد هذا المركب شيئاً/ واسترخ فما تلك نهاية هذا العالم/ مد ذراعك/ فالشمس تريح الجسد المكدود/ تمد مرونتها فيه فيصبح كالسعفة/ والفقراء المخلوقون من الخرق الليلي وخوف المتوكل/ بالسعف إحتشدوا/ ملأوا باب البصرة بالسل/ وقد اطفأ برد الليل قناديل حماستهم/ كان السياب مع الأطفال يحرك سعفته/ إنتظروك طويلاً)). (ص111 وما بعدها).

• محو الذات والصدق الفني:

إنَّ قراءة شعر "مظفر النواب" تقودنا إلى محو الذات، وهذه من مميزات الشعرية التي تعالج قضايا مصيرية لا تدخل في باب "التأمل الرومانسي" أو "الإستغراق الذاتي" لكنها توصلنا إلى معنى يشير إلى مداليل جمة خارج ذاته، لذلك فهي مشحونة بكمية كبيرة من الصدق القابل للتثمين.

وما يظهر لأول وهلة في القصائد النوابية على أن له صلة غامضة بالقيم الجمالية المحصنة التي تتوفر عليها كل مقطوعة، يقلل الشاعر من شأنه في تواتر قصائده الطويلة والقصيرة، وتغدو مجرد القراءة أو السماع غاية في حد ذاتها، لكنها ليست الغاية المرتجاة من حصول "لذة" أو "متعة" نصية- قرائية، فالغاية تؤدي إلى المعرفة وتتماهى مع

القضايا المصيرية العامة وتنتهي بالصدق، لا بالجمال والتلاعب بالمخيال من خلال إجتراح أشكال هي عبارة عن أساليب ماكرة/ وهذا يعني بالنسبة لمظفر النواب إدماج الشعر في الوعي العام لخلق نظام لغة تدرك ما يحصل في الواقع وما سيحصل مستقبلاً.

إنَّ هذه الإزاحة ما بين الواقع والتخييل تنطوي على أكثر من شعرية أو أدبية، إنها تضعنا أمام مسؤوليات كانت قد رفضت واستهجنت من النقد الأدبي التقليدي، فهي تشير إلى ظهور فهم جديد يواكب الواقع المستجد الذي ظهر بكل عنفه وخداعه، ويمكننا من خلال القصائد المتحصلة على لغة شرسة، طازجة، أن تقتنع بكل ما يجري ويحصل أمامنا، وفي ضوء ذلك تغيير المنظور وزاوية الرؤية التي تنظر من خلالها إلى ما يجري ويحصل. فيستطيع المتلقي استناداً إلى تلك القصدية الوجودية والعقلانية والظاهراتية أن يتصور الوجود بما هو موجود كواقع حال وليس كلحظة عابرة، واقع حاضر وموجود وضاغط على عقولنا وأجسادنا وموارد رزقنا ومستقبل أجيالنا. وإن طعم المرارة الملتصق بأفواهنا ناتج عن مرارة الحياة اليومية التي نعيشها كقدر مكتوب منذ الأزل (هذا ما تعاقد عليه سدنة الحاضر مع مرويات الماضي المكبل بالزيف والإفتراء).

إنَّ القيمة العظمى لشعرية "مظفر النواب" أو الشعريات الثورية الأخرى لا تظهر إلا بالتناسق الخالص بين النص والقارئ، وعلى الإستجابة الفورية، العفوية، لمزاجية النص. ومن المتوقع أن كل إستجابة قرائية تجلب معها قرائنها النظرية الخاصة بها، كما وتجلب معها مشاكلها الخاصة، وهي مشاكل متعلقة بالذائقة الفردية وبثقافة الفرد الخاصة، وبأفق التوقع المستند الى تاريخ سري من الانهمام بالشؤون العامة. ثم هناك المرجعيات القومية والدينية والعرقية الذاهبة دوماً إلى توجيه إبرة بوصلة القراءة والتحليل والتذوق. لكن القصيدة النوابية تقفز فوق كل ذلك لتحقق وحدة نادرة أو ندرة واحدة لا تؤمن إلا بالإنسان بوصفه عائشاً وسط حرب طبقات وأعراق ودول مستعرة منذ غابر الأزمان ولا تتوقف حتى نهاية التأريخ، بعيداً عن تجزيئات هذا الإنسان، فهو بالمطلق الممتحن الأول والأخير، والخاسر الأول والأخير، والمهزوم على طول الخط، والصارخ في برية متمدينة. فهو ضحية قانون الغاب، والفريسة المثالية لكل المفترسين. ولنتمعن بالآتي:

((أدين بموتك/ أن رؤوس الأموال وراء الأشياء/ أدين بموتك/ لكن الصمت يعض على قلبي)). (ص7). ((والأيتام سيجتمعون إليك بأمعاء فارغة/ وعيون فارغة/ وأماني فارغة/ وملابس من صدقات السلم/ وأنت تزور بيوت الفقراء/ سيرونك تحمل صرة حزن مثل جميع الفقراء)). (ص8 وما بعدها).

((والعثة في بلد العسكر/ تفقس بين الإنسان وثوب النوم وزوجته/ وتقرر صنف المولود/ وأين سيكون ختم السلطان/ فإذا آمن بالحزب الحاكم فالجنة مأواه/ وويل للمارق/ فالأنظمة العربية تشنقه قدام الدنيا قاطبة/ تبقيه لساعات/ ثمة تنسيق سري بين فنادقنا/ أحد منكم لاحظ أن الصمت تكاثر والجرذان/ وسيارات الشرطة تحبل في الطرقات/ بشكل لا شرعي وسخ/ هذا الطقس دنيء جداً/ ولذلك خبأ في الصدف الحي حكايته)). (ص105 وما بعدها).

• الراسب الجوهري والذاكرة المختزنة الحيّة:

تحوّلت قراءة القصيدة النوابية إلى إعادة صياغة لتجربتنا الحياتية مع الحقائق الثقافية. وهي عملية جدلية وجدالية لإنضاج النص الذي يعاد فيه تنظيم العناصر المكونة للجزيئات الواقعية المأخوذة من الواقع، وإدماج هذه الجزئيات في مستويات قرائية عالية التماسك، وبذلك يحدث استرجاع تام للتفاعل بين الشعر والقارئ، أكثر مما يهدف إلى تحقيق قيمة جمالية أو شكلية أو أسلوبية من التي تهتم بها النقدية التقليدية، ويحتفي بها علماء الإستيطيقا الذين تثير انتباههم مثل هكذا ألعاب لغوية.

إنَّ قراءة النص النوابي قد تكشف عن اتجاهات كامنة، لكن هذه الاتجاهات وكنويتها لم يحددها الواقع الخارجي المعيشي، بل النص نفسه، لأن منتج هذا النص له وجهة نظر خاصة ومعروفة، وهذا ما يحكم الإستجابة الواسعة للنص النوابي، فعملية فهم النص ليست عملية خاصة بكل قارئ، وهي لا تؤدي إلى أحلام اليقظة، أو إلى المتعة القرائية، ولا تؤدي إلى تحقيق آمال قصيرة الأمد أو بعيدة الأمد، بل تؤدي إلى تنفيذ ما تعاهد عليه الشاعر والنص من شروط وضعت في صلب النص، وهذه الشروط هي "الراسب الجوهري" الذي يميز القصيدة النوابية عن غيرها من القصائد الثورية، الراديكالية، المتمردة، والمهيجة لعواطف الجموع. إنه راسب مقنن في وجهة نظر معينة، ومكيّف ضمن منهجية واضحة، ويمثل حقيقة جهوية لا تخفى على الجمهور، لأنها تشكل الذاكرة المختزنة التي تقتات عليها القصيدة والجمهور معاً. والذاكرة المدخّرة جمعت من السياقات التي يمكن للنص أن يمتص مواده منها، ويجمعها ويخزنها في قيعانه لكي يطلقها حال لحظة القراءة.

إنَّ إعادة تفعيل الذاكرة المختزنة الحيّة التي يكتنزها النص هي في الحقيقة إعادة فهم واستيعاب للمعايير الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسيطر وتتحكم بالواقع المعطى، وتساعد المتلقي في رؤية ما لا يستطيع رؤيته في حركة الحياة اليومية، أو ما ضاع منه في تلافيف الحياة الضاجة بالتفرعات والتفاصيل، يقول الألماني "ولفغانغ آيزر": ((إنَّ الذخيرة تعيد إنتاج المألوف))[3]، ولكن بصيغة مستهجنة كما نعتقد. والذخيرة مخزون يدمج بالنص واقعاً محدداً بدقة، ومشار إليه بدقة، مما يحفز مدى محدداً من الخبرة الشخصية لدى القارئ وقد استحصلها من احتكاكه المرّ مع الباطل والشر والقبح. إنَّ الذخيرة في بعض الأحيان تشير إلى الثقافة برمتها والتي جاء منها النص، ولنتابع بعض من هذه النصوص:

((لا تخف.. إننا أمة/- لو جهنم صبت على رأسها- واقفة/ ما حنى الدهر قامتها أبداً)). (ص23). ((إجمعي أمة الحزن وإستأمنيها المفاتيح/ دهراً فدهراً/ فمهما بدت للوراء تسير بها النكبات/ هي الأمة القادمة)). (ص26). ((يا قاحلاً ليس فيك سوى الحزن/ يمسك رشاشة في الهجير/ إسترح لحظة يا حبيبي هنا قهوة الصبح/ أو تشتهي بالذخيرة تدخل في سورية الذارايات/ تعانق قنطرة/ ستمر مدرعة باتجاه الشمال عليها)). (ص47).

• الأثر الجمالي عندما يتطور إلى وعي رافض:

في القصيدة النوابية لا يمكن للمعنى أن يبقى إلى أمد غير محدود بوصفه أثراً جمالياً، فالأثر الذي يتخلف في ذهن القارئ ويتطور

إلى وعي سلبي، نافي، رافض، يدل على أن القصيدة النوابية تنتج شيئاً لا يمكن أن يعد جمالياً فقط، ما دام بقدرته توسيع معناه ليشمل شيئاً آخر يقع خارج القصيدة، وخارج المألوف، وخارج المزاج القرائي. إنه يشير إلى الظلام الدامس الذي حل في الماحول، وانتشر في كل المسارب والفجوات. الظلام الذي ليس بمقدور أقوى الأنوار والأضواء تخفيفه أو تلطيفه أو تحجيمه.

في القصيدة النوابية تجري إثارة التوقعات التي ظلت حبيسة في اللاوعي الجمعي والتي يعتمد عليها "المكبوت" في عودته، فعودة المكبوت تحتاج إلى إثارة وتحفيز. وهكذا يصبح إنتاج الشعر عند "مظفر النواب" كشفاً مطولاً ومجدولاً للنقد الذاتي، ومحاسبة الذات، ومراجعة الخيارات، وتصحيح المسار:

((أفل الليل/ وقبرك في الأفق الشرقي يوازي السعف/ يوازي همسات السعف/ وثمة طير منكفئ تدفعه الريح/ ورأسك في الطين البارد ساكنة/ ترتاح إلى حجر/ أرحم من هذي الدنيا وسفالتها/ فالعالم آلة إيذاء)). (ص5). ((قضيتنا لنا وطن كما للناس في أوطانهم نزل/ وأحباب وأنهار وجيران/ وكنا فيه أطفالاً وفتياناً وبعضاً صار يكتهل/ وهذا كل هذا الآن مغتصب ومحتل ومعتقل/ قضيتنا سنرجع أو سنفنى مثلما تفنى/ ونقصف فوق ما قصفوا/ ونقتل ضعف ما قتلوا/ فإرهاب بعنف فوق ما الإرهاب ثوري/ يميناً هكذا العمل/ أقول ويمنع الخجل/ بشجّ العين يكتحل/ وكيف عروسكم حصص وحصتكم بها نغل)). (ص85). ((أي ذل يذلون قلبي يدسون في جرحه كلمات التبرع/ ومن يطفئ النار بالنار لا بد شاهد شيئاً/ وراء الأمور وأوشك مما يبين بهم لا يبين)). (ص159).

• التجربة المتعينة في العيان الملموس:

إذا فهم الشعر على أنه فعالية لإنتاج الصور الشعرية، فذلك يعني أن المعنى النبيل الذي تنطوي عليه كل الشعرية يصبح حدثاً زائلاً، والمسلمات التي يطرحها الشعر تضحى مسلمات غير مقنعة، لأنها إبنة لحظتها الزمنية التي سرعان ما تختفي حالما يتقدم الزمن إلى نقطة أعلى.

ولأن الشعر في قناعات "مظفر النواب" هو التعبير الأمثل لقضية حساسة. فالصورة الشعرية لديه في مجملها لا يمكن أن تتخلص من عث التقادم إلا إذا تحصلت على الصدق، والصدق لا يأتي إلا إذا توفرت الصورة الشعرية على هويتين مختلفتين ووظيفتين متنوعتين، فالشعر ينبغي أن يكون له وجودان، أحدهما فرضية واقعية (واقع افتراضي)، والآخر ميدان مرجعي (سياق اجتماعي أو تأريخي أو سياسي أو ثقافي... الخ)، وعندما يريد أن يخلق عالماً جديداً، فريداً وساحراً، مع كل قصيدة، عليه أن يمحو ذاته كي يشير إلى قضية حساسة حاضرة دائماً في عنف الواقع. إنَّ هذه الهوية المزدوجة لا تخضع لمزاج الشاعر أو لمزاج عام، فكل محاولة لتحديد القصيدة وهي في مرحلة جنينية تعوض الغياب المستمر بوجود دائم، فيفقد القارئ عالمه المألوف لكي يركز على لغة العالم غير المألوف. والعالم غير المألوف سيجده في تشخيص الإشارات المألوفة وقد أغدقها الشاعر بوقرة في نصه، لكي تجعل موضوعاتها يتخلص من أقنعة الإبهام بسبب عملية خلق وعي متوتر في قصدية القراءة، وهذه إحدى الجداليات القرائية التي تجري بين الذات والموضوع، ذات الشاعر وموضوعه، أو ذات القارئ والنص المقروء، وطرفا هذه

الجدالية يرتبطان بعلاقة تبادلية بتوسطية الفعل الذي يحدث بينهما، ويرتبط ذلك الفعل بموضوع له مقصديات ستتوضح شيئاً فشيئاً في أثناء تقدم القراءة. وبعبارة أخرى، فالقصيدة النوابية لا تختار المدلول أولاً أو المشار إليه ثم تبحث عن وسيلة للتدليل أو للتأشير، بل تحوّل قصد الشعر إلى سياقه الذي جاء منه، فيصبح البحث عن الحقيقة الصادمة هو المشار إليه أو المدلول الذي يجب القبض عليه وتقديمه للقارئ بكل شفافية وصفاء، فينصهر بهذه الطريقة التخييل والواقع، التأمل والإدراك العميق في إيماءة واحدة، ولا شطب هذا الفهم التجربة الجمالية لأنه قد أصبح هو نفسه العيان الملموس الذي يؤدي إلى تلك التجربة المتعينة، وهي تجربة ثقافية بدون شك:

((أغرب الأمر... بعض الشحارير/ لما رأتني لست أحط على الفضلات كأحوالها/ نبحت كالكلاب/ إلهي إني كفيل بتلك تكفّل بهذي/ فأنت خلقت جناحاً لها لتغني/ فصارت تهرّ/ تعض وأخشى تعضك أنت كما الآخرين)). (ص42 وما بعدها). ((ليس بين الرصاص مسافة/ أنت مصر التي تتحدى/ وهذا هو الوعي حد الخرافة/ تفيض وأنت من النيل تخبره/ إن تأخر موسمه/ والجفاف أتم إصطفافه/ وأعلن فيك حساب الجماهير/ ماذا سيسقط من طبقات/ تسمي إحتلال البلاد ضيافة/ ولست قتيل نظام يكشف عن عورتيه فقط/ بل قتيل الجميع)). (ص93).

- **علاقة الأنا بالآخر (ولادة الهوية):**

إنَّ مفهوم الهوية في شعرية "مظفر النواب" تنطلق من علاقة الأنا بالآخر، فالهوية الشعرية ومن ثمَّ الهوية الشخصية تأتي من التجربة الحياتية، من الاحتكاك القوي بالواقع المعيشي، ولا يمكن الفصل بين الهوية والتجربة الذاتية، فالهوية مهما كانت مفقودة فهي تعيد نفسها من خلال التعامل مع "الآخر" الذي يحتكر الواقع لمصلحته.

إذن، الذات هي التي تخلق هويتها، والهوية تغدو علامة مائزة للذات، تميزها عن الآخر، العدو، الآخر، المتسلط، المتجبر، المختل، الذي لا يمتلك إلا بطشه وجبروته، ومع ذلك، لا يمكن إلغاء طرف من هذه المعادلة، أو أن نقول إن طرفاً من المعادلة هو أصل للطرف الآخر، أو أن أحدهما لا يوجد من دون الآخر (وهذا وارد في علم السياسة والحصانة والتأويل)، فكلاهما لا يوجد إلا من خلال التعامل اليومي مع تعقيدات الواقع وغموضه، والجدلية المستمرة لهذا التعامل هي التي تخلق الهوية بكامل تماسكها.

إنَّ الهوية تعيد خلق ذاتها عن طريق إمتصاص كل الاحتكاكات والخروقات إلى ذاتها، من هنا جاء نجاح القصيدة النوابية لإعادة خلق كيان شعري قابل للقراءة المستمرة، عصي على التقادم، يخاطب مختلف القراء، ومختلف الأمزجة، وأجيال عدة.

فالهوية تكون فاعلة عندما تناسب كثرة كاثرة من القراء، وخيالات القصيدة تعكس خيالات الجمهور، وأنا الشاعر تتحوّل إلى أنوات المتابعين لها، فالهوية هي إبنة التطابق والتشابه والتقارن والمقايسة مع جمهور القراء، ولكنها عامل إختلاف وإحتراب مع الآخر – المستثمر لمغانم الحاضر وقد سيطر عليه حتى الإختناق.

إنَّ التطابق والتشابه وما إلى ذلك هو وليد الشرعية الثورية، وصياغة الهوية الشعرية

أو الهوية الخاصة ومن ثمَّ إقرار شرعيتها يعتمد على المنطق التقدمي الذي يوجه أصابع الإتهام والمعارضة إلى الآخر، ثم أن هناك صلات سببية مهمة تعتري علاقة الهوية مع نفسها أو مع الآخر، وصلات صورية (وليدة المنطق الصوري والرياضي) توافق هذا النمط من الشعرنة والصيغ اللفظية التي تفضلها أنا الشاعر في مخاطبة الجمهور من جهة، والآخر من جهة أخرى، وهي مخاطبة مباشرة وصريحة، وليست مبطنة أو إيحائية، فالصراحة الموضوعية والتأريخ النضالي الشخصي (الأسطورة الشخصية) ونتائج الإختبارات التجريبية تندرج ضمن هذا الاطار. كل ذلك يوصلنا إلى نتيجة مؤادها أن ((ثيمة الهوية التي تشتق من معطيات غير أدبية تنسجم مع الثيمة المشتقة من الإستجابات الأدبية))[4]، حسب اعتقاد الأمريكي "نورمان هولاند":

((باليدين الفدائيتين غدوت إله/ وإلا فإنك مما يكدس أهل الكلام/ ثمل ليس عيب على ثمل بالسلاح/ فإن العراق قديم بهذا الغرام/ أيها السكر كم قد سكرت بنا بالعراق/ وأسكرتنا/ ثم بمرارة غربة العمر/ فبعد العراق جهلنا ننام/ وإفترشنا لهيب الرمال/ فواحاتها غازلتنا بجرعة ماء/ رأينا الخناجر فيها/ وما للغريب سوى واحة أن يكون الصيام/ أرفع الكف جبيرة جرحت نفسها/ كذبوا ما انتميت لغير لهيب الدهور/ كذب المنتمون لكل نظام/ إنني شارة في طريق الجماهير ضد النظام)). (ص45 وما بعدها).

- **الإستجابة الثقافية والإمكان المعرفي المعمم:**

مما لا شك فيه أن المعنى الذي يريده الشاعر في قصيدته يحتاج إلى استجابة ثقافية (وهي أشمل من الإستجابة الأدبية وأكثر قدرة على توليد المعاني والدلالات). وهذه الإستجابة تضمن إمكانية التشارك في المعنى بين الشاعر والمتلقي معاً، فالمعنى اللغوي الذي ينتجه الشاعر يتقيد بالإمكانيات اللغوية، لكنه يتحدد عن طريق تحقيق الإستجابة الثقافية لدى المتلقي وفعل الإرادة القرائية الذي يمتلكه، وهكذا فإن فكرة المعنى المشترك على أنه تفاوض فعال بين الشاعر والمتلقي تعد جوهر الإستجابة الثقافية، وتجسيد لنمط الثقافة أو ثقافة النمط.

تقوم فكرة "ثقافة النمط" أو "نمط الثقافة" قبل كل شيء بوظيفة القنطرة الحوارية التي تصل بين المعنى الماضي والمعنى الحاضر، بين معنى المؤلف ومعنى المتلقي، وللتوضيح التبسيطي يمكن عدّها مجموعة عليا من الإمكان المعرفي يكتسب عن طريق التعلم والتدريب ويشترك فيها أعضاء ثقافة معينة، ولها ((حدود تبين ما يعود إليها وما يقع خارجها))[5]، مثلما يؤكد الناقد الثقافي الأمريكي "إي. دي. هيرش".

إنَّ نمط الثقافة هو الذي يستطيع الجمع بين خصوصية المعنى وسمة التأويل الاجتماعية، لذلك نرى أن النمط الثقافي الذي يؤمن به "مظفر النواب" ويشتغل في ضوئه وتحت سقفه اللساني والايديولوجي يمكن تجسيده في أي عدد من القصائد، وبهذا يمكن إستعادة المعنى الظاهري الذي أراده الشاعر في أي لحظة قرائية من قصيدة إلى أخرى، بسهولة ويسر.

إنَّ علاقة المعنى بتضميناته أو علاقة نمط الثقافة بأنساقه علاقة متبادلة بين الباث والملتقط، بحيث يمكن إعادة توليد الكل من الأجزاء، فثقافة النمط يمكن أن تتمظهر

في أكثر من مثال، لذا فإنها تمتلك إمكانية سحرية في إحتواء وتوليد الأجزاء الفرعية بفضل الإستجابة الثقافية التي تحصل عليها من القراء، ومن مميزات المعنى الكبير أنه يحتفظ بتكامله وكليّته حتى وإن لم ينطق بجميع تضميناته، وبعبارة أخرى فإن المعنى الكبير ليس مجرد مجموعة من الأجزاء، بل أنه أيضاً رحماً خصباً لتوليد الأجزاء.

ولأن الاستجابة الثقافية الفورية التي تخطى بها شعرية "مظفر النواب" عند جمهور القراء العريض لافتة للنظر، ينبغي مراجعتها وفهم توظيفاتها. وحسب "دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي" فإن ((الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على العمل وعلى صنع الثقافة ومواجهة البيئة الفيزيقية الخالصة، حيث أن التكيّف البيولوجي مع البيئة هو ما يسمى في علوم الأنثروبولوجيا باسم "الثقافة". فالتطور العضوي الذي يصاحب نمو الأعضاء إنما يتصل بالضرورة بالتطور الثقافي للمجتمعات الإنسانية، بمعنى أن التطور العضوي إنما يتجه ويتماشى في نفس الوقت مع التطور الثقافي، الأمر الذي معه نستطيع أن نؤكد أن للثقافة قيمة بيولوجية وتتعلق هذه القيمة بضرورة فيزيقية هي بقاء الكائن البشري ودوام الجماعة الإنسانية))[6]، ومعنى ذلك أن أية سمة ثقافية جزئية لا يمكن أن تفسر إلا بردها إلى سياقها الثقافي الكلي الذي يمنحها مبناها ومعناها كما أن كل حاجة إنسانية تقابلها إستجابة ثقافية معينة.

ومع تلك الإستجابات الثقافية الفورية من لدن الجمهور صار شعر "مظفر النواب" زاداً فكرياً ووجدانياً ضرورياً لكل فئات المجتمع العراقي وشرائحه على الأخص المجتمع العربي عموماً، ومن ضمن هذا المجتمع العريض النخب السلطوية الحاكمة، فهي تتلقف قصائده الشعرية بشقيها الفصيح والشعبي (باللهجة العراقية الدارجة) بشغف كبير وتوجس ريبي لا يقل توجساً من الموت الزؤام وخطر الانخطاف نحو الجحيم.

• **التضمينات الأيديولوجية:**

لقد انطوت شعرية "مظفر النواب" دائماً على تضمينات أيديولوجية لا يمكن إغفالها، فهو يقف دائماً على أرض الواقع المعلّم بالتاريخ والتأرخة، ولا يفسر الممارسات الحياتية إنطلاقاً من الفكر، بل يفسر تكوّن الأفكار انطلاقاً من الممارسات المادية. بيد أن أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة أيضاً، يعني هذا أن الطبقة التي تمتلك القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته الفكرية السائدة. إنَّ الطبقة التي تتصرف في وسائل الإنتاج المادي تمتلك في الوقت ذاته الإشراف على وسائل الإنتاج الفكري، بحيث تكون أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الانتاج الذهني خاضعة - من جراء ذلك- لهذه الطبقة السائدة. وليست الأفكار السائدة شيئاً آخر سوى التعبير الأمثل عن العلاقات المادية السائدة، بل أن هذه الأفكار السائدة هي هذه العلاقات المادية السائدة مدركة في شكل أفكار.

لقد رصد "مظفر النواب" السلطويين عندما ينزعون جلودهم لكي يتماهوا مع أية مرحلة يمرون بها، فذلك الديكتاتور الشمولي يتحوّل في مرحلة لاحقة إلى ليبرالي مقدس، تماماً مثلما يحوّل الدولة إلى المقدس، وتحوّل علاقة البرجوازي بالدولة الحديثة إلى علاقة مقدسة، إلى عبادة، وبذلك يختتم فعلاً نقده لليبرالية السياسية. لقد حوّلها إلى "المقدس"، وهذه كذلك من تحولات رجل الدين عندما

يغدو بين ليلة وضحاها ليبرالياً يؤمن بتداول السلطة "سلمياً" عن طريق صناديق الإقتراع للوصول إلى السلطة من خلال تزوير بطاقات الناخبين. إننا نحاول أن نخفف من استطراداتنا في هذا الشأن، لكننا في حضرة "النواب" لا نستطيع كبح جماح الإستطراد وزخم المتبنيات الفكرية لأنها من صلب الحقل الذي حرث وبذر وزرع فيه "النواب" كل نتاجاته الإبداعية.

وحتى التوهمات في العقل البشري هي تصعيدات ناتجة بالضرورة عن مجرى حياتهم المادية التي يمكن التحقق منها تجريبياً، والتي تعتمد على قواعد مادية، ومن جراء ذلك فإن الأخلاق، والدين، والميتافيزيقا، وكل البقية الباقية من الايديولوجيا، وكذلك أشكال الوعي التي تقابلها، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي، فهي لا تملك تأريخاً، وليس لها أي تطور، إنَّ الأمر على النقيض من ذلك، فالبشر إذ يطورون انتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية هم الذين يحوّلون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء، مع هذا الواقع الخاص بهم، فليس الوعي هو الذي يعني الحياة، بل الحياة هي التي تعني الوعي[7]:

((لم يناصرك هذا اليسار الغبي/ كان اليمين أشد ذكاءً فأشعل أجهزة الروث/ بينا اليسار يقلّب في حيرة معجمه/ كيف يحتاج دم بهذا الوضوح/ إلى معجم طبقي لكي يفهمه/ أي تفوه بيسار كهذا/ أينكر حتى دمه)). (ص28 وما بعدها). ((وإن العنف باب الأبجدية/ في زمان عهره دول)). (ص92). ((لكننا نقتحم التأريخ ونملأ عالمكم بالفقراء المشبوهين/ سنقرع راحتكم بيتاً بيتاً/ نخنقكم في اليقظة والكابوس/ معاذ الله أثير الرحمة في أحد/ إنَّ إثارة أي حذاء أسهل من ذلك)). (ص184). ((تعالوا فقراء الأقوام جميعاً/ نفتك نمسح أصباغ الطبقات المومس)). (ص185).

• الشاعر عندما يتحوّل قديساً وشهيداً:

فالمعنى في نظام "النواب" الشعري له وجود كثيف يتمركز في كليّة خلقتها بديهيات النضال السياسي والاجتماعي وجزء من سياق أكبر. فمفهوم "نمط الثقافة" أو "ثقافة النمط" لا يُختلف وظيفياً في النهاية عن فكرة "الهوية" ومنطلقها المبدئي. إنَّ "النواب" يضع نمط الثقافة على مستوى الشخصية الفردية (الهوية المشخصنة)، ثم يطورها عندما يرجعها إلى أعراف الكتابة الثورية وليس الشعاراتية كما يقررها ويمارسها الإعلام الرسمي الموجه. وتتكرر في كلتا الحالتين علاقة الجزء بالكل وتقرر الفرق بين المعنى على أنه حدث ذاتي مرحلي (التضمينات التي يستقيها القارئ من القصيدة) والمعنى على أنه البنية- الأم، البنية الجوهرية (مبدأ الهوية أو فكرة ثقافة النمط المشتركة)، ونلاحظ في كلتا الحالتين وفي أغلب قصائد النواب أن الصياغة الجدلية لهذا التوتر تجعل مساحة النقد الثقافي التي يقترب منها القارئ أو يحاول الشروع بدخولها تتوسع وتتمدد لتشمل كل حلقات التأويل الخاصة بالنصوص الثورية أو النصوص الباطنية (السرانية وليدة العمل السري). فكل معنى مستخلص من نصوص النواب هو نتيجة وتوقع لسياق محدد بدقة ومعروف أو هو بنية مكتملة الأركان والعلائق الداخلية والخارجية. إنَّ السياقات والبنى بوصفها مراجع برهانية هي الشرط والمحصلة للمعاني الخاصة بها وقد ولت من أرحامها بسلاسة وتلقائية.

الهوامش:

1- هذه المقولة وردت في كتاب: حدود التواصل-الإجماع والتنازع بين هابرماس وليوتار/ مانفريد فرانك/ ت: عز العرب لحكيم بناني/منشورات أفريقيا الشرق-الدار البيضاء (المغرب)/ ط1، 2003، ص100.

2- المجموعة الشعرية الكاملة/ مظفر النواب/ دار قنبر-لندن/ طبعة 1996، وكل الإحالات الواردة في هذا البحث أخذت من هذه الطبعة وحسب أرقام الصفحات المثبتة في المتن.

3- وردت هذه المقولة في كتاب: المعنى الأدبي- من الظاهراتية إلى التفكيكية/ وليم راي/ ت: د. يوئيل يوسف عزيز/ دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد، ط1، 1987، ص63.

4- دينامية الإستجابة الأدبية/ نورمان هولاند، ت: سحر توفيق الشيخ/ دار الفارابي، بيروت- ط1، 2010، ص106.

5- التأويل الصحيح في التأويل/ إي. دي. هيرش/ ت: غياث العوضي/ مركز دراسات أبو ظبي الثقافية- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2014، ص66.

6- دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي- إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، د. سمير الخليل، دارُ الكُتبَ العِلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 2016، ص24.

7- الإيديولوجية – وثائق من الأصول الفلسفية، ميشيل فادية، ت: د. أمينة رشيد+ سيد البحراوي، دار الفارابي+ دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- ط1، 2006، الصفحات: 31، 32، 39، 46.

مظفر النواب بين الحداثي والملحمي

علي ابو عراق

لست على يقين أني سأضيف الكثير حينما أكتب عن الشاعر...؟ الظاهرة مظفر النواب فقد كتب عنه الكثير الكثير، وطوال نصف قرن كانت تجربته الشعرية الاستثنائية الجديدة الكبيرة المستفزة الظافرة علامة هامة بل عتبة حداثية في الشعر العامي العراقي لم يسبقها أو يحايثها شاعر آخر.... فضلا عن كونها درسا كبيرا وتجليا شديد الوضوح عن مهمة المثقف العضوي وموقفه الإنساني والأخلاقي والوطني من محيطه والعالم وبشكل بالغ الجدة والجمال والدهشة... إذ يشكل ترجمة إبداعية لارتباط المبدع بهموم شعبه وموقفه أيدلوجيا وجماليا ومعرفيا... ما وضع الشاعر النواب كحد مفصلي فاصل مع ما سبق من كل ما تراكم من الشعر العامي العراقي.. والذي وضعه على طاولة الدرس والبحث والتأثير والتغلغل والتوغل الجمالي في الوجدان والذاكرة العراقيين، للحد الذي تحولت ثيماته وصوره ولغته أيقونات حاكمة مهيمنة وساحرة لم تتجاوزها التجارب الشعرية العامية المحايثة و اللاحقة، بل لم تصل إلى مستواها الجمالي والتعبيري وفضاءاتها الثرة والثرية لغة ووعيا وانزياحا وتجددا، بالقدر ذاته يسكنني شعور غامض وملح بأنّي يجب أن أحاول الانفكاك والتجرد أو التخلي عن انحيازي للشاعر والابتعاد عن عواطفي القارة المتكلسة منذ نحو نصف قرن و القارة في وجداني وذائقتي الشعرية، ومن المجدي الاعتراف بأني وجيلي الذين شهدنا بداية انحسار الاستعمار .. وسمعنا الطرقات الصاخبة لثورة 58 على أبواب الاستعمار والجهل والتخلف، كان مظفر أهم قنوات فكرنا الجديد المفارق بما يمثله من وعي ورؤيا وثورة جمالية في الشعر العامي والنسق الثقافي الذي يجعلنا ننجذب لا إراديا لسطوة وجدة وحداثة شعره واشتغالاته... لا أبالغ ان قلت كان شعر مظفر ما يشبه مانفستو أيدلوجيانا الثورية وأدبياتنا اليسارية، وقد تزاوج فكرنا اليساري الشيوعي بروح قصائده التي كانت تجري في أرواحنا وتآصر وعينا، وكنا نمتاح منه دماء وجودنا العاطفي الثوري وحساسيتنا الجمالية، حتى غدا مظفر والحزب الشيوعي وجهين لعملة واحدة، وجدير بالإشارة ان ثورة مظفر في الشعر العامي.. ما عزز هذا ورسخه، أن تجربة مظفر لم تكن مسبوقة بتجارب يمكن الإشارة اليها، فليس هناك تراتبية تراكمية أو مرحلة تأسيس أو تنامي أو شروع أو محايثة أو تطور تدريجي او تراكم، بل كان شعره أشبه بنبوءة جديدة... مقطوعة الصلة بمن سبقها...إذ كانت اشتغالاته وصوره وموضوعاته ولغته كأنها سفر جديد ..يفترق ويفارق كثيرا ما سبقه، قد تجد صعوبة بالغة

في البحث عن شاعر تأثر به مظفر أن لم تجد على الإطلاق... وتكون مفردة (الإبداع) في تجربة الشاعر صحيحة ومناسبة تماما... بل تصح عليها بدرجة كبيرة ... وهنا الإبداع بمعنى الجديد المفارق المبتدع الذي لم يسبقه اليه أحد ..والذي لم يتعكز على ما قبله من النصوص، ولعلي أميل إلى أن أحسب ما قام به مظفر هو أشبه بالنبوءة وليس التنامي التدريجي او التراكم الإبداعي ... فقد خلق الشاعر مناخا شعريا لا ينتمي لسواه.. ولا يحتاج المرء للكثير من النباهة والمعرفة ليميز شعر مظفر أو يفرقه عن سواه بيسر وسهولة بالغين.. وأول الأسباب التي تقودني لهذا الاعتقاد ... هو تفرد وفرادة منجزه الشعري في كل مناحيه ... والمبني على الوعي السياسي والجمالي واللغوي والتجربة الاجتماعية العميقة التي نفذت الى أعمق أعماق الشخصية العراقية الجديدة والتي لم تتوقف عند حد .. وتجاوزت باشتغالاتها الصور والمفردات والانزياحات والثيمات الروتينية المستهلكة، فكانت ثورة بحق وجاءت بكل ما هو جديد فكرا ووعيا وجمالا ..بل جاءت بالمفاجئ والمستفز ...، لقد ظل الشعر الشعبي العامي العراقي لعصور طويلة ومنذ ان انحسرت الفصحى او تراجعت بعد عصور الظلام، ظل النسق العام للقصيدة العامية نسقا بدائيا أو تلقائيا روتينيا بعيدا تماما عن الحداثة والتجريب والتطور وبالتالي عن التجدد بسبب عدم امتلاك الشعر العامي لشريعته ضمن نسق ثقافي معترف به ..إذ ينظر له بعين الريبة والاستجناب والدونية وعدم الرفعة، بل ان الكثير من ينظر له بحكم الشعر الدخيل والشاذ والذي هو نتاج الانتهاك القومي والغزو الثقافي الذي مورس من قبل الغزاة المتعددين للعراق، إذ شاعت الكثير من المفردات الأجنبية في اللغة العربية وتحديدا من الفارسية والتركية، ووسط هذه الرؤى والمحددات الإشكالية.. لم يسجل احد شعراء العامية في محاولات التجديد والتجريب.. وهذا ما فعله مظفر على وجه التحديد وعلى نحو يتميز بالقوة والوضوح والجذرية... ليس في المنهج او الطريق حسب .. بل في روح الشعر بأسره، فقد كان الشعر العربي عموما يرتكز على مهيمن واحد يتحكم بكل مفاصله بسلطوية قاهرة لا تمنح أي فرصة لمهيمنات محايثة ، "حيث يبسط نفوذه على قالب الشعر وأدب العرب. فالشاعر يستطيع دائماً وفق روعة فائقة أن يوظف كل تفنن فى وصف جمال المرأة ومحاسنها ورقتها وسطوتها على قلب الرجل، وذلك عبر سبك فى التعبير والبلاغة والمبالغة". و هذا طبعاً يعود إلى أن الشخصية العربية عاطفية بشكل عام. وهذا ما يجعل الفرد العربى يتسامح وينبسط بالقدر الذي يغضب ويحتد. كان الحب وعلى وجه التحديد حب الحبيبة أي حب الرجل للمرأة والفحولة الشعرية أو الفحل الشعري هو الأمر الحاسم والمهيمن في الشعر العربي... وتبعا له الشعر العامي، فكان هو منهجه الوجودي والمعرفي ، وكانت خطوات مظفر الظافرة ..هي خلخلة هذا المنهج أو قلب هذه الثيمة الحاكمة المتحكمة، صحيح أنه لم يخرج من ثيمة الحب الذي كان نهجا ومنهجا.. سياقا ونسقا ... لكنه تخلص من المحددات الذاتية والشخصية والفطرية للحب... وقلب القاعدة لينتقل بها إلى فضاءات وعوالم أوسع وأكثر رحابة، فلم يعد حب المرأة والعشق الذاتي ووصف

الجسد والتغني به أو التغني بصفات الحبيبة والبكاء على الأطلال من مهمات شعر مظفر النواب البتة بل تحول الحب الى ثيمة كبيرة مفتوحة ..ثيمة معرفية زاخرة .. تتسع لحب أكبر....؟ حب الوطن والناس وقيم التضحية والنوازع الاخلاقية والجمالية والسياسية، ووسط هذا الاحتشاد الجديد اكتسبت المرأة ملمحا جديدا ابتعدت فيه كثيرا عن نداء الجسد وشبقية الحسي ..فكانت المرأة ..الأم ...الأخت ...المناضلة...المحاربة ..المرأة التي تساهم في رسم مستقبل وطن او حتى مستقبل العالم ...المرأة التي تحتفي بالدم والرصاص والبنادق والمقاومة والتي تقف ضد المستعمر وضد المضطهدين والقامعين ..وتبتعد كثيرا عن جسدها وزينتها وكل المفردات التي تحتفي بالانوثة...كما ورد في قصائد:

(حجام البريس)
أفه ياكاعنه الوكحة
حلاة الليل، واهل الليل
والنار
ابمرابعها
أفه يا كاعنه
السحكتها
وانسحكت عليها
جيوش يا بو جيوش ومابدلت
طبايعها
أفه يا كاع
ينبت بيج للواوي عنب
ياطيبة
وبعرس عليج الذيب
أمد صبري اعلى صبرج واحفر
سراديب
وقصيدة (صويحب)....
مَيلن . لا تنكَطن كحل فوكَ الدم
مَيلن. وردة الخزّامة تنكَط سم
جرح صويحب بعطابه ما يلتم
لا تفرح ابدمنه لا يلگطاعي
صويحب من يموت المنجل يداعي.
و(حسن الشموس)
أطرن هورها امصكك
واصحيهن علك اجروح
يجحلن چالمطبجات الزرگ صلهن
يشوغ الروح
واجّيك اشراع ... ماهو اشراع
عرّيانه السفْينة تنوح
و(جد ازيرج)
زلمنه تخوض مي تشرين
حدر البردى تتنطّر
زلمنه اتحز ظلام الليل
تشتل ذبحة الخنجر
زلمنه الماتهاب الذبح
تضحك ساعة المنحر
يساگي الشمس من عينك
ابعز الشمس حب اخضر
لون حلت نسمة ليل
شعرك تنشگ العنبر
أحط الحجل للثوار كمره
زغيره على المعبر

و(براءة) والكثير من القصائد الأخرى، وحتى قصائد الحب الذاتي او العشق وهي قليلة جدا في سفر مظفر ..تجدها تشتغل بطريقة حداثية مفارقة عن النمط الذي السائد ..فكرا ولغة وانزياحات، والتي يهيمن عليها الشعور بالفقدان والغياب ..بسبب الظروف القمعية و السياسية التي عانى منها العراق في تلك الفترة، كقصائد (الريل وحمد) و(ريحان) و(التبرزل) و(البنفسج) و(جنح

غنيدة) وغيرها من القصائد المكتنزة بالحب والتضحية والوعي الاجتماعي ولكن بصور وأفكار ولغة وقاموس جديدين لم يعهده القاموس العامي الشائع، إذ أصبح المعادل الموضوعي للحبيب أو المحبوب ..هو النضال ومقارعة الطغيان والثبات بوجه الحكومات الاستبدادية وتحمل وحشية القمع وعذابات السجون ..والتضحية للوطن والانحياز إلى قضايا الناس.... رسم مظفر بشعره ميكانزمات وجدانية وعاطفية جديدة كل الجدة...خالصة ومبتكرة مقطوعة الصلة بما سبقها من اشعار سائدة حينها، ولعل قصيدة الريل وحمد التي تتحدث عن امرأة هربت من أهلها بسبب القمع الاجتماعي أو العائلي ولجأت إلى مدينة اضطهدتها هي الأخرى .. ما اضطرها للرحيل الى مدينة أخرى عبر قطار يمر على قرية أهلها...وذلك الحوار الحزين المدمر بين المرأة والقطار، وبينها وبين الذكريات التي تطير على أجنحة القطا ... ومصيرها المجهول البارد الذي يجمد نهدين يلملمهما برد الصباح ويرجفهما اهتزاز عربات القطار (السفر)، وقصائد أخرى تتفتق عنها صور جميلة رائعة ..وتطل من خلال نوافذها نساء جميلات بطلات مقبلات على الحياة ، ينتزعن فرصهن للحياة الكريمة انتزاعا، جاء مظفر فاتحا ومكتشفا ومعلما حداثويا للحد الذي صار يؤرخ به الشعر العامي العراقي، ويكون القطيعة لما سبق والعتبة لما جاء، وفي ظله تفتحت الكثير من التجارب التي لم تتجاوزه حتى الآن رغم مرور أكثر من نصف قرن، وقد كان محفزا ومحرضا للكثير من الشعراء الذين انخرطوا ضمن مفهوم الحداثة الذي شرعنه مظفر في القصيدة والأغنية، وكان حصيلة فاخرة وزاخرة وحية ..لكنها توقفت عند مشارف عتبة مظفر، بل تراجعت كثيرا في زمن الطغيان والدكتاتورية ، وتراجع الشعر العامي تراجعيا مريعا، بعد أن احكم نظام صدام حسين قبضته على السلطة وجميع مؤسساتها، وحول الشعراء بالترغيب والترهيب الى زمرة من المداحين المنتفعين الذين فقدوا الاتجاه والبوصلة .. وروح الشعر وهدفه وتحول الشعر العامي الى مجرد مدائح واهازيج تمجد الطاغية وتسبح بحمده، وبعد أن كسر مظفر العمود الشعري للقصيدة وشرعن القصيدة الجديدة بكل موحياتها وأبعادها الحداثوية ..تسابق الشعراء السلطويون الى إرجاعها إلى حضيرة الكلاسيكية والتقليدية والى القاموس العشائري البدائي والمنحط الديني والطائفي والى الصياغات الدونية، بل عاقبوها وسجنوها في متاهات جهلهم المعرفي والجمالي، واسرفوا كثيرا في تعميق سوداوية القصيدة وزحارها بالطاغية وأزلامه وتكريس نرجسيتها وفرديتها وتسميم فضاءاتها بسحب الموت والطغيان، وبعد ان كان الملمح الأبرز وغير المسبوق ابدا في شعر مظفر.. هو النفس الملحمي في الشخوص والمكان واللغة .. إذ أن مظفر لا يثق ولا يستكين الا مع أبطاله الملحميين المخصبين بهموم وتطلعات الناس والذين يتميزون بقوة وديناميكية الشعب، لذا كان (حجام البريس ..وسعود...وصويحب ..وصلاح ...وحسن الشموس وجد ازيرج ...وغيرهم) ، مكان مظفر وتأثيثاته تخرج عن الجغرافية والمكان المباشر.. بل تهفو نحو المكان الملحمي وتشتغل بروح تقترب

من الاسطورة، فضلا عن أبطاله فليس بين هؤلاء بطل غير ملحمي، رغم محلية الشخوص اسما وتاريخا واحلاما.. فكلهم شخوص خرجوا من إطار ذواتهم وانطلقوا الى الفضاءات الرحبة ..من دهاليز الذات إلى فضاء الآخر، من ربقة الأنا الى سماء النحن، امتزجا مع الفكرة والوعي والمنهج... لا ليبحثوا عن سر الخلود وتجنب الأفعى التي سرقته من كلكامش، بل لانتزاع الحياة البسيطة والخبز والحرية من أيدي المستغلين، فكانوا ملحمة بحق ..؟ خرجوا من ذواتهم ومصائرهم الخاصة ليتحولوا إلى ذات ومصائر الجماعة والشعب ، وبدلا من أن يعبروا عن آمالهم وأحلامهم الشخصية عبروا عن أحلام وطموحات شعب، وكان من الحتمي والقطعي أن يتحدثوا بلغة ملحمية ويهجروا لغتهم الخاصة وهذا ما فعله مظفر ببراعة منقطعة النظير في معظم قصائده .. فلغتها لغة حارة ديناميكية متفجرة تحريضية أخلاقية ..وفوق كل هذا تمثل اللهجة العراقية في كل محيط اشتغل فيه ، من المستحيل ان ترصد مظفر وهو يتحدث بلغة متداعية أو منهارة او مستكينة او مساومة بل لغة عالية مقاومة ومشاكسة أيضا، ولا نحتاج لنضرب مثلا او نختار نموذجا عن هذا فكل خطاب مظفر الشعري العامي لا يخرج عن هذه المحددات، كان مظفر ملحميا بحق ملحميا حتى في الحب ، ليس هذا حسب ، فحتى مكانه الذي تشتغل فيه قصيدته مكان ملحمي، فمن المستحيل أن تفاجئ شخوص مظفر في مكان غير ملحمي، بمعنى ان تجد من شخوص مظفر من يموت حتف أنفه...أو بحادث عارض... كلهم يموتون ويعيشون في ميدان الملحمة ..أغلبهم يموتون تحت ازيز الرصاص وآخرون تحت سياط الطغاة وفي سجونهم ..يموتون ويحيون ويعشقون ويربحون ويخسرون في مكانهم الملحمي.. حتى وان كان افتراضيا...ليس هناك وقت كاف سوى الخوض في فصول الملحمة، الشعب والناس واللغة، كل أبطال وفضاءات مظفر لا تغادر الملحمي وتتميز بقوة وديناميكية وروح الوعي والجماعة، وقد تجافينا الحديث عن شعره الفصيح لاني أرى ومعي الكثير، أن شعر مظفر العامي أهم بكثير من فصيحه ..وهو الأهم في منجزه الشعري، أن رسوخ مظفر كظاهرة وكمدرسة وكحالة شعرية نبوئية جاءت من خلال شعره العامي الذي كتبه في الوطن وفي المنفى على حد سواء..

ومظفر النواب، ولد في بغداد عام 1934م، ترجع أصوله إلى النبي محمد (ص) «هو مظفر بن عبد المجيد أصوله من الجزيرة العربية، فهو من سلالة الإمام موسى الكاظم (ع) تخرج من كلية الآداب من جامعة بغداد في ظروف اقتصادية صعبة، حيث تابع دراسته بعد تعرض والده الثري إلى هزة مالية أفقدته ثروته. بعد عام 1958م، أي بعد انهيار النظام الملكي في العراق، تم تعيينه مفتشاً فنياً بوزارة التربية في بغداد، وفي عام 1963م، اضطر وبسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي الى مغادرة العراق... بعد اشتداد التنافس الدامي بين القوميين والشيوعيين أدى إلى الملاحقة والمراقبة الشديدة من قبل النظام الحاكم، فكان هروبه إلى إيران عن طريق البصرة، إلا أن المخابرات الإيرانية (السافاك)، ألقت القبض عليه، وهو في

طريقه الى إيران وتعرض للسجن والتعذيب الجسدي وخضع للتحقيق البوليسي.. وبعدها سُلم للسلطات العراقية فسجن في "نقرة السلمان" ومن ثم في سجن آخر وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى المؤبد ومن ثم نُقل الى سجن الحلة وقام بالعملية الجريئة مع عدد من السجناء، حيث دبر عملية هروب بعد حفر خندق طويل يتجاوز خمسة عشر متراً من أرض السجن إلى خارجه، وظل بعد هربه متخفيا حتى عام 1968م، وبعد صدور العفو عن السجناء أعيد بعدها إلى السجن بعد حملة الاعتقالات التي شملت الهاربين، وعاد إلى وظيفته مدرساً لكنه بعد خروجه منه خرج من العراق، وأخذ ينتقل في البلاد ومن منفى إلى منفى.

مظفر النواب.. قصّة شعب باسل

د. حسين الهنداوي

في ثانوية الشعب ببغداد عام 1964 سمعت للمرة الاولى بمظفر النواب من زملاء لنا قادمين من "متوسطة الفجر"، ان استاذهم الشيوعي الشاب للغة العربية واسمه مظفر النواب، كان نموذجا نادرا للمعلم المتميز والمربي المسؤول، فقد كان يرعى المواهب الادبية والفنية الناشئة طالبا من تلاميذه ان يكتبوا مواضيع انشائية لتشجيعهم على تطوير مهاراتهم الكتابية والمسرحية والتشكيلية. بيد ان حصول انقلاب 8 شباط 1963 الدموي قطع تلك المسيرة الواعدة اذ اضطر الشاعر الى الافلات من ايدي اوباش الحرس القومي المدججين بالاسلحة الرشاشة اثر هجومهم على المدرسة لاعتقاله او قتله.

ورغم نكبة العراق الكبرى بجريمة ذلك الانقلاب الذي نظمته وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (CIA) للاطاحة بحكومة ثورة 14 تموز 1958 الوطنية، ونفذته زمرة من القتلة الفاشست تحت واجهة وشعارات قومية عربية وبدعم من بقايا اطراف وأيتام حلف بغداد والمخابرات المصرية، مثلت المقاومة الشعبية الباسلة التي تصدت لانقلابيي شباط القتلة صفحة خالدة من تاريخ نضال الشعب العراقي من اجل الحرية والكرامة. وكان مظفر النواب أحد الذين التحقوا بالمناضلين الوطنيين الذين نظموا في ساحة التحرير ببغداد وامتدادا الى محلة قنبر علي في شارع الكفاح مرورا بعكد الاكراد في الصدرية مقاومة بطولية ضد منفذي الانقلاب العسكري ومحاولتهم فرض سلطتهم. ولا يغير من الامر ان البعض اعتقد ان مظفر النواب التحق بحلقات المقاومة في الكاظمية التي اشتهرت ببسالتها ايضا وضمت عددا من الشخصيات الديمقراطية والتقدمية البارزة يتصدرهم العامل النقابي الشهيد سعيد متروك والشهيد المقدم خزعل السعدي وكذلك حمدي أيوب العاني ومحمد الوردي وحميد الاسدي ورسول محمد أمين ومحمد الأسدي وعلي عبد الله والبطل الرياضي ناصر جودي صمد وناظم جودي وجواد احمد سلطان وعبد الوهاب المنذري ونجم عبود والكثير غيرهم. فبعد معركة باسلة استمرت عدة ساعات ضد دبابات الانقلابيين تمكن هؤلاء الابطال من السيطرة على معظم المدينة حتى جسر الصرافية من جهة الكرخ وواصلوا القتال حتى اليوم الثالث قبل انسحابهم مضطرين بعد استشهاد عدد مهم من ابرز قادتهم تحت قصف طائرات ودبابات الانقلاب الذي لم يكن موجها ضد حزب معين ولا ضد زعيم معين بل ضد الشعب العراقي وضد من حقق الاستقلال الوطني والغى حلف بغداد واصدر قانون النفط رقم (80) الوطني

وحرر اقتصاد البلاد من هيمنة الجنيه الاسترليني والاستعمار الجديد.

بعد انهيار المقاومة، اضطر مظفر النواب الى ترك بغداد والاختفاء مع عدد من رفاقه في الارياف الجنوبية ثم التسلل عن طريق البصرة الى الاراضي الايرانية في محاولة فاشلة للجوء الى الاتحاد السوفييتي آنذاك، اذ وقعوا في كمين لجهاز المخابرات الشاهنشاهية (السافاك) الذي القى القبض عليهم داخل ايران واخضعهم في السجن لتعذيب جسدي ونفسي قاس استمر متواصلا حتى تسليمهم الى السلطات العراقية في الايام الاخيرة من عام 1963 في عملية تبادل للسجناء اليساريين بين السلطتين الدكتاتوريتين في البلدين تم خلالها قيام السلطات الشاهنشاهية الايرانية بتسليم 121 مناضلا يساريا عراقيا فيما سلمت السلطة العارفية الى السافاك 54 معارضا ايرانيا كانوا مسجونين في العراق معظمهم من الشيوعيين الإيرانيين او انصار رئيس الوزراء الايراني الراحل الدكتور مصدق الذي اطاحت به المخابرات الامريكية والبريطانية بانقلاب عسكري دموي قاده الجنرال فضل الله زاهدي في 1953 ردا على اقدام مصدق على تأميم نفط بلاده. وخلع الشاه الذي هرب الى العراق ومنه الى ايطاليا. وقد اعيد الشاه الى السلطة مجددا بعد الاطاحة بمصدق المنتخب ديمقراطيا والذي حكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى السجن لاحقا بينما نظم أولئك الانقلابيون الإيرانيون حملة واسعة من اغتيالات ومطاردات قاسية طالت المئات من الشيوعيين الإيرانيين ومن انصار مصدق الذين لاذ مئات منهم بالاراضي العراقية فتعرضوا الى الاعتقال والتنكيل ايضا.

وقد واجه مظفر النواب معاملة وحشية من السلطات الايرانية بعد الكشف عن محاولته الهرب من السجن الايراني وذلك قبل ان يتم تسفيره الى العراق ضمن دفعة اولى ضمت احد عشر من رفاقه تلتها دفعة ثانية من 110 مناضلين عراقيين تم في منطقة الشلامجة وفي وضح النهار تبادلُ تسليمهم في الأول من كانون الثاني 1964 بين فصيلين مسلحين حكوميين، أحدهما ايراني والاخر عراقي، نقل السجناء العراقيون وكلهم من الشيوعيين الى موقف البصرة القديم حيث ورد أن مظفر حاول الهرب ثانية بعد ثلاثة أشهر تقريباً من وصوله الى ذلك السجن ما دفع سلطات السجن الى وضعه مع المحامي طالب بدر والرئيس الركن عَرَبي فرحان، وهما من أهل البصرة ومعروفان فيها، في ردهة السجن المقابلة لادارة المركز حرصا من مسؤولي المركز على أن تكون ردهتهم مزدحمة جداً كما بدا من الواقفين في بابها ونافذتها وتمكن المراقبة ليل نهار، وبقضبان تصل الى السقف فكان الفرار منها مستحيلاً. ولاحقا تم تسفير أولئك الثلاثة إلى بغداد ومنها الى سجن نقرة السلمان في قلب صحراء بادية السماوة.

فلقد عاش الشاعر مظفر النواب محنة قاسية للغاية خلال فترة اعتقاله في ايران وقد عبر عن وقائعها كما يلي: "بعد انقلاب 1963 هربت عن طريق المحمرة إلى إيران واختفيت في طهران لفترة. كانت رجلي قد التوت وتورمت لأنني كنت ملاحقاً وتهت أثناء العبور. في إيران اتصل بعض العراقيين بالتنظيمات اليسارية هناك فهيأوا لنا سيارة تبرع بها أحد الأصدقاء. وبعثوا

معنا بشخص ليذهب معنا إلى الاتحاد السوفيتي. وكنا قد ادّعينا بأننا نذهب إلى مصيف. أنا كنت أتكلم القليل من الفارسية. أحد الذين كانوا معنا لم يكن يعرف الفارسية فادعى أنه أخرس. ولكنهم اكتشفوا الأمر وأعادونا إلى طهران حيث تم تعذيبنا. وجدنا عدداً كبيراً من المعتقلين معنا. بقينا هناك من الشهر السابع، حين ألقي القبض علينا، إلى الثاني عشر. ولم نعلم بحصول تغيير في العراق وبقدوم عبد السلام عارف. ويبدو أنه كانت هناك صفقة بين الحكومتين، العراقية والإيرانية، لاستبدالنا بمناضلين من حزب توده. فأعادونا إلى البصرة. أخذونا إلى موقف البصرة ثم عزلوني وأخذوني إلى العمارة لأنني كنت أذهب إلى الأهوار. وبعد تحقيق شكلي أرسلوني إلى بغداد. وفي بغداد أحالوني إلى المجلس العرفي. ولم تكن محاكمة. تقف ويطلبون منك أن تشتم الحزب الشيوعي. وإن لم تشتم يحكم عليك، وإن شتمت تحصل على البراءة. ووضعوني في البداية لكي يؤثروا على مئة وعشرين شخصاً. كلنا كنا من الكاظمية. وأنا كنت في بغداد وقاومت في ساحة التحرير وليس في الكاظمية. قالوا لي: اشتم، فقلت لهم: كلا. قالوا: اشتم كل الأحزاب، فقلت: لا. هم أرادوا أن يؤثروا على موقف البقية على أساس أن انهياري سيضعفهم. فحكموا علي بعشرين سنة وأخذوني إلى غرفة جانبية وحكموا علي بثلاث سنوات من أجل قصيدة «البراءة». حاول أهلي أن يخرجوني بالواسطات وما شابه ولكن دون جدوى. كان المدعي العام هو غالب فخري والحاكم نافع بطة".

هذا المسار الجريء والشجاع للشاعر مظفر النواب، لم يكن ليمر دون ان يترك سحراً لدى بعضنا نحن تلاميذ الكاظمية التي تشبعت طرقاتها لا سيما في مناطق ام النومي والگطانة وغيرهما، بدماء قادة مقاومتها الشعبية ضد ذلك الانقلاب الدموي ومنهم الشهداء ناظم جودي حمد وعبد الامير الحائك ومحمد الوردي والبطل الرياضي ناصر جودي صمد وابراهيم الحكاك وسعيد متروك القائد النقابي اليساري الذي ظل يقود المقاومة في منطقة ام النومي حتى نفد عتاده فكبله القتلة وصلبوه على حائط "ثانويتنا" (ثانوية الشعب)، قبل ان يمزقوا جسده بوابل من رصاص ظلت آثاره محفورة لمدة طويلة على حائط مدرستنا تلك ليغدو مزارا رمزيا للبطولة بعد طرد البعثيين من الحكم اثر بطش بعضهم ببعض بعد اشهر معدودة من سلطة غابٍ في جمهورية موز أطاح بها رئيسها بالزمرة الاكثر اجراما من افراد العصابة نفسها اثر انقلابه العسكري عليهم في 18 تشرين الثاني 1963.

بعدها بزمن قصير رحنا نستنسخ بمساعدة ورق الكاربون ما استطعنا الحصول عليه من مقاطع قصيدة مظفر النواب "البراءة"، تلك القصيدة العصماء التي ألقاها في سجن القلعة الخامسة ببغداد لتوقف بضربة ساحر تهافت المترددين من المعتقلين والسجناء على اعلان البراءة من الحزب الشيوعي حتى ان القصيدة غدت حدثا تاريخيا بذاتها ليس فقط بمضمونها السياسي بل ايضا ببعديها الساحرين الثوري التراجيدي والاحتجاجي الرهيب لأم وأخت قدما كل ما استطاعتا من تضحية وصبر وصمود قاس ونكران ذات من اجل المبدأ الثوري والشرف الانساني المقترنين حد التماهي

بالموقف الاخلاقي والمؤطرين عفويا ككل في جمالية ساحرة وسامية وجديدة كليا:

يا بني ضلعك من رچيته
لضلعي جبرته وبنيته
يا بني خذني لعرض صدرك
واحسب الشيب اللي من عمرك جنيته
يا ابني طش العمى بعيني
وجيتك بعين الگلب أدبي على الدرب ألمشيته
يابني ارضى الچلب يرضع من حلبيي
ولا ابن يشمر لي خبزه من البراءة

فقد اثارت تلك القصيدة بأقسامها الموزعة بدقة، كرامة السجناء الشيوعيين وعمقت رفضهم لموجة التخاذل والاستسلام لألاعيب الجلاد ولم يتبرأ من الحزب الا عشرات من بين ما يقارب اربعة آلاف سجين في سجن نقرة السلمان مثلا بعد ان كانت حكومة الدكتاتور عبد السلام عارف تستغل المآسي العائلية والصعوبات الانسانية لدى السجناء لتوقع بهم عبر جعلهم ينشرون تصريحات في الصحف يعلنون فيها براءتهم من الحزب الشيوعي مقابل نقلهم الى سجون قريبة من عوائلهم او اطلاق سراحهم. وهو تقليد موروث كوسيلة ضغط من ممارسات سلطات العهد الملكي في العراق التي كانت تبتز السجين السياسي او سجين الرأي بمنحهم الاختيار بين ان ينشر في الصحف المحلية اعلان براءة يكتب فيه "اتبرأ من معتقداتي وفكري واعلن اخلاصي لوطني ومليكي" او ابقائه سجينا. وقد لعبت قصيدة "البراءة" دوراً مؤثراً في التصدي لهذا الإجراء التعسفي بل في تحطيم "ثقافة البراءة" التي افرط الجلادون البعثيون في نشرها في كل سجون العراق بموازاة الافراط في اعمال التعذيب الهمجي الجسدي والنفسي والقتل. وقد ترجمت قصيدة "البراءة الى عدة لغات اشهرها تلك التي كان قد قام بها الشاعر والفنان الكردي العراقي الشهيد دلشاد مريواني الذي اعدمه نظام صدام حسين في مدينة السليمانية بتاريخ 13 آذار 1989 ولم يكن قد تجاوز الثانية والاربعين من العمر بتهمة كتابة نصوص مناهضة للفاشية الحاكمة والتشجيع على معارضة الطغيان. والى جانب "البراءة" ترجم الشهيد دلشاد مريواني قصائد اخرى للشاعر مظفر النواب لا سيما مطولة "وتريات ليلية" التي ترجمها بإمكانية لغوية تبرز مهارة فذة في اظهار النص كما لو كان مكتوبا باللغة الكردية وليس العربية في الاصل ما دفع المطرب حمه جزا الى أداء النص المترجم اداء راقيا بصوته الشهير.

ولنتأمل كيف كانت شخصية مظفر النواب في سجن "نقرة السلمان" وما هي اجواء وأصداء قصيدة "براءة" حين ولدت كما يرويها الكاتب جاسم المطير الذي عاش التجربة أول بأول كشاهد عيان:

"في سجن "نقرة السلمان" اشتهرت شخصية مظفر النواب بمزايا ثورية ووطنية.. اذ لم يكن الشاب مظفر النواب من نوع الشعراء العاديين كما يرى الكثير من السجناء بل كان يمتلك صفات شخصية تميّزه عن الشعراء الاخرين ما ألقى على محبي شعره مهمة تحليل مكونات شخصيته

والتعرف على ادواته الفنية في الشعر والنثر والتي يمارس بها دوره التعبوي والتحريضي على سامعيه.. فمن يسمع قصائد مظفر أو احلامه يجدها تركز على مصالح الشعب العراقي في مسعى خاص يهدف الى تنمية القوة في الناس المكافحين، فهو شاعر يسعى الى ايجاد تطابق بين مفهوم النضال الوطني مع مفهوم الجماعة الشيوعية التي تقف في طليعة النضال. وهذا الموقف قد تجده منظمة الحزب السجنية آنذاك مخالفا للخط السياسي السائد، لكنه يظل من جميع النواحي محفزا ودافعا لبناء شخصية مكافحة وقوية لسجناء النقرة، لذلك صار مظفر النواب في اعين الجميع من الواقفين على اليسار أو على اليمين مؤسسا لعلاقة عليا في تضامن جميع السجناء بوعي عال من اجل الحرية والديمقراطية، وصارت شخصية النواب تجسيدا لارادة السجناء كلهم الذين يجدون فيه صوتا يمكن ان يستمد كل سجين منه قوته وعزيمته وصموده".

وفي سجن نقرة السلمان ايضا عاش مظفر مباشرة تراجيديا هروب مهندس الطرق والمواصلات الشهيد البطل الملازم صلاح احمد حمدي الذي استطاع التسلل الى خارج سجنه في نقرة السلمان رغم انه كان مريضا ولكنه توفي بسبب العطش والضياع في الصحراء، وكان استشهاده قد أدمى قلوب السجناء بمختلف انتماءاتهم، وقد رثاه الشاعر الكبير مظفر النواب بقصيدة رائعة مطلعها:

المنايا الماتزورك زورها
خطوة التسلم ذبايح سورها
طافح اعله الريح عينه ايدورها
املح من اترابها ويجورها
صگر والبيده تعز اصگورها
وبأثر جدمه تلوذ اطيورها
وسفه ما حفظت صگرها
وسلمته بليله عد ناطورها

مظفر النواب: شاعر احترف الحرية في قول ما ينبغي أن يُقال

د. حميد الخاقاني
شاعر وباحث أكاديمي دكتوراه في علوم اللغة العربية وآدابها وعلوم الإسلام، جامعة مارتن لوثر/ ألمانيا، أستاذ مساعد متقاعد حاليا.

مطلع ستينيات القرن الماضي أخذتنا صُدَفُ ذاك الزمان لمواصلة دراستنا في متوسطة الفجر للبنين في حيّ النَواب في الكاظمية. هناك التقينا بمُدَّرِسَيْن مختلفَيْن عن سواهما: مظفر النواب وصاحبه ورفيق دربه سعدي الحديثي. أحدهما شاعر، والآخر مُنشَغلٌ بالأدب كذلك، ومُغَنٍّ للقصيد البدوي خاصةً.

كان بعضنا، نحن تلاميذهما، قد اهتدى، قبل هذا اللقاء، لتقليب كتب الأدب، وشَمّ رائحة أوراقها مأخوذا بغِوايةِ قراءتها. وكان فقرُ أهلنا، وبؤس أحوال الناس حولنا، قد أيقظا فينا، أو في الغالبية منا، ميولاً يسارية في لحظة تاريخية طغت فيها استقطابات السياسة والأفكار وصراعاتُها.

بذور ذاك الإنشغالِ المُبَكِّرِ بالكتاب أينَعتْ وأثمَرت، فيما بعدُ، حيث برز من بين أولئك التلاميذ كتابُ قصة ورواية، وشعراء ونقادُ فنٍّ، وفنانو مسرح وسينما، معرفون جميعا. وكان لأستاذهم النواب دوره في هذه الولادات أيضا. نادرا ما كان يَلِجُ غرفة الدرس دونَ "شَدَّةٍ" كُتُبٍ يصحبها معه. يتحدث عنها وعن مؤلِّفيها، مُعيراً إياها، بعد ذلك، لمن يرى فيه ظمَأً وفضولاً لقراءتها.

كان درسُهُ ودرس صاحبه المُغَنّي مختلِفَيْن عما عهدناه من دروسٍ أداتُها التلقين تُحْشَى به عقول التلاميذ والطلبة، بحيث لا يبقى لهم غيرُ الحِفظِ ـ الدَرْخ، واجترار ما حُشِيَتْ به عقولهم (طريقة "الكتاتيب" هذه ما تزال سائدة في مدارسنا حتى في هذا الزمان!). أسلوبٌ تقليديٍ وعتيقٌ في التدريس لا يُنْتِجُ معرفةً أبداً، بل يؤدي إلى عطالة العقل وسُباتِهِ. وهذا هو دَيْدَنُ "الثقافات" التقليدية ودينُها عبر التاريخ كله، وفي كلِّ مكان. دَيْدَنها أنْ يظل الناسُ نياماً يَسْهُلُ قِيادُهم.

دروس النواب وصاحبِهِ تذهب إلى إثارة التساؤل وإيقاظ العقول. دروسٌ يُصبِحُ التساؤل فيها طريقاً لتحرير الأذهان، ونَهجاً للمعرفة ومَدْخلاً إليها.

ما أزالُ أذكر، تماماً، ذلك اليوم الذي أضربنا فيه احتجاجاً على اعتقال مدير مدرستنا المربي الفاضل (علي عبد

الحميد). كنا ما نزال صِبيَةً في الصف الثاني متوسط، أخذنا الحماسُ والتعاطفُ مع "مديرنا"، كما اعتدَنا وَصْفَهُ، إلى إضراب تلقائي لم نُحَضِّرْ له، أو نُفَكِّر به وندرك معانيه وأبعاده. بعد سويعات شرع بعضنا يتسلَّلُ إلى غرف الدرس مُطأطِئي الرؤوس. وبعدَ لحظاتِ تَرَدُّدٍ عابرة عاد الجميع إلى أمكنة الدرس صامتين. كان درسنا نحن مع مظفر. دخل علينا، نحن المُحبَطين ساعتها، ليدعونا، في البدء، إلى رَفع رؤوسنا والنظَر إليه. لم يطلُبْ منا مواصلةَ إضرابنا. لم يُوَجِّهْ لنا لوماً لِتَخَلِّينا عما بدَأناه.

قال بضعَ كلماتٍ فقط . كانت هي الأخرى درساً آخر، أشار فيه إلى أنَّ أحدنا حين يتخذُ قرارا ما، ينبغي عليه أن يتأمَّلَ فيه، ويُقَلِّبُهُ على وجوهه واحتمالاته المختلفة، ويتحمَّلَ مسؤوليَةَ قراره هذا قبل الشروع في تحقيقه. هل كانت هذه دعوة مُبَكِّرة لنا، آنذاك، للبدء في التفكير أنْ نكون أوصياء على أنفسنا وعقولنا وخياراتنا، وأن نتحمل المسؤولية عنها. هذا الدرس لم يكن سوى إضاءة أخرى في الطريق. سوى تحرير آخر لنا.

بعد ما يقرُب من أربعين عاما على تجارب التلمذة تلكَ، أُتيحت لي فرصةُ تقديم مُدرِّسي القديم في أمسية شعرية له، في المنفى هذه المرة، في (دار ثقافات العالم) في برلين. تلك الأمسية التي فاجأت مديرَ هذه الدار بالأعداد الغفيرة التي حضرتها. هرع عراقيون وعرب من ألمانيا وبلدان أخرى مُجاورة إلى برلين للقاء مظفر النواب والإصغاء إليه وهو يُرتِّل شعرَه ويُغنِّيه. لم تعد قاعة الدار الكبرى تتسع للجميع. كثيرون ظَلُّوا وقوفاً في صالات المبنى الأخرى وحدائقه. وكان لا بُدَّ للمسؤولين عن (دار ثقافات العالم) أنْ ينصبوا، على عجل، مُكَبِّرات صوت في الصالات والحدائق ليحظى جميعُ من حضرَ بفرصة الاستماع لمظفر. روى لي مدير الدار، في حينها، أنه لم يحدثْ في تاريخ الدار، أبداً، أن جاءت حشودٌ، كما اليوم، لحضور قراءات شعرية، وبأيَّةِ لغة كانت، مثلما هو اليوم!

في تقديمي له في ذلك المساء تحدثتُ عن سنين تلمذتي، مع بعض أقراني، على يديه. وأشَرتُ إلى أن تلك السنين كانت نعمةً جاد بها علينا زمانٌ شحيحٌ، عادةً، بِنِعَمِهِ على أبناء البيوت الفقيرة مثلنا.

في هذه الأمسية رتَّلُ مظفر، أولَ ما رتَّلَ قصيدةَ حُلِم عودةٍ للمكان الأول المفقود. كان غالباً ما يبدأ بترتيل هذه القصيدة الشعبية المؤثِّرة في كلّ لقاءٍ شعري له مع العراقيين في مدن المنافي.

(يجي يوم نْرِدْ لَهَلْنَه،
يجي يومْ نْلِمْ حِزْنِ الأيامْ وْثيابِ الصَبِرْ ونْرِدْ لَهَلْنَه،
يجي يومْ الدَرِبْ يمشي بْكَيفَهْ ياخِذْنَهْ لْوَطَنَّهْ،
يجي يومْ نْفَرّگِ الغُرْبَةْ على العالمْ مْلَبَّسْ، والحِزنْ طاساتْ حِنَّهْ،
زْغارْنا يعرفَون إلْهُمْ ظَهَرْ بالدِنْيَهْ ومَدينَةْ وناسْ وجيرانْ وگرايِبْ،

ما يْكِلْهُمْ طِفِلْ: غُرْبَهْ عراقيينْ،
ويْموتِ اللِعِبْ بعيونْهُمْ
يَطِفْلِ الناسْ ما نِعْتِبْ عَلَهْ اهْلَكْ كِلْ
اِحْنَهْ غُرْبَهْ ،
لاچِنْ اِحْنَهْ نْشوفْ كِلّ الحِزِنْ يَحْبِبّْ
حبايبْ ،
يِجِي يومْ اَطفالْنا يَعَدُّونْ خَيطِ
الشَمِسْ بِدْرابينْ كِلّ الناسْ،
بَلْكِي الناسْ حَيَّ االله طِفِلْ عنْ
اهْلَهْ غايبْ،
تِجِي الدَرابين تاخِذْهُمْ للِساتينْ
يْلَـعْطونْ الذَهَبْ خِسْتاوي ذايبْ،
يِجِي ذاكِ اليوم؟ لاچِنْ آنَهْ خايِفْ
گِبِلْ ذاكِ اليومْ تاكِلْنِي العـگارِبْ).

بعد اعتقال مظفر وعشرات الآلافِ معه من شيوعيين وديمقراطيين آخرين، بينهم أعدادٌ كبيرة من خيرة مثقفي العراق وعلمائه وأكاديميه حينذاك، دَرَجنا، نحنُ بعض طلبته القدامى (الروائي أحمد خلف، الكاتب والناقد التشكيلي جمال العتابي، الكاتب رياض رمزي، وكذلك الكاتب الراحل نصر محمد راغب) على اللقاء، غالباً في المساء، في بيت الشهيد المحامي منهل نعمة المهدي. كنا نتبادل الرأيَ، في آخر ما قرأناه من روايات وقصص ودواوين شعر، أو ما حصلَ عليه أحدُنا، صدفةً، من قصائدَ لمظفر وغيره، مُهَرَّبة من السجون، ومطبوعة على ورقٍ شَفاف خارج السجن بعد تهريبها. كانت قصائد مظفر الشعبية التي يُرتِّلُها علينا منهل من حافظته القوية تشغَل الساعات الأطول من تلك الأماسي. أول ما عرفناه من شعره، ونحن ما نزل طلبته، قصيدةَ (الريل وحَمَد). بعضنا قرأ ما كتبه عنها الشاعر سعدي يوسف بعد نشرها في مجلة (المثقف) عام 1959. وصف سعدي قصيدة مظفر هذه بأنها زهرة نادرة في حقول الشعر العربي، وقال إنه يضع جبينَ شعره على طريق (الريل وحمد). كأنّي بسعدي يهجِسُ هنا أنَّ طريق هذه القصيدة ـ المُفاجأة، في حينها، طريقَ حَجّ تسجدُ على أرضه قصائده، وتؤَدّي عليه بعضَ مناسِكها. ومن يعرف سعدي يدرك ما تعنيه له قولته هذه.

في (الريل وحمد) يذهب ابن المدينة البغدادي، سليل العائلة الموسَرة، إلى لغة أخرى هي ليست، بالضرورة، لغته. مضى أليها ليخترعَ لها لغةً شعرية أخرى من داخلها. لغةً لم تعرفها هي قبله. ذهب إليها وكأنها هي التي تدعوه إليها، تُسْلِمُهُ مفاتيحَ أسرارها ليكتشف فيها ما لم تكتشِفْه هي في نفسها بعدُ، عارفةً، ربما، أنه من سيزيح الترابَ المتراكم، منذ قرون، على السحر المخبوء في أعماقها. أمسكَ بسحر هذه اللغة. صار يستنطِقُ روحَها وإيحاءاتِها، ويَجهَدُ لاستقصاء أماكنِ الضوء والظلال فيها. لقد ذكر مظفر، ذاتَ مرة، أنَّ أهوار الجنوب وسماءها هي التي ساعدت في تفتُّحِ كل هذه الأشياء في داخله.

لقد منح مظفر القصيدة العامية زَهوَها الذي صارت تُعْرَفُ به. ومضى بها إلى أمكنةٍ وأساليب وفضاءات شعرية جديدةٍ، غير مألوفة قبله. نفثَ فيها من روحه حياةً أخرى مختلفة، وأغناها باستعارات وكنايات، ورموز وإيقاعات

لم تكن تعرفها من قبل. مع النواب، لا مع غيره، ارتقت القصيدة العاميّة المكتوبة بلغة أهل الجنوب، غالباً، إلى مصَـافٍ ثقافية وجمالية عالية، لها أثرُها العميق في وعي وروح قارئيها أو سامعيها. وسرعان ما أصبح الكثير من العراقيين يرددون قصـائده هذه، ويغنونها، حتى بعد أنْ مُنِعَ بعضُها، في فتراتٍ بعينها، وأسْـقِطَ اسمُ شاعرها عنها.

القصيدة الشعبية في العراق بدأت تتوهجُ، في تقديري، فقط مع مظفر النواب، لتواصل توهجها مع شـعراء آخرين كبار جاؤوا بعده. السماويون الثلاثة مثلا: شاكر السماوي، عزيز السماوي وناظم السماوي، كاظم اسماعيل الكاطع، عريان السيد خلف، زهير الدجيلي، المُغَيَّبُ في بيروت، منذ مطلع ثمانينات القرن الماضي، ذياب كزار (أبو سرحان)، رياض النعماني، كامل الركابي وآخرون كُثْرٌ غيرهم. كلُّ واحد منهم له خصوصيته، وبلاغة لغته، وسُبُلُهُ الروحية الخاصة للولوج ألى أعماق القصيدة، واستِكْناه أسرارها.

ولكن تظل، في تقديري، لقصيدة مظفر المكتوبة بالعامِيَّة أوالفصحى ميزة إيقاعها الموسيقي الخاص، فضلاً عن عناصر أخرى فيها. أنا لم أقرأ لشاعر لديه مثل هذا الإحساس بِجَرس الكلمة، ورنين الحرف، مثلما هو الحال لديه. يُفَضِّل مظفر، ويحلو له أن يُطلقَ على هذه الظاهرة في شعره توصيف (المَوسَقَة). نحن هنا إزاء نحتٍ لغوي مُمَوْسَقٍ هو الآخر.

نعرفُ أنَّ مظفر النواب جاء إلى هذه الدنيا، ونشأ في بيت تتردد فيه أصوات الموسيقى الشرقية والكلاسيكية الغربية. وكان لهـذه الأخيرة، كما يروي مظفر، حضورُها حتى في لقاءات المساء البيتية لمثقفي بغداد في الخمسينات مثلاً. يلتقي فيها الطبيب والاقتصادي والأديب، والفنان التشكيلي والموسيقي، تصاحب جدلَهم وحواراتهم سنفونيات بيتهوفن وموزارت وجايكوفيسكي، وغيرهم من عمالقة هذا الفن في الغرب.

ومنذ الطفولة ظَلَّت تتسَرَّب أنوار هذا الفن وظلالُه، إيقاعاتُهُ وأنغامُهُ، إيحاءاته وألوانُه إلى وعي الشاعر وروحه، وتجد لها إشاراتٍ وأمكنةً في رسوماته الأولى، وفي قصائده العامِيِّ منها والفصيح. وكان أنِ اجتمعَ في روح مظفر الشاعرُ والمُغني والرسام. ولا دهشـةَ فالشـعر في البَدء غناء. هكذا بدأ في ثقافات الإغريق والشرق القديم، في الثقافات الصينية والهندية القديمة. ويتجلّى هذا في تعاويذ سحرة القبائل وتعازيمهم، في استدعاء روح الأسلاف، في رثاء المدن ومراثي الموتى، في أناشيد تقديس الآلهة وصلوات المعابد.

وكانت إيقاعات قَرْع الطبول في طقوسِ عاشـوراء، والأهازيج والمشاعل التي ترافقها، وأصوات الزناجيل تُساطُ بها الظهور، وألوان الرايات، وثياب الحِداد السود يرتديها الرجال والنساء، ونواعيهن المُنَغَّمَة، رافد آخر له أثرُهُ، هو الآخر، في تشكيل الذاكرة الإيقاعية للشاعر.

لم تكن قراءةُ مظفر لهذه المشاهد والحَدَثِ التراجيدي الذي تَصْدُرُ عنه، وتدور حوله منذ دهور، قراءةً فولكلورية ذات منحى مذهبي ضيق، وإنما تَمَثَّلَها في إطار رؤية فنية وفكرية مختلفة، تعبرُ الأفقَ الضيّقَ إلى الإنساني الواسع. وهو ما تجَسَّدَ في عدد من قصائده، فيما بعد. ومنها قصيدة (في الوقوف بين السماوات ورأس الحسين):

(واقفٌ ها أنا ههنا،
إنّا في زمانِ يزيدٍ ،
لُعِنْتَ زماناً خِصى العقل فيه يقودُ
فحولَ العقول،
يارِبّ لابُدَّ تغفرُ للكُفرِ إنْ كانَ حُرّاً
أبيّاً،
وهيهات تغفر للمؤمنين العبيد،
ذلكَ فهمي وأنتَ ضماني على ما
أقول،
تعلمت منك ثباتي وقوةَ حزني
وحيداً،
فكم كنتَ يوم الطفوف وحيداً ولم
يَكُ
أشمخ منك وأنت تدوس عليك
الخيول)

مثل هذه القراءة المختلفة للموروث التاريخي العربي، وهو تاريخ يطغى فيه البعد الديني غالباً، نعثر عليها في دراسات وبحوث تاريخية مختلفة، وفي أعمال أدبية وفنية معاصرة عديدة، ونجد هذه القراءة بمنحاها الفكري ـ اليساري في قصيدة أخرى لمظفر كذلك، يقول فيها:

(أحمل لبلادي حين ينام الناسُ سلامي،
للخطّ الكوفي يُتِمُّ صلاةَ الصبحِ
بإفريز جوامعها،
لِشوارعها،
للصبرِ،
لِعليٍّ يتوضأُ بالسيفِ قبيلَ الفجرِ،
أُنبيكَ عليًا!
مازلنا نتوضأ بالذلّ ونمسحُ بالخرقةِ
حَدَّ السيف،
ما زلنا نتحَجَّجُ بالبردِ وحرّ الصيف،
ما زالت عورةُ عمرو بن العاص
معاصرةً،
وتُقَبّحُ وجهَ التاريخ،
ما زال كتابُ االلّهِ يُعَلَّقُ بالرمح
العربية،
ما زال أبو سفيانَ بلحيته الصفراءَ،
يؤَلّبُ باسم اللاتِ العصبيات القبلية،
ما زالت شورى التجار ترى عثمانَ
خليفتها،
وتراك زعيمَ السُوقيَّة،
لو جئتَ اليومَ لحاربَكَ الداعونَ إليكَ،
وسَمَّوكَ شيوعية).

كان للإغتراب والمنفى سرديتهما الطويلة تستعيدها ذاكرة العائلة النوابية، وتتوارث روايتها أجيالها جيلاً فجيل. قَدِمَ أسلافُ النواب، في زمنٍ ما، من جزيرة العرب إلى العراق. ومن عراق العصر العباسي اضطُرُّوا للهجرة إلى الهند. ومن بلاد الهنود ينفي الإنجليز العائلة، ثانية، إلى العراق.

بعد خروج مظفر من سجنه الأخير في العراق، نهايةَ الستينات، اختار المنفى

كي لا يفقدَ ذاته وخياراته الحرة. أن لا يصمتَ عن قولةِ الحقَّ في ظلِّ أنظمةِ حُكمٍ يعرفها.

(سبحانكَ كلَّ الأشياء رضيتُ سوى الذُلّ،
وأن يوضَعَ قلبي في قفصٍ في بيت السلطان،
وقَنَعْتُ يكون نصيبي في الدنيا كنصيبِ الطير،
ولكنْ سبحانَكَ حتى الطير لها أوطان،
وتعود إليها، وأنا ما زلتُ أطيرُ،
فهذا الوطنُ المُمتَدُّ من البحر إلى البحر سجونٍ متلاصقةٌ،
سَجّانٌ يُمسِكُ سجّانْ).

أغلب قصائد (المساورة أمام الباب الثاني) قصائد رحيل دائم في بحار المنافي وصحاريها. رحيل حافلةٌ حكاياته بغنىً وثراء كبيرَيْن. حافلة بالرموز والكنايات تأخذنا إلى ما تخفيه وراءها من معانٍ وإشارات.

رحيلٌ يتصادى مع تيه (أوديسيوس) الإغريقي في البحر، ونهايته التي عاد منها إلى مدينته (أيثاكا) وحبيبته (بينولوبي) أغنى معرفة وحكمة.

أما شاعرنا فهو الربان المُبحرُ في التيه، تُرضِعُهُ النجوم موسيقاها السماوية، وهو نفسُهُ السفينة التي تُذكِّرُهُ بسفائن الطفولة وسواقيها فيقول متسائلاً:

(لم يَصِلْني خبرٌ عن سفائني الأولى/ أتراها غَرِقت/ أم تمضي إلى ميناء أخير).

وشاعرنا هو خشَبَةُ مِقوَدِ السفينة المخلوع المبحرِ وحده صوبَ المكان الأول، أو صوبَ اللامكان، وهو النورس الأنيس الذي يرمز للحرية والبحث عما وراء الغيوم. رحلات الذاكرة الشعرية هذه وتجاربها تدعونا، نحن قراءه، إلى التأمل، تجعلنا شركاء تجاربه في حركة رحيله عبر جغرافيات الروح وبحارها،

قصائد الرحيل والتيه المفتوح هذه بحث فلسفي يحاور فيه الشاعر نفسه وزمانه وسفينتَه عروسَ العرائس، متوحِدا معها مثل صوفي يستغرقه العشق. هذا البحث الدائم هو ما يجعل الشاعر أكثر معرفة بنفسه وبالعالم. اكثرَ معرفة بوطنه الضائع البعيد. أكثرَ اقتربا منه، حتى لكأنَّ العراق ونخيلَه يَحِلاّن فيه :

(عروسَ العرائس!
أدعو النجوم إلى قمرتي ،
فأنا أولِمُ الليلَ نذرًا وألبس أبهى ثيابي،
فقد كنت عند نخيل العراق، وإنْ كان حلماً،
وكان العراق على مُهرِهِ عارياً
مثلما ولدته السماءُ،
وكان على عَتَباتِ العراقِ الضياءُ،
وبين ضلوعي فضاءٌ به نجمةٌ، لستُ أدري بماذا تُضاءُ؟
وفي نجمتي تلكَ يجتمع االلهُ والأنبياءُ).

يُفصِحُ قصيدُ مظفر، حتى قصائد الحب فيه، عن أنَّ شاعره يرى في الشعر فنا خاصاً يُعبّرُ الشاعر، من خلاله، عن رؤيته

للعالم وتَمَثُّلِه لأحواله، وانتمائه له والتأثير فيه. يَستَهِلُّ مظفر ديوانه (المُساورة أمام الباب الثاني) بمقطَعين صغيرين يُلخصانِ، كما أرى، فلسفة قصيدةِ مظفر وموقفها من العالم. في الأول منهما نقرأ:

(ثَمَّ امرأة تُلَخِّصُ كلَّ بساتين التُفاح/ وثَمَّ لحظةٌ تفتحُ فيها دمامِلُ التجربة عيونَها/ وترى ما المُعافَى لا يرى/ وهذا ما لَخَّصْتُ عن التخليص). والمقطع الثاني يؤشر إلى تجربة ثانية:

(لقد قُتِلوا قبل ذلك/ وكانت النجوم/ وأما الآنَ في ساعة الفجر من تموز/ فقد أُعْدِمَتِ الجثث/ الخروج من الصمت يَتِمُّ بكلمةٍ مُجازفة). قتلُ الإنسان يُنْتِجُ قَتْلَ الأوطان، كما تُظْهِرُ تجارب التاريخ. تماماً مثلما مَهَّدَ إحراقُ الكتب إلى إحراق البشر، وموتِ العقل في وطنٍ ما يعني موت هذا الوطن، في النهاية.

ومنذُ البدء ومظفرُ مُنشغل بالناس وهمومهم وأحلامهم. منذُ البدءِ وهو يعي حاجة مجتمعه لدور المثقف النقدي الفاعل. دون هذا الدور لا يكون المثقف مثقفاً حقاً، في تقديري. في حوار للصديق الدكتور حسين الهنداوي مع مظفر، نشره في كتاب صدرَ عن (دار المدى) بعنوان (مع مظفر النواب في أعالي الشجن) يشير مظفر إلى نشوة علاقته بالقصيدة، ورؤيته لها ولدورها، فيذكر أنَّ كتابة القصيدة نشوة. قراءتُها نشوة، وترنيمها نشوة كذلك، حيث تُلغَى المسافاتُ بين الشاعر والناس. ويضيف قائلا: (تجربتي الحياتية والشعرية والسياسية هي التي أوصلتني إلى هذه اللحظة من الفَهم).

لحظة الفَهم هذه هي ما جعلت من قصيدته قصيدةَ مواجهة لكل ما هو غير عادل وغير انساني. قصائد "هجائه" للنظام العربي الرسمي، هي قصائد احتجاج ومواجهةٍ بامتياز. ومنها قصيدته الشهيرة (القدس عروس عروبتكم). تناول عدد من النقاد هذه القصيدة بالذم، ونعتوها بأنها قصيدة "متطرفة!" و"بذيئة!". أصغيتُ لأحدهم، صدفةً، وهو يزعم واهماً: "أن الشاعر عجز عن العثور على لغة أخرى لقصيدته غير هذه اللغة!). لم يلتفتْ أحد منهم إلى عُمقِ الوجَع الوجودي، الفردي والجماعي، وتاريخ الخداع والخيبات الطويل، وازدواجية المعايير "الأخلاقية" التي صاحبت هذه المأساة، وأحاطت بها منذ البدء وما تزال.

(القدس عروس عروبتكم،
فلماذا أدخلتُم كلَّ زناةِ الليلِ إلى حجرتها؟!
ووقفتُمْ تستمعونَ وراء الباب،
لصرْخاتِ بِكارتِها،
وسحبتم كُلَّ خناجركم،
وتنافَخْتُم شَـرَفاً،
وصرختم فيها أن تسنتَ صَوناً للعِرْض،
فما أشَـرفكم!
أولاد القحبةِ هل تسكُتُ مُغْتَصَبَة؟!
أولاد القحبةِ،
لستُ خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم،
إنَّ حظيرةَ خنزيرٍ أطهرُ من أطهركم،
تتحركُ دَكَّةُ غَسْلِ الموتى، أمّا أنتم لا تَهْتَزُّ لكم قَصَبَة،

الآنَ أعرّيكم في كلّ عواصم هذا الوطن العربي،
قتَلتُم فَرَحي، في كل زقاق أجدُ الأزلام أمامي،
أصبحتُ أحاذر حتى الهاتف،
حتى الحيطان، وحتى الأطفال،
أقيئُ لهذا الأسلوبِ الفَجّ،
وفي بلدٍ عربيٍّ كان مجرد مكتوبٍ من أمي،
يتأخر في أروقة الدولة شهرين قمَريين).

هذا المقطع من القصيدة، كما مقاطعها الأخرى، تتحدث عن واقع النظام الرسمي العربي. كما هو. وقد قال مظفر بما يُشبه الشعر مرةً: (اغفروا لي حزني وخمري، وغضبي وكلماتي القاسية. بعضكم سيقول بذيئة. لا بأس. أروني موقفا أكثر بذاءةً مما نحن فيه).

هذه القصيدة ومثلها قصيدةُ (قِمَم) وغيرها من قصائد السخرية السوداء والاحتجاج، ليست، في الجوهر، سوى تَعرية مُرَّة لأوثانٍ تنتصب في متاحف الحُكْم في هذا الوطن العربي، وغالبية عُربان هذه الأمة ما تزال تطوف حولها، مثلما كانت قبائل العصور السحيقة تطوف حول طماطمها، وترى أنها صلتها بالسماء، وتمائمها التي تتعوذ بها من الشرور.

نقد البعض لقصائد مُظَفر هذه ظل يدور، في الأساس، حول "لا أخلاقية" الكلمات، وفقدانها للحشمة!

ولكنَّ هذا "النقد" يُغفِلُ أنَّ الكشفَ والمعارفَ التي تأتي لنا بها هذه اللغة "اللاأخلاقية" هي الأخلاقية الحقيقية. هي المعاني الحقيقية لمثل هذه القصائد. كشفُ القبح والقبيح في حياتنا له أخلاقيته. له جماليّاته الأخلاقية كذلك.

مظفر النواب شاعر احترف الحرية في قول ما يشاء. ومن يحترف الحرية في هذه الصحارى العربية يكون ملعونا، غريباً، مُطاردا في كل زمان ومكان.

بعد وداع مظفرٍ للمكان الأول أصبحت روحه نورساً قلقاً يغفو على موجة. هذا النورس أظنه يظل قلقاً حتى وهو يرقد الآن قربَ ثدي أمه.

لقاء مظفر النواب في دمشق

احمد خلف

كان للقاء الذي حصل لنا معه في بيته بدمشق بتاريخ 14 / 2 / 2007 اثرٌ بليغ في الشروع بالكتابة عنه، وتأمل سيرته المتداخلة والمتشابكة، حيث تبدو، اشبه بالخارطة حادة التضاريس، فمن السهول الى الجبال وصولاً الى فيض المياه الدافئة الدفاقة من شلال الشعر وكلماته التي تدخل القلب دون استئذان. الحديث مع الأستاذ مظفر ينطوي على نوع من الاحتراز في الا يقع المرء بتلك الاستطالات وزوائد الكلام، والذي غالباً ما يغلق احاديث تجري بين اثنين يخوضان غمار الحديث عن الثقافة والفن وهو غالباً (مظفر) ما يضعك في الحالة التي يريدها او التي ينبغي للكلام ان يحدد مساره، اذن لابد لك من وضع اليد على تلك العلامات التي يمكن لها ان تشكل منهج عمل في احتواء حياة الشاعر سواء تلك التي جعلت من هذه الحياة مرجلاً لغليان الشعر مع السياسة والحب، والحياة التي لا تعرف الاستكانة او الخمول، سيكون من الممكن التعرف على الافكار التي توصل اليها الشاعر بعد التحولات الكبيرة في العالم وليس غريباً ان يكون كاتب هذه الصفحات واحداً من أولئك المعنيين بتوصلات شاعر كبير تشكل حياته جزءاً بارزاً من مسيرة شعبنا ولا عجب ان يربط بين شاعرية مظفر النواب وبين طروحات السياسة بنهجها العام – الاكاديمي والحر - : ((السياسة بالنسبة لي ليست شيئاً تجريدياً أو أيديولوجياً، انها الحياة ذاتها الاخلاص للإنسان في هذا العصر والصدق معه هذه السياسة بالنسبة لي ولذلك هناك على الدوام نفور أو جفوة بيني وبين محترفي السياسة او حفظة الايديولوجيات أما الناس الذين تعني لهم السياسة قيماً حياتية وانسانية وبحثاً حقيقياً غير أناني لخلق عالم جميل فهؤلاء أجد نفسي متفاهماً معهم بدون مقدمات)).

ان خطاباً هذه لغته وكلاماً تتحدد مفاهيمه وتوصلاته بنقض النقاط المشار اليها - حفظة الايديولوجيات - ومحترفو السياسة. ان هذا الخطاب لا بد له من كشف العمق الحقيقي لتجربة الفنان المبدع والذي يهمه ويشغله النسغ الروحي والاخلاقي للتعامل مع الحياة. انها رؤيا أقرب الى الزهد والتصوف رؤيا تنبع من صميم البصيرة النافذة في محور الاشياء رؤية وملامسة للظاهر وحالة تماس مع المخفي والمستور بامتياز لا يعرفه الا الشعراء والفنانون الكبار، ان في خطاب النواب ذلك الدرس الذي يمكن اعتماده كخط ثابت إزاء النقاء بعدم التورط في البحث عن الجاه أو الاقتراب من دنس السلطة

الدنيوية.. امتيازات تتضاءل امام وهج القصيدة ولهب نيرانها أقول ثانية كان عليّ الانتظار أكثر من اربعين عاماً لكي التقي بالاستاذ مظفر النواب (استاذي الذي شرفني في القول النبيل والجميل: سيكون لك شأن في الكتابة الادبية)، ويعود الفضل في ذلك اللقاء الحميم الى الشاعر المبدع رياض النعماني الذي يعد بحق دالة لكل المثقفين العراقيين في ارض الشام، ولعل ذلك كله يدلنا على الرابطة العضوية بين الشاعرين النواب والنعماني ومن يقف على جوهر العلاقة هذه سوف يدرك ان التلازم العضوي بينهما كان بدافع الاستعداد الذي يمتاز به النعماني على الوقوف الى جانب أستاذ نادر المثال فقد اخبرني النعماني ان ابا عادل (ويقصد الاستاذ مظفر) يرحب بزيارتك له في بيته.

قال لي: - أبو عادل حريص على اللقاء بك، أنه يتذكرك جيداً بعد هذه السنين!

قلت له: أنها اكثر من أربعين عاماً ولكن هل يتذكر صورتي عندما زرته في سجن الحلة، حين كنت في المرحلة الاعدادية في عام 1963 وأودع السجن مع عددٍ كبير من رفاقه. ترى هل يتذكرني؟

وعندما حانت ساعة اللقاء كان معنا الصديق الراحل الناقد د. حسين سرمك حسن، كنا نحن الثلاثة نلقي خطواتنا بإتجاه بيت الشاعر في أحد أحياء العاصمة السورية تاركين وراءنا مقهى الروضة، ملتقى العديد من المثقفين العراقيين الذين تجتذبهم طاقة خفية نحو ذلك المكان.. كان تفكيري يتجه نحو طبيعة اللقاء والكيفية التي سيتم بها، كنت أسعى للوصول الى رياض النعماني و د.حسين سرمك وهما يواصلان سيرهما الحثيث، في الوقت الذي كنت الاول من تعنيه الزيارة، وليس بعيداً أنهما كانا يحملان صورة شاحبة عن علاقتي بالشاعر النواب. صورة متعارف عليها في كل حالة مماثلة لحالة الاستاذ والتلميذ. الحق لم تكن هذه العلاقة قد بنيت على أساس أدبي محض ولا تحمل صفة التلميذ والاستاذ فقط والتي غالباً ما تتسم بطابع الأهداف المرحلية التي يستفيد فيها التلميذ من استاذه ثم يحصل الافتراق الطبيعي بينهما ، ابداً ، كانت علاقتنا بالنواب (فيما مضى من ايام خوال) ذات سمة جماعية ودوافع ثقافية وادبية وبعضها سياسي / اجتماعي. وكان الاستاذ دقيقاً معنا في الكلام و التوجيه او المقترح، لم يكن يتعامل مع الاشياء من حوله بروح الشاعر فقط بل كان ثمة تداخل ملموس بين الشاعر الذي يحرص على تطوره الفني والجمالي وبين المناضل الذي لا يتخلى عن قضيته الأساسية في الدفاع عن الانسان.. كان الكثير من خطوات شاعرنا الكبير دروساً مناسبة لتطورنا ومن ذلك ايضاً ارتباطاً به روحياً واخلاقياً بعضنا ظل على صلة به، وبعضنا الآخر كبرت خطوته واصبح اسماً من الاسماء المعروفة في دنيا الادب والفن، اما البعض الآخر فقد انخرط في النضال الوطني وأخذ حصته من الاعتقال والتعذيب والنفي .. ولما جاء الشاعر النواب الى متوسطة الفجر في الكاظمية من العام 1961 / 1962

استاذاً لتدريس اللغة العربية بدا لطلبته منذ بواكير ايام تدريسه استاذاً يختلف عن غيره من المدرسين. لقد تمثلت صيغة الاختلاف لديه في منهج التدريس الذي اقترحه علينا بل وأخذ به حيث يقرأ لنا صفحات من كتاب غير مقرر من الكتب التي يرى فيها الاستاذ فائدة توازي دروس النحو والبلاغة والانشاء وقراءة النصوص المقررة علينا من قبل وزارة التربية. وعندما قرأ مقطعاً من قصيدة جديدة له ادركنا في الحال انه صاحب قصيدة ـ للريل وحمد:

((مرينة بيكم حمد، واحنة بقطار الليل
واسمعنه دكك اكهوة
وشمينة ريحة هيل
ياريل ..
صيح ابقهر
صيحت عشك ياريل
هودر هواهم
ولك، حدر السنابل كطه))

لم تكن نقاط الاختلاف بين الاستاذ الجديد الذي يقرأ لطلبته من كتاب قصة المغني الايطالي الشهير ((كروزو)) ويسمعهم قصائد السياب والبياتي وبعضاً من مقاطع لقصائد شعبية وأخرى فصيحة لشعراء يحاول ترسيخ أسمائهم في ذاكرة الطلبة وإسماعهم قصائد الشعراء لتقريبها من الذائقة الطرية التي يحملها التلاميذ، نقاط الاختلاف تلك عديدة ومن بينها في رأي الطلبة الفتيان، تلك الاستقامة في القامة والعناية بالهندام والنظرة الحانية يعززها اهتمام خاص بأوضاع الطلبة وما هم عليه من حالة اجتماعية والاصغاء الكافي الى جانب كبير من مشاكلهم وهمومهم ذلك كله، يصبح خلافاً لما اعتادوا عليه من هيئة مدرس اللغة العربية، حيث القامة المنحنية قليلاً والسترة التي تصل حد الركبتين والعينين الكليلتين، كانت نظرة الاستاذ مظفر وما تمتاز به العينان السوداوان من بريق يشي بالكثير من الذكاء ثم تلك النبرة الخافتة للصوت الهادئ الذي يحمل بين طياته نكهة الروح والمعافى من كل شائبة أو ردة فعل تجاه الحياة، كل ذلك يجعل الاستاذ النواب أقرب الاساتذة الينا دون منازع، الآن نحن طلبته وقد كبرنا نتأمل عالمه الشعري الذي سحرنا به في تلك الايام ونحاول قراءته بصورة واعية، نعيد تحليلنا مجدداً في كتابة صفحات عنه، وفاءً منا له وضرورة لا مفر منها، لذا كان الانطباع الذي أحمله في داخلي عنه، أنه لم يكن مجرد شاعر أو أستاذ، بل انسان مناضل وحريص على سلامة تاريخه الشخصي ونظافته، ومن هذا الحرص يتعلم الكثير من الشعراء والادباء صيانة انفسهم من مزالق قد يستخف بها البعض هذه الايام لكنها تعني الشيء الكثير لدى البعض الآخر، وانا واحد منهم.

لا أدري ان كان الصديق النعماني قد طرق الباب أم ضغط على الجرس، فقد كنت في حالة من ترقب وانتظار، وكشف الباب المفتوح عن وجه فتى يضع خطواته على عتبة الشباب الناضج تماماً، خاطبنا : أهلاً، تفضلوا،

وتفضلنا متقدمين تحت جناح نظرته البليغة التي اراد من خلالها معرفة من هو المقصود بالزيارة هذه، ولما دخلت الصالة الصغيرة، التي كان الشاعر ينتظرنا فيها، بدت لحظة التفرس بيننا هي السائدة، لم يغب وجهه عن ذاكرتي، وكان للصور التي تنشرها له الصحف عامل مساعد على توضح المشهد، وخيل الي وانا اراه حقيقة ماثلة أمامي بعد كل هذه السنين، أنني أستطيع ان اكتب قصة حياته من خلال حشد الصور التي أحتفظ بها له في ذاكرة متوقدة وجامحة، ذاكرة أعرف كنهها تماماً، لا يغيب عن خاطرها أولئك الاحبة الذين يملكون ميسماً واضحاً، رسموه على صفحات تاريخنا الخاص والعام، وربما حصل معه الشيء نفسه، وهو يحاول العثور من خلال صورة في مجلة أو جريدة وفرها له أحد الاصدقاء سابقاً، لكني الان قادر على قراءة نظرته التي شملني بها، فعيناه تحطان بهدوء على وجه راحت نظرته تتعرفان إليه عن كثب، كأنهما يتعرفان على شقيق الشاعر، شقيقه الذي أضاعه وسط العاصفة الهوجاء، التي دامت أكثر من ثلاثين عاماً، وها هما الشقيقان يلتقيان بعد غياب قاس وطويل، وخيل لي للحظة حاسمة، أنه لم يجهد ذهنه في معرفة نظرتي له، لقد اردت معرفة ما تركته سنوات الغربة والمنافي على صفحة الوجه الحبيب الذي افتقدناه طويلاً بيننا، يا الهي كم كنا بحاجة إليه لكي يعين خطواتنا على التقدم الميسور بالاتجاه الصحيح، ترى هل كان يمتلك بوصلة أيامنا؟ افراحنا ؟ ام ترانا كنا، بدونه، نخشى ورود التهلكة، ومع هذا كنا كأننا نصغي الى وقع خطواته القادمة من وراء النافذة، فيندفع في نسغنا التماسك، كنا نلوذ ببعضنا حاملين مشعل مسراتنا للعثور على أي أثر تركه وراءه في طريقنا المليء بالالغام والاسى. وبهدوء امتدت يد الشاعر نحو الضيف:

ـ أتذكرك جيداً أحمد، نعم، تذكرتك الآن أكثر مما سبق.

سألته: هل تتذكر أول مرة جئتنا فيها الى الصف في متوسطة الفجر في الكاظمية ابتسم، أراد ان يترك لي المجال لكي أقول ما أحمله في عقلي ووجداني عنه وحتى يعطي لنفسه وقتاً كافياً لاسترداد صورتي وشخصيتي التي عرفني بها فيما مضى من أيام، كان الشاعر النعماني والناقد سرمك يصغيان الى تدفق الكلمات مني بطواعية ودون سابق تخطيط، فقد كان الصوت يخاطب الشاعر عبر القلب ومنه وليس من خلال اللسان والشفتين فقط، استمر ينظر الي ويصغي وأنا أستعيد بعضاً من تلك المواقف والحالات والصور النادرة، التي أرغمته السلطات على مغادرتها الى المنافي مضطراً، حدثته عن جمعية الادب والفن التي أسسها للطلبة لكنه أعاد معي أجزاء من الصورة التي غابت عن ذاكرتي، رويت له كيف أخذنا ‘‘نحن أعضاء جمعية الادب والفن’’ الى اتحاد الادباء في العراق ولأول مرة ندخل المبنى العتيد، وكان لقاؤنا بالقاص جيان والصحفي المناضل أبو سعيد، وحكيت له كيف أخذنا في أحد الايام الى بيته الكائن في كرادة مريم، وتعرفنا على

مكتبته، كما أنه قدم لنا عدداً من الروايات والكتب، عندئذ سألني عن زملاء لي في جمعية الادب والفن، والتي حرص الاستاذ على ادامتها طيلة العام الدراسي، سألني عن نبيل وبدر، وآخرين أتذكرهم وأحاول استعادة ملامحهم التي فر بعضها من الذاكرة لابتعادها في الزمان، ولكني أعرف بدراً وأتذكره جيداً، فقد كان يسكن في محلة قريبة من محلتنا وأظنه انخرط في تنظيمات الحزب الشيوعي آنذاك، لأني كنت أراه كيف كان حريصاً على التحلي بربطة العنق الحمراء أسوة بالاخرين من أمثاله من فتيان تلك الايام، كانت الذكريات تنهال علينا في جلستنا وكنت أريد اختصار سنوات الفراق التي دامت قرابة الاربعين عاماً ولما حدثته عن زيارتي له في سجن الحلة في عام 1965، كانت نظرته لي تحمل دهشة حذرة، وقلت له: الكثير من الاصدقاء اعترضوا على الزيارة تلك، والحقيقة زرتك مرتين وكانت الثانية بدافع من اعتقال عبد الامير الركابي، وبعد فشل حركة الكفاح المسلح، التي كان يقود فريقاً منها الراحل خالد أحمد زكي، لكنك لم تكن راضياً عن الثانية. وبالنسبة لي، لم أفهم دوافع عدم الرضا، الا بعد أيام مضت عندما عرفت نقطة الخلاف، وبالفعل كان عدد من الاصدقاء، الذين سبق لهم ان اعتقلوا في سجون العهود المنصرمة قد حذروني من خطورة الذهاب الى سجن الحلة، الذي يضم بين قاعاته وزنزاناته أبرز وجوه الشيوعيين، لذا كان من الخطأ على شاب مثلي المغامرة بزيارة سجين شهير بتداعياته التاريخية.

في اللقاء المسائي ذاك، في دمشق وجدت الفرصة سانحة لكي أستأنس برأيه فيما يخص وضعنا الثقافي، وقد لازمتني فكرة كتابة تاريخ للثقافة الوطنية ومن منظور انساني تقدمي يعالج من خلاله الدارس او الباحث او المحاور اهم مفاصل الثقافة التي عاشها المثقف العراقي آنذاك، ولقد برزت الفكرة تلك، بعد الاحتلال تحديداً، إذ ليس صحيحاً ان نكون أبرياء تجاه ثقافة المحتل ونواياه وبصورة قد تتهم فيها ثقافتنا الوطنية بعدم الوعي والادراك، الذي جرى عبر أكثر من ثلاثين سنة مضت، كانت فيها الثقافة العراقية نتاج الاحتياجات القسرية لسلطة ذات بعد ايديولوجي يتسم بالاحادية والتسلط والشمولية، واذا كان ذلك قد جرى خلال أكثر من ثلاثين عاماً، ترى هل على الثقافة العراقية الانتظار عقودا أخرى من السنين لكي تنتسب لذاتها وتحدد مسارها الصحيح والخاص؟ هل توجد لدينا وسائل وسبل يمكن الاتفاق عليها بشأن الثقافة التي نريد لها ان تكون حاضرة وفاعلة في حياة الفرد والجماعة معاً؟ كنت ادرك مع نفسي صعوبة الطرح والمطلب، ولكني وجدت ان لا مفر من عرضه على الاستاذ النواب، الذي أصغى الى خلاصة طرحي لفكرة اعادة كتابة تاريخ الثقافة العراقية. ان العمل الخلاق الذي قام به أدباء أمريكا اللاتينية في تحديد شخصيتهم الثقافية والتركيز على الخصائص الاسلوبية والوطنية هو ما جعلنا ننظر بعين الاحترام والتقدير لتلك الثقافة وذلك الادب، الذي توضحت معالمه لدينا في السنين الاخيرة، ألا يحق

لنا المبادرة والتحرك الآن على الصعيد الفردي في تثبيت مشروعية الفكرة أولاً؟ قال لي بعد ان تأمل الفكرة جيداً: ان مشروعاً ينبغي ان يكون الشروع به جماعياً أي ان يتكفله عدد من الاشخاص وليس شخصاً واحداً، لأنه من السعة بحيث يفرض على المهتمين بالشأن الثقافي ان يجندوا له المزيد من الطاقات.

فقلت له: في زيارتي الثانية إليك، ستكون عندي حزمة من الاسئلة يدور أغلبها في الاطار الشخصي لك، وفي عموم ثقافتنا العراقية.

ابتسم بهدوء ونظر الى ضيوفه، ثم التفت اليّ قائلاً: ولكن ذلك كله بعد عودتي من العلاج، سأكون على استعداد للاجابة على أسئلتك.

كانت جلسة اللقاء ممتعة وغنية جداً وقد تحدث فيها عن مرحلة من أبرز مراحل تطوره السياسي والشعري، خصوصاً سنوات السجن وعملية حفر النفق، ''التي سيكون لنا حديث خاص عنها لاحقاً'' ثم خروجه من البلد مضطراً حيث لا حل ولا ثمة أفق مفتوح أمام الناس، رغم ان الحديث في تلك الايام كان يشير الى ضرورة قيام جبهة وطنية، ومع هذا حتم عليه الظرف الوطني والعربي ان يحط الرحال في بيروت ثم مدن أخرى، ويبدو ان شروط الاستقرار مناسبة لمتطلبات حياته، بحيث يستطيع ان يمارس حياته بحرية كافية، ولقد ادركت طبيعة الحي الذي يسكنه الشاعر، أنه من الاحياء الهادئة التي تثير في النفس الطمأنينة والتأمل، كان ذلك في الليل على الاقل: ''أنا شخصياً كتبت معظم قصائدي أو بداياتها في الليل'' بدا المشهد الليلي الغاطس بالصمت والهدوء يبعث على توليد الصور في وقت أخذ فيه الظلام يزداد شحوباً في الاماكن التي يصلها الضوء البعيد، وليس بعيداً ان يكون دافع تسلق القلق فيها عقليا ووجدانيا قبل اللقاء به، كان بدافع المكان الذي مثل لدي حضوراً خاصاً، كانت قصيدة بابلونيرودا ''البشر'' والتي قرأتها عشرات المرات في ما مضى، تلح علي في تلك اللحظة، إذ تمثل فيها كل شيء يمر بي:

'' أنا زائر جزيرة باسكوا
الفارس الغريب، جئت لأطرق أبواب الصمت
واحد آخر من أولئك الذين يأتي بهم الهواء
قافزاً دفعة واحدة، البحر كله .. ''

لم أقفز البحر ولم أعبره بقارب أو سفينة بل وصلت دمشق عبر الطريق البري بكل ما يحمله من مخاطر بل ومغامرة غير محسوبة النتائج، ولم تتهيأ لي فرصة لكي أخبر فيها الاستاذ بالمجازفة التي سلكتها وبصحبتي أسرتي كاملة، ولما علم عدد من الاصدقاء في ساعتها، أني جئت عبر الطريق البري الذي يعج بالمفاجآت أصيبوا بالدهشة وقد باءت كل محاولاتي في تخفيف وقع الخبر عليهم بالفشل، على أساس أني كنت أعرف السائق منذ زمن يكفي لوضع الثقة به، وانه يعرف الطريق جيداً، وعندما دارت عيناي في صالة الضيوف في بيته الهادئ في دمشق قفزت الى ذهني صورة بيته ومكتبته في بغداد،

وعقدت مع نفسي مقارنة سريعة بين الاثنين ولم تغب عن بالي لحظة تسلمي منه روايتين أميركيتين هما ''وتشرق الشمس أيضاً'' لأرنست همنغواي ورواية ''أفول القمر'' لجون شتاينبك وطلب مني في حينه ان أقدم عنهما ملخصين ولو بعد بضعة أيام، وكان الاستاذ حريصاً على حيازة طلبته على معنى محدد فيما يقرأونه أو يكتبونه وفي حالة كهذه ينبغي الوقوف على المعاني التي تستند اليها القصة او القصيدة التي يطالعونها او التي يفرضها المنهاج المدرسي عليهم، ولعل المقصود بالمعنى في وقتنا الحاضر، الوصول الى كنهه الرسالة التي يحملها المتلقي سواء أكان شاعراً أم قاصاً أو رساماً، وموضوعة الرسالة الاجتماعية للأدب موضوعة قديمة، قِدم الفلسفات المادية والمثالية وصراعها حول أهمية الثقافة والمعرفة، اذن لا مناص من توفر المعنى في قصائدنا وقصصنا التي نكتبها وليس بعيداً ان تكون عملية البحث عن معنى أو حيازة النص على مفهوم الرسالة في الفن من بين الدوافع التي حفزت الشاعر النواب على التزامه كتابة القصيدة الشعبية حيث يتجسد الخطاب الشعري بالوضوح الكافي في ورود المعنى، ولا يغيب عن ذهن القارئ الواعي لقصائد النواب من ان الشاعر يدرك البعدين العاطفي والأخلاقي، اللذين توفرهما القصيدة الشعبية، إذ لا يخطئ مدى ما توفره من ملامسة الواقع اليومي الذي يعاني منه المتلقي، كما ان القصيدة لدى النواب هي ارتكاز الى تجربة غنية ومن المعيب ان بعض المثقفين العراقيين يعتقد او يؤمن بإصرار: ان القصيدة الشعبية تخلو من جذر معرفي او ابعاد فلسفية او ان المخيلة فيها محدودة المديات متناسين اهمية التحولات الفنية والجمالية الكبيرة التي حدثت في تركيبتها ''... ولا يستطيع أحد منا إنكار حقيقة ان الشعر العامي العراقي قد لبس اردیته الحداثوية البهية على يدي المبدع مظفر النواب في الخمسينيات حيث تلاعبت أنامله الساحرة بترف اللغة العامية الباردة وبمفردات الحياة الشعبية اليومية، التي أتعبتها الألفة وسلب بريق روحها التعود، فجعل منها سلاسل لآلئ مذهلة ونجوم سموات تخلب الافئدة والابصار'' من هنا نستدل على البعد الفني الجمالي الساحر الذي خلقه النواب في أحد التعبير الشعري السائد في العراق:

أشكَد نده ...
نكَط على الضلع
وأنسيت أكَلك ... يمته
وأشكثر هجرك
عاشر ليالي الهوى
وما لمته ...

وقد تكون هذه الصفحات الموجزة هي دافع خفيً في المقبل من الايام للدخول خطوة أوسع وأعرض في عالم الشاعر الكبير النواب، ليس بدافع الوفاء العاطفي بل بضرورة الكشف والتمتع بجواهر الكلم، والمناخات المبتكرة والخطاب الذي يلامس شغاف قلوبنا. أنه خطاب مظفر النواب الذي يفرض علينا اعادة قراءته مرة وأخرى في القريب العاجل.

مظفر النواب: وطني علمني أن أقرأ كلّ الأشياء وأن أتمسك بقناعاتي

مقابلة أجراها د. كاظم المقدادي

خلال شهر حزيران 2000، حل الشاعر الكبير مظفر النواب ضيفاً في مدن: لوند وستوكهولم ومالمو السويدية، حيث نظمت له فيها العديد من الأمسيات. وقد جرى للنواب تكريم وحفاوة يليقان بمقامه ومكانته كواحد من مبدعي الشعب العراقي الكبير. وقد اغتنمت الفرصة، وأجريت مع النواب مقابلة مصورة لصالح جريدة "طريق الشعب" في ستوكهولم.
وبسبب حجم المادة نشرت "طريق الشعب" قسما منها فقط في عددها رقم 2، السنة 66، أيلول 2000 تحت عنوان "مظفر النواب: وطني علمني أن اقرأ كل الأشياء وأن أتمسك بقناعاتي". وها أنا ذا وبعد هذه السنوات الطويلة، اخص "الثقافة الجديدة" كي تنشر القسم الأكبر وغير المنشور من تلك المقابلة.

المقدادي: شرف لي ان التقي وأحاور باسم "طريق الشعب"، شخصية مبدعة فذة، وأيما إبداع، أصيلة وعظيمة في آن، كشخصية شاعر الشعب مظفر النواب-المثقف والمناضل، الاديب، والشاعر، والرسام، والمبدع، راجياً ان يتسع صدرك لحوار سياسي، فانا لست أديبا..

الطفولة وتأثيرات البيئة المحيطة

النواب: فيما يتعلق بطفولتي: ولدت في بغداد، عام 1934، في بيت يطل على النهر، كبير، تمر به كل المواكب الذاهبة الى كربلاء، برجالها وخيولها، حاملة المشاعل والرايات والشعائر، بالوانها المختلفة، والنساء بملابسهن السوداء، تصاحبها الاشعار والتراتيل، والبكاء والعويل، الخ. وكانت تجري في باحة البيت الكبير ما يسمى بـ"التشابيه"- تمثيلاً لواقعة كربلاء.. كل ذلك أثر، بالتأكيد، عليّ وأنا طفل دون ان أعي. فلكل تلك المشاهد والصور تأثيرها على اللاوعي، بما تصنعه من غنى في الرؤية، مشاهد وألوانا ومشاعل، ومن غنى في حاسة الشم، رائحة الزهر، وماء الورد، والمسك، والنساء، والرجال، وغير ذلك، ومن غنى في حاسة السمع، بما تسمعه من اهازيج وتراتيل وردات شعبية، تجعل من الانسان، منذ نعومة أظافره، يتموسق، ويكون مدوزناً.. وفعلاً أنا اكتب الشعر بوزن، وما الى ذلك، لكنني لا افكر بالوزن نهائياً، بل هو يأتي عفوياً، وقد تحصل بعض

الزحافات، فانتبه اليها وأعيد كتابتها..

في ذلك البيت الكبير، وبيوتات عديدة، مجاورة له، كانت هنالك اجواء اخرى، ومنها ان العائلة تلتم في نهاية كل شهر، في حفل خاص بها، يتخلله عزف على البيانو او على الكمنجة. كان جدي يعزف على القانون، ووالدي يضرب على العود، ووالدتي - على البيانو، وخالي يجيد العزف على الكمنجة. وكل هذا ساعد ايضاً في نشأتي. كما هناك تأثير اللوحات، المعلقة على جدران البيت، والمنحوتات، والتحف الثمينة، والسجاد، والبسط ذات الالوان الزاهية.. كانت عائلتي عائلة ارستقراطية، موسورة، قديمة، تتذوق الادب والفنون والموسيقى.. لكنها كانت، كذلك، تحمل معها النفي السياسي المستمر. فهي- كما نُقل الينا- هاجرت من الجزيرة الى العراق، واستقرت في العراق فترة، لكنها غادرته الى الهند نتيجة للاضطهاد الذي تعرضت له، وحكمت هناك، في فترة ما، المقاطعات الشمالية، تقديراً لسمعتها وشروف نسبها. بعد إستيلاء الانكليز على الهند قاومت الاستعمار البريطاني، وبعد قمع المقاومة الوطنية نفيت مرة اخرى، ولجأت الى موطنها القديم – العراق- وحيث العتبات المقدسة، واستقرت في العراق.. فتجد هناك إرثا من الرفض والكراهية للاستعمار الانكليزي بسبب من النفي المستمر والمعاناة. وكل هذا يروى في البيت على مسامعنا، منذ اصغر الصغر، في الاحاديث اليومية، لاسيما في الليل عندما يلتقي افراد العائلة، كباراً وصغاراً، على سطح الدار ايام الصيف، فنما وتطور معنا، ورافق حياتنا على الدوام..

وثمة اجواء اخرى ساعدت هي الاخرى..صحيح ان بيتنا كان بيتاً كبيراً، لكنه كان يقع في منطقة شعبية، في جانب الكرخ، مقابل سراي الدولة القديم، حيث موقع ساعة بغداد القديمة.. وبجانب البيت تقع مدرسة الكرخ للبنات. وكانت الصبايا يأتين من المدرسة الى بيتنا، مع أخواتي وبنات عمي وغيرهن.. هكذا عشنا، منذ الطفولة، جواً متفتحاً، فيه اختلاط الجنسين، ولا وجود للتزمت، رغم التزام العائلة بالشعائر الدينية، وطقوس عاشوراء، والسبايا، وغيرها، التي تجري في نفس البيت.. كان بيتنا خالياً من اجواء التزمت إطلاقاً.. إضافة الى هذا، هناك الاجواء الشعبية في المنطقة، بما فيها من أعياد، واهازيج، ودواليب الهوا، والمراجيح، والردات الشعبية.. وكل هذا جعلنا نشب ونتعايش في اجواء وذاكرة تراثية، ترسخت فينا، ونمت وتطورت معنا..

أولى المشاركات في النضالات الجماهيرية والمضايقات

النواب: درست في مدرسة الفيصلية الابتدائية، وهي قريبة من بيتنا، ومن السكة الحديدية التي كانت تصل الكرخ بالكاظمية. وأنهيت الدراسة المتوسطة في متوسطة الكرخ، والثانوية في ثانوية الكرخ ايضاً. وفي وقت مبكر شاركت في المظاهرات الطلابية، وفي وثبة

كانون 1948، التي إنطلقت ضد معاهدة بورتسموث، مع انني كنت يافعاً.. وشاركت ايضاً في إنتفاضة تشرين 1952.. وشهدت مبكراً، ايضاً، إطلاق الرصاص على المتظاهرين.. كانت الدعوة الى المشاركة في المظاهرات الجماهيرية تاتي الينا عن طريق اتحاد الطلبة. وفي وقت مبكر ايضاً، كانت لديّ إطلالة على النشاط الذي يقوم به الشيوعيون العراقيون، من خلال النشاط الطلابي. ولم أكن شيوعياً منتمياً، بل كنت أنشط من خلال الحركة الطلابية، وحركة الشارع العامة.

درست في كلية الآداب في باب المعظم ببغداد، وكنت طالباً فيها ابان انفجار إنتفاضة 1952، وشاركت فيها.. بعد الانتفاضة فوتحت بالانتماء الى الحزب الشيوعي العراقي، لكنني كنت، في البداية، متردداً بالانتماء، متصوراً ان من ينخرط في سلك حياة حزبية لا بد ان يكون شديد الالتزام، معتقداً، آنذاك، بانني لست قادراً على ذلك الالتزام، فبقيت صديقاً للحزب، مفضلاً ان اكون قريباً منه ومن بقية الاحزاب الوطنية.. عقب قمع الانتفاضة القيّ القبض عليّ مع مجموعة كبيرة من زملائي، وفصلنا من الكلية، وكانت المجموعة تضم طلاباً وطالبات، من ضمنهن سافرة جميل حافظ - زوجة الشهيد محمد حسين ابو العيس، فيما بعد - ووديعة طه النجم، التي اصبحت دكتورة فيما بعد.. هنا لا بد من ذكر بشيء من الطيب لعبد العزيز الدوري، رغم كل ما يقال عنه. كان عميداً لكلية الآداب، فلم يوافق على فصلنا من الدراسة، ورغم فصلنا كنا نداوم، ولم يعترض على ذلك، ولم يمنعنا، بل والفضل يعود له في إلغاء فصلنا، الذي تم بعد ان قابل الوزير خليل كنه بشأن ذلك.

بعد ان تخرجت من الكلية، رفضت السلطة تعييني، معتبرة اياي شيوعياً، بينما كنت صديقاً للحزب الشيوعي العراقي، ولم اصبح بعد عضواً فيه. في ذلك الوقت جرت إنتخابات البرلمان العراقي، وشاركت الجبهة الوطنية فيها، وكنا ننشط في هذا المجال. وجاءت حكومة فاضل الجمالي لامتصاص النقمة الشعبية السائدة، فقاموا بتعييننا. وعينت شخصياً في المسيب، وكان معي مجموعة من المدرسين، شيوعيون منتمون للحزب. فقمنا بنشاطات عديدة مع الطلبة، وكانت هنالك حركة، وكان لنا تأثيرنا السياسي عليهم، وان لم يكن تأثيراً مباشراً، من خلال علاقتنا الطيبة بهم، وتدريسنا لهم على نحو جدي وحقيقي، ومن خلال عملنا. وكان معروفاً لهم باننا يساريون وتقدميون.. بعد نحو 6 أشهر قامت السلطة بفصلنا، انا و3-4 مدرسين آخرين. وبقينا عاطلين عن العمل لغاية قيام ثورة 14 تموز..

بعد الثورة عدت للعمل، وعينت مديرا لتربية الكرخ، ثم مسؤولاً عن النشاط الفني في وزارة التربية والتعليم، الذي كان محدوداً، فأتاحت لي الوظيفة الاخيرة فرصة دعم الموهوبين والاهتمام بهم وتشجيعهم على مواصلة اختصاصاتهم وتطويرها.

اللقاء بسلام عادل ومقاومة انقلاب شباط الاسود

النواب: في تلك السنوات أتذكر مناسبتين مهمتين، إلتقيت خلالهما بالشهيد سلام عادل. الاولى- خلال مؤتمر كرس لنشاط الشيوعيين في العمل الديمقراطي (في إتحاد الشبيبة، اتحاد الطلبة، رابطة المرأة، وغيرها) كان حاضراً فيه.. وإلتقيته، مرة ثانية، وكان معه المرحوم صالح دكله. وكان ذلك في مكتب الشهيد سعيد الخفاجي (وهو اول محامي شيوعي استشهد بعد ثورة 14 تموز) الذي تحول الى احد مقرات الحزب.. كان الوضع آنذاك يهدد بصدام مع السلطة، وكانت قد جرت إغتيالات ضد الشيوعيين، وجرى توزيع سلاح ضد الثورة.. فكنت شاهداً على حديث مهم جرى بين سلام عادل ودكله- لا مجال هنا للخوض في تفاصيله ..

ابان إنقلاب شباط 1963 قاومنا الانقلابيين بالحجارة، لكوننا لا نملك السلاح. وهذه قصة، يطول الحديث حولها. قاومناهم بكل ما نستطيع، وكنت ساعتها في ساحة التحرير، ولم أكن في الكاظمية - أشير الى ذلك لأنهم زعموا، أثناء محاكمتي، فيما بعد، بأنني قتلت شرطياً في الكاظمية، وأتوا بشهود زور، اطلوا من شباك زنزانتي، قائلين "هذا هو القاتل".. بعد سيطرة الانقلابيين على بغداد، اختفيت، مع مجموعة من الشيوعيين، في بيت صديق. لم يكن اهله شيوعيين، وكانت الظروف صعبة جداً، خصوصاً وان بيانات الانقلابيين تدعو علانية الى تصفية الشيوعيين، وكل من يخفي احدهم.. بعده اختفيت في بيت آخر- لعامل فيترجي، عرفني عليه صديق، ولم يكن شيوعياً أيضاً، لكنه كان إنساناً رائعاً، مثالاً للود والشهامة والشجاعة.. ثم تركت بغداد الى البصرة، متنكراً بزي فلاح، ووصلت الى شط العرب، الى منطقة تسمى "بستان سيد حميد"، ومن هناك غادرت الى إيران، برفقة مهرب، سالكين طريقاً صعباً للغاية، معظمه طيناً، وكانت تطاردنا سيارات مسلحة، نجونا منها باعجوبة.. إنها قصة طويلة، تنطوي على تجربة مريرة، سجلتها في قصيدة "وتريات ليلية"..

الوصول لحدود الاتحاد السوفيتي والاعتقال وحكم الإعدام

النواب: أتذكر عندما وصلنا قرب الحدود أوصاني الدليل: عند وصولك لـ "الصبات" ستجد ان نفط العراق (ويقصد نخيل العراق) سيختفي، عندئذ "تضع" نفط ايران عند حاجبك الايمن، وبذلك لن تتيه. وعندما وصلت الى الحدود بكيت، مدركاً، لحظتها، ان الغياب عن العراق سيطول..

واصلت المسير لوحدي، ووصلت الى بيوت مهربين آخرين، أطعموني، ومن ثم قاموا بايصالي الى القطار، الذي أوصلني الى طهران.. وفي طهران التقيت بمجموعة من العراقيين، وقام

قسم منهم بمحاولة إيصالنا الى حزب توده، إلا ان الحزب كان مضروباً ويعاني من قمع شديد، وجرت لنا اتصالات عديدة - مع توده، ومجموعة ''مردوم''، وتنظيمات مختلفة، حتى أن بعضها تبين ان الاجهزة الامنية شكلته واطلقت عليه اسماء ''شيوعية''.. وفي الأَخير صرنا مع مجموعة يسارية ساعدتنا في الوصول الى حدود الاتحاد السوفيتي.. استقلينا سيارة لهذا الغرض، وكان من المقرر ان اكون ضمن المجموعة الاولى، لكنني تنازلت عن دوري للمرحوم فريد الاحمر بناء على طلبه (وهو محام عراقي دافع عن الشيوعيين)، فوصلت الى باكو سالمة. وسافرت مع المجموعة الثانية، لكن أمرها انكشف، وتم إلقاء القبض علينا من قبل السافاك الايراني، في منطقة قريبة من الحدود، اسمها ''اردبيل''، فارجعونا الى طهران، وهناك تعرضنا الى تعذيب وحشي..

كانوا يريدون الاعتراف باننا عراقيون كي يسلموننا الى السلطات العراقية، بينما كنت مصراً بأنني ايراني.. فكانوا يقولون: كيف انت ايراني ولا تعرف اللغة الايرانية، فاجيبهم: انني من مناطق الجنوب التي تتكلم العربية.. لم يصدقوا..

وبعد ان يأسوا من الاعتراف، رمونا في المعتقل لفترة من الزمن.. هناك تعرفت على العديد من العراقيين، وكان عددنا بين 100 و 150 شخصاً.. وهناك فكرنا ان نحفر نفقاً لنهرب، إلا ان قسما من المجموعة تردد، دون تبيان السبب، فلم تتم المحاولة.. ثم سلمتنا السلطات الايرانية الى السلطات العراقية. فقامت الاخيرة بنقلنا الى البصرة، وفي البصرة تم عزلي عن البقية، ومن ثم نقلوني الى العمارة - بحجة ان ليّ نشاطا سياسيا في الاهوار، ولم يكن لي أي نشاط فيها. كل ما في الامر كنت قد زرت الاهوار في العهد الملكي، ومرة او مرتين بعد ثورة تموز، للتمتع بجمالها وللتعرف على ناسها. اعتبروا ذلك نشاطاً سياسياً.. ومن العمارة نقلوني الى بغداد.. وفي بغداد حوكمت من قبل المحكمة العرفية، محاكمة صورية، وحكموا عليّ بالاعدام.. فيما بعد، وعلى اثر المساعي التي بذلت من قبل اهلي وأقربائي، لإنقاذي من حبل المشنقة، خففوا الحكم الى المؤبد .. عائلتي معروفة من قبل الجميع، فذهبت الى المسؤولين، والى المدعي العام، والحاكم، الذي قال لهم: نحن لا نريد منه شيئاً سوى شتم الحزب الشيوعي.. وفعلاً، في المحكمة نادى عليّ اول واحد من بين 112 متهماً، طالباً ان أشتم الحزب، وكان متصوراً أنني ساقوم بذلك، وأؤثرُ على البقية، لكنني رفضت. فقال: طيب لا تشتم الحزب الشيوعي، إشتم الاحزاب السياسية. فأجبت: نحن لا نشتم الاحزاب السياسية. فصاح:'' روح، اعدام !''.. فيما بعد خفف الحكم الى المؤبد، وحكم عليّ، خارج المحكمة، في غرفة جانبية، بالسجن 3 سنوات إضافية على قصيدة ''البراءة''.

في سجني "نقرة السلمان" والحلة.. والنفق والهروب

النواب: بعد الحكم نقلوني الى سجن "نقرة السلمان"، حيث قضيت فيه 3 سنوات.. بعدها نقلوني الى سجن الحلة.. وهناك، حفرنا، في عام 1967، نفقاً للهروب، بدايته في الغرفة المظلمة من السجن.. أنجزناه بفترة خيالية - تقديرات السلطة تقول "لا اقل من 6 أشهر، وبمساعدة من الخارج"، بينما لم يتجاوز العمل اكثر من 30 - 38 يوماً، وبدون اية مساعدة من الخارج، علماً بان العمل أُنجز بسكين مطبخ واحدة.. كان المخططون للعملية 4، والمنفذون للحفر تم اختيارهم على اساس التجربة في السجون الاخرى.. كان العمل يجري ليل نهار، وكان علينا التخلص من تراب بحجم نحو 37 متراً مكعباً.

المقدادي: كيف تخلصتم من هذه الكمية الكبيرة؟

- قصة طويلة.. المهم تخلصنا منها. وبعد عمل شاق ومضن أنجزنا العملية.. عند تنفيذ عملية الهروب حصلت إشكالية، اساسها الخلافات بين "القيادة المركزية" و"اللجنة المركزية"، حتى وصل الامر حد الصياح، وكادت العملية ان تنكشف للسجانين، خصوصاً وكل يوم يجري تفتيش للسجن، علماً بان احداً لم يساعدنا من الخارج، لا من "القيادة المركزية" ولا من اللجنة المركزية.. تصدى لعملية التنفيذ المرحوم حسين سلطان والمرحوم صاحب الحميري، بحجة ان عملية الهروب ستؤدي الى مذبحة، فكان ردنا باننا لسنا مستعدين للبقاء في السجن مقيدين، بل نريد الخروج للعمل، ولن نجلس في البيوت.. وبعد مفاوضات طويلة تم إتفاق الطرفين على خروج مجموعة من السجناء. وأُعدت قائمة باسماء 21 - 22 سجيناً من الطرفين. وإتفقنا ان تخرج اولاً مجموعة الاربعة الذين حفروا النفق، ثم الاربعة المخططين للعملية، كي لا ينكل بهم. واخترنا المهددين بتنفيذ الاعدام بهم، ومن ذوي الاحكام الثقيلة.. عند الخروج حصلت ربكة.. فالشخص المسؤول عن توزيع الهويات، المزورة، باسماء جنود، خرج ونسي توزيعها (إسمه حافظ رسن، افلحت السلطة باعتقاله، فيما بعد، وإسقاطه، وصار يتعاون مع اجهزتها الامنية). والمسؤول عن توزيع النقود خرج ونسي هو الآخر توزيعها على المجموعات التي ستهرب.. قررنا ترك باب غرفة النفق مفتوحاً لكل من يريد الهرب، بعد هروب جميع من اتفقنا على هروبهم، وكلفنا الاخ ابو حسام - الموجود حالياً في السويد - مسؤولاً عن غرفة باب النفق، للتغطية على عملية الهروب، وكان معروفاً بشهامته وشجاعته، ولم يبق على محكوميته سوى سنة واحدة، وفعلاً ظل ماسكاً الباب حتى هرب الجميع.. كان النفق ينتهي في ساحة كراج السيارات المجاور للسجن، وقد إتفقنا مع عدد من العوائل، أثناء زيارتها لذويها، ان تجلس في الكراج، عند مكان معين، للتغطية على عملية الهروب.. أثناء المفاوضات

الطويلة والمريرة، تأخرت ساعة التنفيذ، وسافرت العوائل، بعد إنتظار طويل، معتقدة ان العملية لم تنفذ.. حارس الكراج تعود عند خلو الكراج من المسافرين، ان يجلس، مع اطفاله، في باب الكراج.. أثناء جلوسه، والكراج خالياً من المسافرين، كان يمر عليه كل شوية واحد: ''سلام عليكم!''، فيرد عليه: ''عليكم السلام!''.. سلام عليكم! ..عليكم السلام !.. وفي لحظة إنتبه الى كثرة المارين عليه، وعاين حوله، فلم يعرف من اين يأتون، فارتعب، وراح يصيّح خائفاً.. عندها إنتبهت الربايا، والشرطة في المنطقة، وانكشفت العملية.. ولكن بعد ان هرب الجميع..

المقدادي: هل ألقي القبض على احد من السجناء الهاربين ؟

النواب: نعم، واحد فقط، في مكان اَخر، في المسيب، وكان بسبب عدم معرفته بالمنطقة.

الكفاح المسلح

النواب: بعد هروبي وصلت الى بغداد، مثلما وصل الاخرون الى الاماكن التي كان من المقرر وصولهم اليها.. إختفيت في بغداد فترة من الزمن.. بعدها، وكنا نهيئ للكفاح المسلح في الجنوب، ذهبت الى مناطق الغراف والحي، في ريف الكوت، وقمنا بتشكيل وحدتين، الاولى في الجبايش، بالناصرية، والثانية في ريف العمارة، كبداية لبناء حركة مسلحة ولخوض حرب عصابات.. أشير، للحقيقة، كان ثمة خلاف على القضية، ودار صراع حولها، محوره: هل القيام بانتفاضة ضد السلطة يبدأ من الريف، ام من داخل بغداد..؟

المقدادي: ما هو موقفك في الصراع المذكور؟

النواب: كان لي موقفي المعروف.. المهم ان تجربة الكفاح المسلح كانت، بالنسبة لي، تجربة قيمة، رغم الضربة الشرسة التي وجهت لها، والعوامل العديدة التي ساعدت على اجهاضها.. بعد ضربها طرحت السلطة برنامجها الوطني، وطرحت الاحزاب السياسية برامجها الوطنية، وجرت حوارات معها. كانت ''القيادة المركزية'' خارج موضوع الحوار، وكانت تسعى، بنفس الوقت، لبناء جبهة مضادة للسلطة - من بعض القوى السياسية الاخرى.

في تلك الفترة بالذات، تمت تصفية إثنين من الذين كانوا يعملون مع ''القيادة المركزية''، أفلحت السلطة بإسقاطهم مع اَخرين، واجبرتهم على العمل مع اجهزتها الامنية، من بينهم جبار كردي. أعتقد، ولست متأكداً، لا املك معلومات موثقة، لكوني كنت اَنذاك اقود خطاً اَخر في بغداد، ولم اكن في الخط العسكري، أن ''القيادة'' هي التي قامت بالتصفية.. فإرتعبت السلطة من العملية، وشنت هجوماً واسعاً.. على اثره تم إعتقالي، وكان ذلك في عام 1969، وكنت وقتها مدرساً في ثانوية المنصور، التي عينت فيها بعد العفو العام عن السياسيين المعارضين، ولم يمض على تعييني سوى بضعة أشهر.. أخذوني الى الامن العامة، ووضعوني

في الانفرادي.. في ذلك الوقت اعدموا كل المجموعة التي كانت في "القيادة المركزية"، ما عدا ثلاثة: سامي احمد (ابو امير، الذي كان عضو لجنة التنظيم معي في سجن "نقرة السلمان"، وكان موقفه جيد جداً). وشخص آخر - أبغض ذكر اسمه، يعمل مع السلطة الآن، ومنذ فترة طويلة. والثالث هو أنا.. قضية إطلاق سراحي قضية يطول الحديث فيها. ذكرتها لمؤلف كتاب "عراق 8 شباط -1963 من حوار المفاهيم الى حوار الدم - مراجعات في ذاكرة طالب الشبيب" د.علي كريم سعيد، وقد ثبتها في الكتاب، عن دور علي صالح السعدي في إطلاق سراحي، بعد المساعي التي بذلتها عائلتي.

لم يدم توقيفي في الامن العامة سوى ثلاثة ايام، بعدها جاء مدير الامن، واسمه ابو عروبة (حامد العاني) شخصياً، واعتذر لي.. بعد ذلك طلبني صدام حسين للقائه في القصر الجمهوري، ولم يكن لديه آنذاك منصب حكومي، فقط منصبه حزبي. استقبلني بود و ترحاب، وجرى حديث طويل بيننا، ولجلستين.. سُجل الحديث كاملاً - اتمنى ان يكون موجوداً.. خلاله عبرت عن موقفي بكل وضوح.. من بين الحديث، قال: كنا نطلب قصيدتك "البراءة" لكنك ترفض ان نحصل عليها.. وسألني: لماذا "القيادة" لا تتفق معنا، ونحن الآن بصدد بناء جبهة مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفلان وفلان منها كانوا عندي هنا؟.. أجبته: هذه قضية تخص حزبكم وحزبهم (على اساس ان لا علاقة لي باي حزب). فقال: طيب، دعني اسمع رأيك الشخصي بنا – أنت مظفر النواب وأنا صدام حسين.. هل عندك ثقة بنا؟ قلت: لا !.قال: شلون ما عندك ثقة، وليش؟! قلت: بسبب التجربة الدامية في شباط 1963.. قال: طلّعنا نقد ذاتي.. قلت: اطلعت عليه، ولكنكم كررتم ذلك في ساحة السباع، وألقيتم المسؤولية على "القيادة المركزية"، متهمين إياها بإطلاق الرصاص، بينما "القيادة" لا علاقة لها بالموضوع إطلاقاً... على اية حال، أدركت، أثناء الحديث، "انها قصة لا تنتهي"، مع انه كان، وللحقيقة اذكر ذلك، برغم موقفي الواضح، دمثاً، مبتسماً، طيلة حديثه معي.. في ختام اللقاء قال: اريد ان تتكرر لقاءاتنا. عندئذ سألته: هل أنا رهينة بايديكم؟ في العهد الملكي لم أحصل على جواز سفر، وفي ايام عبد الكريم قاسم، وايام البعثيين وعبد السلام عارف، ذات الشيء.. فقال: لا، نحن لا نأخذ رهائن. ثم سألني: لماذا تريد السفر؟ قلت: لاطبع ديواني "للريل وحمد". فقال:نحن نطبعه، ونوزعه داخل العراق، وبالكمية التي تريدها. قلت:لا، الإطلالة من بيروت تختلف. فسألني: وكم ستبقى في بيروت ؟ قلت: اسبوع واحد، لا اكثر..عندئذ عبر عن تفهمه لوضعي، حيث لم أطلع للخارج منذ فترة طويلة.. وأتصل تلفونياً، وتم تجهيز الجواز فوراً. وحال استلامي له ذهبت للخطوط الجوية، وحجزت تذكرة، وغادرت العراق في نفس اليوم، مقرراً عدم العودة..

في لبنان وسوريا

النواب: سافرت الى بيروت، وكان ذلك في اواخر عام 1969، وبقيت فيها حوالي 6 أشهر، قضيتها في بيت المرحوم بلند الحيدري، صديقي العزيز، الذي أحبه كثيراً.. في احد الايام طلب بلند ان ارافقه وزوجته في زيارة قصيرة الى سوريا. فرفضت، قائلاً: هناك حزب البعث يحكم ايضاً. فقال: الامر يختلف!.. وأقنعني، فذهبنا صباحاً، وعدنا مساء.. عند الحدود منعت من دخول لبنان مجدداً، بالرغم من تجديدي لإقامتي لدى الامن العام اللبناني. وراحوا يحققون معي: كيف دخلت، وكيف خرجت.. ثم أرجعوني الى سوريا..

في سوريا قررت ان لا ابقى طويلاً، فنزلت في فندق رخيص، بالمرجا، لكوني لا املك مبلغاً كافياً، لحين إستلامي مبلغاً آخر. وكان يفترض ان ابقى يوماً واحداً، إلا ان وصول المبلغ تأخر. عندها لم أغادر الفندق إلا لتناول وجبة طعام، خشية ان يراني احد يعرفني.. في اليوم الرابع او الخامس، وكنت قد رتبت شنطتي إستعداداً للسفر في اليوم التالي الى تركيا، خرجت أتمشى، بعد ان مليت الجلوس، فلمحني احد طلبتي، من البعثيين، فخبر عني. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كنت في غرفتي، حدث دق على الباب شديد ومزعج، ففتحت الباب، وإذا بصاحب الفندق يسأل: ماذا فعلت؟ قلت: لم افعل شيئا!.. ماذا حصل؟ قال: الدنيا مقلوبة، والسيارات تحوط المنطقة وجاية عليك. فقلت: نفس ما يجري في العراق!. فقال: تفضل معي! أجبته: لا، أنا هنا في غرفتي فليأت من ياتي لاعتقالي.. وجاءوا.. لكنني فوجئت بتصرف آخر تماماً - فيه ود، واحترام.. كانوا سوريين، وبعد السلام والترحاب، قالوا: نحن مرسلين من قبل الدكتور نور الدين الاتاسي (كان في وقتها رئيساً للجمهورية)، ومن غير المعقول ان تنزل في فندق وأنت في بلدك ووطنك، والرئيس يدعوك لاستضافته في القصر. فابديت شكري لتلك الالتفاتة، لكنني اعتذرت عن قبولها، قائلاً انني انوي السفر الى تركيا. فقالوا: براحتك. وغادروا..في اليوم التالي جاءني وفد من الحزب – من قبل الدكتور يوسف زعين، وهو شخص أحترمه وأحبه وأعرفه من قبل ايام الحرب، ولدينا ذكريات جميلة، دعاني لزيارته.. لبيت الدعوة، وأُستقبلت، من قبل القيادتين القومية والقطرية، بحفاوة، وهناك سألوا: لماذا تذهب الى تركيا، بينما هنا بلدك، وبإمكانك أن تعيش مطمئناً، وحيثما تريد، وحالك حال الناس الآخرين.. فوافقت، واستأجرت بيتاً، بالاحرى قبواً، سكنت فيه.. وتدريجياً تعرفت على عدد كبير من الناس، وحضرت العديد من الامسيات..كان الناس يعرفونني، خصوصاً في المنطقة الشرقية من دمشق، حيث يرددون قصائدي الشعبية بكثرة، خاصة التي غناها ياس خضر، وغيره، وهم يحبون اللهجة العراقية. ويوسف زعين بالذات لهجته عراقية، ينطقها وكأنه عراقي..

في السودان وإريتريا وظفار

النواب: في سوريا بقيت فترة غير قليلة، ومنها غادرت الى القاهرة، حيث عشت فترة، ومنها غادرت الى السودان، وتعرفت على ناسه، ومنه غادرت الى اريتريا، وبقيت مع الثوار الاريتريين حوالي 3 أشهر، وكانت تجربة مهمة لي، تعرفت خلالها على طبيعة تلك الحركة، ونشاطاتها، وعلى الطبيعة هناك، تلك الطبيعة البكر، التي مر بها القليل من الناس.. اتذكر، عندما كنا نختبئ، عند سفح الجبل وتحت الاشجار، كي لا ترانا الطائرات، كانت الحيوانات تقترب منا ولا تخاف الناس.. إنها طبيعة بكر، حية، تشعرك وكأن لديك معها لغة مشتركة، مع الاشجار والصخور، كأنك تحاورها.. تلك المعايشة جعلتني افكر ان شجرة المدينة ميتة، مسممة، لا لغة ولا حوار معها.. وقد مريت في اريتريا بتجارب كثيرة، عكستها في مذكرات يومية، لازلت أحتفظ بها. كما وحاولت، ان اترجم، بمساعدة ثوار جيش التحري الاريتري، بعض القصائد من الارترية الى العربية. لديّ العديد منها، لم تنشر بعد، وهي قصائد جميلة جداً، تجسد أدب مجتمع رعوي، هو من المجتمعات المماثلة القليلة جداً الباقية حتى الآن.

من هناك غادرت الى ظفار، ووصلت تقريباً الى "خط هوشي منه"، وهو موقع الصراع بين الثوار وسلطنة قابوس. تعرفت، عن قرب، على الثوار الظفاريين، وواقع حالهم.. للاسف، ضربت مثل هذه الحركات التحررية في العالم العربي كله.. شاركت الثوار تحركاتهم، وكنا نسير كل يوم بين 16 الى 19 ساعة تقريباً، نصعد جبالاً ونهبط منها، فانخفض وزني 15 - 16 كيلوغراماً.. عند رجوعي ألقت السلطات السودانية القبض عليّ، وكانت تريد معرفة كيفية تسللي الى الثوار الاريتريين.. عندها ارسلت برقيات الى مسؤولين سودانيين، وكان قسم منهم قريبا من الشيوعيين، كنت قد إلتقيت بعضهم، فأطلقوا سراحي، واعتذر مدير الامن شخصياً لإقدامهم على ذلك العمل.. أثناء وجودي في السودان وجهت لي دعوة لزيارة جنوب السودان، فلبيتها. وكانت تجربة اخرى، ممتعة ومهمة بالنسبة لي.. طبيعة عجيبة - حياة بوهيمية. الناس لا يعملون، وهم عراة، تجد أحدهم عارياً، لكنه يضع، مثلاً، ريشة على راسه، او يتمنطق حزاماً.. خارج المدينة تجد الناس عراة تماماً.. هذه التجربة أفادتني كثيراً لمعرفة تلك الشعوب، قبائلها، حياتها، عاداتها، تقاليدها.. قسم من تلك القبائل ذات أصول عربية، يدلل على هذا المظهر الخارجي لناسها، وبعض اسمائهم.

محاولة اغتيال وقصف دار السكن والعيش في ليبيا

النواب: في عام 1970 عدت من جديد الى سوريا، لكنني غادرتها إثر تعرضي لمحاولة إغتيال، حيث اطلق النار عليّ عراقي، يعمل في أجهزة

مخابراتية عديدة، ومنها المخابرات العراقية (عاد الى العراق، وهو الآن موجود في احد بلدان اللجوء، أظن في هولندا).. فغادرتها الى لبنان، وهناك عشت فترة من فترات الحرب الاهلية.. وفي يوم من الايام أذاعت إذاعة إسرائيل خبر موتي أثناء قصف البيت الذي اسكنه.. فعلاً تم قصف البيت، الذي كان يقع على خط التماس، لكنني لم اكن ساعتها فيه. وقد نشرت الخبر ايضاً احدى الصحف المحلية.. بعد هذه الحادثة غادرت لبنان الى ليبيا، ملبياً دعوة سفيرها في لبنان لي، في آخر ايام وجودي هناك، وكان قد قال لي: تفضل وشوف بلد عربي آخر، ولا تتصور انه مثل لبنان وسوريا، ستعيش هناك بأمان، وبإمكانك ان تتحرك كما تشاء، ولن يتعرض لك احد.. وصلت طرابلس، وكان، وقتها، يعقد هناك مؤتمراً لمنظمة التحرير الفلسطينية.. في ليبيا عشت تجربة جديدة، تعرفت خلالها على الاخوان الليبيين عن قرب، والتقيت باغلب المسؤولين فيها. وفعلاً- كما وعدني السفير- عشت حراً طليقاً، رغم انني كنت قاسياً، أحياناً، في نقدي لهم..

في اليونان وفرنسا والباراسايكولوجيا

النواب: من ليبيا عدت الى لبنان، ومنها سافرت الى اليونان وعشت فيها اربع سنوات، وهناك تعرفت على العديد من العراقيين، والتقيت بصديق قديم، رسام، إسمه ابراهيم الكمالي، من البصرة، لم يكن سياسياً، لكنه إنسان طيب، رآني صدفة، بعد غياب 30 سنة، واحتضنني. عندها كان معه شخصان عراقيان، لا اعرف من اين يعرفهما، الاول إسمه ابو كفاح، كان شيوعياً يوماً ما، ويعمل عامل بناء، والثاني شاب كردي إسمه بختيار. سهرنا سوية عدة مرات.. لم يبدر منهما ما يثير الارتياب، رغم حذري الشديد، لدرجة انني كنت اغير اكثر من تاكسي في ذهابي وعودتي، ولا اعود من طريق واحدة.. ومع هذا حصل ما حصل فيما بعد..

من اليونان غادرت الى فرنسا لغرض الدراسة، حيث سجلت في جامعة "فنسان" لنيل الماجستير، وعملت مع الفيلسوف الفرنسي البرفسور فرانسوا شاتيليه..

المقدادي: ما هو موضوع الاطروحة؟

النواب: الموضوع الذي إخترته هو في مجال الباراسايكولوجي - القوى الخفية في الانسان - ويتعلق بحادثة عشتها في عدن. كنت قد زرت عدن اكثر من عشرين مرة، وكانت لي علاقة طيبة بالمرحوم سالم ربيع علي. كان إنساناً طيباً، كنت ازوره كلما زرت عدن.. هناك مريت بتجربة قاسية، إضطرتني لمغادرتها، وذلك إثر موت صديق عزيز - إعتبرت نفسي مسؤولاً جزئياً عن موته. فقد أعطيته مفتاح البيت الذي أسكن فيه، وأثناء تحممه هناك حصل عطل في السخان، ودخّن، فمات مختنقاً.على أثرها أُصبت بصدمة

شديدة، ومريت بتجربة أشبه بموت سريري، قريبة للحوادث التي كتب عنها الباحث الامريكي د. مودي في مؤلفه "لايف أفتر لايف".. ما اصابني لم يكن، عندي، موتاً، إنما هو امر غريب، حيث تحول الزمن، عندها، الى صفر، وكنت موجوداً فوق - لا اعلم اين - أما جسدي فتحت، بالاسفل، وشكله شكل ميت، وعندي رثاء لهذه الحالة: هل ما يحصل حقيقة، وهل هو أنا فعلاً.. وعندي نشوة، نشوة غير معقولة، حتى انني عندما عدت الى حالتي الطبيعية، بكيت، بكيت لكوني رجعت.. ثمة الكثير من الناس قد مروا بمثل هذه الحادثة، لكنهم لا يتحدثون عنها خشية ان يستهزئ البعض بهم، او ان يشكك بصحتها، بإعتبارها ليست معقولة.. هذه التجربة بقدر ما هي غريبة كانت مفيدة بالنسبة لي، أثرت علي تأثيراً كبيراً، وعلى الكثير من قناعاتي، ومنها لو سألتني: هل يوجد موت، اقول لك: لا! إنما هو حالة إنتقال من شكل الى شكل آخر.. الحادثة جعلتني اتابع الموضوع، وما زلت اتابعه حتى الآن، وأسعى لإقتناء كل ما يصدر من دراسات في الباراسايكولوجيا، وفي مكتبتي حالياً اكثر من رف لهذا الموضوع..

بقيت في فرنسا ثلاث سنوات، وعندما قامت الثورة في إيران، ذهبت اليها - بعد جهود دامت سنتين للحصول على تأشيرة الدخول.. في ايران قمت بزيارة لبيت الإمام الخميني، وجلست معه، والتقيت باغلب المسؤولين الايرانيين، وكان بني صدر رئيساً للوزراء، الذي اصطدمت معه، في نقاش طويل، مسجل وأحتفظ به، تناول موضوع الخليج وغيره من القضايا الملتهبة.

محاولة اختطاف

النواب: بعد سنتين من وجودي في فرنسا مررت باليونان صدفة، والتقيت صدفة بالمدعو "ابو كفاح" المذكور، فدعاني الى بيته، وقال ان والده موجود عنده، وقد جاء من العراق قريباً، قد تجد لديه اخبار تهمك.. ذهبت معه، وعندما وصلنا المكان تبين انه كمين نصب لإختطافي.. في الشقة كان يوجد عراقي آخر اسمه حسين - لم التق به من قبل - وشخص يوناني - أما صيدلي او طبيب.. سحبوا عليّ مسدس كاتم للصوت، وقاموا، بعد معركة معهم، بشد يديّ الى الخلف بسلك ربطوه الى انابيب التدفئة بالحائط، وزرقوني مخدراً.. وهنا عشت تجربة اخرى.. كانوا يسعون الى تخديري لنقلي الى مكان ما، دون إثارة ضجة. ويبدو انهم كانوا متفقين مع الاجهزة الامنية اليونانية.. لكن المخدر لم يؤثر بي، أو جعلته لا يؤثر.. فقد كانت قد اجريت لي في العراق عملية إستئصال الزائدة الدودية، وعند زرقي المخدر بالوريد قررت ان لا أنام، فبقيت مبحلقاً بالإنارة المسلطة على طاولة العمليات. وفعلاً لم انم، بل بقيت يقظاً، واجروا العملية، ويتحدثون معي طيلة وقتها، لكنني لم احس بالالم.. هنا فعلت ذات الشيء.. فطال إنتظارهم حتى أنام.. عندئذ أتصل حسين تلفونياً، وبإلحاح،

لكنه لم يفلح بايجاد الشخص المطلوب، فقال لصاحبه انه ذاهب للسفارة، وذهب وسلم كاتم الصوت للمدعو ابي كفاح، وجلس قبالتي، مصوباً المسدس نحوي ..بعد فترة سألني: لماذا لا تنام؟ قلت: بالعكس انا احس انني اصحو اكثر. فسأل: لماذا ؟ فأجبت: لانني عطشان.. في تلك اللحظات راح الدماغ يفكر بكيفية للخلاص، ومع العقل راح الجسم يتحرك.. مع ذهابه ليسأل اليوناني إن يستطيع إعطائي الماء، أفلحت بفك وثاق احدى يدي، وقد ساعد في ذلك ان السلك كان خفيفاً وناعماً.. سمعت اليوناني يخبره ان الماء يخفف مفعول المخدر، سنعطيه مخدراً اَخراً، فعاد ليسألني: أتريد ان تشرب كوكا كولا؟. قلت: لا بأس. عندها قررت عند عودته وتقديمه للكولا اضربه باليد الحرة و"هي موته موته .. فذهب وتأخر في الغرفة المجاورة، ويبدو انهم كانوا غير مستعدين لتحضير المخدر الاضافي. في هذا الوقت أفلحت بفك وثاق اليد الثانية، ونهضت، وتوجهت فوراً نحو الباب، ففتحته وهربت، هابطاً السلم.. لم يلحقا بي، خوفاً من الناس.. كان يوم أحد، وكانت الشوارع خالية من المارة. أشرت لسيارة مسرعة فلم تقف. وأنا اركض بالشارع وقفت سيارة تاكسي، نزلت منها عجوزتان، فرميت نفسي في المقعد الخلفي، وقلت للسائق: "سانتيغما" - المكان الذي يقع فيه فندقي.. لم يكن معي فلساً واحداً، ولا وثائق - بقيت في الشنطة، التي كانت معي أثناء إختطافي، ولم افلح بإخذها عند هربي.. وفيما أنا افكر كيف ساخلص من ورطة الدفع للسائق، وكيف سابرر فقدان بطاقة دخولي لليونان (تمنح في المطار، ويحتفظون بالجواز، الذي يعيدونه لك عند المغادرة)، لمحت باب السفارة الليبية، فصحت: عندك !.. نزلت وقلت للحارس: انا فلان، وقد جرت محاولة لإختطافي، فعرفني، وقال: إدخل!..فدخلت، وطلبت منه ان يدفع اجرة التاكسي لان فلوسي بقيت عند الخاطفين. فدفع له، وعاد ليطمئنني بانني هنا في أمان.. بعد ذلك رافقني احد موظفي السفارة الى السلطات اليونانية لتبرير سبب فقداني وثيقة السفر (بنصيحة محامي، لم نخبرها بمحاولة الاختطاف)، فاقتنعت وأعطوني جوازي وسافرت الى ليبيا، وحال وصولي عقدت مؤتمراً صحفياً، فضحت فيه المحاولة والخاطفين.. ومكثت في ليبيا..

بعد هذه الحادثة صار لزاماً عليَّ أخذ المخاطر بنظر الحسبان.. فقبل محاولة الاختطاف، جرت محاولة إغتيالي -أشرت لها - وفي باريس، في "بلفين"، وقع إعتداء اَخر، حيث قام جلاوزة السفارة العراقية هناك، أثناء الأمسية، التي ألقيت فيها الشعر، برمي الكراسي عليّ أثناء إلقائي للشعر، وحصلت معركة، مسجلة ولديَّ، تصدى خلالها الجمهور للمعتدين، فهربوا مذعورين، ومنهم من ترك حذاءه، واخر محفظته. إحدى القصائد كانت "جسر المباهج القديمة" (اصطلح الناس على تسميتها "تل الزعتر"- المحرر)، قصيدة

طويلة، معروفة، ممنوعة في البلدان العربية، اعري فيها الاوضاع السائدة، والحكام والانظمة والمواقف السياسية المشبوهة، لا سيما الوضع في العراق.

ابان مكوثي في ليبيا، نُظمت لي العديد من الامسيات في روما ومدريد وغيرها.. كان يجري التحشيد لها، بالاعتماد على جماهير اليسار، والمعارضة الايرانية - قبل الثورة - والفلسطينيين، رداً على تحشيدات السفارات العراقية لأتباعها، الذين تستدعيهم من كل اوربا، للتشويش والتخريب.

بعد تلك الحادثة، وأنا في فرنسا، إتصل أحد القادة الفلسطينيين، الذين أعرفهم، طالباً عبر تلكس: " يرجى توجهك فوراً الى روما، في الفندق الفلاني!".. فسافرت، ووجدته ينتظرني، فاخبرني: ينبغي ان تعود الى ليبيا فوراً، لان السلطات العراقية ارسلت مجموعات لإغتيالك، مؤكداً انهم استدعوا المسؤولين الفلسطينيين في بغداد، وحملوهم مسؤولية خلاصي في حادثة باريس.. فعدت الى ليبيا ومكثت فيها فترة طويلة.. وفيها حضرت، كمستقل، لقاء للمعارضة العراقية، ضم 19 تنظيماً، وترك لديّ انطباعاً مؤلماً عن اوضاعها والصراعات الدائرة بينها.

في عام 1983 عدت الى سوريا، وأنا اتحرك، واروح وارجع. خلال تلك الفترة وجهت لي دعوات كثيرة، لبيتها، فزرت العديد من بلدان امريكا اللاتينية، وامريكا الشمالية، وكندا، واستراليا، وبلدان اوربا كلها، حيث نظمت لي أمسيات.. وأنا الآن متنقل، تجدني أحياناً في سوريا، واحياناً اخرى في ليبيا.

الإبداع والعوامل المؤثرة

المقدادي: لنعد الى إبداعك الشعري: هل تأثرت بأحد من المبدعين الذين سبقوك، وما هي العوامل التي أثرت عليك؟

النواب: لا أعتقد انني تأثرت بشاعر من الشعراء الذين سبقوني. انما هناك تأثيرات لازمتني منذ كنت تلميذاً في الابتدائية. فقد كانت لدينا مكتبة كبيرة في البيت، كنت اعتمد عليها، وكنت اطالع كثيراً، حتى انه من شدة الافراط في القراءة، والاجهاد المتواصل، اصبت بحالة مرضية اشبه بالارتعاش، الى جانب التعب، الامر الذي اضطر والدي الى منعي لفترة من القراءة.. كنت اقرأ دواوين الشعراء القدماء، وفي المقدمة المتنبي، إلا انه ما ان يبدأ بالمديح حتى اترك القصيدة، لانني ابغض المديح. انه اكثر الشعراء، سواء من شعراء الجاهلية او الاسلام، الذين كنت اقرأ لهم. كما وأطلعت، في وقت مبكر، على ترجمات لاعمال لوركا، محتفياً بها، مهتماً بطبيعة حياته، والصراعات التي عايشها كشاعر.. مع هذا، أستطيع القول، لم يكن هناك تأثير مباشر لشاعر معين، وإنما كل ما اطلعت عليه اثر فيَّ.. على ان الاكثر تأثيراً هو تجربتي الخاصة.. التجارب التي عشتها، وكانت، بالحقيقة، غنية، بأبعادها الحياتية اليومية، والسياسية، والثقافية،

وغيرها.. ولا شك ان انتمائي، أثناء خدمة الاحتياط في معسكر السعدية، الى الحزب الشيوعي العراقي، قد عمق من وعيي، وإن حصل، بعد فترة من ممارسة العمل السياسي، سواء اثناء وجودي في الحزب او في "القيادة المكزية"، اصطدام في بعض القناعات، متأتياً، أحياناً، من انها ليست حسابية. العمل السياسي عادة عمل منطقي وعقلاني (1 + 1 = 2)، بينما الشعر ليس كله عقلانياً، بل فيه جانب من اللاوعي. الحسابات اللاواعية هي، احياناً، دقيقة على نحو خطير ومخيف، وتتوصل الى استنتاجات، تأتي الايام وتثبت صحتها، بعكس القناعات الاخرى، التي اخفقت.. على سبيل المثال، عندما كنا في سجن "نقرة السلمان"، كنا ندرس كتابا، هو تقرير لنيكيتا خروتشوف عن إمكانية تحول العالم الثالث نحو الاشتراكية، ودور البرجوازية وإمكانية ان تضع تلك البلدان على أعتاب الاشتراكية، الخ.. اثبت الزمن فشلها، فلم تكن دقيقة، وكانت هذه الطروحات موضع خلاف وصدام.. مثال آخر: في فترة ثورة تموز كنت عضواً في اللجنة الحزبية في خط المثقفين، من ادباء وفنانين. بقيت عضو لجنة قاعدية لكوني "لم استوعب" ما يدور، وأتساءل "عن ماذا تتكلمون؟!!".. الصدامات من هذا النوع، مهما كانت صغيرة او خفيفة، تبقى قناعات.. صارت لديَّ قناعة بان التنظيم لعامة الناس ضروري، لانه من الصعب على القوى السياسية غير المنظمة ان تقود نضال الشعب وتقاوم سلطة ظالمة. إلا انه بالنسبة للفنانين لا اجد ذلك ملزماً، بل المطلوب - كما اعتقد - هو الالتزام بالخط العام، التقدمي، للحياة، وأن لا يشترط عليهم التنظيم الصارم، لان العمل التنظيمي قد يعيق الكتابة او الرسم، لحظة الابداع، او انه يؤثر، سلباً، أحياناً، وبشكل من الاشكال.. بمعنى ان يكون هناك وضع خاص للفنانين والادباء، يجعلهم مع المسيرة، مع مسيرة الحياة، ضد الردة والتراجع الى الوراء.. تلكم هي قناعتي.. وأنا مع كل التنظيمات السياسية العراقية والعربية التي مع مسيرة الحياة الى أمام.

المقدادي: قبل "للريل وحمد" ماهي الإرهاصات الأولى؟

النواب: أشرت الى ان بيتنا يقع في منطقة شعبية، فيها الاعياد والاهازيج، وفيها الشعائر الدينية والسبايا والردات، الفرح والكدر، الغناء والردات، الشعر والايقاعات..كل ذلك كان يجذبني منذ الصغر، مع بقية الصغار الموجودين في البيت. وكنت، من حين لآخر، أقوم بتأليف قصيدة، واقرأها، وأكيد كانت ضعيفة، "على كدي".. لكنني وأنا طفل كنت اسعى لفهم النفس بشكل أولي، وأول وضع "على الاصابع" حصل في المرحلة الابتدائية. هذه الحادثة أذكرها دائما. كان معلمي، وأسمه حمدي التكريتي - يرحمه الله- يعرف انني من عائلة معروفة بحبها للادب والفنون والموسيقى. وكان إنطباعه عني انني اكتب الانشاء جيداً. وكان درس الإنشاء آخر درس، ولمس، ايضاً، انني خجول

وارتبك أمام الصبورة. لذا كان يصرفني قبل التلاميذ. في يوم من الايام صادف ان تغير جدول الدروس، وحل محل الإنشاء درس القواعد (النحو)، وكان يختلف كثيراً عن أيامنا هذه، بغزارته وعمقه منذ المرحلة الابتدائية.. فكتب على الصبورة نصف بيت من الشعر، يقول: "قضينا ليلة في حفل عرس"، ونادى عليَّ ان اقف، فوقفت، مرتبكا، محرجاً من الخجل، فقال: إذا أكملت هذا البيت، أدعك تنصرف.. فيا للطامة الكبرى، ويا لحرجي، حرجي، وأنا لم اكتب الشعر، فقط أحفظه.. فقلت : "كأنّا جالسون بقرص شمس".. وكانت المفاجئة.. طار صواب معلمي، انبهاراً وابتهاجاً، وراح يمادحني، وهو مندهش في آن. ثم ذهب الى مدير المدرسة، وشرح له ما حصل.. ودق جرس المدرسة، وجمعوا تلاميذها في الساحة، وأخرجوني أمامهم، وراح معلمي يشرح للجميع موهبتي، موضحاً ان ما قلته هو من نفس الوزن والايقاع، وفيه مقاربة بين العرس والشمس، فكلاهما فيه ضوء وفرح.. وبعدها أهدوني مجموعة كتب من مكتبة المدرسة، ودعوني للانصراف، وانا في حالة ذهول..

على أثر تلك الحادثة صرت أطالع كثيراً، ورحت أكتب الشعر، على غرار ابي تمام، واقدمه الى استاذي حمدي.. لم يصدق اول الامر انه من تأليفي، لكنه، تدريجياً، إقتنع، وراح يصحح ما اكتبه.. لهذا الاستاذ تأثير كبير في إنطلاقتي الشعرية، وكذلك لاساتذتي في المتوسطة، حيث شاركت بقصائد كثيرة في النشرة الجدارية للمدرسة، حظيت باهتمامهم.. والى جانب الشعر صرت اهتم، خصوصاً في فترة الصبا، بالرسم.. واشرت الى التجارب التي عشتها والاحداث التي عايشتها في حياتي السياسية والثقافية، وثراء الواقع العراقي بالاغاني والاناشيد والاعياد ودواليب الهوا، التي تغني لك.. أتذكر ان الشهيد ابا سعيد (عبد الجبار وهبي)- رحمه الله- كتب مرة يقول: عندما كنا صغارا بالبصرة، كنا نذهب الى دولاب الهوا، وكنا نغني: "خالي وخالك باشا أعيان"، بينما نجد الآن، ابان ثورة تموز، يغني الاطفال: "صاروخ روسي بالسما".. والفرق بين الاغنيتين ينطوي على مغزى كبير، بما فيه من تأثير كبير على الاطفال، والوعي، والقناعات.

ما لم تفعله قيادات

المقدادي: مظفر النواب، بروائع شعره، وجمالية لغته المتميزة، القريبة من قلوب ووجدان ملايين العراقيين، تألق، كعهدنا به، في أمسية أمس، وأعاد، في لقائه بمحبيه، بعد غياب طويل، كل الحاضرين، ومنهم المُغادر، والمبتعد، والمغترب، والمهاجر، والمهجّر، وما الى ذلك، الى ربوع وطنه الام، مكبراً إباء شعبه، ممجداً ابطاله وشهداءه الابرار، مبجلاً شهامته وكرمه وطيبة أهله، مفاخراً باصالة عراقه، متغنياً بجماله وطبيعته.. مذكراً بمحنته الراهنة على نحو ابكى الشيخ والكبير والشاب، نساء ورجالاً، وبكى مع جمهور محبيه،

متسائلاً: أيعقلُ ان يحصل ما يحدث لشعبنا الآن ؟!.. في أُمسية واحدة جمعت ما لم تستطع جمعه قيادات أحزاب ومنظمات وإتحادات وجمعيات عاملة وسط الجالية العراقية.. المئات من ابناء العراق وبناته، من وطنيين وديمقراطيين، واسلاميين، وشيوعيين، ومستقلين، عرباً واكراداً وتركماً وكلدواَشوريين، مسلمين ومسيحيين وصابئة وغيرهم.. مالذي يود ان يقوله شاعر جماهير الشعب لتجاوز الواقع المأساوي الراهن للمعارضة العراقية، لتخرج من حالة الفرقة والتشتت والاحتراب، لتلم شملها وتوحد صفوفها، وتعود الى العمل المشترك، الجدي والفاعل، لتقريب يوم خلاص شعبنا من ربقة الدكتاتورية الصدامية الفاشية المقيتة؟

النواب: الذي اود ان أقوله ان على المعارضة العراقية ان تراعي قضايا أساسية، هي ضرورات. أولها- ان ينتهي هذا الرهان على الولايات المتحدة.. الولايات المتحدة هي سبب كل الاوضاع القائمة، عراقياً وإقليمياً. وكل الوعود التي وعدت، وتعد بها، كاذبة، وهي تضيّعُ على المعارضة العراقية زمناً طويلاً، يمكنها ان تتهيأ فيه لحسم الموقف لصالح الشعب، إذا ما استغلت الوضع الراهن للسلطة الحاكمة.

ثانيهما- ثمة الكثير من العراقيين الذين يغادرون العراق، وكانوا الى حد قريب مسؤولين ضمن إطار السلطة، ومارسوا أعمالاً إجرامية بحق أبناء شعبنا.. نحن لا نقفل الابواب بوجه أحد قرر ان يتراجع عن أخطائه.. ولكن يجب ان لا يتحول هؤلاء الى قياديين للعمل ثانية.. هذا لا يجوز في الوقت الحاضر.. عندما ينتصر شعبنا، وتجري انتخابات ديمقراطية، عندئذ الشعب هو الذي يقرر من يختار لقيادته. أما الآن فلا يجوز ان تجلب المعارضة أناسا من هذا الطراز وتنصبهم قياديين، بينما هناك ناس قضوا عمرهم في النضال يجري إهمالهم.

قضيتان اساسيتان ومهمتان مطروحتان: الرهان على الشعب اساساً، بدلاً من الرهان على الولايات المتحدة.. لشعبنا إمكانياته لتقرير مصيره إذا ما تظافرت جهود اطراف المعارضة العراقية وصدقت النيات.. وبدون صدق النيات لا يمكن بلوغ الهدف.. ومن المهم جداً، في المرحلة الحالية، ان يسود الحوار بين مختلف اطراف الحركة السياسية العراقية..

بالنسبة لي، انا قريب من كل القوى السياسية. واعتقد ان ذلك ضروري جداً لتقريب وجهات النظر ولمّ الصف وتوحيد العمل.. ليس لي إقرار بالخلافات الايديولوجية.. لتبقى الخلافات الايديولوجية. ولكننا بحاجة الى عمل سياسي مشترك إزاء كابوس مشترك. وما دام الهدف مشتركا فلا بد من العمل المشترك لإزالة الكابوس الجاثم على صدر شعبنا.. أتذكر عندما كان يفيض نهر دجلة، وقد تكون الخلافات السياسية، ساعتها، متأججة، وقد يصادف ان النضال الجماهيري بلغ درجة تهديد النظام الملكي.. كل ذلك

كان يُترك جانباً ويتوجه الجميع لدرء خطر الفيضان باعتباره الخطر الاكبر.. حالياً ثمة في العراق خطر اكبر، اكبر من الصراعات الشخصية، واكبر من الصراعات الايديولوجية، وغيرها.. فلا بد ان نتصدى له جميعاً..

شخصياً، لم أعد أتحمل الكذبة، من أي طرف كان.. الكذبة - من كل الاطراف- مرفوضة.. كل من يأتيني، مدعياً انه ماركسي، او شيوعي، او إسلامي، او قومي، وأكتشف انه كاذب، أرفضه، ولا أحترمه إطلاقاً.. لكنني أحترم القناعات المخلصة. دائماً اكرر المثل التالي، للتدليل على إحترامي للقناعات المختلفة: كنت أرسم في بساتين الكاظمية، وعندما أعود أجلس في مقهى، على الطريق، آخذ قسطاً من الراحة، وأشرب الشاي، مرة وانا جالس فيه مر رجل هندي، حافي القدمين، حاملاً كيساً صغيراً، توقف عندي، راجياً، إن أمكن، ان اطلب له ماء حاراً. كلمني بالانكليزية. فسألته: لماذا ؟ فقال: اريد ان آكل. قلت: أستطيع ان اطلب لك أكلاً. قال: لا، شكراً! فقط الماء... طلبت الماء، وقدمته له.. فاخرج من كيسه خبزاً وجبناً يابسين، وراح يفتتهما وينقعهما فيه، وبدأ يأكل بشهية ولذة.. عند إنتهائه شكرني، وسألني: بأي إتجاه الطريق الى مكة؟ فقلت، مستغرباً: أي مكة؟! أتعرف اين أنت الآن؟ انت في العراق، ومكة في السعودية.. فقال:أعرف، أنا جئت من الهند، واروم الوصول الى مكة مشياً... مثل هذا الشخص أحترمه، رغم أني قد أختلف مع قناعاته، احترمه لإصراره، وجهده، وإيمانه، وقناعته، ولتنفيذه القناعة، وصولاً لما يريد.. وأحترم كل إنسان لديه إيمان، بغض النظر عن الأيديولوجية التي يحملها، ويريد الوصول الى هدفه عن قناعة ودون كذب!.. بانتفاء الكذب تتذلل العقبات وتقل الإشكاليات.. تقل عندما تنتفي المصالح الشخصية- أنا اريد اصير، وهذا يريد ان يصير، والكل يريدون ان يصيروا قيادات.. ليس هناك إشكالية إذا أقر الجميع بحق الآخر.. هنا داء المعارضة العراقية!.. أقول ذلك وقد أخبرتك بانني حضرت اجتماعاً للمعارضة العراقية في ليبيا، وثانيا في سوريا - لا اريد الخوض في تفاصيلهما الان - عكسا مرارة، ووضعاً مؤسفاً..

دور المثقف المبدع

المقدادي: ارتباطاً بما مرّ، ما هو دور المثقف المبدع، وما رأيك بالالتزام، وإشكالية المبدع الملتزم؟

النواب: أشرت، خلال حديثنا الى هذا الدور. ان المثقف الكاتب والفنان والمبدع مادام هو في الخط العام للحياة، ولا يعيق مسيرتها، فهو يؤدي دوره. وتمييزاً لليمين واليسار اقول ان كل إبداع يساعد على إثراء الحياة، وإغنائها، وتفتحها، ممنوحاً ومانحاً مجالاً اكبر من الحرية، هو، بتقديري، تقدمي ويساري.. أما الذي يقع في خانة الردة واليمين والرجعية فهو كل ما يعيق الحياة وتفتحها وازدهارها. هذا هو الخط العام عندي. فكل من يقف الى

جانبه هو ملتزم به، يخدمه، ويساهم في تطويره. وأنا شخصياً الى جانب كل القوى التي تناضل من اجل الحرية وتسعى لتفتح الحياة.. وفي هذا المضمار لابد من فهم التراث، فهماً نقدياً، بدلاً من أخذه عشوائياً، لا سيما وان الكثير من القضايا إنتهت من التراث، ما عادت حية، بينما بقيت مسائل كثيرة حية، يمكنها ان تعيش وتستمر لزمن اطول، ضمن طبيعة الحياة وسننها.

الحزب والتغيير و"ميثاق الشرف"

المقدادي: للحزب – حزبنا - كما قلتها في قصيدة لك - انت ابنه، نشأت وترعرعت وناضلت طويلاً في صفوفه.. انصهرت في بوتقته، رفعت رايته عالياً، ضحيت من اجل قضيته بنكران ذات.. تحملت ما تحملت من عذاب وآلام وحرمان.. هو في دمك، ووجدانك، شاخصاً في العديد من إبداعاتك.. اختلفت معهُ، عاتبتهُ، لِمتهُ، انتقدتهُ، وبحدة، إنما نقد بناء، إفترقت عنه.. لكنك لم تحقد عليه، لم تشمت به، لم تشتمه، لم تعادِه، ولم تتنكر له - بخلاف ما فعل الآخرون، وما اكثرهم – وما زلت تحبه، بل وتجله، وما زلت تعتبره - كما قلت في إحدى روائع شعرك - المعول عليه في نضال شعبنا.. ما سر هذا الموقف؟

-**النواب:** الحقيقة انني فتحت عيناي على الحياة وكان للحزب الشيوعي العراقي دوره الريادي في قيادة جماهير الشعب العراقي، سواء في العهد الملكي، او بعد ثورة 14 تموز 1958.. حصلت إشكالات جعلتني ابتعد عن التنظيم، وجاءت " القيادة المركزية"، فإنضممت اليها، وفي ما بعد تركتها.. وأنا الآن مستقل.. احترامي لتجارب الحزب الشيوعي العراقي، واحزاب سياسية اخرى، نابعاً من كونه يناضل من اجل التغيير.. والحزب أداة وليس هدفاً.. بهذا المفهوم كنت أنظر دائماً الى الحزب الشيوعي العراقي كأداة بيد الشعب العراقي للتغيير، على إعتبار ان التغيير، تطور الحياة، هو الهدف.. اختلفت مع الحزب لحصول إعاقات، وهيمنة قناعات خاطئة.. لديَّ قصيدة إسمها "ثلاث أمنيات على بوابة السنة الجديدة"- لا اتذكرها الآن كاملة، اشتملت على خلاصة لهذه التجربة، تجربة الابتعاد، وأبعاد الابتعاد..

أما الحقد، فليس من طبيعتي ان أحقد على تنظيم سياسي وقوة فاعلة للتغيير.. لكن من حقي ان أغضب كل الغضب عندما تقع أخطاء مريرة، من الصعب وصفها الآن، مثل الجبهة مع السلطة.. كان ذلك، بالنسبة لي، عملاً لا يحتمل، لاسيما وقد سالت دماء، وسقط شهداء، وكانت نتائجه معروفة سلفاً.. أتذكر، قبل عامين كنت في دمشق، ودعيت الى مائدة إفطار في شهر رمضان، وكان الاخ رياض النعماني معي، فوجئنا ان الدعوة قد وجهت الى ناس كثيرين من مختلف القوى السياسية العراقية، وكان من بين الحاضرين طالب شبيب. بعد الافطار وأثناء تناول الشاي قدموا لنا ورقة مكتوب عليها "ميثاق شرف"،

طالبين التوقيع عليها، وفيها: نحن الموقعين أدناه نلتزم بالدفاع عن الديمقراطية في العراق عند حصول التغيير وقيام النظام الديمقراطي، وإذا ما تهدد هذا النظام الديمقراطي كلمة شرف ان ننبري للدفاع عنه.. فقلت: مثل هذه القضايا لا تحتاج الى ''ميثاق شرف''، وسألت: عندما يصل احدهم الى السلطة ويتنكر لوعوده، كيف سأحكم عليه، وبمَ ألزِمه، وقد حصلت وعود ولم تنفذ؟!.. باعتقادي ان ميثاق الشرف هو تأريخ كل إنسان، تأريخ كل حركة. التأريخ والأعمال هي التي تثبت كون هذا او ذاك، هذه القوة السياسية او تلك، شريفة، ولها كلمتها، بمعنى يمكن الوثوق بها او لا.. أما التوقيع على ورقة، فانا لا أثق به كميثاق.. القضية مرتبطة بصراعات ومصالح، وغير ذلك.. موقفي الآن أنني قريب من كل القوى السياسية الشريفة، وعندما يحصل خطأ، من أي كان، يتعين ان اقول الخطأ، مثلما أقول الموقف الصحيح، مهما كانت لديَّ خلافات مع صاحبه.. وقلت: قد يكون الميثاق المطروح يعني الكتاب والفنانين، لان في العملية الابداعية جانب نسميه ''استقراء للمستقبل'' او نبوئي. التنظيمات السياسية لا تقبل بمثل هذا. يتعين عليك ان تسير وفق وضع عقلاني محدد. وهنا توجد إشكالية مر بها الكتاب والفنانون. أنا الى جانب ان تكون الجماهير منظمة، إذ بدون تنظيم من الصعب تغيير الاوضاع السائدة، وهذا ما تؤكده التجارب السابقة تأريخياً، ومنها تجربة روسيا، قبل تكوين الاتحاد السوفيتي، في ثورة 1905، وكيف ادى عدم وجود التنظيمات الى ذبح الحركة، ما جعل لينين يطرح التنظيم كضرورة ملحة..

الحزب الشيوعي العراقي حزب سياسي عريق، له تأريخه الطويل، وتجاربه الغنية في قيادة نضال الشعب العراقي، وجماهير العمال والفلاحين والطلبة، المعروفة بإضراباتها وتظاهراتها وانتفاضاتها. وله دوره الكبير في إنضاج متطلبات ثورة 14 تموز، ومنها التحالفات التي مهدت للثورة.. حصلت أخطاء ما كان ينبغي ان تحصل.. فاختلفنا نتيجة لوجهات نظر عديدة مختلفة، اثبت الزمن ان ما اختلفنا عليه كان خطأ..

أخذونا الى المحكمة العرفية العسكرية، وكان بين إطلاق سراحي - وأنا مهدد بالإعدام - وعدم اطلاقه، هو ان أشتم القوى السياسية، فلم أفعل، فكيف بي أن أشتم الحزب الشيوعي العراقي.. بيد أن الاخطاء التي ارتكبت كانت باهظة الثمن، ثمن شهداء، والام مريرة.. حتى موضوع ''القيادة المركزية'' موضوع مرير.. هناك الكثير من الامور، لا استطيع الان الخوض في تفاصيلها.. سيحين وقتها - عقب إنتصار الحركة الديمقراطية العراقية.. المطلوب الآن من الحزب، ومن القوى السياسية الاخرى، إيجاد نقاط إلتقاء بهدف التغيير. والمطلوب من كل الاطراف السياسية العراقية أن تصدق النيات. فمن دون صدق النيات يصعب العمل المشترك..

المقدادي: شكل المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي، في عام 1993، إنعطافة تاريخية جديدة في عمله وسياسته، بإنتهاجه للديمقراطية والتجديد، اللذين عززهما المؤتمر الوطني السادس للحزب في عام 1997.. فتغيرت الكثير من الممارسات في حياة الحزب الداخلية. واليوم يتواصل نهج الجماعية والشفافية ومكاشفة قواعده وجماهيره بكل سياساته ومواقفه. وضمن النهج الجديد فتحت صحافته باب الحوار والنقاش على مصراعيه امام الاقلام الخيرة، حتى لغير الحزبيين، لإبداء وجهات النظر المختلفة، وتتقبل قيادة الحزب كافة الانتقادات والملاحظات البناءة.. وما يزال نهج الديمقراطية والتجديد بحاجة الى المزيد من الدعم والتعزيز، والى تعميق عملية المراجعة والتقييم، كي لا تتكرر الاخطاء، فلم يعد يحتمل لا وضع الحزب ولا معاناة شعبنا العراقي المريرة تكرار الاخطاء.. ويعول حزبنا على المثقفين في هذه المهمة الكبيرة..

النواب: أأمل أن ينجز كل ذلك!
لا ندم و لا تشاؤم

المقدادي: في الزمن الرديء هذا، الذي جرف تياره العاصف بكل شيء، بـ"الشين والزين"، ومن معالمه ظاهرة التنكر للماضي، بكل ما فيه من إيجابيات، وشيوع مظاهر الاحباط والانكسار والإنكفاء.. مبدعنا الكبير مظفر النواب: هل هو نادم على شيء في مسيرته النضالية الطويلة؟

النواب: نادم او غير نادم - مسألة لا مكان لها عندي. الندم لا يفعل شيئاً، ولا يعني شيئاً إن قلت نادم او لا.. الاهم من هذا ان أسأل نفسي اين موقعي الآن، ماهو دوري، وما الذي افعله حالياً؟.. التنكر للماضي يعني مَن تنكر، ولا يخصني.. انا مسؤول عن نفسي، وعن موقفي.. الامر لا يعنيني، لانني لست نادماً على شيء، وكل ما قمت به هو تنفيذ لقناعاتي، لما كنت اريده!.. والانسان عندما ينفذ قناعاته، معناه انه يحقق وجوده. بمعنى انه وجد، وساهم، وأعطى، الخ.. ومن هنا قناعتي بان لكل جهد فردي، مهما كان صغيراً، أهميته.. هناك من يسأل اليوم: ماذا نستطيع ان نفعل حيال هذه الاحباطات، والاوضاع السائدة.. فاقول له: نستطيع ان نفعل الكثير !.. كل واحد منا قادر على عمل شيء ما، وكل عمل يقوم به الفرد، مهما كان صغيراً، هو مساهمة، والمساهمات هي أشبه بفرع، والفروع او السواقي، تصب بالانهر، والانهر الجارفة تشكل البحر..

المقدادي: بالنسبة للمستقبل: في ظل الظروف السائدة، هل انت متفائل، وواثق، من قرب يوم إنتصار شعبنا وانعتاقه من الطغاة، وإقامة نظامه الديمقراطي الحقيقي الذي يؤمن له الحرية والسعادة والاستقرار؟

النواب: أنا بطبيعتي إنسان متفائل، لست متشائماً، رغم كل ما مررت به، وقد جابهت الموت، وكنت قريباً منه عدة مرات.. اعتقالات وتعذيب وملاحقات

ومطاردة وغربة.. فقدت الكثير من أصدقائي - صفوا تحت التعذيب، او ماتوا موتاً طبيعياً.. الوالد والوالدة غادرا الحياة ولم اودعهما..و..والخ.. مع كل هذا لم أندم على شيء، بل نفذت قناعاتي خلال كل الفترات التي مرت.. والآن اواصل تنفيذ قناعاتي ايضاً.. حتى في خلافاتي، فانا انفذ قناعتي.. للانسان عقل، والشيء الذي لا يقبله عقله من الصعب ان تفرضه عليه.. بالنسبة لي لا يستطيع أي تنظيم ان يفرض عليَّ قضية لست مقتنعاً فيها. حتى في الإسلام، كدين وكأيديولوجية، يطرح موضوع العقل، وأن يحكم العقل.. يجب ان يحكم العقل بوصفه الحكم الاعلى والاكبر. فلا يجوز ان توافق على امر وانت لم تقبله عقلياً. معنى هذا انت تكذب على نفسك، وهذا غلط كبير.. عندما نضع حداً لكل السلبيات ستذلل، باعتقادي، الكثير من المشاكل القائمة.. اكرر: لست نادماً على شيء مررت به، قمت به، ساهمت به. كنت أقول في قصيدة "عودتني" المنشورة في مجموعة "للريل وحمد"، وهي خطابي للشهيد ابي سعيد (عبد الجبار وهبي)، الذي كنا نخرج سوية في الاعياد والمناسبات، وعندما لا اجده في البيت أترك له بطاقة. في القصيدة أقول:

عودتني السفن.. من تصفح إكبال الريح.. تتمزق شرعها
كتلي ما تبكه سفن..والناس يعيروها: خشب عادي
وإيغركها دمعها
كتلي يا سفان.. من ضلع السفينة ينكسر
كل ضلع من عدنه.. ضلعها

فمفهومي: هناك سفينة، أضلعها كل ضلع فيها، عندما ينكسر أحدها، لا بد ان يحل محله احد أضلاعنا. وهكذا خلال مسيرة حياتي، وكان هذا المفهوم في قناعتي ايضا، فاعطيت اقصى ما استطيع إعطائه، وما كنت أبخل بشيء، سواء في الشبيبة او المقاومة الشعبية، او بالتنظيمات.. كنا نعمل ليل نهار.. وكان ذلك عطاء بسيطاً ما دام الهدف سعادة شعبنا العراقي.. وبمقدار ما قدمت، ولم أندم عليه، كنت مع "القيادة المركزية"، وحملت البندقية، ونزلت الى ريف الكوت، والى الاهوار، وأنا لست نادماً على ذلك، رغم إختلافي معها حول العديد من القضايا، التي لا مجال للخوض الآن في تفاصيلها.. الوقت ليس لنبش الماضي، بل علينا الإستفادة من تجارب الماضي، وتحويل سلبيات الماضي الى إيجابيات، والبحث عن كيفية تحقيق ذلك.. الوقت الآن لتوحيد صفوف المعارضة العراقية بهدف إنهاء الكابوس الجاثم على صدر شعبنا. آن الأوان ان نكون قد تعلمنا ان لا نغلب المصالح الشخصية على المصالح العامة. وأن نكون قد تعلمنا الصدق في العمل. بذلك نذلل كل الصعاب والمعوقات..

المقدادي: هل بالامكان ان نعرف ما هي همومك.. مشاريعك - الراهنة والمستقبلية.. واخر نتاجاتك؟

النواب: الهموم كثيرة، والمشاغل كثيرة ايضاً.. وأما آخر النتاجات، فقد القيت قسماً منها في الامسيات

هنا، ولديَّ الكثير غيره. فأنا أكتب باستمرار، والكتابة عندي نوع من الحيوية، جزء عضوي من حياتي، أشعر معها انني حي.. باكتشافي لصورة جديدة، لجمالية صورة جديدة، لتركيب جملة جديدة، لموضوع أتناول به حادثة من زاوية جديدة، أحاول ان لا اكرر حالي، إذ لكل قصيدة جوها، فرادتها وعالمها.. رموزي فيها هم الناس المجهولين، من الذين قاموا باعمال مجيدة، لكنهم ظلوا أسماء مجهولة، مثل: حرز، حسن الشموس، سليمان خاطر، خالد اسلامبولي، ناصر بن سعيد، وغيرهم. أي اولئك الذين تصدوا ببطولة ونكران ذات لاوضاع سيئة، ساعين لتغييرها. او أناس مجهولين، ذهبوا ولم يعرف عنهم احد، بعد ان مارسوا ادوارهم، ومن بينهم الفلاح والعامل وغيرهم.. ولذا، لا تجد في شعري مديحا او تملقا لحكام وأمثالهم.. بالعكس، أنا اقف ضد هؤلاء..

المقدادي: هل من كلمة أخيرة لأولئك المناضلين، الذين يقارعون الطغاة على ارض الوطن وفي عمقه؟

النواب: المناضلون في الداخل هم الموجهون لنا، لا نحن نوجههم.. نحن في الخارج وهم في الداخل.. هم الذين يعيشون الاوضاع هناك، ويجابهونها اكثر منا.. صحيح ان الغربة قاسية، إلا ان الغربة داخل الوطن أمر وأقسى.. المطلوب منا دعمهم، باعتبارهم المعوّل عليهم، كل منا في حقله ومجال عمله.. في ما يتعلق بي: مجالي كتابة الشعر، وأشعر ان الوقت لا يكفيني..

ملف
ثورة 14 تموز 1958

ثورة 14 تموز 1958: بناء الأنموذج الاقتصادي القياسي

مظهر محمد صالح

تمهيد:

أحدث النظام الجمهوري الذي جاءت به ثورة 14/تموز/1958 تغييراً جوهريًا على انماط السياسات الاقتصادية القديمة التي ارساها النظام الملكي السابق. فالموديل القياسي الملكي للتنمية الاقتصادية الذي اعتمده مجلس الاعمار خلال الأعوام 1953 - 1958 (كمجلس للتنمية) كان قد تولى وظيفة التصرف بالعوائد الريعية النفطية التي جاءت بها اتفاقية مناصفة الارباح بين حكومة العهد الملكي وشركات النفط الاجنبية، في العام 1952. حيث تم توجيه الانفاق الاستثماري الحكومي باتجاهين: اولهما، استدامة نظام السوق وتقوية القطاع الخاص. وثانيهما، ضمان نظام التملك الاقطاعي في اراضي العراق الزراعية.

اذ منح، الموديل القياسي الملكي في التنمية، الاولوية للمصالح الزراعية المرتبطة بالنظام الاقطاعي وتحديدا مشاريع الري ومشاريع السيطرة على الفيضانات، فضلًا عن مشاريع النقل والاتصالات والاسكان.

وعلى الرغم من استمرار السياسة الاقتصادية الجديدة في العهد الجمهوري

اتباع الموديل الاقتصادي القياسي للتنمية الا انها كانت بنمط ملكية وتوجه مختلف. حيث سخرت نفقات اساسية من عوائد النفط لاستثمارها في قطاعي النقل والاتصالات دون ان تغفل في فلسفتها العامة الانفاق العاجل على تحديث القوات المسلحة كجزء من الفكر اللوجستي الذي كانت تتعايش عليه المؤسسة العسكرية التي قادت الثورة. كما تؤشر الكاتبة الامريكية فيبي مار في كتابها "تاريخ العراق الحديث" الطبعة الثالثة. حيث اشارت الى ان الثورة التي قادت الى القضاء على النظام الملكي قد جاءت بفريق استشاري عالي المستوى ومتقدم في تأسيس الموديل القياسي الجمهوري للتنمية متأثرا بالنماذج الاقتصادية

الاشتراكية والتوجه نحو تشييد هياكل مؤسسية ومناهج عديدة حملت ذلك الطابع الاشتراكي نفسه: "كالتخطيط الاقتصادي المركزي والتصدي للتأثير الاقتصادي الخارجي ولاسيما في نظام فك ربط العملة الوطنية بالعملة الاجنبية والتحول من نظام الاسترليني الصارم القديم الى نظام دولاري اكثر مرونة عالميا، وكذلك الوقوف بوجه شركات النفط الاجنبية التي استحوذت بامتيازاتها على الجغرافية الاقتصادية لنفط العراق، دونما اغفال مسالة الاصلاح الزراعي وتصفية النفوذ الاقطاعي".

ففي العام 1961 تظهر الدراسات المتعلقة بتاريخ الاقتصاد السياسي للعراق، ان الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم قد قاد عجلة البلاد نحو تخطي التدخل الاجنبي في القطاع النفطي الذي كانت تهيمن عليه المصالح النفطية العالمية الكبرى وعلى راسها المصالح البريطانية التي تمثلها شركة نفط العراق. اذ جاء القانون رقم 80 الذي صادر او امّم قرابة 99.5% من مناطق امتياز شركة نفط العراق، بعد ان قيد عمليات شركة نفط العراق في مواقع انتاجها وقتذاك. كما عدّ قانون الاصلاح الزراعي (قانون رقم 30 لسنة 1958) أحد اهم التدابير التي بدأتها السياسة الاقتصادية الجديدة للثورة، اذ كان قانون الإصلاح الزراعي مشروعاً طموحاً يهدف الى تفكيك النظام الاقطاعي الملكي القديم لملكية الارض والتصرف بها وبما يمكن من اعادة توزيع الاراضي على الفلاحين، في وقت كانت ارياف العراق تضم أكثر من ثلثي سكان البلاد. وبهذا عبرت ثورة 14 تموز 1958 المجيدة كما يقول سلام كبة في مقاله الموسوم: ثورة تموز والاتفاقية الاقتصادية مع الاتحاد السوفييتي! - الحوار المتمدن/ حزيران 2010 "عن السفر العظيم والجبار لشعبنا في تثبيت استقلاله السياسي والاقتصادي وما قدمه من تضحيات وشهداء لبناء مجتمع قائم على الرخاء والرفاهية والعدل الاجتماعي والنهوض السليم المعافى للبناء المؤسساتي المدني. اذ عكس البيان الاول الصادر في 14 تموز 1958، الطبيعة الوطنية والديمقراطية للثورة. ان الحكم يجب أن يعهد الى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه، وهذا لا يتم الا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة". وبعدها توالت التشريعات التقدمية "كالدستور المؤقت، وقانون رقم (80) لسنة 1961 الذي حدد مناطق الاستثمار لشركات النفط الاحتكارية، وقانون الاصلاح الزراعي لتصفية الاقطاع رقم (30) لسنة 1958، وقانون الأحوال الشخصية رقم (188) لسنة 1959.

كما حلت وزارة التخطيط في العهد الجمهوري محل مجلس الاعمار في العهد الملكي ليلتحم القرار الاقتصادي والسياسة الاقتصادية في مظلة تخطيط علوية هي: (مجلس التخطيط للجمهورية الفتية).

بُناة السياسة الاقتصادية للثورة – تأملات وذكريات

في مبنى وزارة الدفاع عقد مجلس وزراء الثورة اجتماعه الاول برئاسة

الزعيم الركن عبد الكريم قاسم الذي نُصب رئيسا للوزراء يوم ذاك. حيث التأم الجناح الوزاري المدني بالجناح العسكري الذي لازم تراتبيته بشدة امام القوى المدنية الوطنية التي شغلت مناصب وزارية كقوى جماهرية محركة للثورة وغطاء ديمومتها الفاعل. وقد حدثني استاذي الجليل المفكر الراحل "ابراهيم كبة" عن بعض اسرار اجتماع اليوم الاول الذي شغل الراحل فيه منصب وزير الاقتصاد ليمثل يومها الجماهير الكادحة صانعة تاريخ الثورة وخالقة الحضارة العراقية وقاعدة الديمقراطية الحقة والمنفذة لسنن المجتمع وبانية عالم الغد في ارض عالمها الحرية والسلام في بلاد ما بين النهرين قائلاً: "ان التيار القومي قد دخل مجلس الوزراء بجناحيه العسكري والمدني وهو يحمل بذور المعارضة والانقسام تحت تأثير الموجة الناصرية العامة وقت ذاك. وكانت البداية السالبة لتشتعل الساحة السياسية بصراع ادى في نهايته الي غدر الثورة وطعنها من ظهرها ذلك منذ انسحاب التيار القومي في الاسابيع القليلة من اجتماعات مجلس الوزراء وعموم العمل الوطني المشترك. الا ان الثورة وديمومة نضالها منذ اليوم الاول تطلب اعتماد جدول اعمال ينصرف الى التصدي لقضايا اساسية ثلاث: اولاهما، مكافحة الفساد وثانيتها، اشاعة الخدمات والمنافع العامة ونشرهما بين صفوف الفقراء والطبقات المسحوقة والثالثة، البحث عن انموذج بديل للتنمية يسهم في تنويع الاقتصاد الوطني والتخفيف من ظاهرتي الفقر والبطالة. ولم تمض الا ايام قليلة وبدأ التطبيق الفعلي لمكافحة الفساد وباتجاهين اولهما تنفيذ قانون تطهير جهاز موظفي الدولة من المرتشين او ممن أثرى على حساب المال العام، والاخر هو اشاعة المساءلة المالية لتطال الموظفين الحكوميين كافة تحت مبدأ: من اين لك هذا؟ يوم كشف اولئك الموظفون الحكوميون مصالحهم وذممهم المالية كافة امام الجهات المختصة فبعد أشهر قليلة من انبثاق ثورة تموز 1958اخذ الزعيم عبد الكريم قاسم مصطحباً في سيارته رئيس مجلس النواب الياباني الذي زار يوم ذاك العراق رسمياً وهو يحمل في جعبته سؤالاً واحدا هو: لماذا قمتم بثورة 14 تموز 1958؟ وهو السؤال الذي فاجأ فيه الضيف الياباني الزائر الزعيم قاسم اثناء تسلقهما ادراج مبنى وزارة الدفاع بصحبة الدكتور محمود على الداود .فما كان من الزعيم الا ان طلب من الضيف الياباني ان يجلس الى جانبه في تلك الحافلة (الخاكية اللون) وتوجها سوية الى منطقة (خلف السدة) في جانب الرصافة من شرق بغداد يوم كانت تعج بعشرات الالاف من الاكواخ تناظرها منطقة اخرى اكثر سوءاً في جانب الكرخ تسمى (الشاكرية) حيث تنعدم فيها هي الاخرى ابسط متطلبات الحياة الانسانية وتزدحم بالآلاف المؤلفة من سكان العراق من اصول فلاحية اتوا غالبيتهم هرباً من قبضة الاقطاع وظلمه من مناطق جنوب شرق العراق. وعلى الرغم من ذلك حملت الجماهير الفقيرة سيارة الزعيم عبد الكريم قاسم وضيفه الياباني على الاكتاف وهي تهتف بحياة الثورة وزعيمها. التفت

الضيف الياباني الى الزعيم قاسم وسأله من هم هؤلاء اجابه انهم فقراء الشعب العراقي الذين جاءت الثورة من اجلهم. ومن هنا فهم الضيف الرسمي الياباني رسالة ثورة تموز وكيف ستنطلق حكومة 14 تموز ببرنامجها الوطني الشامل في مكافحة الفقر وكيف ستنهض بهوامش المدن وعشوائياتها وتحويلها الى نواة مدنية خالية من الظلم والتخلف والتهميش الاقتصادي والاجتماعي وجعل اولئك الفقراء كقوة حضرية منتجة مندمجة بمجتمع المدنية. إذ أُطلق يومها مشروع بناء مدينتي الثورة/ الصدر في جانب الرصافة والشعلة في جانب الكرخ واشاعة الحركة الاسكانية وتشييد البنى التحتية في العاصمة بغداد وعموم العراق.

لم يستطع الانموذج القياسي الملكي للتنمية الذي تبناه مجلس الاعمار في فلسفته الانمائية ان يخلص العراق من تكاثر ونمو العقدة الريعية التي تعاظمت منذ اتفاقية تقسيم عوائد النفط في العام 1952 مناصفة بين شركات النفط الاحتكارية والحكومة الملكية للعراق. فالأنموذج القياسي او النمطي للتنمية الذي استخدمته الملكية لدفع عجلة التنمية وتمويل لوازمها بعوائد النفط العالية جاءت بالتركيز على الاستثمار الواسع في البنية التحتية الزراعية لمشاريع تطوير وارواء الاقطاعيات وتحولها نحو استخدام التكنولوجيا الزراعية الكثيفة في رقع جغرافية كثيفة السكان لتتسع حينها رقعة البطالة في قوة العمل الريفية مع اتساع الزراعة الرأسمالية في نظام بات شبه اقطاعي مزيجا بالرأسمالية الزراعية. وعلى الرغم من اهمية التحول التقني الزراعي الا انها قادت اجتماعياً الى تحرير مئات الالوف من العائلات الزراعية وقواها الفلاحية الكادحة من قبضة الاقطاع وأدت ايضاً الى التسريع في التحول التكنولوجي في الزراعة الذي اخذ طابعاً شبه رأسمالي هذه المرة، ليقابله قطاع نفطي كثيف التكنولوجيا محدود جداً في استخدام العمل الفائض ومهيمن في الوقت نفسه على الناتج المحلي الاجمالي من دون تنوع تكنولوجي في الصناعة التحويلية وخلق بروليتاريا عمالية واسعة، ما اسهمت في تضييق درجة التنوع الاقتصادي وتعظيم القوة العاملة الهامشية حول المدن في اقتصاد ضعيف في توفير دواليب الصناعة ومنتج للبطالة في الوقت نفسه فقطاع الانتاج النفطي العالي التكنولوجيا في مجال الاستخراج كان بمثابة البديل التلقائي للنهوض في القطاع التكنولوجي ولكنه احادي ملازم لإلغاء اهمية توليد الصناعة التحويلية. اذ اصطدم عرض العمل غير المحدود المتدفق بكثافة من الارياف، قليل الخبرة والتعليم (وهو يبحث عن هامش من الريع النفطي بعد ان فقد سكان الارياف هامش ريعهم الزراعي الضئيل من نظام الاقطاع الزراعي) ليتولوا الهجرة والعيش في هوامش عشوائية حول المدن الكبيرة. اذ تمركز المهاجرون او النازحون الجدد بالآلاف كتجمعات بشرية وهم يبحثون عن هوية اقتصادية جديدة ريعية للعمل، مدعمة بنفقات عوائد النفط التي اخذت تسربها الموازنات الحكومية لدعم وسيلة عيشها وتجسدها اضطرارا تقديم اعمال

يدوية هامشية وفي حركة هجرة صعودية ومسلسل نزوح قوامه مغادرة الالاف باستمرار لارياف جنوب ووسط العراق صعوداً الى اعالي الانهر والبحث عن هوية عمالية هامشية جديدة وبتدفق انساني سار على عكس جريان رافدي دجلة والفرات. وهكذا اصطدم عرض العمل الفلاحي المهاجر الهارب غير المحدود صوب هوامش المدن وعشوائياتها، تاركاً خلفه قوى شبه اقطاعية اتسمت بالتحول البطيء نحو تشييد اطر بدائية من الرأسمالية الزراعية، ما جعلت من الطبقة العاملة الجديدة المتمركزة في هوامش المدن بمثابة فائض عمل شديد الخطورة واداة للتغيير الاقتصادي والسياسي المقبل للبلاد. فكانت النتيجة النهائية هي تردي مستوى المعيشة بسبب تردي الانتاجية بين شكلين من القطاعات الاقتصادية: احدهما، قطاعات منتجة مولدة للدخل شديدة الحداثة التكنولوجية في قطاع الاستخراج النفطي. والاخرى، هي القطاعات التقليدية الخدمية الواطئة التكنولوجية ضعيفة القيمة المضافة والقليلة الاجر والدخل واختلافها الشديد وتباينها في توليد التراكم الرأسمالي الذاتي، ما ولدت تدهوراً في مسارات النمو الاقتصادي وما لازمها من تدهور في فرص العيش. فالقوة العمالية الجديدة المهمشة حول المدن وحراكها الاجتماعي من جانب واشتداد التركز الرأسمالي الزراعي بميوله شبه الاقطاعية من جانب اخر قادا بلا شك وباتجاهين مختلفين الى التعجيل في ثورة 1958، وتمكين الطبقة الوسطى المدنية والعسكرية المنظمة سياسياً بقوتها الذاتية والموضوعية وزخم فعلها المؤثر كمادة دافعة للتعجيل في انهيار النظام الاجتماعي السياسي الذي آزره في الوقت نفسه انهيار متسارع في متلازمة المنظومة الاقتصادية الزراعية الملكية (شبه الرأسمالية ـ شبه الاقطاعية) والتجارية الكمبرادورية ذات الجذور الريعية الهشة.

حدثني المفكر الراحل ابراهيم كبة وزير الاقتصاد للجمهورية الاولى يوم انبثاقها ان مشكلة البطالة والخيار التكنولوجي الصناعي كانت من اولى ركائز البرنامج الاقتصادي لثورة تموز منذ الاجتماع الاول. اذ أدركت قيادة الثورة أن تبني انموذج الدفعة القوية في التنمية وتولي اشاعة النمو المتوازن في مفاصل الاقتصاد كافة، يعني ان السير بالاستثمارات بحزم متعاقبة صغيرة لا يوصل الاقتصاد الوطني الى مرحلة الانطلاق وبلوغ النمو الذاتي المستدام ويؤدي الى ضياع الموارد الاستثمارية. وقد آزرت قيادة ثورة تموز فكرة ان الناتج الحدي الاجتماعي للاستثمار لمجموعة النشاطات الصناعية يحقق معدل نمو في الاقتصاد يفوق الناتج الحدي الفردي. وهنا بدأ دور الدولة في تعظيم البنية التحتية الكلية كونها المقدمة الاساسية لتحريك النشاط الانتاجي الصناعي المؤسس لتنويع الاقتصاد ورفع كفايته. فالنمو في البنية التحتية بمقدار واحد في المئة سنوياً يؤدي الى نمو في الناتج المحلي الاجمالي بمقدار واحد ونصف بالمئة سنويا. وهنا تصبح المشاريع رابحة جميعاً ليس بمعنى الربح الفردي وانما بمعنى الربح

الاجتماعي بسبب أثر العامل الخارجي الموجب في رفع كفاية الانتاج الذي هنا يولده الاستثمار في البنية التحتية او ما يسمى براس المال الاجتماعي العلوي. وفي إطار السير ببرنامج الدفعة القوية لثورة 14 تموز 1958 تبنت قيادة الزعيم عبد الكريم قاسم برنامجاً مكثفاً في الاستثمار في مجال كهربة العراق والاستثمار في الصناعة التحويلية وتوليد قطاع عام صناعي متقدم للتغلب على عقبات التنمية وامتصاص البطالة والنمو في قوة العمل الصناعية واشاعة الرفاهية بتحسين دخل الفرد السنوي. وهكذا خلص الاجتماع الاول لوزارة الجمهورية الاولى بعد ان تبنت برنامج وزير الاقتصاد المفكر ابراهيم كبة والسير فوراً في تطبيق برنامج الدفعة القوية القائم على تكثيف الاستثمارات وعلى وفق مسار النمو الذاتي وهو مسار باتجاه التوازن كما ذكرنا تتلازم فيه المدخرات والطلب والانتاج في إطار تبادلي معتمد عالي الكفاءة غير قابل للتجزئة ومُعظم في الوقت نفسه للوفورات الخارجية التي تقلل من متوسط كلفة الانتاج ما بين الصناعات. فكانت بداية الانطلاق بالقرض الصناعي الميسر الذي قدمه الاتحاد السوفياتي السابق والذي زاد على 150 مليون دولار لإقامة ما يزيد على 70 منشأة صناعية منتجة امتدت بين صناعة الاقطان والنسيج وانتهت بصناعة المعدات الميكانيكية والكهربائية لتُشكل دالة الانتاج الصناعي الحكومي وولادة الجيل الجديد من البروليتاريا العمالية الصناعية العراقية داخل الكيان المصنعي الحكومي. بهذا عبر انموذج الدفعة الصناعية القوية للوزير والمفكر الراحل ابراهيم كبة عن القدرة على تحريك الاقتصاد الوطني بدواليب تكنولوجية مؤثرة في تجاوز معضلة التكنولوجيا الثنائية الكثيفة في القطاع النفطي والزراعي كما كان عليه الانموذج القياسي الملكي للتنمية، لإحداث توازن في قضيتي رفع مستوى المعيشة والتشغيل الدائم لعرض العمل غير المحدود الذي ظل الريف يدفع به من حين لآخر. وهنا أمسى التراكم الرأسمالي في الصناعة التحويلية رديفاً للتكنولوجيا وتنوع قطاعات استخداماتها التي استطاعت ان تتفادى قضية التكنولوجيا الثنائية للموديل القياسي الملكي القاصر (بين النفط والزراعة) لتتبنى الموديل التكنولوجي الثلاثي وهو النفط والزراعة والصناعة وهو انموذج التوازن في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للجمهورية الاولى. ومن دون ان ننسى قانوني الارض ومصادرة ريعهما لمصلحة الشعب العراقي وهما القانون رقم80 لسنة 1961 وقانون تعيين مناطق الاستثمار لشركات النفط وهو القانون الذي امم اراضي الاستثمار النفطي وسحبها كلياً من ايدي شركات النفط الاحتكارية الاجنبية باستثناء دائرة عملياتها. كما سبقه تشريع قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958 المعدل والذي امم هو الاخر الملكيات الكبيرة وفتتها لمصلحة فقراء الريف وفلاحيه ووضع حدا للسلطة المستبدة لشبه الاقطاع.

مُنظرو الموديل الاقتصادي للثورة: جدليات وذكريات اكاديمية!

أولا، دخل قاعة الدرس رجل باسم الوجه ممشوق القامة ذو بنيان مستقيم، يكسو البياض نصف شعره الاسود ويرتدي بدلة زرقاء غامقة وربطة عنق انيقة، تقدم في مسيره بهدوء حتى مثُل امامنا نحن طلبة الماجستير في العلوم الاقتصادية بجامعة بغداد ليعتلي منصة الدرس، يومها كانت هي المحاضرة الاولى التي استطاع فيها هذا العالم الجليل (استاذ مادة التنمية الاقتصادية) ان يمتص اضطرابنا ومشاغلنا وبهدوء بالغ والتي غلفتها تصوراتنا وانفعالاتنا عن سُحب الحرب واعمدة الدخان والتحام الجيوش في خضم حرب، كان مسرحها ضفتي قناة السويس وشبه جزيرة سيناء وأعالي الجولان، انها حرب اكتوبر 1973. فطقوس الدرس الاول وميدانه اختلف في معطياته عن ساحة الحرب وميدانها، ذلك على الرغم من انهما يجتمعان في مبادئ الدفاع عن الوجود ولكنهما يفترقان في نوعية المسار وبلوغ الاهداف. انه ميدان المعرفة الاول لنا نحن طلبة ذلك العالم الجليل الراحل الدكتور محمد سلمان حسن، يوم ابتدأ الدرس وهو جالس على كرسيه وبساقيه المشتبكتين ويرسل بشهيقه علماً ويبعث في زفيره دراية واحساسا في حركة الحوار والفكر التي بدأت تصب على الرغم من مرارتها في مسار الامل والبحث عن المستقبل الاقتصادي للعراق. حدثنا الراحل يومها بمقدمة رائعة عن طبيعة الاقتصاد العراقي والثنائية القطاعية فيه قبل ان يتصدى الى نظريات التنمية ونماذج النمو الاقتصادي وعلى وفق المنهج المعتمد. فهو مازال يتطلع الى بناء اقتصاد حقيقي فاعل للعراق ولكن بعين اكاديمية حذرة. وقبل ان تنتهي محاضرته الاستهلالية الاولى وزع علينا الراحل نسخة شخصية من مؤلف قام هو بنقله الى العربية وحمل عنوانا كان نصه: سياسة الاعمار في العراق. ومؤلفه خبير الاعمار توماس بالوك الذي استقدمته الحكومة العراقية في عقود سابقة لرسم معالم سياسة اعمار البلاد. أدهشني وقتها الاهداء الذي وضعه الراحل محمد سلمان حسن في مقدمة المؤلف المذكور بطبعته العربية والذي خص فيه رئيس وزراء العراق الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم، وذلك بعد مرور عشر سنوات على الانقلاب العسكري الدموي الذي اطاح بزعيم الجمهورية الاولى في 8 شباط 1963 ولم يتردد يومها العلامة محمد سلمان حسن من أن يرتب ذلك الاهداء اي مأخذ سياسي او خوف ازاء السلطة في كبح اصراره على الولاء الى الزعيم الوطني الراحل عبد الكريم قاسم. أدركت في لحظتها قوة المبادئ التي كان يحملها العلامة الراحل وميوله الاكاديمية والعقلانية الوطنية لقضية شعبه من دون تعصب في بناء عراق منظم ومتنام ووطن يتمتع ابناؤه بنظام اقتصادي متحرر ومزدهر يسوده العدل والمساواة. كما علمت ان استاذنا محمد سلمان حسن كان من بين نخبة الاقتصاديين الذين اختارهم الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم في رسم السياسة الاقتصادية للجمهورية الاولى. كان الاستاذ الراحل مدافعاً اميناً على البرامج والخطط الاقتصادية والتنموية

التي وضع معالمها بنفسه وبمشاركة الوطنيين الاحرار الاخرين من خبراء الاقتصاد والادارة والاعمار والهندسة والفنيين وغيرهم والتي كانت تُمهد لإنشاء مجلس اعلى للتخطيط في العراق.

ثانيا، التقيت العلامة الراحل الدكتور عبد المنعم السيد علي (استاذ النظرية النقدية) الذي استفسر في حينها عن مسيرتي الدراسية وتقدمي العلمي في حقل الاقتصاد والمناهج التي يتناولها الاساتذة في دروسهم على طلبة الماجستير (لكونها الدراسة العليا التي جرى استحداثها للمرة الاولى في العراق)، وقد ذكرت له على سبيل الحديث قصة كتاب توماس بالوك واهمية موضوعاته في تحليل نقاط القوة والضعف في الاقتصاد العراقي وبرامج الاعمار المطلوبة والذي نقله الى العربية استاذنا محمد سلمان حسن وكيف ان اصرار استاذنا محمد سلمان حسن على توزيع الكتاب بنفسه وهو يحمل الاهداء الى الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم، امر لم يثنِ عزمه او ينتابه خوف، على الرغم من ان النظام السياسي السائد وقت ذاك في العراق لا يسمح بذلك..! تبسم الراحل الدكتور عبد المنعم السيد علي وقال لي لدي سر سأخبرك به عن الاستاذ محمد سلمان حسن. وكان الراحل الدكتور عبد المنعم السيد علي يكُن بصمت كل الاحترام والمحبة للأستاذ محمد سلمان حسن! وان مفاد ذلك السر هو كالاتي: كان الدكتور عبد المنعم السيد علي من المنتظمين (سراً) في التيار القومي الناصري وهو من الخصوم التقليديين للتيار اليساري ونهج الزعيم عبد الكريم قاسم ابان السنوات الاربعة ونيف التي تلت قيام ثورة 14 تموز 1958 يومها كان التيار القومي الناصري يكيل التهم والشكوك في الصحافة اليومية على المنهج الاقتصادي والسياسة الاقتصادية للعهد الجمهوري! ولكن كان الرد والتوضيح يأتي في اليوم التالي وعبر الصحافة القاسمية او اليسارية على لسان الراحل محمد سلمان حسن بموضوعية وصدقية عالية جداً وبأدب جم بعيد عن المهاترات السياسية. وهي الحالة التي كانت سائدة في العراق ابان الجمهورية الاولى والتي يُشبهها الاستاذ الدكتور سيار الجميل في مقاله (العراق 1958 في الوثائق البريطانية) بانها اشبه بالحرب الباردة وسياسة ملء الفراغ بين العراق القاسمي وبين مصر الناصرية في تلك الحقبة. وبهذا فقد استطرد العلامة الراحل الدكتور عبد المنعم السيد علي قائلاً: انها كانت بحق مناكفة اقتصادية – سياسية، يراد منها ازعاج النظام السياسي وقت ذاك. مواصلاً القول: ان أكثر ما كان يدهشني هو ذلك الرد العلمي والهادئ والصائب للعالم الجليل محمد سلمان حسن؛ ففي كل مرة يتصدى فيها التيار القومي الناصري لمنهج ثورة 14 تموز الاقتصادي، او تحديداً المنهج الاقتصادي للزعيم قاسم، يأتي الرد التحليلي - الموضوعي سديداً متماسكاً، وعبر الصحافة اليسارية، بقلم الراحل محمد سلمان حسن، مؤكداً لي كم كان الراحل محمد سلمان حسن واضحاً في حجته وكم كان قوياً في تفسير منهجه، ما جعل الراحل الاستاذ عبد المنعم السيد علي ان ينصح في حينها التيار القومي الناصري بالكف عن

الولوج بأي حديث في الاقتصاد السياسي للجمهورية، يتناول الرد فيه شخصية علمية بوزن محمد سلمان حسن، وهو امر اذا ما استمر سيجعلنا الجانب الخاسر في ذلك الحوار الجدلي ذي الغايات السياسية! قلت للعلامة الراحل عبد المنعم السيد علي ولكن ماهي الحكمة المستخلصة من ذلك الحوار الجدلي؟ اجابني بنفسه، لقد تعلمت شخصياً الكثير من ذلك الجدل ومن محاور محمد سلمان حسن نفسه سواء الاكاديمية التحليلية منها ام العملية! وواصل قائلاً: ان العلوم والمعارف ظلت وستظل تتطور وتتسع عبر الحوار مهما تعاظمت حدتها واختلفت رؤاها ومهما ابتعدت مفاهيمها بين المتحاورين من التيارات والمدارس المختلفة. انها صناعة العلم عبر التاريخ المعرفي للإنسانية.

ثالثا، أبلغني الاستاذ الراحل محمد سلمان حسن انه ارتبط بزمالة علمية وصداقة عائلية مع المفكر الاقتصادي البولندي العالم اوسكار لانكه صاحب المؤلف الشهير: النظرية الاقتصادية للاشتراكية والتي سبق نشرها في مجلة الدراسات الاقتصادية الامريكية بجزءين خلال الاعوام 1936 و 1937. كما تأثر الراحل بمدرسة لانكه ونظرياته وافكاره مثلما تأثر به كبار الاقتصاديين امثال: جان تنبركن وابا ليرنر ودون باتنكن وغيرهم. وكان الراحل محمد سلمان حسن يلتقي العالم لانكه ويزوره في بولندا او أي مكان آخر من اوروبا خلال المناسبات او العطل الصيفية حتى وافاه الاجل في العام 1965. كما انه اتفق معه على مواصلة مشروعهما العلمي الذي كان يقتضي استكمال مؤلف لانكه نفسه والموسوم "الاقتصاد السياسي" وهو المؤلف الذي شرع بكتابته باللغة البولونية في العام 1959 قبل ان يتم نقله الى الانكليزية. فقد كان الراحل محمد سلمان حسن بحق منشغلا في إسهامه بتأليف الجزء الاخير من الكتاب المذكور الذي لم يكمله الراحل اوسكار لانكه، بعد ان نقل محمد سلمان حسن الى العربية الجزءين الاول والثاني من المؤُلف المذكور آنفاُ ، ثم تحقق له اكمال الجزء الاخير من الكتاب واهداني الراحل محمد سلمان حسن نسخة منه في العام 1975، وقمت وقتها من فوري بإهدائه نسخة من كتاب كان مؤلفه الاقتصادي المعروف مارتن جي بيلي الصادر في العام 1962 والموسوم "الدخل القومي ومستوى الأسعار" وقال لي بالحرف الواحد: شاكراُ فضلك لأني لم اطلع على هذا المؤلف من قبل. ومن حسن الصدف كنت بحاجة الى ذلك الكتاب واوصيت اثنين من الاصدقاء لشرائه لي من مكتبة (فويلز) الشهيرة في لندن بغية التحوط وضمان وصوله، ووصلني حقاُ نسختان من الكتاب نفسه في وقت متقارب وانا كنت بحاجة الى نسخة واحدة فحسب! وهكذا ومن حسن الطالع ان تكون احدى النسختين اللتين حصلت عليهما من كتاب (مارتن جي بيلي) هي من حصة العالم الراحل محمد سلمان حسن.

رابعا، أثر العالم اوسكار لانكه بالراحل محمد سلمان حسن اثناء مرحلة عمله في تنظير الموديل الاقتصادي لثورة ١٤ تموز، إذ تأثر اوسكار لانكه هو بنفسه بكبار العلماء والمفكرين امثال كارل ماركس وباريتو وفالراس. وبهذا استطاع

لانكه ان يقدم نظريته في (اقتصاد السوق الاشتراكي ونماذجه التي جمع فيها بين النظرية الماركسية في تحديد القيمة وبين النظرية الاقتصادية النيوكلاسيكية في تحديد الاسعار). ففي مؤلفه النظرية الاقتصادية للاشتراكية، استطاع لانكه تقديم فرضيته القائلة: ان التخطيط المركزي يحدد مجموعة الاسعار من خلال ما يسمى (بالتجربة والخطأ) والتي تتيح القيام بالتكيفات اللازمة لإزالة العجز او الفائض لبلوغ التوازن العام بدلاً من ميكانيكية الاسعار في السوق الحر. وفي ظل هكذا نظام يتولى المخططون المركزيون فيه تحديد سعر المنتج الصناعي بصورة اولية او ربما اعتباطية ابتداءً في مصانع الدولة، ومن ثم يقومون بزيادة السعر او تخفيضه بالاعتماد عما يؤديه ذلك السعر الى حالة عجز او فائض في العرض. وتتم المحاولات لمرات عديدة، حتى بلوغ الاستقرار والتوازن. وبهذا فأن العاملين في حقل الرياضيات ممن يمتلكون القدرة على حل المعادلات الانية المعقدة هم الاقدر من بين من يسهموا في التخطيط الاقتصادي وضبط آليات وديناميكيات التوازن العام. فارتفاع الاسعار يشجع المنتجين على زيادة الانتاج وانخفاضها سيرشَد الانتاج. وهكذا تندفع الوحدات الاقتصادية نحو تعظيم الربح الاشتراكي بغية تفادي التكاليف الناشئة. فميكانيكية السوق الاشتراكي تمتلك القدرة المثلى والفورية على ادارة العرض والطلب. وان مناصري مدرسة (اوسكار لانكه) يجدون في اشتراكية السوق ثمة مزايا في تسيير عجلة الاقتصاد الاشتراكي المخطط والمسير بأدوات السوق وآلياته في ضبط الثمن. لقد عبر اوسكار لانكه عن اروع امثلته وقدراته التحليلية للنظم الاقتصادية من خلال رده لمنتقدي الاشتراكية، ذلك من خلال جمعه بين الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وفكرة مدخلات السوق ومخرجاته. وهذا ما اطلق عليه يومها بجدل الاشتراكية، الذي مثل الحدث الاهم في موضوع دراسة النظم الاقتصادية المقارنة وزاد من مستوى الجدل التقني والنظري الذي حلّ محل تحليل النماذج الاقتصادية المجردة في وصف النظم الاقتصادية الحقيقية. كما دفع من اهمية العديد من الموضوعات ذات الصلة بالنظم الاقتصادية المقارنة والتي منها على سبيل المثال موضوع التخطيط المركزي واللامركزي في اتخاذ القرار الاقتصادي ودور نظم المعلومات وحقيقة اسعار السوق والتركيب الممكن بين الخطة والسوق. كما عدُ اوسكار لانكه من اشد منافسي باريتو في بلوغ الامثلية عند تخصيص الموارد وتحقيق الرفاهية، فضلا ان لانكه نفسه وبلا شك كان من طلائع من دفع بنظرية (السيبرنتيك)، أي علم ادارة الدفة والربان في التخطيط الاقتصادي، من خلال كتابه الموسوم "الكومبيوتر والسوق".

خامسا، ان تعرضنا لمدرسة اوسكار لانكه آنفا هو بمثابة تأكيد للرؤية والمنهج الاقتصادي الذي كان العالم الكبير الراحل محمد سلمان حسن ينهجه ويضيف عليه في مسار تواصله عند إسهامه في كتابة الجزء الأخير من مؤلف لانكه: الاقتصاد السياسي. وهو يؤسس للموديل الاقتصادي لثورة 14 تموز 1958 دون توقف.

الانسان: الامل الدائم للثورة

حدث الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم نفسه وهو يتطلع الى صورة ذلك الصبي الصغير القادم من ارياف شرق دجلة بعد ان فكك ارضهم قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 من قبضة الاقطاع وهو يحمل في تضاريس عقله حاسبة عملاقة قادرة على حل سلسلة رقمية وحسابية في ثوانٍ معدودات، والزعيم يردد في سره: ان نؤمن بالعلم يا عادل فهو القوة وراء خلود بلاد ما بين النهرين وان نؤمن بالحكمة والادب والمعرفة، لكي ننعم بنضارة الحياة وننهل من رحيقها وان نؤمن بالشعب وثورة الاصلاح، لكي نعجل مسيرة البلاد نحو الكمال، فالحرص على تماسك الأرض والشعب هو عماد الوحدة، وان النكسة يا عادل لا تجيء الا نتيجة لخلل يصيب وحدة البلاد ولكن مجد العراق وأمنه سيظلان يستحوذان على مشاعري بقوة. فعندما ظهر ذلك الطفل الموهوب عادل شعلان في برنامج العلم للجميع اتصل الزعيم عبد الكريم قاسم وأهدى له جهاز تلفزيون تقديرا له، وهي هدية ثمينة في حينها. ذهب عادل شعلان في اليوم التالي الى مقر الزعيم في وزارة الدفاع، وحين عرف الزعيم بان عادل شعلان قد حضر شعر من فوره بالإحراج امام مدير مكتبه وقال لمن معه: أليس بالإمكان تأجيله حتى نهاية الشهر كي اتسلم راتبي ومن ثم اعطيه الهدية؟

مرت السنوات حتى منتصف سبعينات القرن الماضي يوم كُلفت بتدريس مادة مبادئ الاقتصاد الجزئي لطلبة قسم دبلوم التعاونيات الزراعية الوجبة المسائية في الجامعة المستنصرية، فوجئت حينها ان عادل شعلان هو نفسه من بين اولئك الطلاب، وعندما ادى امتحانه الفصلي الاول كانت اجابته على الاسئلة الامتحانية ليست بالمستوى المطلوب وكانت نتيجته منخفضة جداً. حدثني في انتهاء الدرس شاب طويل القامة ريفي اللكنة بسيط المحيا قائلاً: يا استاذ انا عادل شعلان الذي يوصف بعبقري الرياضيات ولكن سوء الحظ سلط علينا عدواً اسمه الافكار فغزانا من الداخل وعبث بمجدي العقلي أيما عبث وانتهيت الى ما انا فيه الان. توقفت امامه ومن دون ان اجيبه وانا أتذكر يوم وقف عادل شعلان امام مكتب الزعيم عبد الكريم قاسم بانتظار هديته، وامسكت بقلمي لاستمد القوة مستوحياً الرضا والانتصار للرافدين متذكراً ايمان الرجل الراحل بشعبه، وكيف اتسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة وعاش فقيرا ومات فقيرا، فاستبدلت درجة عادل المنخفضة تلقائياً بدرجة عالية اكراما له.

الاستنتاجات

أولا، عدّ الاصلاح الزراعي الذي جاء به القانون رقم 30 لسنة 1958 احد اهم التدابير التي عملت عليها السياسة الاقتصادية لثورة 14 تموز، اذ كان مشروعاً طموحاً يهدف الى تفكيك النظام الاقطاعي لملكية الارض واعادة توزيعها على الفلاحين على وفق اشكال مختلفة من الحيازة والتصرفات الزراعية. ومع ذلك كان التنفيذ بطيئاً لارتباط الانتاج في تلك الحيازات الزراعية الجديدة المتناثرة بقيد التطور المتسارع في البنية التحتية

الزراعية التي هي بحوزة الحكومة المركزية وبنسبة لا تقل عن 83%. كما ارتبط تخصيص الارض على الفلاحين من المالكين الجدد (وبملايين الهكتارات) بقدرة نظام الري والسقي المسيطر عليه حكوميا من العمل والتوسع والتنظيم بفاعلية تتناسب والحياة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في ارياف العراق. حيث كان التنفيذ الحكومي في التملك وتوفير البنية التحتية الزراعية (الجزئية والكلية) في ارياف العراق بطيئاً للأسف ما ساعد على تعاظم موجات الهجرة الى هوامش المدن، سعيا وراء العيش. يومها كانت حكومة ثورة 14 تموز تسعى الى انشاء آلية لإدارة برنامج الاصلاح الزراعي تحت مسمى: المديرية العامة للاستيلاء وتوزيع الاراضي الزراعية الاكثر بطئاً. وترى اغلب الدراسات ان اجراءات الاصلاح الزراعي في القانون رقم 30 قد ادت حقاً الى تدمير احزمة النظام الاقطاعي في التملك والحيازة (الكبيرة) وهي على نحو اسرع ما بنى اسس نظام التملك والحيازة والتصرف والانتاج الزراعي بحجمها (الصغير) ما ادى الى تدهور الانتاج الزراعي وانخفاض مساهم الزراعة في الناتج الحلي الاجمالي واستمرار الهجرة من الريف الى المدينة، لتتولد معضلة اجتماعية لاحقة.

ثانيا، لقد استمرت السياسة الاقتصادية التي رسمت معالمها ثورة 14 تموز 1958 لتبقى في بعض مفاصلها واحدة من متبنيات القادة العسكريين اللاحقين في الحكم (بعد انقلابين عسكريين) لتعمل بوتيرة ابطأ قطعاً. اذ اعتمدت حكومة الرئيس عارف العسكرية في العام 1964 القانون رقم 100 او غيره في اجراء متطرف غير مدروس عبر عمليات التأميم للمصالح الاقتصادية من راس المال الوطني بغية زيادة دور القطاع العام في المجالين الصناعي والخدمي. ففي تموز من العام 1964 قامت الحكومة بإجراء غير مسبوق يحاكي الانموذج المصري الناصري، بتأميم 27 شركة صناعية وطنية منتجة مملوكة للقطاع الاهلي، اضافة الى تأميم المصارف وشركات التامين وغيرها. الا ان الاجراء إملاءاته السياسية الخارجية غير المدروسة ادت الى تدمير التراكم الرأسمالي الوطني ومن ثم هروب رؤوس الاموال المتبقية الى الخارج مع تراجع في القطاعين الصناعي والزراعي بسبب تردي الادارة والانتاج والانتاجية العامة. وبهذا وعلى خلاف الموديل الاقتصادي القياسي لثورة 14 تموز الذي من خلاله طورت الدولة القطاع الصناعي بشقيه العام والخاص، الا انها قوضت القوى الريعية الاقطاعية والمصالح النفطية الاجنبية بالقانونين 30 و80 لسنتي 1958 و1961 على التوالي. في حين نجد ان الفترة اللاحقة من الحكم العسكري قد انقضت على تقويض الصناعة الوطنية وتدمير راس المال الوطني بالغالب، وعاملته معاملة الاقطاع بل اشد في موضوعي التملك والتعويض.

واخيرا، مثلما رحل الزعيم عبد الكريم قاسم رمز الثورة واقامة النظام الجمهوري، رحل عادل شعلان، رمز الطاقة البشرية وأيقونة العقل العراقي.. ولكن أمل الثورة الدائمة لن يرحل.

ثورة 14 تموز والسياسة التعليمية في البلاد

د. إبراهيم إسماعيل

يعّد كل ماحدث من تغيير ثوري في صبيحة 14 تموز 1958، تواصلاً مثمراً لمسار كفاحي إجترحته أجيال من العراقيين منذ ولادة الدولة العراقية الحديثة، وأعظم إنعطافة في تاريخ البلاد المعاصر، حققت لها ولأول مرة، الإستقلال وحررتها من التبعية للإمبريالية العالمية، ووحّدت مكوناتها الاجتماعية ومنحتها هوية وطنية جامعة، ووفرت الشروط السياسية والإقتصادية والقانونية لتفعيل دور الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين وجموع الكادحين في إدارة وتطوير البلاد، وسعت لتحطيم العلاقات ما قبل الرأسمالية، وصيانة الثروة الوطنية، وإجراء تغيير حقيقي في عمليات توزيع هذه الثروة، بما يؤمن قدراً أفضل من العدالة الاجتماعية.

ورغم ما حظيت به منجزات حكومة الثورة من تغطية جيدة نسبياً من الدراسات والأبحاث، فإن الكم الهائل لما قيل في مديحها، او القدح فيها والذي يتصاعد في هذا الزمن الرديء، يتطلب توسيع الإهتمام، ليس بالمنجزات السياسية والإقتصادية الكبيرة التي حققتها فحسب، بل وأيضاً في التفاصيل التي تركت آثاراً متباينة على مختلف جوانب تطور البلاد وحتى اليوم، وأحدثت تغييراً كمياً، ظهرت بعض تأثيراته النوعية بعد زمن طويل.

ولعل من أبرز المنجزات الاجتماعية

للثورة، تبنيها، ومنذ انتصارها الباهر، مهام تغيير الواقع العراقي جذرياً وتحسين حياة الناس ولاسيما الكادحين منهم، وتوفير الخدمات الأساسية كالسكن والصحة والتعليم لهم، خاصة مع ما كانوا يعانون منه من حرمان وتمييز بشع خلال العهد الملكي.

ويأتي التطور غير المسبوق الذي شهده ميدان التربية والتعليم في البلاد، في مقدمة تلك المنجزات الاجتماعية. ويمكن تقسيم العوامل التي حققت هذا التطور في مجموعتين مترابطتين:

أولاً/ العوامل غير المباشرة

يؤكد عالم الإجتماع الفرنسي المتوفى عام 1917، إميل دوركهايم، أن قدرة المجتمع على العيش تشترط وجود درجة من التجانس بين أفراده، والذي يلعب التعليم دوراً رئيسياً في تحقيقه وإدامته، وبالتالي تأمين ما يحتاجه المجتمع من تضامن [1].

ويرجع الفيلسوف الفرنسي لويس التوسير، المتوفى عام 1990، طبيعة النظام التعليمي المتبع الى البنية التحتية السائدة، وهو يعكس بذلك علاقات الإنتاج ويخدم مصالح الطبقة المهيمنة، من خلال إعادة تأهيل قوة العمل اللازمة وضمان خضوعها، عبر وعي طبقي معين، لعلاقات الإنتاج السائدة من جهة، وإعادة إستنساخ أيديولوجية الطبقة الحاكمة من جهة مكملة [2].

وعموماً، تشير العديد من الدراسات الى وجود خمس منظومات رئيسية فاعلة في أي نظام اجتماعي، حيث يعتمد تقدم هذا النظام على تناغم نشاط هذه المنظومات معاً، وهي المنظومة العائلية والثقافية والإدارة الإقتصادية والتعليمية والسياسية. وفي الوقت الذي تخدم فيه كل منظومة، المجتمع بأسره، يتوقف أداؤها تماما على مدى تفاعل باقي المنظومات معها.

وتأسيساً على ذلك، أشارت أغلب الدراسات الى أن لبيئة الطفل تأثيرا حاسما على درجة تعلمه وإهتمامه بالتعليم وتعلقه بمدرسته. وقد وُجد أن أغلب الطلبة الذين حصلوا على الشهادات الجامعية، مولودون في عوائل صغيرة، كان للوالدين وقت كاف للاهتمام بهم، أو في عوائل قادرة على تأمين نفقات الدراسة ولها بيوت صالحة للسكن، أو عوائل تمكّن أحد الوالدين أو كلاهما من إكمال تعليمه العالي. كما وُجد أن غياب المساواة بشكل تام أو شبه تام في المجتمع، يلغي وجود أي تكافؤ في الفرص التعليمية. وأعني بالمساواة، توزيع عادل، بدرجة ما، للثروة، وخضوع متشابه للقانون، وضمان معقول للكرامة الإنسانية. ففي ظل العولمة المتوحشة، حيث يعيش مليار انسان في ظلام الامية ويفتقد ثلاثة أضعافهم حتى الماء الصالح للشرب، وحيث تمارس الأنظمة الرأسمالية، تمييزاً عنصرياً بشعاً ضد الملونين والمهاجرين والنساء والمختلفين مع الأغلبية السائدة في الدين أو القومية أو الطائفة، تتحدد الفرص التعليمية للأطفال على ضوء قرارات المؤسسات الطبقية الحاكمة، والدخل الذي يتوفر للطبقة التي ينحدر منها الطفل، ومجموعة القيم التي تسود حسب الأيديولوجيا الحاكمة، الى جانب موقف العائلة من تعليمه [3].

وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن العوامل غير المباشرة، مثل الأمان الأسري (الذي يضمنه دخل وسكن وخدمات مناسبة) والأمن المجتمعي (استقرار سياسي وتضامن اجتماعي مناسبان)، لا تحسّن من الأداء التعليمي للطفل فحسب، بل وأيضاً في درجة تفاعل الأسرة الإيجابي مع هذا الأداء. وأن هناك علاقة تفاعل متبادلة بين المنظومتين التعليمية والإقتصادية، بحيث تضمن الثانية تقدم الأولى، قبل أن يستثمر هذا التقدم في تطوير المنظومة الثانية نفسها [4].

إن القاء نظرة سريعة على واقع التعليم في العهد الملكي، توضح لنا التخلف الكبير الذي كانت تعاني منه المنظومة التعليمية سواءً في ضعف الإستراتيجية التربوية والتمسك الدوغمائي بالأطر التقليدية المتخلفة، أم في إغراق المناهج بكل ما يعيق التحرر والإبداع، أم في الإنحياز الطبقي لعموم العملية التربوية. كما عانت هذه العملية من ضعف التخصيصات المالية ونقص الكوادر التعليمية المتخصصة وندرة المدارس الحديثة، لاسيما في المدن والقصبات، وإنعدامها تقريباً في الريف،

وتواصل الإشراف البريطاني على التعليم، وعجز أغلبية الناس عن توفير نفقات الدراسة، وسيادة الأمية بينهم لدرجة وصلت الى أكثر من 90%[5].

ومنذ البدء أدركت حكومة 14 تموز، أبعاد هذه اللوحة المعقدة، فعمدت الى وضع الركيزة الأهم لقيام دولة مدنية ديمقراطية في العراق، من خلال سلسلة من الإجراءات العملية والتغييرات السياسية والقانونية، إضافة الى منجزها على طريق تحرير الاقتصاد الوطني من التخلف والتبعية. وقد ساهمت هذه الركيزة في تأمين العديد من العوامل غير المباشرة، لتحقيق تقدم مضطرد في الخدمات التعليمية عبر ما يأتي:

1. توفير الأمن المجتمعي

• أدى إشراك ممثلي كل المكونات الإجتماعية في إدارة الدولة، الى تعزيز إهتمام الجميع بالمستقبل، وأوجد ثقة متينة نسبياً بالحكومة لدى المواطنين، وخلق كل ما يزيد من إنشداد الناس، وخاصة الشبيبة منهم، للتقدم الحضاري.

• كان لإنصاف المرأة العراقية وتفعيل دورها الاجتماعي والإقتصادي، ورفع الحيف عن النساء ودمجهن في النشاط العام للمجتمع، على أساس أول قانون تقدمي وحضاري لضمان المساواة بين الجنسين (قانون رقم 188 لسنة 1959)، أكبر الأثر في تعزيز اهتمام النساء بالتعليم.

• أدى الاعتراف بشراكة العرب والكرد في الوطن، والاهتمام الذي حظيت به كردستان في سنوات الثورة الأولى، الى فتح الأبواب واسعة في الإقليم، فكنست شمس التعليم ظلام عقود من العزلة، لاسيما في الأقضية والنواحي الكردستانية.

• كان لتبني سياسة تعميم المشاريع على معظم المدن والقصبات العراقية، أثر مهم في خلق درجة من التضامن بين العراقيين، حل محل المنافسة والفرقة جراء الشعور بالحيف وبالتمييز القومي والطائفي.

• أدى ضمان الحكومة، لاسيما في عامها الأول، حرية الفكر والإبداع والاعتقاد والنشاط الاجتماعي، وانحيازها لقيم التقدم العلمي والتنظيم المناسب للعلاقة بين الدولة والدين، ومحاربتها للنزعات العنصرية والتعصب الديني والطائفي والإثني، ودعمها لقيام العشرات من المنظمات الجماهيرية والجمعيات والنقابات، التي عملت على تعبئة الجماهير وجذبها الى العمل من أجل الحرية ولقمة العيش، الى حدوث تحول ديمقراطي مناسب، سياسياً واجتماعيا، ما حقق أماناً مجتمعياً ملحوظاً لدى مختلف الطبقات الاجتماعية. كما لعبت الطبقة الوسطى، التي زادت اعدادها بنسبة قاربت 100 % ، دوراً، وإن كان محدوداً، في تأمين الظروف السياسية الاجتماعية للتحول الديمقراطي [6].

2. توفير الأمن الأسري

• في الوقت الذي شكّل فيه الفلاحون 70% من سكان البلاد، أحدثت الثورة إنقلاباً شاملاً في حياة الريف، من خلال تغيير الملكية الزراعية للأرض باصدار قانون الاصلاح الزراعي المرقم 30 لسنة 1958، ودمج سكانه في النشاط الإقتصادي والسياسي، والغاء نظام دعاوى العشائر في 27 تموز 1958، وإضعاف سلطة الاقطاعيين وشيوخ العشائر وكبار ملاكي المدن بشكل تام، ورفع المستوى الصحي في الريف، وتقليل الفروق بينه وبين المدينة، وتزويد سكانه بالمعارف العامة من خلال منظمات المجتمع المدني

والجمعيات الفلاحية، ما أدى بمجمله الى تغيير حياة الفلاحين بشكل كامل، وجذبهم الى ساحات التعليم طواعية وعن وعي متنام.

• شرعت الثورة بتنمية إقتصادية ذات جوهر إنساني، فسُنّت قوانين جديدة للضرائب، تخفف نسبياً عن كاهل الكادحين وتمكّن الدولة من تقديم الخدمات للناس وتقليل الفوارق الطبقية وتحقيق شيء من التكافل الإجتماعي، والذي ضمّن بدوره زيادة الأجور بنسبة 52% ورفع مداخيل الناس وخاصة شغيلة المدن بأكثر من الارتفاعات في الاسعار، وإصدار قانون الضمان الاجتماعي المرقم 27 لسنة 1960، وتشييد أحياء الفقراء في مدينتي الشعلة والثورة، وتخفيض أجور المساكن والمحلات الصغيرة (قانون رقم 6 لعام 1958)، الأمر الذي وفّر أماناً أسرياً عاماً، كان مفتقداً، ما ساعد الناس على الإهتمام بتعليم أبنائهم[7].

• غيّرت الثورة مواقع العمال ايجابيا بشكل كبير، فحددت ساعات العمل بثماني ساعات، ووضعت حداً ادنى للاجور، وشيّدت مساكن للشغيلة والزمت اصحاب المصانع ببناء دور للعمال (حسب القانون رقم 84 لسنة 1958)، وأطلقت حرية التنظيم النقابي والمهني، واقامت صندوقاً لتقاعد الموظفين والمستخدمين. وكان لهذه التغييرات تأثيرات هامة على شعبية التعليم وإنشداد العمال والشغيلة وأبنائهم لمتطلباته.

ثانياً. العوامل المباشرة

لقد أدركت الثورة حاجة البلاد المتخلفة الى تنمية عاجلة في الطاقات البشرية، بإعتبار ذلك القاعدة الراسخة لأية تنمية مستدامة في المجتمع والإقتصاد. ولإدراكها بأن التعليم هو الرافعة الأبرز لتنمية مختلف جوانب حياة الناس، والإستثمار الأنجع لمستقبل مضيء، عمدت الحكومة الى زيادة حصة التعليم من الميزانية السنوية وأنشأت المدارس والمعاهد والجامعة، واعدت اجيالاً من المعلمين واطلقت الحرية للفكر التربوي، بحيث بلغت أعداد المدارس والمعاهد العلمية والطلبة والمعلمين خلال أربع سنوات ونصف، ضعف ما حققه النظام الملكي خلال أربعة عقود.

وإدراكاً منها للعلاقة التفاعلية بين مخرجات التعليم وبين مضامين المناهج ومدى توافقها مع ذهنية التلاميذ وحاجات المجتمع، ومستوى فعالية المعلمين المرتكز على إلمامهم بالمناهج وإمتلاكهم لتقنية التعليم والقدرة على إيصال المعارف وقوة الشخصية، تم تغيير المناهج وطرق التدريس، وإستبدال الأساليب الإنضباطية المتخلفة بأساليب ترتكز على طرق التربية الحديثة التي تتسق مع مستوى تطور المجتمع العراقي.

وابتدأ العمل بزيادة حصة التعليم في ميزانية عام الثورة الاول ليصل الى 20% أي بزيادة قدرها 163% (من 6.5 مليون دينار الى 16.8 مليون دينار)، خصصت ثلاثة ملايين منها لبناء المدارس. وحافظت حصة التعليم من الميزانية العامة للدولة، على مستواها هذا في جميع سنوات الثورة (20%، 21%، 21%، 23%)، لتصل نفقات التعليم الى أربعة أضعاف ما كانت عليه قبل الثورة (حوالي 23.7 مليون دينار). كما اصدرت الحكومة في ايلول من عام 1959 قانوناً جديداً للمعارف برقم 57، واستبدلت اسم وزارة المعارف بوزارة

التربية والتعليم، قبل أن تستعيد الوزارة اسمها الأول بعد فترة وجيزة. وشهدت بغداد في عام 1960 المؤتمر الاول للتربية، وذلك لوضع إستراتيجيات تطوير التعليم في العراق ومعالجة مشاكله، سواءً في تحسين كفاءة المعلمين والمدرسين وتنشيط عمل الإدارات والمشرفين التربويين، وترميم المدارس وتحديث المناهج وغيرها، وتم إقرار إلزامية التعليم وتشجيع الشباب على الالتحاق بصفوف المدارس.

وشمل اهتمام الحكومة الخاص بتنمية وتطوير التعليم بمراحله الابتدائية والمتوسطة والثانوية، زيادة أعداد المدارس بنسبة 34 % وعدد الطلبة بنسبة 44 % وعدد المدرسين بنسبة 63 % . وبذلت جهود كبيرة لمعالجة مشكلة النقص في الكوادر التدريسية، حيث تحقق نجاح مهم في هذا المجال، تمثل بزيادة عدد المعلمين من 430 ألف معلم عام 1958 الى 991 ألف معلم عام 1962. وفي الوقت الذي سجلت فيه الزيادة السكانية نموا بحدود 3% خلال الفترة 1958 – 1963، زادت نسبة المتعلمين بنحو 5% والحاصلين على الشهادة الابتدائية بنسبة 4% وعلى الشهادة الثانوية بنسبة 10% والشهادة الجامعية بنسبة 11%، كما زاد عدد المتخرجين من القسم العلمي بنسبة 195% ومن القسم الأدبي بنسبة 96%. وبنيت العديد من الأقسام الداخلية في بغداد والمحافظات، وتحققت زيادة قدرها 28% في المساكن الخاصة بالطلبة خلال سنتين من عمر الثورة.

وأقرت حكومة الثورة نظام توزيع التغذية المدرسية على مختلف الطلبة، لاسيما في المدارس الابتدائية وتقديم افضل الوجبات الصحية وبالتعاون مع منظمة اليونيسف، من الحليب واقراص زيت السمك، فضلاً عن الاهتمام بالصحة المدرسية، وتأليف اللجان الخاصة بذلك، وقد شُمل نحو 320871 طالباً بنظام التغذية المدرسية للعام الدراسي 1958، واستمر العمل بهذا النظام حتى شباط الأسود عام 1963.

كما استلزم تنفيذ الحكومة لمجموعة من مشاريع التنمية الزراعية على ضوء قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958، والصناعية على ضوء قانون التنمية الصناعية رقم 30 لسنة 1961 وبرنامج الخطة الخمسية الصادر عام 1961 والذي خصص 28 % منها للتصنيع، والنفطية على ضوء قانون رقم 80 لسنة 1961، استلزم تحقيق تطور كبير، ليس في التعليم الأساسي والعالي فحسب، بل وكذلك في التعليم المهني الذي يرتبط إرتباطاً وثيقاً مع نمو القطاعات الإقتصادية المختلفة: الزراعي والصناعي والتجاري والنفطي. وعملت حكومة الثورة على معالجة الاهمال الذي اصاب التعليم المهني عبر توسيع المدارس المهنية لاسيما الصناعية والزراعية.

وفي اطار الاتفاقية المعقودة بين العراق والاتحاد السوفيتي، جرى بناء 10 مدارس مهنية، لاستيعاب 4000 طالب، وتجهيزها بما تحتاجه من ادوات ومعدات ومناهج دراسية، فضلاً عن تدريب الكوادر العراقية للتدريس في تلك المدارس الجديدة. كما خُصص بين 11 و15% من ميزانية وزارة المعارف للتعليم المهني، الذي زادت تخصيصاته عام 1963 عن 23% قياساً بالعام الأول للثورة. وتم عقد اتفاقية ثقافية

مع مصر من اجل تطوير التعليم المهني بكل فروعه.

كما استحدثت مديريات خاصة بالتعليم المهني، كمديرية التعليم الصناعي، ومديرية التعليم الزراعي، ومديرية التعليم التجاري، ومديرية تعليم الفنون البيتية الخاص بالنساء، وتم الحاقها بوزارة المعارف، فيما صدر قانون خاص بالتعليم المهني، برقم 11 لعام 1960 والذي ينظم شؤون المدارس المهنية. كما افتتحت 16 ثانوية خاصة بالفنون البيتية تخرجت منها 3413 طالبة مؤهلة لإدارة هذا الميدان.

لقد طهّرت حكومة الثورة جامعة بغداد من كل ما كان يعرقل انطلاقتها كصرح علمي متين، وأصدرت قانونها الأساسي، وعهدت رئاستها الى العالم الفيزياوي عبد الجبار عبد الله، ومكنته من إدارتها بما يضمن استقلالها الاكاديمي وفكرها الحر وقدرتها على تربية سليمة وتدريس مثمر وبحث علمي متطور. وحقق ذلك ثماره في زيادة عدد الطلبة المقبولين من 5128 الى 13136 طالبا خلال الفترة 1958 1963، فيما زاد عدد الطلبة المتخرجين خلال هذه السنوات الخمس بنسبة 300 % وبلوغ عدد التدريسيين 530. [8]

وأسست حكومة الثورة لتعاون جاد مع الدول الصديقة من أجل تطوير التعليم في العراق وتبادل الخبرات الفنية والعلمية، كالإتفاقيات الثنائية مع المانيا الديمقراطية وبولونيا والاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا والصين ويوغسلافيا وهنغاريا. كما وقعت اتفاقيتين للتعاون الثقافي مع الاتحاد السوفيتي ومنغوليا. وتم تشكيل لجنة عليا لتنظيم البعثات الدراسية الى خارج البلاد، برئاسة وزير المعارف وعضوية ممثلي الوزارات المختلفة، وذلك للاستفادة من هذه البعثات بما يخدم مشاريع التنمية، وكان أن ابتعثت الحكومة 509 طلاب للدراسة في الخارج في عام الثورة الأول و3040 مبتعثاً في عامها الثاني، مقابل بلوغ عدد البعثات 1635 بعثة خلال 37 عاماً من الحكم الملكي[9].

الهوامش:

1- محمد إعويش، إميل دوركايم والمقاربة الوظيفية في علم الاجتماع التربوي، دراسات تربوية، 2016.
2- وليم لويش، لويس التوسير، ترجمة مروان محمد ومحمد رضا، مجلة الحكمة، 2019.
3- راجع: أشرف الغنام، الأمن الإجتماعي، مركز البحوث المصرية 2010، وسمير سعيد أبو ركبة/ العولمة والعلاقات الدولية الراهنة/ دنيا الوطن/ 2011-01-20.
4- دراسة للكاتب، في علم التربية خاصة بطلبة الدراسات العليا من العوائل المهاجرة، نشرت بالسويدية من قبل جامعة العلوم الزراعية في السويد 2016.
5- حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، مؤسسة الابحاث العربية، 1999.
6- حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثالث، مؤسسة الابحاث العربية، 1999.
7- المصدر السابق.
8- تم الإعتماد في المعطيات المذكورة في هذه الفقرات، على عقيل الناصري، مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد 345، لسنة 2011. علي إسماعيل السنافي، التعليم العالي في العراق، التأسيس والتطور، جامعة ذي قار 2012. حيدر عبد الكريم الكردي، الجمهورية العراقية الاولى 1958 - -1963 دراسة تاريخية، دار نينوى للنشر، دمشق، 2011. ومحمد حديد، مذكراتي، دار الساقي 2006.
9- علي إسماعيل السنافي، التعليم العالي في العراق، التأسيس والتطور، جامعة ذي قار، 2012.

ثورة 14 تموز بين الحقائق الرقمية وزيف الأيديولوجيا

فرحان قاسم

كان الهدف الأساس من ثورة الرابع عشر من تموز هو تسنم السلطة وإعادة النظر في مشروع الدولة العراقية الذي انتجته معاهدة سايكس بيكو بعد الحرب العالمية الأولى من حيث المحتوى والشكل، وكان التناقض الرئيس في ظل النظام الملكي يجري بين الغالبية العظمى من ابناء الشعب العراقي من جهة وبين الاحتلال البريطاني والاقطاع وحلفائهما من جهة اخرى، وفي صبيحة الرابع عشر من تموز تم حل هذا التناقض لصالح الغالبية العظمى من ابناء الشعب عن طريق تحالف اجتماعي واسع سبقه، اشترك فيه العمال والفلاحون والبرجوازية المحلية بغالبية شرائحها وافراد القوات المسلحة من ضباط ومراتب اخرى، وانعكس هذا التحالف الاجتماعي الواسع المعبر عن مهمات مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي على تحالف واسع للقوى السياسية مع منظمة الضباط الاحرار من اجل الانعتاق من الاحتلال الأجنبي، والقضاء على الاقطاع، وبناء دولة من طراز جديد، واعتماد ستراتيجية تنموية تستهدف القضاء على التخلف بمختلف جوانبه.

وتميزت اللوحة الاجتماعية والطبقية في العراق بتغيرات وتحولات متواصلة وانعكست هذه الحركة والتحولات على شكل ومحتوى الدولة العراقية، اذ استطاعت بريطانيا بين الأعوام (1921 - 1955) ان تحقق مشروعها في بناء الدولة على النحو الذي ارادته "لترسيخ تبعية العراق لبريطانيا والاستحواذ على مكامن النفط"، فصممت نظاما سياسيا "مستقلا في الظاهر تابعا خاضعا في الجوهر" اذ قطعت التبعية الكولونيالية التطور الطبيعي الداخلي للمجتمع العراقي وكرست العلاقات شبه الاقطاعية، شبه الراسمالية بقوانين واجراءات عديدة وربطت العراق بمعاهدات جائرة عززت من تلك التبعية وعمقت الاقتصاد احادي الجانب"[1].

وبين الأعوام (1955 - 1980) دخلت

فيها الدولة وقطاعها العام في معركة مع البرجوازية المحلية بكافة شرائحها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة وبدأ مفهوما "الدولة الريعية" و"رأسمالية الدولة الوطنية" يأخذان حيزا كبيرا في الحياة السياسية والاقتصادية للمجتمع العراقي. حيث تولى مجلس الاعمار إقامة العديد من المشروعات الصناعية المشابهة لتلك التي يمتلكها القطاع الخاص، وفتح عددا من القنوات الجديدة، وانشأ طرقا جديدة لرفع مياه النهرين، وبناء مشاريع الري الحديثة: سدة الهندية عام 1913، ناظم الكوت 1929، مشروع الثرثار 1954، مشروع الحبانية 1956، سد دربنديخان 1961، سد دوكان 1959[2].

"وأخذت وتيرة نمو ما يعرف بصعود القطاع العام في حجم التراكم الرأسمالي والتأسيس لما يعرف برأسمالية الدولة الوطنية بعد ان توافر لهذه الدولة موارد مالية ريعية من عوائد النفط التي ارتفعت من 1,5 مليون جنيه إسترليني عام 1941 الى 79,8 مليون جنيه إسترليني عام 1958[3] فأصبحت الدولة مستقلة عن المجتمع وزادت قدرتها على ممارسة الحكم الاستبدادي المطلق. ومع بداية 1964 شهدت الدولة حمى إجراءات تعسفية لتقوية البنية التحتية لراسمالية الدولة عبر قرارات التأميم المعروفة والتي "أظهرت سياسات قمع ونهب صريح للموجودات الرأسمالية الوطنية العراقية"[4]. كما تنامت الطبيعة الريعية للاقتصاد العراقي بسبب تنامي النشاطات الخدمية والإنتاجية ذات الطبيعة الاستهلاكية الغالبة الى جانب النشاطات الاسكانية او العمرانية على حساب نمو أي صناعات تصديرية غير نفطية مهمة[5]. وبعد الثمانينيات من القرن العشرين، تحولت اتجاهات الدكتاتورية نحو الخصخصة، فعرضت الكثير من المشاريع والشركات الزراعية والصناعية للخصخصة. وبعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 بدأت ما تسمى "رزمة الاصلاحات الهيكلية " في اطار توجيه الاقتصاد العراقي باتجاه اقتصاد السوق المنفلت، بهدف الاجهاز على ما تبقى من الدولة العراقية والشروع بمرحلة اللادولة والفوضى والمليشيات.. الخ.

اللوحة الاقتصادية - الاجتماعية قبل ثورة 14 تموز

تطور القطاع الزراعي في العراق خلال الحقبة (1864 - 1958) نتيجة لتوسع الطلب الأوروبي والهندي على المنتوجات العراقية فارتفع مجموع قيمة الصادرات من 2.900.000 دينار قبل الحرب العالمية الأولى، الى حوالي 16 مليون دينار قبل ثورة 14 تموز. وتحت تأثير تطور تجارة التصدير جرى التحول من الاقتصاد الطبيعي القائم على الاكتفاء الذاتي الى إنتاج السلع الزراعية والحيوانية لغرض السوق والربح[6]. وكان لنمو تجارة التصدير اثره الكبير في زيادة السكان وتوطين البدو ونمو البرجوازية التجارية الأجنبية والمحلية، و"اصبح مصدرا للحصول على العملات الأجنبية لدفع قيمة الاستيرادات العراقية"[7] كما لعبت تجارة التصدير دورا مهما في تدهور الصناعات اليدوية القديمة وانحطاطها وظهور الصناعة الحديثة[8]. وصار القطاع الصناعي

العراقي استثمارا وانتاجا تحركه تجارة الاستيراد، اذ بلغت "قبيل الحرب العالمية الثانية مع بريطانيا 70% من قيمة التجارة العراقية، وبقية البلدان الأوروبية 21%[9]. بعد الحرب العالمية الثانية حتى قيام ثورة 14 تموز شهدت عودة صادرات العراق الى أسواقها التقليدية، فقد ارتفعت حصة بريطانيا الى 22,5% وألمانيا الغربية الى 7,8% وهولندا الى 7,2% والدانمارك الى 6,4 % واليابان الى 3,6% من مجموع صادرات العراق عدا النفط خلال 1952 - 1958[10].

البرجوازية المحلية العراقية تتكون اما من افراد ميسورين من سكان المدن ينتمون الى الاشراف او السادة او شيوخ العشائر الذين انتقلوا الى المدن، او من التجار المرتبطين بالشركات الأجنبية التجارية، وكبار الموظفين. وتشكلت منها ثلاث فئات اجتماعية لعبت دورا مهما في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد[11]: البرجوازية الكبيرة أي البرجوازية الصناعية والتجارية بمراتبها المختلفة بما فيها الكومبرادور، التي نشأت في ظل العلاقات الاستعمارية وارتبطت بها في كثير من الوجوه واظهرت عجزا كبيرا في تنمية الاقتصاد، وقد اتجهت بصورة عامة نحو التجارة وامتلاك العقارات اكثر من الصناعة لسهولة الأرباح، وطابعها رجعي يساند النظام الملكي. والبرجوازية الصغيرة المتكونة من بعض الحرفيين وأصحاب المهن الصناعية الحرة التي تعرضت الى استغلال الراسمالية الاحتكارية وتضررت من سوء معاملة الدولة وجهازها الإداري ولعبت دورا تقدميا في المجتمع. وعلى صعيد المثقفين كانت هذه الطبقة أقرب الى الحركة الشعبية.

منح العثمانيون الاقطاعيين أي كبار ملاك الأراضي الزراعية الأراضي والامتيازات الاخرى بهدف تامين خضوع افراد العشيرة للشيخ والسلطة العثمانية، وحماية الامن الداخلي وطرق المواصلات والتعاون مع الجندرمة العثمانية لإسناد الحملات العسكرية[12].

واعتمدت بريطانيا على نظام العشائر كاداة لتعزيز دور شيوخ العشائر في حياة البلاد الداخلية وتحويلهم الى الى ملاكين كبار للأراضي الزراعية، وتوطين البدو الرحل وخلق قوة اجتماعية في الريف موازية للقوى الاجتماعية الأخرى في المدينة وفي تعزيز موقع بريطانيا في الصراع الدائر[13].

75% من مساحة الأراضي الزراعية المستثمرة (لزمة، طابو، اميرية، صرفة) كانت بحيازة كبار الملاكين الذين تزيد حيازة كل منهم على (400) الف دونم، و25% فقط بحيازة بعض الفلاحين وصغار الملاكين. وبقي 85% من سكان الريف لا يملكون شبرا واحدا من الأرض، في حين كان اقل من 1% من سكان الريف يملكون ثلاثة ارباع الأراضي الزراعية وبعض كبار الملاكين كان يستثمر (20) الف عائلة فلاحية[14].

المشايخ العشائريون العرب والبكوات والاغوات الاكراد شكلوا الشريحة الأهم من طبقة ملاك الأراضي الذين سيطروا حتى العام 1958 على العدد الأكبر من فلاحي العراق.

كانت لحيازة الملكيات الكبيرة من قبل

شيوخ العشائر نتائج خطيرة؛ فقد تبدلت العلاقة الابوية التقليدية الى علاقة مالك الأرض المستغِل والفلاح المستغَل. وفقد الشيوخ بذلك قاعدتهم الاجتماعية واصبح تحالفهم مع الإنكليز وجماعة البلاط والقوى المنتفعة من النظام الملكي تحالفا هشا معزولا عن غالبية العراقيين [15].

تعمق التمايز الطبقي في المجتمع خلال السنوات السابقة لثورة 14 تموز في كل من الريف والمدينة على السواء. ودفع بمئات الالاف من الفلاحين للهجرة الى المدينة. وكان العامل الأول في افقار الفلاحين هو اتساع عملية استيلاء الملاكين الكبار على الأراضي الزراعية [16].

اثناء فترة الاحتلال البريطاني جرت تغيرات اجتماعية واقتصادية عميقة في العراق حيث تبدلت حياة الناس وقيمهم الاجتماعية والسياسية تبدلا جوهريا مع التغيرات الاقتصادية التي أحدثها الاحتلال في المدينة والريف [17]. ففي عام 1957 اصبح مجموع السكان 6,3 ملايين نسمة، لم يبق بينهم من سكان العشائر البدوية الا 1%، بينما ارتفعت نسبة سكان الأرياف ارتفاعا طفيفا 58% وارتفع سكان المدن حيث اضحى 41% من مجموع سكان العراق [18].

على ضوء اللوحة الاجتماعية السابقة يمكن اعتبار "النظام الملكي" كمفهوم الى جانب الاحتلال البريطاني هو الطرف الأول من الصراع التناحري قبل ثورة الرابع عشر من تموز ويتكون من الاحتلال البريطاني، الملك (فيصل الأول وغازي وفيصل الثاني) والوصي عبد الاله وشيوخ القبائل وأنصار النظام الملكي من الكومبرادور والوزراء والاعيان والنواب وكبار الموظفين المدنيين وكبار الضباط في القوات المسلحة.

ويتكون الطرف الثاني من الصراع التناحري قبل ثورة 14 تموز من الأغلبية الساحقة لسكان العراق وتشمل الفلاحين والعمال والجنود والضباط الثوريين والمثقفين الثوريين[19]. إضافة الى البرجوازية الصغيرة من الحرفيين وغيرهم واطراف من البرجوازية المحلية التي تم تحجيمها بسبب السياسات الاقتصادية للاحتلال البريطاني وحلفائه.

حقائق رقمية عن الوضع الاقتصادي في العراق قبل ثورة 14 تموز

ان الاقتصاد العراقي قبل 14 تموز اقتصاد متخلف بسبب حقيقتين ثابتتين: الاولى "ان القوى البشرية والثروات الطبيعية كانت في حالة ناقصة وغير عقلانية من الاستثمار". والثانية "ابقاء هذا الواقع على حاله من قبل قوى غير اقتصادية (التبعية الخارجية والعلاقات الاجتماعية شبه الاقطاعية). انعكس هذا التخلف على مجموعة من المظاهر:

منها ان سكان العراق ازداد عددهم خمس مرات من 1,280,000 نسمة عام 1867 الى 6,328,000 نسمة عام 1957. 80% منهم عرب أي (5,018,962) مليون نسمة، وبلغ عدد السكان الاكراد (1,042,774) مليون نسمة، والتركمان (136,806) الف نسمة اما "الأقليات" الأخرى فبلغت حوالي (100) الف نسمة وهي من الكلدان والسريان[20].

ثلث عوائل العراق (431526) الف

عائلة تسكن غرفة واحدة فقط، و(200) الف عائلة تسكن الصرائف، و(300) الف عائلة تسكن بيوتا من الطين. وتبلغ العوائل التي تسكن بيوتا من الطابوق والصخر (20%) فقط. مجموع بيوت الطين والصرائف والخيام هو 608,108 بيوت من مجموع مساكن العراق البالغة 766,106 بيوت، أي ان 80% من المساكن العراقية هي ليست من الطابوق وغير صالحة للسكن وتحتاج الى تبديل. والمياه النقية تجهز 154.395 بيتا فقط من مجموع البيوت ويستعمل 370,785 بيتا الماء من النهر والجدول القريب من بيوتهم، ويستقي 59,476 بيتا من الابار، و154, 262 بيتا تأخذ مياهها من مصادر أخرى كمياه الامطار والعيون وما شابه [21].

اما بالنسبة للقطاع الصناعي، والاستيراد والتصدير وحصة الفرد في الدخل القومي، فقد بلغ رأسمال القطاع الصناعي الاجنبي عام 1951 (100) مليون دينار عراقي، بينما بلغ رأسمال القطاع الصناعي العراقي العام لنفس العام مليون دينار فقط. وبلغ رأسمال القطاع الصناعي العراقي الخاص (4) مليون دينار فقط. وواضح ان رأسمال القطاع الصناعي العراقي يشكل 5 % فقط من الرأسمال المستخدم في الصناعة و95 % منه رأسمال أجنبي عام 1957 بلغت نسبة الاستيراد من بريطانيا 24 % والصادرات اليها 28 %. وبلغ الدخل القومي لكل فرد في العراق بعد الحرب العالمية الثانية (20 – 30) باون استرليني، بينما بلغ في بريطانيا للعام نفسه (101) باون وفي امريكا (109) باون. وانعكس الدخل القومي الواطئ للفرد على كمية ونوع الغذاء وعلى نسبة الوفيات وعلى الحالة الصحية والاجتماعية والثقافية العامة للفرد [22].

وإذا نظرنا الى الوضع الصحي في البلاد، لوجدنا ان عدد المستشفيات (104) مستشفيات، 87 منها تابعة لوزارة الصحة والباقي لوزارات أخرى او أهلية. ويبلغ عدد الاسرّة حوالي (6,500) سرير بمعدل سرير واحد لكل الف نسمة. بلغ عدد الأطباء حوالي ألف طبيب (50%) منهم في بغداد. بلغ عدد المصابين بالتراخوما عام 1956 (54660) والملاريا (24866) والدزاننتريا (41201) بينما بلغ عدد المصابين بالسل الرئوي (500) الف مواطن، منهم (50) الف مصاب في بغداد. وقد بلغت نسبة الاطباء (طبيب عراقي لكل 5800) مواطن، بينما تهبط هذه النسبة في البلدان المتقدمة للفترة نفسها (طبيب لكل 2000) مواطن.

اما بالنسبة للتعليم، فقد بلغ عدد الأميين عام 1957 (4,179,863) مليون نسمة، أي حوالي ثلاثة ارباع السكان. وبلغ عدد المدارس الابتدائية بضمنها رياض الاطفال (1844) وعدد الطلاب (367374) الف طالب وطالبة. أما عدد المعلمين فكان (11151) الف معلم.

وأخيرا، كان عدد الفاعلين من السكان عام 1957 (58 %) من المجموع الكلي. أي بلغت نسبة العاطلين عن العمل (46%). اذ بلغ عدد القادرين على العمل في الريف عام 1957 1,814,000 شخص لا يزيد عدد المشتغلين منهم على 852,000، أي بلغ عدد العاطلين 962,0000 ازداد عدد العاطلين عن العمل في المدن من

291,000 شخص في عام 1947 الى حوالي 405,000 شخص في عام 1957. لذلك تبرز احدى المشكلات الاقتصادية والاجتماعية هي مشكلة البطالة العامة وعجز النظام الاقتصادي عن تحقيق التشغيل التام للايدي العاملة الوطنية في القطاعين الريفي والمدني.

لحظة 14 تموز والتحضيرات للثورة

لم يكن أعداء الشعب قادرين على مواجهة شعب موحد ناهض، إضافة الى ذلك فان "ميزان القوى قبيل ثورة تموز بجانب الجماهير اذا ما احسن تعبئتها وقيادتها" [23] ان جبهة 1957 هي تحالف سياسي اجتماعي واسع اخذ مداه الأقصى والطبيعي بالوقت نفسه حين ارتبط بتحالف مع منظمة الضباط الاحرار التي حسمت صراعا شرسا وطويلا بدأ في 1921 وانتهى في صبيحة 14 من تموز 1958.

أنجزت الثورة تخطيطا وتنفيذا بواسطة العراقيين من دون علم أي من الجهات الأجنبية مما اذهلت القوى الاستعمارية ودفعتهم لتحريك جيوشهم الى داخل المنطقة العربية دون جدوى. وكانت اهداف الثورة واضحة للتخلص من قيود التبعية لبريطانيا واحلافها [24].

ان ثورة 14 تموز ليست وليدة الصدفة المحضة ولا حركة اعتباطية دفعت بها ظروف عارضة وانما هي حصيلة نضال طويل ومرير خاضه الشعب العراقي في اعقاب ثورة العشرين [25].

لقد دللت السرعة التي تمت فيها عمليات الثورة وسيطرة القوات الثائرة على أهدافها منذ لحظاتها الأولى وتحقيقها النصر الكامل على النظام وتخاذل القوى المضادة وعجزها عن ابداء مقاومة جدية للقوى المهاجمة في كل مكان، ان الثورة كانت قد نضجت تماما وان قوى النظام قد توصلت عن قناعة تامة ان لا نفع في مقاومتها لإرادة الشعب الثائر [26].

إنجازات ثورة 14 تموز

أولا، الإنجازات السياسية: قضت الثورة على النظام الملكي واقامت الجمهورية فأزالت الاستعمار والاقطاع والاستغلال، اصدرت الدستور المؤقت عام 1958، والغت المراسيم السعيدية التي صدرت ابان العهد الملكي الرجعي، اطلقت سراح المعتقلين والسجناء السياسيين، والغت قرارات نزع الجنسية عن العراقيين وسعت الى اعادة السياسيين الى الوطن، واطلاق الحريات العامة والنشاطات الحزبية والبدء بسياسة التطهير في الجهاز الحكومي والقضائي [27]. تبنت سياسة عدم الانحياز، الغت جميع المعاهدات الاستعمارية المخلة بالاستقلال الوطني، وخرجت من حلف بغداد" [28] وانسحبت من الاتحاد العربي الهاشمي، وانسحبت من حلف بغداد، واعتمدت سياسة الحياد الإيجابي.

ثانيا، في المجال الاقتصادي والاجتماعي: وضعت الثورة أسسا لالغاء النظام الاقطاعي، فالغت نظام دعاوى العشائر، صادرت اموال واملاك الاسرة المالكة العراقية وتسجيلها باسم الدولة، نظمت شؤون مجلس الاعمار، الغت عقود بعض الشركات الأجنبية، وضعت مخططا عمليا للاعمار، اسست المصارف، نقحت المناهج الدراسية، قامت بإصلاحات واسعة

في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية وأصدرت قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958 وانسحب العراق من المنطقة الاسترلينية. واصدرت قانون رقم 80 لسنة 1961 وأصدرت قانون الأحوال الشخصية، إضافة الى تغييرات أخرى وإصلاحات صحية وتربوية وفي مجال الإسكان والخدمات الأخرى [29]. وعقدت اتفاقية التعاون الفني والاقتصادي مع الاتحاد السوفييتي"[30].

حقائق رقمية عن الوضع الاقتصادي في العراق بعد ثورة 14 تموز

مشاريع عامة: بناء مجموعة احواض سباحة اولمبية في الكاظمية والاعظمية والضباط والكرادة والمنصور ومدينة القاسم، بناء المنشآت الآتية: مطار بغداد الدولي، قناة الجيش، ملعب الشعب الدولي متحف ومديرية الآثار في الصالحية، بناء اكبر مكتبة في الشرق الأوسط في المتحف الوطني، معرض بغداد الدولي، المركز الاذاعي والصوري، البنك المركزي، مصرف الرافدين في الشورجة، 14 فرعا من فروع مصرف الرافدين في كل محافظات العراق، 19 بناية للوزارات بأكملها، 57 متنزها في انحاء العراق، 45 دارا سياحية في الحبانية، انجاز شوارع 14 تموز، فلسطين، الجمهورية، الكريمات، شارع الفلوجة، شارع بيجي، شارع كرادة مريم، تأسيس اتحاد الادباء، نقابة الصحفيين، المهن الصحية، تأسيس 3680 جمعية نقابية، بناء 11 عمارة للضمان والمصارف في شارع الجمهورية، بناء نصب الحرية، بناء مجموعة كازينوهات في سوارة توكا والحبانية والهندية والناصرية والحلة، مجموعة فنادق حديثة في الرمادي والديوانية والكوت وكربلاء وسرسنك، تأسيس مصلحة المصايف السياحية، عشرات السايلوات لخزن الحبوب والمواد الغذائية، بناء رعاية الاحداث لكل محافظة، بناء دار للايتام لكل محافظة، بناء دار لرعاية المكفوفين والمعاقين لكل محافظة، بناء مراكز لرعاية كبار السن والارامل في كل انحاء العراق، تأسيس مصلحة المبيعات الحكومية، استيراد 105 باصات ذات طابقين من بريطانيا، انشاء 875 جمعية تعاونية استهلاكية، انشاء 175 جمعية لبناء المساكن حسب المهن، انشاء عشرات المخابز، بناء الجسر المعلق، بناء اذاعة الثورة واذاعة الحرية في ابي غريب، بناء المجلس الوطني، بناء قاعة الخلد، بناء سينما النصر، بناء مكتبة عامة لكل محافظة، تشييد نصب الجندي المجهول في ساحة الفردوس، بناء مجازر للحوم بفروعها العشرين في انحاء العراق، انشاء 12 علوة اسماك في جميع انحاء العراق، انشاء 10 مراكز لمحطات الإطفاء، انشاء شركة اعادة التأمين، انشاء محطة اذاعة الحرية في كصيبة، انشاء محطة اذاعة في كركوك، انشاء 15 محطة اذاعة صوتية في المحافظات، تأسيس دائرة مصلحة السينما والمسرح، استحداث وزارة الصناعة، استحداث وزارة التخطيط، استحداث الهيئة العليا للإصلاح الزراعي، تجهيز الجيش بالأسلحة والطائرات والمعدات، بناء سجون حديثة، استحداث ميناء ام قصر.

مشاريع الإسكان

بناء 40 مدينة حديثة كاملة الخدمات، بناء مدينة الثورة في كل محافظة، انشاء حي جميلة التجاري، مشروع إسكان أصحاب الصرائف، مشروع الإسكان التجريبي، مشروع إسكان غربي بغداد وشرقي بغداد، مشاريع انشاء قرى في اللطيفية والمسيب، وسلمان باك، والداودية، انشاء مدينة الثورة، ومدينة الشعلة، واليرموك، والرشاد، والمعامل، والحرية، وحي السلام، ومدينة الشعب، وحي نواب الضباط، ودور لمعمل السكر في الموصل، ودور سرجنار. وانشاء مشاريع الإسكان في أربيل، كركوك، البصرة، الكوت، كربلاء، الكوفة، النجف، الحلة العمارة، الرمادي، وكذلك توزيع مليون ومئتي قطعة ارض سكنية، بناء مساكن للعمال والموظفين، بناء الاف الدور المتفرقة في العراق.

مشاريع الصحة

انشاء مدينة الطب في بغداد وتوابعها، وانشاء المستشفيات التالية: الدار التمريض الخاص، اليرموك، الكرخ، ابن النفيس، النعمان، الشماعية، الطوارئ، الأطفال، تكريت، دهوك، الحلة، الفرات الأوسط، كركوك، كربلاء، الامراض الصدرية في الموصل، الكفل، عفك، الرمادي، الديوانية، الهندية، خانقين، شقلاوة، الشرطة، الموصل، الجذام، البصرة، العمارة، الكاظمية، أربيل، مستشفى السليمانية. وكذلك انشاء 32 مستوصفا، و33 مذخر ادوية في انحاء العراق، و160 دارا للأطباء، انشاء عشرات العيادات الطبية، انشاء المذخر الطبي المركزي، مع انشاء 12 مستشفىً للطلاب.

مشاريع التربية والتعليم:

جامعة بغداد، الجامعة المستنصرية، 776 مدرسة، انشاء عشرات المدارس الاهلية، تأسيس نقابة المعلمين وجمعيات تعاونية واسكان لهم، بناء كلية طب الموصل، بناء الجامعة التكنولوجية، بناء عشرات الأقسام الداخلية، انشاء المدارس الصناعية والزراعية، انشاء 66 مكتبة في كل العراق.

مشاريع الجسور

الكرادة المعلق، الكوت، علي الغربي، حديثة، معبر تكريت، جسر المهناوية، الفلوجة، جوارتا، جسر سوق الشيوخ، سيدي كان، كوردره، كرمة علي، باب المعظم، القيارة، ابي صخير، جلولاء، ديالى، الرفاعي، البو صالح، الكحلاء، قاشان في السليمانية .

مشاريع الكهرباء

تلعفر، عقرة، السليمانية، بنجوين، بارزان، أربيل، شقلاوة، راوندوز، كويسنجق، الكوت، النعمانية، كربلاء، النجف، الكوفة، الديوانية، الشامية، السماوة، جوارته، ميركه سور، قره تبه، كرمة بني سعيد، الموفقية، بيجي، شيخ سعد، الكوبر، القادسية، الحويجة، الميمونة، أبو صيدا، المنصورية، كركوك، كفري، بعقوبة، المقدادية، الرمادي، هيت، عانة، قلعة صالح، الحلة، المحاويل، الهندية، المسيب، سدة الهندية، الناصرية، سوق الشيوخ.

مشاريع الصناعة

مصنع الورق في البصرة، الزجاج في الرمادي، البان أبو غريب، البتروكيمياويات في البصرة، الادوية في سامراء، الحرير في الحلة، الحرير في الهندية، الحديد والصلب في البصرة، الأسمدة الكيمياوية في البصرة، الفولاذ والسباكة في بغداد، مصانع السيارات في الإسكندرية، الأحذية الشعبية في الكوفة، تعليب كربلاء، سمنت سرجنار، سمنت الموصل، معمل السكر في العمارة، السكاير في السليمانية، استخلاص الكبريت، المصابيح الكهربائية في بغداد، الصناعات الخفيفة في بغداد، الحياكة في الكوت، معمل النسيج في الكوت، الفرن الذري لأغراض طبية في بغداد، مصنع الثرمستون، الكتل الكونكريتية في بغداد، النسيج في الناصرية، الخياطة في بغداد، معمل السكر في الموصل، اللوازم والعدد الكهربائية، الالات والمعدات الزراعية، الإسكندرية للأسلحة الخفيفة،الطابوق الجمهوري، إطارات الديوانية، معامل الاعاشة للخبز الاوتوماتيكي، الاكياس الورقية، معمل طباعة الكرتون، الأثاث المعدنية، 25 معملا للطحين، صناعة الأبواب الخشبية، دباغة الجلود، الطابوق الناري والسيراميك، مصنع المواد المضادة والمستحضرات الصيدلانية، 14 معملا لكبس التمور، معامل العلف الحيواني، 16 مجزرة حديثة، 4 معامل لصناعة الصابون، معامل انتاج الأفلام السينمائية، معمل الاسبست والاخشاب المستعملة في انتاج الشخاط، معمل الانابيب العملاقة .

مشاريع الري

مشروع الغراف ونواظمه، الدلمج، الشحيمية في الصويرة، مبازل الدجيل، مشروع ري بدرة وجصان، مبازل الحلة والإسكندرية، محطة ضخ الرزازة، نواظم خان الجدول، جداول شط الشامية، ناظم المشخاب القاطع، مبازل ومحطة ضخ الرميثة، مبازل الشطرة، سداد نواظم سوق الشيوخ، بالإضافة الى انشاء المبازل التالية: الصقلاوية في أبو غريب، اليوسفية، المسيب الكبير، الحلة الكفل، الإسكندرية، الحلة الديوانية، كربلاء. وكذلك نواظم أبو التمن في الشامية، نواظم خان الجدول، نواظم شط الشامية، مبازل الرميثة .

السدود ومشاريع الماء

سد الموصل، سد دوكان، سد دربنديكان، مشروع ري كركوك، مشروع ري العظيم مشروع الحويجة، مياه مندلي، تحسين وتنظيم جدول ديالى، ماء بغداد الرصافة والكرخ، محطة ضخ غربي بغداد، واناء محطات المياه في: اليوسفية، بيجي، الشرقاط، كرمة بني سعيد، ماء الموفقية، الكوير، قره تبة، بنجوين، السويب، المنصورية، التحرير، الشيخ سعد، عين التمر، المحاويل، المحمودية، سامراء، عنه وراوه، مخمور، الدور، تلعفر، جوارتا، أربيل، الصويرة، حمام العليل، الناصرية، الحي، مء خان بني سعد، الطارمية، تلكيف، كبيسة، البطحاء، الزبيدية، العمارة، النجف، الديوانية، كربلاء، البصرة، الفلوجة، الكوت، الانبار، ميركه سور، الحويجة، ماء قره داغ، ابي صيدا، القادسية، الميمونة، الحسينية، الإسكندرية، الفاو، قلعه دزه، بعقوبة.

انتكاسة الثورة

لعب الاحتلال البريطاني وحلفاؤه من الدول الاستعمارية والدول التابعة له إضافة الى الطبقات والفئات والشرائح المحلية التي ضربتها الثورة، دورا تآمريا كبيرا في اسقاط هذه التجربة الرائدة. و"لقد غدت محاربة الشيوعية في العراق هي الراية التي يلتف حولها جميع الأطراف" (31). وأن "عملاء الاستعمار سيعمدون الى سلاح تفريق القوى الوطنية تمهيدا لإمرار مؤامراتهم. كما لعبت الصراعات والخلافات بين الضباط الاحرار، ونمو النزعات الفردية لدى بعض قياداتها دورا في اضعاف جبهة الثورة وانكشافها امام الأعداء، فبعدما اتفقت اللجنة العليا للضباط الاحرار على اسقاط النظام الملكي وإقامة الجمهورية على الأساس الديمقراطي البرلماني واجراء انتخابات حرة وتسليم الحكومة الى ممثلي الشعب الحقيقيين [32]. تمسكت بالسلطة وتحولت الى أداة قمع لكل شكل من اشكال المعارضة. ولا ننفي الدور السلبي لأحزاب جبهة الاتحاد الوطني التي فرطت بالجبهة وتوزعت ما بين معارض متعاون مع أعداء الثورة او تابع منقاد لمجموعة الضباط الاحرار الماسكين بالسلطة او انقسام داخل بعض الأحزاب حول الموقف من عبد الكريم قاسم حرمهم من استغلال فرص عديدة لتصحيح مسار الثورة. فكان نصيب قاسم وجماعة من مؤيديه الإعدام بدون محاكمة، كما صفي الحزب الشيوعي والقوى اليسارية الديمقراطية والمستقلة تصفية لم يحصل ما يماثلها الا القليل في تاريخ العالم المعاصر[33].

الهوامش:

1- مؤلفات الرفيق فهد مع مقدمة زكي خيري، مطبعة الأديب، بغداد، 1974.
2- محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ص29.
3- حنا بطاطو، العراق ج1، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت 1990، ص52.
4- د. موسى خلف عواد، إشكالية التطور الرأسمالي في العراق: تزاحم الدولة والطبقة، مجلة كلية الإدارة والاقتصاد للدراسات الاقتصادية و الإدارية والمالية، جامعة بابل، المجلد 2015، العدد 17 (31 ديسمبر/كانون الأول 2015)، ص:18-1، ص9.
5- د. كامل العضاض، هيكلة الاقتصاد العراقي، والمسألة الريعية، عوائق امام تحقيق التنمية المستدامة، ورقة مقدمة الى وقائع الملتقى الاقتصادي العلمي الأول في بيروت 30 اذار – 1 نيسان 2013. منشورة على صفحات شبكة الاقتصاديين العراقيين على النت:
http://iraqieconomists.net/ar/
6- محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المطبعة العصرية، بيروت، ص 206 .
7- المصدر السابق ص 209 .
8- المصدر السابق ص279.
9- عزيز سباهي، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، لندن، 2020 ، ص72.
10- محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المطبعة العصرية، مصدر سبق ذكره.
11- كاظم حبيب، لمحات من عراق القرن العشرين، أربيل ، 2013 ، ص 92.
12- المصدر السابق، ص54.
13- المصدر السابق .
14- ليث الزبيدي، ثورة 14 تموز في العراق، مكتبة اليقظة، بغداد، 1981، ص30.

15- د. طه ناجي، ثورة العراق المجيدة، دار الرواد، بغداد، ص28.
16- جاسم الحلوائي، محطات مهمة، دار الرواد. بغداد، ص55 .
17- عزيز سباهي، عقود من تاريخ ...، مصدر سابق، ص62.
18- محمد سلمان حسن، مصدر سابق ص 55.
19- ليث الزبيدي، ص35.
20- المصدر السابق ص 28.
21- موفق خلف غانم، نزيهة الدليمي ودورها في الحركة الوطنية ، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2014، من تقرير نزيهة الدليمي عن حالة المرأة العراقية، ص100.
22- يمكن الاستفادة من كتاب " الخلفيات الاقتصادية لثورة الرابع عشر من تموز".
23- عزيز سباهي، ج2 ص156 .
24- د.طه ناجي، ص10 .
25- ليث الزبيدي، ص13. مكتبة النهضة.
26- عزيز سباهي، ص 226.
27- ليث الزبيدي، ص260 .
28- د. عبد الخالق حسين، ثورة وزعيم ص18، دار ميسبتوميا، بغداد 2007.
29- ليث الزبيدي، ص 377 .
30- سلام إبراهيم كبة، التصنيع وثورة تموز .
31- عزيز سباهي، ج2 ، ص309.
32- د. فاضل حسين، سقوط النظام الملكي في العراق، ص55.
33- د. طه ناجي، ص10.

خلاصة الملف التشريعي لثورة 14 / تموز / 1958 المجيدة

هادي عزيز علي

رغم صعوبة العملية التشريعية والصياغة القانونية على كوادر الثورة وهم القادمون توا من المعترك النضالي وحداثة العهد بهذا النوع من النشاط المهني، فضلا عن معايير التشريعات للعهد الجديد المختلفة عما سواها من تشريعات سابقة لتعلقه بأحكام البناء المؤسسي للجمهورية، الا ان الحرص والمثابرة والسقوف العالية للوطنية والمهنية كانت حاضرة بكل تجلياتها في المشهد التشريعي فكان هذا العطاء الثر الذي رسم الصورة الواعدة للجمهورية المتجهة نحو بناء الانسان والوطن رغم محدودية المدة وقصرها التي عاشتها الثورة. عليه، فقد تناولنا هذا المنجز بترتيب يأخذ بالاعتبار التسلسل الزمني للصدور او لاعتبارات موضوعية اخرى وبالشكل الآتي:

أولاً: النصوص المبكرة لتأسيس الجمهورية

1. البيان رقم (1)

هو البيان الصادر عن القائد العام للقوات المسلحة الوطنية المذاع صبيحة 14 تموز 1958 المتضمن: "... ان الحكم يجب ان يعهد إلى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه وهذا لا يتم الا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية

الكاملة وترتبط برباط الاخوة مع الدول العربية والاسلامية وتعمل بمبادئ الأمم المتحدة وتلتزم بالعهود والمواثيق الدولية وفق مصلحة الوطن وبقرارات مؤتمر باندونغ. عليه، فان هذه الحكومة الوطنية تسمى الان بـ(الجمهورية العراقية) وتلبية لرغبة الشعب فقد عهدنا رئاستها بصورة وقتية إلى مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ريثما يتم استفتاء الشعب لانتخاب الرئيس".

2. البيان رقم (2)

بموجب البيان رقم (2) تم تأليف مجلس السيادة المتكون من الفريق الركن نجيب الربيعي رئيسا وعضوية السيد محمد مهدي كبة والسيد خالد النقشبندي، وذيل البيان بتوقيع القائد العام للقوات المسلحة الوطنية.

3. الدستور المؤقت

اصدر رئيس الوزراء بيانا، بيّن فيه ان القانون الأساسي (دستور 1925) الذي وضع في عهد الانتداب مخالف في أسسه للنظام الديمقراطي الصحيح ومخالف لرغبات الشعب، إذ أصبح من المحتم قطع الصلة بذلك الماضي المؤلم واعلانٍ سقوط القانون الأساسي الذي انهار فعلاً يوم اعلان الثورة المباركة في 14/ تموز/ 1958. عليه تقرر اتخاذ ما يلزم لوضع دستور مؤقت، يعين أسس الحكم الجديد إلى ان يتم تشريع الدستور الدائم باستفتاء يعرب فيه الشعب بحرية تامة عن رأيه بالحكم الديمقراطي الذي يختاره لنفسه، وان تضامن أبناء الشعب كافة ضامن للوصول إلى الأهداف في ظل حياة دستورية سليمة[1].

صدر الدستور المؤقت بديباجة مختصرة جدا لكنها مجزية، مبينا فيها سقوط القانون الأساسي واعلان الدستور المؤقت وتثبيت قواعد الحكم وتنظيم الحقوق والواجبات لجميع المواطنين. تضمن الباب الأول منه ان الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة كاملة، وان العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر الدستور المؤقت حقوقهم القومية، وان الكيان العراقي يقوم على أساس التعاون بين المواطنين كافة باحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم، وهذا يعني اعتماد مبدأ المواطنة في التعامل.

جاء الباب الثاني بعنوان: (مصدر السلطات والحقوق والواجبات العامة) - الشعب مصدر السلطات، المواطنون سواسية أمام القانون. حرية الاعتقاد والتعبير مضمونة. الحرية الشخصية وحرمة المنازل مصونة. الملكية والملكية الزراعية، فضلاً عن أحكام اخرى مستلة من المواد 12 و17 و18 من الاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة 1948.

اما الباب الثالث فقد كان بعنوان (نظام الحكم) وجاء بأحكام انتقالية تتضمن أحكام السلطات الثلاثة فقد نص على ان يتولى مجلس رئاسة الجمهورية رئيس وعضوان يشكلون (مجلس السيادة)، كما يتولى مجلس الوزراء والوزراء اعمال السلطة التنفيذية. اضافة الى انه اناط مسؤولية السلطة التشريعية بمجلس الوزراء وتصديق مجلس السيادة. اما السلطة القضائية، فالقضاة فيها مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون ولا يجوز لأية سلطة او فرد التدخل في استقلال القضاء او في شؤون العدالة، وان الأحكام تصدر باسم الشعب. الأحكام القضائية هذه مستمدة من نصوص المواد (الثامنة إلى نهاية المادة الحادية عشرة) من الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

يلاحظ ان الباب الرابع الذي جاء تحت عنوان (أحكام انتقالية) اعتبر كل القرارات والأوامر والبيانات والمراسيم الصادرة عن قائد القوات المسلحة او رئيس الوزراء او مجلس السيادة في الفترة من 14/ تموز/1958 الى تاريخ تنفيذ هذا الدستور المؤقت، لها قوة القانون وهي تعدل ما يتعارض مع أحكامها من نصوص القوانين النافذة قبل صدورها.

4. السلطة التشريعية

اول سلطة تشريعية شكلت في العهد الجمهوري كانت من مجلس الوزراء

وهم: الزعيم الركن عبد الكريم قاسم رئيس مجلس الوزراء ووكيل وزير الدفاع والعقيد الركن عبد السلام عارف نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية واسندت وزارة الخارجية للدكتور عبد الجبار الجومرد ووزارة المالية إلى محمد حديد ووزارة العدلية إلى مصطفى علي ووزارة المواصلات والأشغال الى بابا علي الشيخ محمود ووزارة الاعمار إلى فؤاد الركابي ووزارة الارشاد إلى محمد صديق شنشل ووزارة الاقتصاد إلى الدكتور ابراهيم كبة ووزارة الشؤون الاجتماعية إلى الزعيم الركن ناجي طالب، ووزارة الزراعة إلى هديب الحاج حمود، ووزارة الصحة إلى الدكتور محمد صالح محمود، ووزارة المعارف إلى الدكتور جابر عمر[2].

5. الخروج من الاتحاد الهاشمي

لكي يستوفي النظام الجمهوري أسبابه والبناء المؤسسي لسلطاته فقد قرر الخروج من الاتحاد الهاشمي ببيان هذا نصه: "ان حكومة الجمهورية العراقية تعلن انسحابها فوراً من هذا الاتحاد وتعتبر جميع الاجراءات والتشريعات التي تمت بموجبه باطلة وملغية، كما تعتبر نفسها في حل من جميع الالتزامات المالية والعسكرية وغيرها ما فرض على العراق نتيجة لقيام هذا الاتحاد."

ثانياً: الاصلاح الزراعي

1. قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958

رئيس الوزراء وجّه بيانا يعلن فيه نبأ سارا الى ابناء الشعب ورد فيه ان الاصلاح الزراعي هو القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الاصلاح الاجتماعي، ولوجود ملكيات ضخمة تسمى (الاقطاعيات) فيلزم ان تحدد بحد أعلى وما زاد على الحد الأعلى يستولى عليه من قبل الحكومة وبتعويض عادل. اما الأراضي المستولى عليها والأراضي الأميرية الصرفة فستوزع على الفلاحين ليصبحوا مالكين في نطاق الحد الأدنى والمالكون الجدد هم محل عون ومساعدة من جانب الحكومة.

ان اعلان مولد قانون الاصلاح الزراعي كان ايذانا بنهاية الاقطاع في العراق وحلول عهد جديد واعد متجه نحو الخير لأبناء الشعب وهذا القانون يعد احد التشريعات المهمة التي جاءت بها الثورة، وهدفا من أهدافها الملحة المتجهة نحو رفع مستوى المعيشة وازالة أسباب الخوف والجهل والسعي للوصول إلى المستوى الملائم لحياة انسانية كريمة.

المادة الأولى من القانون نصت على: "لا يجوز ان تزيد مساحة الأرض الزراعية التي تكون مملوكة لشخص او مفوضة بالطابو او ممنوحة باللزمة على (1000) دونم من الأراضي التي تسقى سيحاً او بالواسطة، او (2000) دونم من الأراضي التي تسقى ديماً، وعند الجمع بين النوعين يكون الدونم الواحد من النوع الأول مقابلاً لدونمين من النوع الثاني".

المادة الرابعة - "يتم الاستيلاء على الأراضي الزائدة على الحد الأعلى..".

المادة الحادية عشرة - "توزع الأراضي المستولى عليها وكذلك الأراضي الأميرية الصرفة على الفلاحين بحيث تتكون لكل منهم ملكية صغيرة لا تقل عن ثلاثين دونما، ولا تزيد على الستين دونما"[3].

2. تأسيس وزارة الاصلاح الزراعي

ان وجود قانون للإصلاح الزراعي وبالصيغ القانونية التي جاء بها والمنسجمة مع أهداف الثورة يتطلب حتما جهازاً حكومياً وكادراً يحوز الأسباب الوظيفية والمهنية لتطبيق القانون، وفعلاً تم تأسيس وزارة الاصلاح الزراعي لكي تأخذ على عاتقها تطبيق أحكام القانون على وفق قانون السلطة التنفيذية رقم 74 لسنة 1959. اذ نصت المادة الأولى منه على ان "يكون لمجلس الوزراء وكل وزارة من الوزارات شخصية معنوية تتمتع بالحقوق المنصوص عليها في القانون المدني والقوانين الأخرى، ويعتبر كل منها مدلولاً لكلمة الحكومة". وجاء تسلسل وزارة الاصلاح الزراعي برقم 12 من المادة الثانية من القانون[4]. وتنفيذا للأحكام المتعلقة بوزارة الاصلاح الزراعي والدوائر الملحقة بها وآلية عملها.

قانون المصرف الزراعي رقم 56 لسنة 1959

إنّ الغاية المتوخاة من سن قانون المصرف الزراعي هو المساهمة في رفع وتحسين مستوى الزراعة ومكننتها وزيادة الانتاج الزراعي من خلال تسليف المزارعين والصرف على الأعمال الزراعية والبستنة والتشجير واصلاح الأراضي وشراء المكائن والمعدات وشراء المواشي والدواجن[5].

3. قانون المزارع الحكومية رقم 62 لسنة 1962

المزارع الحكومية تعد النسخة العراقية لـ(السوفخوز) السوفييتي وهي حالة متطورة لاعتمادها الطرق الحديثة في الزراعة وقد ثبت من خلال التطبيق فاعلية هذا النوع من الزراعة سواء تعلق الأمر بكمية الغلة للدونم الواحد او بنوعية المنتج. جاء في الأسباب الموجبة للقانون "بغية تنفيذ خطط الاقتصاد الوطني وتطوير الزراعة في البلاد فقد انشأت المزارع الحكومية على نطاق واسع لإنتاج مختلف الحاصلات الزراعية وتجهيز الأسواق المحلية بالمواد الغذائية وتهيئة المواد الزراعية الخاصة التي تتطلبها الصناعات الوطنية، شرع هذا القانون"[6].

ثالثاً: الأحوال الشخصية

1. قانون رقم 188 لسنة 1959[7]

يُعد هذا القانون الأفضل في محيطنا العربي والاقليمي بعد القانون التونسي. اذ تمكن الرواد ممن عهد اليهم كتابة مشروعه ان يعملوا بمثابرة لافتة واجتهاد ناجع، فتمكنوا من تحويل العديد من القواعد الفقهية المتناثرة في أحكام العديد من المذاهب الاسلامية - ومن دون التقيد بمذهب معين - إلى قاعدة قانونية معاصرة ذات لغة قانونية رصينة كانت مدعاة لاستمراريته في التطبيق رغم تجاوزه للعقد السادس منذ صدوره، فضلا عن حفظه للأسرة وكيانها وحقوقها، تحف به المبادئ الآتية:

1. ان النصوص الواردة فيه هي الحاكمة لكل مواضيع الأحوال الشخصية وفي حالة عدم وجود نص فيحكم بمقتضى مبادئ الشريعة الاسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون.

2. عقد الزواج عقد رضائي.

3. الاكراه على الزواج من قبل الأقارب والأغيار يعد جريمة يعاقب عليها.

4. لزم تسجيل عقد الزواج لدى قاضي محكمة الأحوال الشخصية وهذا النص قيد سلطة رجل الدين في هذا المجال.

5. الطلاق المتعدد لفظاً يقع طلقة واحدة.

6. الأحكام الواسعة للتفريق بسبب الضرر او الهجر او الخيانة الزوجية او الزواج بالإكراه وغيره.

7. الحضانة تدور وجوداً وعدماً مع مصلحة المحضون والأم أولى بها بشروطها.

8. البنت تحجب أعمامها وعماتها من الارث.

2. المساواة في الارث

ساوى القانون بين الأبناء ذكوراً واناثاً في المسائل الارثية، والمساواة هذه لا تعد تحديا للموروث الشرعي كما ذهب البعض بل هو تطبيق لقانون نافذ الى يومنا هذا اذ اعتمد في توزيع المسألة الارثية على احكام القانون المدني في حق الانتقال وعلى وجه الخصوص المادة 1194 منه التي تنص على: "يراعى دائماً في حق الانتقال، ان يكون للذكر مثل حظ الانثى، أياً كانت الدرجة التي انتقل اليها هذا الحق"[8].

رابعاً: الانعطاف التشريعي نحو مجموعة الدول الاشتراكية

لاحظت الثورة ومنذ أيامها الأولى تعاطفاً ملموساً من قبل منظومة الدول الاشتراكية مع التجهم الواضح من قبل العالم الغربي وعلى وجه الخصوص المملكة المتحدة. في ضوء هذا الواقع المستجد تصرفت السلطة التشريعية بموضوعية تامة انطلاقاً من المصالح العليا للبلد، فكان منجزها التشريعي في هذا الجانب بالاتفاقيات الثنائية في مجالات الاقتصاد والتجارة والعلوم وغير ذلك على الوجه الاتي:

1. بيان رئيس الوزراء بإعادة التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي

أصدر رئيس الوزراء البيان الاتي حول العلاقات مع الاتحاد السوفييتي التي كانت قد الغيت في العهد المباد، الذي جاء فيه نصاً: "كانت العلاقات الدبلوماسية قائمة بين العراق والاتحاد السوفييتي حتى إلى ما قبل ثلاثة اعوام لكن نوري السعيد ألغى تلك العلاقات وذلك موقف لم تتخذه اية دولة أخرى بما في ذلك سائر دول حلف بغداد. وبالنظر لموقف الاتحاد السوفييتي الودي من شعب الجمهورية العراقية وتأكيد حكومة الاتحاد السوفييتي واحترامها لحق الشعوب في تقرير مصيرها واعلانه الاعتراف بالجمهورية العراقية فقد قرر مجلس الوزراء اعادة التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي فوراً وابلغ ذلك رسمياً"[9].

2. بيان رئيس الوزراء حول جمهورية الصين الشعبية

نظراً لموقف جمهورية الصين الشعبية الودي تجاه شعب الجمهورية العراقية واعلانها الاعتراف بحكومته فقد قرر مجلس الوزراء الاعتراف بحكومة جمهورية الصين الشعبية وابلغ ذلك رسمياً[10].

3. نماذج من الاتفاقيات مع الدول الاشتراكية

تصديق الاتفاق التجاري بين الجمهورية العراقية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في 11 /10 /1958[11] والبروتوكول الخاص بالوضعية القانونية للممثلية التجارية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لدى الجمهورية العراقية، القانون رقم 56 لسنة 1958الخاص بالاتفاقية التجارية الموقعة مع جمهورية المانيا الديمقراطية[12]، والقانون رقم 86 لسنة 1959الخاص بالاتفاقية التجارية مع جمهورية جيموسلوفاكية[13] والقانون رقم 6 لسنة 1959 مع رومانيا الشعبية(13)، والقانون رقم 11 لسنة 1959 مع جمهورية بولندا الشعبية[14]، واتفاقية التعاون الفني والعلمي والتجاري مع جمهورية بلغارية الشعبية - القانونين رقم 24 و26 لسنة 1959[15]. والقانون رقم 135 لسنة 1959 مع جمهورية البانيا الشعبية[16].

خامساً: النفط

1. بيان رئيس الوزراء حول السياسة النفطية

نظراً لأهمية النفط للاقتصاد العالمي، تود حكومة الجمهورية العراقية ان تعلن عن حرصها على استمرار استخراج النفط وجريانه وتجهيزه للأسواق التي يباع فيها، وذلك لأهميته للثروة القومية والمصالح الاقتصادية والصناعية الوطنية والدولية... وهي تحترم التزاماتها مع الفرقاء المعنيين وقد اتخذت جميع الخطوات الضرورية لصيانة آبار النفط ومراكز الضخ والأنابيب وجميع المنشآت الأخرى داخل حدود الجمهورية العراقية. وستعمل الحكومة في الوقت نفسه على حماية مصالحها القومية العليا، وتأمل من ذوي العلاقة ان يتجاوبوا مع رغباتها هذه في استمرار هذا المرفق الحيوي لمنفعة الاقتصاد الوطني وللاقتصاد الدولي معاً[17].

2. قانون تعديل مصلحة مصافي النفط الحكومية رقم 4 لسنة 1958

لما للنفط من أهمية خاصة في منظور الثورة ورؤيتها الاقتصادية فقد وجدت ان الأحكام المتعلقة بهذا المرفق الحيوي لا تنسجم وأهداف الثورة، لذا فقد أجرت هذا التعديل على قانون مصلحة المصافي الحكومية رقم 9 لسنة 1952، وخاصة طريقة الادارة التي يجب ان تكون قادرة على تحقيق الأهداف المرسومة للاقتصاد في عهده الجمهوري:

المادة الأولى- تلغى المادة الثالثة من قانون مصلحة مصافي النفط الحكومية ويستعاض عنها بما يأتي:

المادة الثالثة - تناط ادارة المصلحة بمجلس ادارة له استقلاله في الشؤون المالية والادارية وفقا لأحكام هذا القانون[18].

3. الهيأة العامة لشؤون النفط - القانون رقم 37 لسنة 1959

بموجب هذا القانون تم الغاء قانون مصلحة المصافي الحكومية رقم 9 لسنة 1952. اذ جاء في اسبابه الموجبة لزوم المحافظة على الثروة النفطية وحسن ادارتها في مراحلها المختلفة، فيقتضي وجود هيئة تتولى رسم التخطيط العام للسياسة النفطية. وبموجبه فقد نص القانون على "تنشأ هيئة

عامة لشؤون النفط ترتبط بوزارة الاقتصاد وتكون لها شخصية معنوية ..“ المادة الثانية من القانون[19].

4. قانون تنظيم شؤون النفط رقم 13 لسنة 1961

هذا القانون بمثابة اعادة النظر في كل القوانين المتعلقة بشؤون النفط، بما في ذلك القانون رقم 37 لسنة 1959 الذي بموجبه تم انشاء الهيئة العامة لشؤون النفط، وبغية توحيد تلك القوانين بقانون يفي بالغرض المطلوب ويلبي الأهداف المرسومة للسياسة النفطية باعتبارها شريان الاقتصاد العراقي فقد شرع هذا القانون[20].

5. قانون رقم 80 لسنة 1961

يعد هذا القانون من أجرأ القوانين التي شرعتها الثورة والمتعلقة بالقطاع النفطي. اذ بين القانون ان المراد بالشركات هي شركة نفط العراق المحدودة وشركة نفط الموصل المحدودة وشركة نفط البصرة المحدودة. اما مصطلح المناطق المحدودة الوارد في القانون فيقصد به الأراضي التي يحق لكل شركة القيام فيها بعملياتها، اما مصطلح الأراضي فيقصد به أية أرض مغمورة بالماء او غير مغمورة.

يكون لكل شركة منطقة معينة مساحتها لعملها وحسب الجدول المرفق بالقانون، واذا ارتأت الحكومة العراقية تخصيص أراضي أخرى لتكون احتياطا للشركات، فيجب ان لا تزيد على المساحة المعينة في الجدول لكل شركة، وفي ما عدا ذلك التعيين فان الأراضي الأخرى تكون خالية من جميع الحقوق التي ترتبت عليها للشركات تلك[21].

اعتبرت الشركات العاملة في هذا الحقل ان الحكومة العراقية تعلن خصومتها لها، وراحت تتصرف ضد العراق ضمن أحكام الخصومة.

سادساً: الصناعة

1. قانون إدارة المشاريع الصناعية الحكومية رقم 13 لسنة 1960

كانت النصوص القانونية التي تعالج هذا الموضوع متناثرة في تشريعات عدة، ومختلفة في تواريخ صدورها وفي بعض الجوانب منها غير منسجمة لا بل متناقضة. عليه وضمن الوضع الجديد واستنادا إلى أهداف الثورة وخططها وبرامجها برزت الحاجة الملحة إلى وجود قانون يأخذ على عاتقه انسجام تلك النصوص وتوحيدها بحيث تعد غطاءً تشريعياً ناجعاً يلبي الطموحات ويساهم في ترسيخ ادارة تلك المشاريع. لتلك الأسباب فقد صدر هذا القانون[22].

2. قانون تجارة السمنت رقم 41 لسنة 1960

لما كانت الحكومة قد وضعت خطتها لتشجيع الصناعة الوطنية وتطويرها، فقد كان للسمنت موقع في تلك الخطة المتمثل في اكتفاء السوق المحلية من هذه المادة الحيوية. وما زاد عن الحاجة الوطنية فيتم تسويقه إلى الأسواق الخارجية وذلك للارتقاء بالاقتصاد الوطني إلى مراحل متقدمة تحقيقا وتنفيذا لخطة الحكومة تلك[23].

3. قانون التنمية الصناعية رقم 31 لسنة 1961

من أهداف الثورة تفعيل وإنعاش الصناعة الوطنية وعلى كافة المستويات والسبل. هذا الموقف يتطلب تشجيع رأس

المال الخاص. ولما كان الأمر كذلك فلا بد من تشريع يغطي هذا النشاط الصناعي وينسجم مع حاجات البلد إلى التصنيع، ولما كانت التشريعات النافذة حينئذ اصبحت غير قادرة على مواكبة حركة التطور كالقانون رقم 72 لسنة 1956 قانون تشجيع المشاريع الصناعية والقانون رقم 18 لسنة 1957 قانون تأسيس المشاريع الصناعية، لذا فان الحاجة اصبحت ملحة لسن قانون جديد يقدم التسهيلات لرأس المال الخاص ويمكّن اصحاب المشاريع الصناعية من الاستمرار بالعمل وتطويره وتحسين الانتاج وحماية للصناعة الوطنية وتقليل الاعتماد على رأس المال الأجنبي الداخل في الصناعة الوطنية مع زيادة الاعفاء من الضرائب وتقليص القيود المشترطة لتقديم المساعدات فقد شرع هذا القانون[24].

4. قانون المصرف الصناعي رقم 63 لسنة 1961

ان المهمة الرئيسة التي من أجلها وضع مشروع القانون هي تقديم التسهيلات والمساعدات لأرباب العمل والمشاريع الصناعية بغية النهوض بالواقع الصناعي في مجال القطاع الخاص وتحقيقاً لطموحات العهد الجمهوري. وبموجب هذا القانون فقد تمت زيادة رأس مال المصرف إلى عشرة ملايين دينارا تلبية للواقع الصناعي الجديد[25].

5. قانون اتحاد الصناعات رقم 31 لسنة 1962

لاحظ المشرع في العهد الجمهوري ان القانون السابق ومن خلال التطبيق فيه ثمة نواقص ولم يكن من الكفاءة التي تمكنه من مسايرة التطور الاقتصادي. ولما كان الانتاج الصناعي في عهد الثورة يشكل عنصراً هاماً من عناصر الاقتصاد وعاملاً أساسياً في رفع مستوى معيشة المواطنين، فقد بادرت السلطة التشريعية لتشريع هذا القانون[26].

6. قانون مصلحة الكهرباء الوطنية رقم 27 لسنة 1962

من أهداف الثورة التي نادت بها، ايصال الكهرباء إلى كل قرية وناحية، لذا بادر مجلس الوزراء إلى تشريع قانون مصلحة الكهرباء الوطنية لمواجهة الطلب الواقع عليها[27].

7. قانون مركز تطوير الادارة الصناعية رقم 56 لسنة 1962

الصناعة ومستوى طموحها تتطلب اعداد وتهيئة موظفين واداريين واخصائيين ذوي كفاءة عالية لتمكينهم من ادارة المشاريع الصناعية وتحسين الانتاج وزيادته وتقليل تكاليفه وتنظيمه وضبطه وتسويقه من خلال أحدث أساليب التطور الصناعي. هذا يتطلب وجود مؤسسة ذات نفع عام وتتمتع بالشخصية المعنوية وان تكون ذات استقلال إداري ومالي عليه شرع هذا القانون[28].

8. قانون لجنة الطاقة الذرية رقم 1 لسنة 1959

التقدم العلمي المتسارع في مجال استخدام الطاقة الذرية للأغراض السلمية دفع العديد من الدول إلى ممارسة هذا النشاط الصناعي ولكي يأخذ العراق مكانه بين الأمم الصناعية فقد بادرت السلطة التشريعية إلى اصدار القانون بعد استكمال كافة الدراسات المتعلقة به [29].

سابعاً: التربية والتعليم

1. قانون وزارة التربية والتعليم رقم 39 لسنة 1958

أضحت التشريعات في العهد الجمهوري تعود بمرجعيتها التشريعية إلى الدستور المؤقت، وهذا يعني ان القوانين في هذا العهد يجب ان تكون غطاءً تشريعياً للخطط والبرامج والأهداف التي جاءت بها الثورة. استقر هذا المبدأ التشريعي لدى المشرع العراقي. احد هذه القوانين الداخلة في هذا التوجه هو قانون التربية والتعليم الذي بيّن ان من واجب وزارة التربية والتعليم بناء جيل واع مستنير يؤمن بالله والوطن ويثق بنفسه وأمته ويستهدف المثل العليا في السلوك الفردي والاجتماعي، ويتمسك بمبادئ الخير والحق ويملك ارادة النضال المشترك وأسباب القوة والعمل الإيجابي، متسلحاً بالعلم والخلق لتثبيت مكانة الشعب العراقي والأمة العربية وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة (المادة الأولى من القانون).

ولتسهيل تنفيذ هذا القانون وضمان حسن تطبيقه فقد صدر نظام وزارة التربية والتعليم رقم 19 لسنة 1958. وفي الجانب المقابل وبغية مغادرة إرث العهد البائد فقد نص القانون في مادته الأربعين على الغاء قانون وزارة المعارف رقم 27 لسنة 1940[30].

2. قانون جامعة بغداد رقم 28 لسنة 1958

تختص الجامعة بكل ما يتصل بالتعليم العالي والدراسات العليا وبتشجيع البحث العلمي والعمل على رقي الآداب وتقدم العلوم والفنون وبعث الحضارة العربية والاسلامية ورعاية القيم الاخلاقية وعلى العموم بكل ما يخدم المجتمع والأغراض القومية (المادة الثالثة).

ضمت الجامعة (12) كلية تختص كل واحدة منها بمجموعة من مواد الدراسة وأجاز القانون انشاء كليات أخرى او ضمها إلى الجامعة كما يجوز انشاء معاهد تابعة للكليات او قائمة بذاتها ويكون ذلك بقرار من مجلس الوزراء بناء على اقتراح من وزير التربية والتعليم وباقتراح من مجلس الجامعة (المادة الخامسة).

في المادة (التاسعة والأربعين) من القانون نصت على الغاء قانون جامعة بغداد رقم 60 لسنة 1956 وحل هذا القانون محله. ومعلوم ان القانون الجديد جاء استجابة لبرامج وخطط الثورة في الجانب التربوي والعلمي بحيث تكون أحكامه منسجمة مع البرامج تلك مع السعي لسد النقص الحاصل في القانون الملغى.

يعين مجلس الوزراء أول رئيس للجامعة باقتراح من وزير التربية والتعليم وبمرسوم من مجلس السيادة لمدة ثلاث سنوات... ويشترط في رئيس الجامعة ان يكون قد شغل منصب استاذ في جامعة واذا لم تجدد مدته يصبح استاذاً في الجامعة او يعين بوظيفة أخرى (المادة الثامنة عشرة) من القانون[31]. واستنادا لهذا النص أصدر مجلس السيادة المرسوم الجمهوري الاتي:

مرسوم جمهوري رقم (238)

يعيّن الدكتور عبد الجبار عبد الله الأمين العام لجامعة بغداد رئيساً لجامعة بغداد. كتب في 28 اذار 1959[32].

3. قانون المكتبة الوطنية رقم 51 لسنة 1961

يتميز العصر الحديث بانه عصر العلم والثقافة ولا بد لكل دولة تنشد التقدم والازدهار ومسايرة الأمم والشعوب السائرة في ركب الحضارة والمدنية وتيسير سبل البحث والتأليف والنشر عن طريق جمع وتنسيق تراثها الفكري القديم منه والحديث والعمل على عرضه بطريقة تكون في متناول ايدي العلماء والباحثين لكونها مصدر الاشعاع العلمي والفني والأدبي والاحتفاظ به للأجيال القادمة. هذا ما تضمنته الأسباب الموجبة للقانون[33]. ومعلوم ان نظام المكتبة العامة رقم 4 لسنة 1960 جعل وزارة المعارف مسؤولة عن توجيه وتنظيم المكتبات العامة وضمان تقدمها وبقي الأمر ذاته بعد صدور قانون وزارة التربية والتعليم.

ثامناً: المنطقة الإسترلينية

كانت بريطانيا تتحكم بالسياسة النقدية منذ احتلالها للعراق، اذ منعت التعامل بالعملة النقدية العثمانية بتاريخ 22/12/1916 ووضعت الروبية الهندية في التداول بدلاً منها، واستمرت الروبية الهندية في التداول لغاية نيسان 1932 أي عند صدور الدينار العراقي وهيمنة الكتلة الاسترلينية على السياسة النقدية في العراق. ان هذا الوضع لا يروق للثورة وطموحاتها ما دفع رئيس الوزراء إلى اصداره البيان رقم 6 لمعالجة هذا الوضع.

1. بيان رقم (6)

"تقرر اخضاع استيراد جميع المواد في المنطقة الاسترلينية إلى قيود الاجازة من مديرية التجارة العامة"[34].

ومن المعلوم ان رئيس الوزراء في هذا الاجراء استعمل الصلاحية المخولة له بموجب قانون تنظيم الحياة الاقتصادية رقم 41 لسنة 1943. وقد أفضى ذلك إلى فراغ تشريعي للتحويل الخارجي ومراقبته، الأمر الذي دفع السلطة التشريعية للقيام بدراسة هذا الموضوع للوصول إلى حلول تعطي الهوية العراقية لمراقبة التحويل الخارجي فكان لها ذلك بصدور القانون الجديد الذي يمثل غطاءً تشريعياً لهذا النشاط:

2 . قانون مراقبة التحويل الخارجي رقم 19 لسنة 1961

الغى القانون الجديد قانون مراقبة التحويل الخارجي رقم 18 لسنة 1950 وتعديله رقم 16 لسنة 1952 وللأسباب الواردة في البيان رقم (6) المشار اليه أعلاه، فضلاً عن النواقص التي شابته والمثبت وجودها من خلال التطبيق. عليه والحالة هذه يكون من الواجب تلافي النواقص عن طريق اعادة الصياغة القانونية للمبادئ المقررة في القانون الحالي بغية تنظيم حركة التحويل الخارجي وضبطه على وفق الأهداف والأغراض التي من اجلها شرع القانون[35].

تاسعا -: حريات عامة

قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات رقم 115 لسنة 1959[36]

المادة الثانية - الاجتماعات العامة والمظاهرات حرة في حدود هذا القانون.

المادة الثالثة - على المنظمات الحزبية

والنقابية وغيرها من المنظمات والهيئات الاجتماعية المجازة ان تخبر السلطات الادارية قبل عقد الاجتماع او المظاهرة بـ 48 ساعة على الأقل بزمانها ومكانها والغرض منها.

المادة الرابعة - لا يجوز للأفراد عقد اجتماع عام او القيام بمظاهرة دون الحصول على اجازة سابقة من السلطة الادارية المختصة ويقدم الطلب من قبل لجنة مؤلفة من ثلاثة اعضاء على الأقل، متمتعين بالأهلية القانونية وبسمعة سياسية طيبة على ان تكون مسؤولة عن تنظيم الاحتجاج او المظاهرة وعدم الاخلال بالأمن العام ويذكر زمان ومكان الاجتماع او المظاهرة والغرض منها ويقدم قبل 48 ساعة.

المادة الخامسة - ترفض السلطة الادارية الطلب اذا تبين انه يعرض السلامة العامة للخطر او يعادي النظام الجمهوري وعلى السلطة الادارية ان تبلغ بالرفض لذوي العلاقة خلال 24 ساعة.

المادة السادسة - لذوي العلاقة الاعتراض لدى السلطة الادارية على قرار الرفض بلا رسم خلال خمسة ايام وعلى السلطة الادارية احالة الاعتراض خلال يومين إلى السلطة القضائية للبت فيه، والاخيرة تبت فيه قضائيا بحكم بات.

عاشرا: قوانين اخرى

هناك قوانين أخرى لا تقل أهمية عن القوانين المذكورة في هذه الورقة، ولكن عدد الكلمات الممنوحة لنا في الكتابة حال دون ايرادها على وفق الطريقة اعلاه سأكتفي بالإشارة لها وهي:

1 – القوانين المتعلقة بالعمل والعمال.

2 – القوانين المتعلقة بالتنظيم النقابي حيث صدرت مجموعة قوانين لنقابات المحامين والصحفيين وغير ذلك من القوانين الأخرى، والذي اعتبرته الثورة رديفا لها في مسيرتها.

3 – قانون الكسب غير المشروع رقم 15 لسنة 1958 الذي لو فعلنا احكامه ووضع موضع التطبيق لأغنانا عن هيئة النزاهة وحشود مفتشيها وجيش موظفيها. من المعلوم ان القانون بقي نافذاً حتى عام 2015 عندما عدل قانون هيئة النزاهة.

4 –قانون الغاء نظام دعاوى العشائر:

في الايام الاولى للثورة اصدر رئيس الوزراء بيانا اعلن فيه الغاء نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية لسنة 1918 لكونه يتنافى واحكام المادة التاسعة من الدستور المتضمنة المساواة امام القانون في الحقوق والواجبات للمواطنين كافة.

5 – قانون العفو العام عن الجرائم السياسية التي وقعت من أول أيلول 1938 إلى ما قبل 14 تموز 1958 واعتبار المحكومين بسببها من المناضلين.

6 - قانون العفو العام عن حركة البارزانيين الذي جاء فيه: يعفى عفواً عاماً عن الجرائم المنصوص عليها في المادة 11 من مرسوم الادارة العرفية رقم 18 لسنة 1935 والمادة 80 من قانون العقوبات البغدادي، التي نسبت الى الشيخ احمد البارزاني والملا مصطفى البارزاني ورفاقهما في الفترة من سنة 1945 حتى سنة 1947. اضافة الى هذا القانون فقد اعيدت الحقوق الممنوحة إلى الشيخ لطيف الشيخ محمود الحفيد[37].

الهوامش:

(1) الوقائع العراقية العدد 1 في 23 تموز 1958 - الدستور المؤقت .
(2) الوقائع العراقية العدد2 في 28 / تموز/ -1958 السلطة التشريعية .
(3) الوقائع العراقية العدد 44 في 30 ايلول -1958 قانون الاصلاح الزراعي.
(4) الوقائع العراقية العدد 164 في 4 ايار-1959 وزارة الاصلاح الزراعي.
(5) الوقائع العراقية العدد 150 في 4 نيسان 1959 - قانون المصرف الزراعي.
(6) الوقائع العراقية العدد 744 في 24 تشرين الثاني -1962 المزارع الحكومية .
(7) الوقائع العراقية 280 في 30 كانون الاول 1959280 في 30/12/1959 - قانون الأحوال الشخصية.
(8) المصدر السابق.
(9) الوقائع العراقية العدد 1 في 23 تموز -1958 عودة العلاقات مع الاتحاد السوفييتي.
(10) الوقائع العراقية العدد 1 في 23 تموز -1958 عودة العلاقات مع جمهورية الصين الشعبية.
(11) الوقائع العراقية العدد 71 في 10 تشرين الأول 1958 -الاتفاقية التجارية مع الاتحاد السوفييتي.
(12) الوقائع العراقية العدد 71 في 10 تشرين الاول -1958الاتفاقية التجارية مع ألمانيا الديمقراطية.
(13) الوقائع العراقية 103 في 1 كانون الاول 1959 الاتفاقية التجارية مع جيكوسلوفاكيا.
(13) (مكرر) الوقائع العراقية العدد 114 في 1 كانون الثاني 1959 الاتفاقية مع رومانيا الشعبية.
(14) الوقائع العراقية العدد 122 في 2 شباط 1959 – الاتفاقية مع بولندا الشعبية.
(15) الوقائع العراقية العدد 135 في 4 أذار 1959 - اتفاقيات التعاون العلمي والفني والتجاري مع بلغاريا الشعبية.
(16) الوقائع العراقية العدد 220في 30 اب 059 - الاتفاقية مع ألبانيا الشعبية.
(17) الوقائع العراقية العدد 1 في 23 تموز 1958 - بيان رئيس الوزراء حول السياسة النفطية.
(18) الوقائع العراقية العدد 4 في 4 آب -1958 مصلحة مصافي النفط.
(19) الوقائع العراقية العدد 143 في 18 أذار 1959 - الهيأة العامة لشؤون النفط.
(20) الوقائع العراقية العدد 494 في 27 اذار -1961 قانون تنظيم شؤون النفط.
(21) الوقائع العراقية العدد 616 في 12 كانون الأول -1961 قانون رقم 80 لسنة 1961.
(22) الوقائع العراقية العدد 296 في 27 كانون الثاني 1960 - قانون ادارة المشاريع الصناعية الحكومية.
(23) الوقائع العراقية العدد 329 في 11 نيسان 1960 - تجارة السمنت.
(24) الوقائع العراقية العدد 520 في 4 أيار -1961 التنمية الصناعية .
(25) الوقائع العراقية العدد 578 في 28 أيلول 1961 -المصرف الصناعي.
(26) الوقائع العراقية العدد 690 في 10 تموز 1962 - اتحاد الصناعات.
(27) الوقائع العراقية العدد 936 لسنة -1962 مصلحة الكهرباء الوطنية .
(28) الوقائع العراقية العدد 734 في 28 تشرين الثاني 1962 - مركز تطوير الإدارة الصناعية .
(29) الوقائع العراقية العدد 110 في 25 كانون الثاني 1959 - لجنة الطاقة الذرية.
(30) الوقائع العراقية العدد 55 في 15/ 10/ -1958 قانون وزارة التربية والتعليم .
(31) الوقائع العراقية العدد 34 في 30 أيلول 1958 - جامعة بغداد.
(32) الوقائع العراقية العدد 154 في 15 نيسان 1959 - تعيين رئيس جامعة بغداد.
(33) الوقائع العراقية العدد 560 في 19 آب -1961 المكتبة الوطنية .
(34) الوقائع العراقية العدد 1 في 23 تموز -1958 المنطقة الاسترلينية.
(35) الوقائع العراقية العدد 501 في 27 اذار -1961 مراقبة التحويل الخارجي .
(36) الوقائع العراقية العدد 194 في 12 تموز -1959 قانون الاجتماعات العامة والمظاهر.
(37) الوقائع العراقية العدد 52 في 13 تشرين الأول 1958 - اعادة الحقوق إلى الشيخ لطيف الشيخ محمود الحفيد.

إضاءات وجيزة
المثقفون وثورة 14 تموز 1958

رضا الظاهر

هذا المقال ليس بحثا موسعا في موضوع (المثقفون وثورة 14 تموز 1958)، وانما هو مجرد إشارات وجيزة تحاول أن تضيء العناصر الأساسية للموضوع، ونعني، على وجه التحديد، جذور الثقافة التقدمية التي ساعدت في تشكيل ونهوض الثقافة ذات المحتوى الديمقراطي والاتجاه التنويري في العراق الحديث. وهي ثقافة شهدت ازدهارا في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، وبشكل خاص في أعقاب ثورة 14 تموز. غير أنها سرعان ما واجهت الانتكاس بعد العام الأول للثورة، وهو الانتكاس الذي بلغ ذروته في انقلاب 8 شباط 1963 الفاشي، وفي كل العقود التي أعقبت ذلك التاريخ وحتى يومنا (مع استثناء محدود لا يخلو من التباسات في فترة أواسط السبعينات).

ولا ريب أن مقاربة موضوعنا تتطلب، من بين أمور أخرى، العودة الى سنوات عشرينات القرن الماضي، حيث بدأت تنبت بذور الثقافة التقدمية التنويرية، مترافقة مع تبلور أولى الملامح الجنينية للطبقة الوسطى في العراق.

لعلنا، في هذا السياق، أمام سؤال: لماذا شهدت العلاقة بين الثقافة والسياسة نوعا من "ازدهار"، خصوصا في أربعينات وخمسينات القرن الماضي، حيث ولدت في العراق حركة الشعر الحر، وانتعشت الرواية والقصة والفن التشكيلي وتحققت منجزات ابداعية هامة؟ ولكن لماذا اختلت هذه العلاقة بعد ذلك؟ الاجابة على هذا السؤال يمكن أن تقودنا الى تشخيص جوانب من الأزمة الثقافية، التي بدأت، كما أسلفنا، بعد العام الأول للثورة، واستمرت، بأشكال مختلفة، وبانقطاعات أحيانا، ولكنها ما تزال، في الجوهر، مستمرة، بتجليات متنوعة.

وبوسعنا القول إنه بعد ثورة تموز، على وجه التحديد، لم تكن الدولة تملك

أجهزة آيديولوجية تتيح لها الهيمنة الفكرية على المجتمع (وهكذا كان الحال في سنوات العهد الملكي)، فيما كانت الحركة السياسية التقدمية حركة شعبية وجدت في المثقفين المتنورين مناصرين جديين لها، واستطاعت، باستيعابها المزاج الديمقراطي للمثقف (على الرغم من الالتباسات المنهجية والسياسية التي سنشير اليها في موضع آخر من المقال) استثمار مناصرته للحرية والديمقراطية.

ومن العوامل الفاعلة آنذاك أن الدور الذي لعبه قادة سياسيون، وكانوا من المفكرين والمثقفين، والمتابعين الجادين لقضايا الابداع، ساهم في تحفيز المبدعين على الاسهام الفعال في الحركة الاجتماعية (وهو ما تكرر بأنماط مختلفة في فترة أواسط التسعينات).

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن فترة تأسيس المنظمات الماركسية والأحزاب الشيوعية، والفترات التي تلتها، وبينها فترة تموز، تميزت بنهوض وطني تحرري ترافق مع اتساع ظواهر التقدم، وقد ترك هذا الوضع آثاره على الحياة الفكرية والثقافية.

ومن المعروف أنه منذ بداية العشرينات في العراق نشطت مجموعة سميت جماعة حسين الرحال، نسبة الى أبرز مؤسسيها، حسين الرحال، وهو من الماركسيين الأوائل، نشطت في الترويج للأفكار الماركسية وللتنوير وتحرر المرأة. وكان صدور صحيفتها الموسومة (الصحيفة) عام 1924 مرحلة هامة في نشاط الجماعة.

وحتى قبل ظهور جماعة حسين الرحال كانت هناك بذور للفكر التنويري وللشيوعية في العراق. فقد وصلت أنباء ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا 1917 الى العراق، كما هو معروف. ومما له دلالة في هذا الشأن أن تقريرا للاستخبارات البريطانية أشار الى أن أخبار البلاشفة ومنشوراتهم متداولة في العتبات المقدسة. وذكر التقرير أن المجتهد الكبير محمد تقي الشيرازي أصدر فتوى مفادها أنه يجب اعتبار البلاشفة أصدقاء للاسلام. ويمكن القول إن انتشار الأفكار البلشفية كان أحد العوامل التي ساعدت على تأسيس جمعيات وجماعات ذات طابع فكري تنويري ويساري، وإن لم يكن ناضجا، وبين أبرزها، بالطبع، جماعة حسين الرحال كما ذكرنا.

وهناك الكثير من المصادر التي تقدم تفاصيل وحقائق ذات دلالات عميقة في هذه المسألة. غير أن الخوض في هذه التفاصيل والحقائق ليس موضوع بحثنا في هذا المقال، الا بالقدر الذي يؤكد أنها كانت جزءا من الارث الذي استندت اليه الثقافة التقدمية العراقية، وتعززت من خلاله عناصر الثقافة الديمقراطية التي وجدت ملامحها على نحو أوضح وأسطع بعد ثورة تموز 1958.

وعندما انبثق الحزب الشيوعي في آذار 1934 كان من بين الوصايا التي صاغها لأعضائه: "كن تقدميا في نظرتك نحو العلم والفن والأدب والثقافة بصورة

عامة، ودافع عنها باعتبارها ملك شعبنا وملك الانسانية المتقدمة. واحترم العلماء والفنانين والأدباء دون التفات لقومياتهم وأديانهم".

وكان دور مؤسس الحزب فهد ورفيقه عضو المكتب السياسي الذي أعدم معه، حسين محمد الشبيبي، مؤثرا. وكانت مساهمات الشبيبي، خصوصا، واعدة في مجال النقد الأدبي من منظور ماركسية تلك الفترة.

وفي هذا السياق تجدر الاشارة الى صدور مجلة (الثقافة الجديدة) عام 1953 لتصبح، من بين أمور أخرى، دليلا على قدرة الثقافة التقدمية على الازدهار والتأثير. ولا ريب أن إصدار مجلة فكرية ثقافية بهذا المستوى، واستمرار إصدارها لمدة تقرب من سبعين عاما، رغم كل الصعاب والأهوال، هو، بحد ذاته، مأثرة في تاريخ الثقافة العراقية، ومصداق لقدرة هذه الثقافة على ممارسة دورها التنويري.

لقد كان لكل هذا الارث تأثيره الحاسم على مسار الثقافة الديمقراطية بعد ثورة تموز. ولا غرابة أن كثرة من مثقفي العراق الابداعيين قد خرجوا من معطف الحزب الشيوعي الذي كانت تجربته المميزة في مجال العمل بين المثقفين (وماتزال) تجربة جديرة بالدراسة باعتبارها أسهمت في تشكيل ملامح الثقافة الديمقراطية العراقية المعاصرة.

ولا يقلل من شأن هذا التاريخ المضيء أن الحزب الشيوعي العراقي، شأن الأحزاب الشيوعية الأخرى، ولأسباب موضوعية تتعلق بالفترة التاريخية وسماتها، وبالفهم الميكانيكي للثقافة، عانى من التباسات في الموقف من الثقافة الابداعية، وهو ما سنشير اليه في موضع لاحق من مقالنا.

لقد بات من المعروف أن الانجازات التي حققتها ثورة 14 تموز انجازات كبيرة في سائر الميادين. فقد صدرت قوانين من بين أهمها قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958، وقانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، والقانون رقم 80 لسنة 1961 الذي حرر 99.50 في المائة من مناطق امتيازات الشركات النفطية الاحتكارية. وخرج العراق من حلف بغداد ومن منطقة الاسترليني، وتحققت انجازات على صعيد الصحة والتعليم والسكن، وعقدت اتفاقيات اقتصادية وفنية وتجارية مع البلدان "الاشتراكية"، ساعدت على النهوض الصناعي والزراعي، وتعزيز الاستقلال الوطني. ولا ريب أن لهذه الانجازات تأثيرها الكبير على بلورة الاتجاهات التقدمية في ثقافة البلاد من ناحية، وعلى البنية الاجتماعية في المجتمع العراقي.

لقد كانت فترة ما بعد 14 تموز، في الواقع، فترة توفر عوامل ساعدت على ازدهار الطبقة الوسطى وممارستها دورها التحديثي والتنويري، الذي بدأ يتبلور منذ عشرينات القرن الماضي، وازدادت ملامحه وضوحا في الأربعينات

والخمسينات، ارتباطا بعوامل عديدة، بينها اتساع التعليم المجاني، ودخول أفواج جديدة من المتعلمين والخريجين (وبينهم عدد من التقدميين واليساريين والشيوعيين من طلاب البعثات الدراسية الى الخارج) الى صفوف الطبقة الوسطى، واسهامهم في بناء الدولة، وتأثيرهم في تحولات البنية الاجتماعية. غير أن الطابع الريعي للاقتصاد (المتواصل حتى يومنا) كان العائق الأساسي أمام تبلور بنية الطبقة الوسطى وممارستها دورها الاجتماعي والثقافي. والحق أن هذه المسألة الهامة في التاريخ الاجتماعي العراقي بحاجة الى دراسة مستقلة مستفيضة.

ويمكن القول إنه على الرغم من عدم وضوح الحدود الطبقية في العراق، فان الطبقة الوسطى تتسم بوضوح أكبر من سواها من الطبقات والفئات الاجتماعية. واذا كانت هذه الطبقة قد لعبت دورا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا هاما في الفترة ما بعد 14 تموز، فان وجهة التطور الاجتماعي المعقدة في البلاد، ارتباطا بالاستبداد والحروب وعسكرة المجتمع والاقتصاد الريعي وعواقب هذا الواقع، تركت آثارها السلبية المدمرة على بنيتها ودورها الاجتماعي. وقد برهنت التطورات الفاجعة في التاريخ العراقي الحديث، وخصوصا ابتداء من اندلاع الحرب العراقية الايرانية، وكل الفترات التي تلتها، على هشاشة هذه الطبقة، وبات المشروع التحديثي في مهب الريح.

غير أنه رغم كل الاشكالات والعوائق الاجتماعية والسياسية كان هناك تحول، تجلى عاصفا في بعض الحالات، في الاطار الثقافي بعد ثورة 14 تموز. وقد كان لهذا التحول أن يتواصل ويتعمق لو أن شروطا صحية توفرت لآفاق النهضة الثقافية التي شهدتها البلاد في أعقاب انتصار الثورة. غير أن اعادة الاعتبار للعقلانية والديمقراطية والتنوير، التي كانت سمة الثقافة الديمقراطية التي شرعت بالازدهار، قد انقطعت جراء عوامل عديدة لا ريب ان انتكاسة الثورة ونهوض الاستبداد مجددا كان من بين أبرزها.

لقد لعب المثقفون، وخصوصا شغيلة الفكر والابداع، دورا أساسيا في اشاعة وعي تقدمي أسهم في ترسيخ تقاليد ثقافة ديمقراطية، وسعوا الى الاجابة على أسئلة الواقع الجديد، وهي، في الغالب، ذات طابع بنيوي، بل ووجودي.

واتسم المشهد الاجتماعي بعد ثورة تموز بمشاركة واضحة ومتسعة للمثقفين الذين تصدروا هذا المشهد. ولعلنا نجد في مشاركتهم الفاعلة في الحركة الاجتماعية، وفي ازدهار نتاجهم الابداعي، وتأسيس منظماتهم المهنية ... ملامح اجابات على بعض أسئلة الثقافة الملحة. ويمكن أن نرصد انعكاس الهموم الحقيقية للناس في الموقف السياسي والاجتماعي للمثقف وابداعه واضاءته للظواهر المتفاعلة في المجتمع. ولم يكن المثقف، الا في حالات نادرة، ذلك الذي يقيم في برج عاجي، ويطل من شرفة منعزلة. ويمكن القول،

بالتالي، إن مشاركة المثقفين في الحركة الاجتماعية مثال ساطع على خوضهم الصراع الاجتماعي وتصدرهم مشهد التحولات في سياق ما وفرته الأوضاع الجديدة من عوامل ساعدت على ممارسة مثل هذا الدور التنويري.

ومن المؤكد أن هذا ارتبط، من بين أمور أخرى، بحقائق الواقع الجديد وبسن تشريعات تقدمية في مجالات الحياة والعمل المختلفة، ضمنت حرية التعبير والفكر والابداع. وكان لتأسيس منظمات للمثقفين دوره لا في الدفاع عن حقوقهم ومصالحهم حسب، وانما في تعزيز التوجه التقدمي للمجتمع أيضا.

ولسنا نبالغ اذا قلنا إن تأسيس اتحاد الأدباء العراقيين بقيادة الجواهري الكبير ونخبة من ألمع الشخصيات في الثقافة العراقية، بينهم صلاح خالص وذو النون ايوب ومهدي المخزومي وعبد الوهاب البياتي وعلي جواد الطاهر وعبد الله كوران وعبد الملك نوري ... إن هذا كان التجلي الأهم للتحول الثقافي. ويلفت الانتباه هنا أن أعضاء الهيئة الادارية للاتحاد كانوا من الشخصيات الديمقراطية ذات التوجه اليساري. ولهذه الحقيقة مغزاها العميق، وهي التي كانت وراء الانجازات الهامة التي حققها الاتحاد، مثلما كانت وراء الهجوم الذي تعرض له الاتحاد (وسواه من المنظمات الابداعية والمهنية والنقابية) على يد القوى الرجعية واليمينية.

ويرتبط تأسيس اتحاد الأدباء، بالطبع، بتأسيس المنظمات الأخرى للفنانين والصحفيين، كما للنساء والعمال والفلاحين والطلبة والشباب والفئات الاجتماعية الأخرى. وكان لكل هذه المنظمات دورها الفعال في اشاعة الوعي الاجتماعي والثقافي التقدمي، والتأثير في خلق أجيال من حاملي مشاعل التنوير.

وهكذا فانه من نافل القول إن سمة انخراط النخب الثقافية في الحركة الاجتماعية كانت من بين أبرز سمات الحراك الثقافي بعد ثورة تموز.

لقد شهدت البلاد في أعقاب الثورة مخاضا عسيرا كشف، من بين حقائق أخرى، أن وجهة التطور الاجتماعي والثقافي لم تحسم بعد، بل لم تتحدد كل ملامحها الواضحة. وقد شهدت هذه الوجهة انتكاسا، وربما انقطاعا بتعبير أدق، في أعقاب العام الأول للثورة، حيث بدأ الهجوم على الثقافة الديمقراطية وممثليها الحقيقيين. ولعل من بين تجليات هذا الهجوم ممارسة السلطة والقوى الرجعية والقومية اليمينية أشكال اضطهاد متنوعة. فقد كانت هناك أعداد كبيرة متزايدة خلف أسوار السجون، واستمرت الملاحقات، واتسعت عمليات الاغتيال، وضاقت حرية التعبير، وانفلتت قوى الردة الاجتماعية. ولم يكن غريبا أن اضطر الجواهري الى مغادرة البلاد في أوائل الستينات، ليعكس هذا الحدث (وسواه الكثير من الأحداث الجسام) مدى اشتداد هجوم الرجعيين من أيتام العهد الملكي والاقطاعيين والرجعيين

والقوميين اليمينيين، وسواهم ممن جمعهم الشعار سيئ الصيت: يا أعداء الشيوعية اتحدوا!

ولسنا هنا بحاجة الى ايراد المزيد من الأمثلة على تجليات وعواقب انتكاسة الثورة، فلهذا مقام آخر في مقال سواه. غير أن أحد الاستنتاجات الرئيسية من الانتكاسة هو أن الديمقراطية الحقيقية هي الفضاء الأرحب والشرط الأساس لازدهار الثقافة وصياغة مشروعها النقدي. وبهذا المعنى فان غيابها هو مقدمة لنمط من الاستبداد يحول "الثقافة" الى أداة لتبرير نهج السلطة السياسية وقوى الارتداد في المجتمع، وهو ما تجلى في انقلاب شباط الفاشي وعواقبه التي يصح القول إن آثارها المدمرة مازالت قائمة في مجتمعنا حتى يومنا هذا، وإن بتجليات وأشكال مختلفة، يمكن إجمالها بسيادة ثقافة الانحطاط في المجتمع.

غير أن التجربة ذاتها، وعلى الرغم من الانتكاس والاستبداد، أثبتت، من ناحية اخرى، أن المثقفين قادرون على المقاومة والدفاع عن القيم الانسانية السامية. فقد لاحظنا أنه كانت هناك محاولات جادة للاحتجاج على الاستبداد، والتعبير بأشكال متنوعة، عن قدرة المثقفين على التصدي لفكر الرجعية والتخلف. وكانت فترة أواخر الستينات، وخصوصا بعد انتكاسة حزيران 1967، دليلا على عودة "الثقافة التقدمية" الى النهوض والمقاومة، وهو ما تجلى في أشكال مختلفة، بينها بالطبع الانجازات الهامة التي حققها "جيل الستينات" من مبدعي الثقافة العراقية (وهذه الفترة بحاجة الى دراسة وتقييم لا يسعنا الخوض بحقائقها في مقالنا الوجيز هذا).

ومن ناحية أخرى فانه ارتباطا بعودة سلطة البعث ثانية إثر انقلابهم في تموز 1968، اضطرت هذه السلطة الى التعامل مع الواقع بطريقة جديدة في محاولة للاخلال بالتوازن في الساحة الثقافية و"كسب" المثقفين عبر أدوات الاعلام والآيديولوجيا والمال، وبأساليب الترغيب والترهيب، لكن جذور الثقافة التقدمية والديمقراطية كانت أقوى من أن تقتلعها هذه الأساليب. وقد اضطر الحكام الجدد، يومئذ، الى "الانحناء للعاصفة" في سنوات أواسط السبعينات (ومرة أخرى يتعين علينا القول أن تلك السنوات، التي لم تخل من التباسات، بحاجة الى مقالة تقييمية مستقلة). ومن المعروف أن سلطة البعث شنت حملتها الهمجية ضد الثقافة وممثليها الحقيقيين وسائر قوى التقدم أواخر السبعينات، وهي حملة معروفة الحقائق والمرامي والمآلات.

واذا كان من بين الظواهر والسمات الايجابية للواقع الثقافي بعد الثورة هو ما أشرنا اليه بايجاز من توفر عوامل اشاعة الثقافة التنويرية، ارتباطا بالتحول الاجتماعي الذي أحدثته الثورة، ومشاركة المثقفين الواسعة في الحركة الاجتماعية، ونشوء تقاليد جديدة للحركة الثقافية ذات الاتجاه التقدمي، أي المحتوى الديمقراطي، اذا كانت هذه من

بين الظواهر "الايجابية"، فان هناك، بالمقابل، ظواهر تعكس وجود أزمة ثقافية تجلت، من بين سمات أخرى، في السعي الى تغييب دور المثقفين على يد القوى الرجعية واليمينية، وظهور النزعة الدكتاتورية لسلطة عبد الكريم قاسم، وهي من العوامل التي أدت الى الاطاحة بحكمه وتصفية منجزات الثورة والبدء بمسلسل الدمار الذي لم تنته حلقاته حتى يومنا.

فقد بدأت السلطة الحاكمة بعد 14 تموز (وكل سلطة هي، في الجوهر، جهاز قمعي) بما يوحي أنها سلطة "ثورية"، ولكنها سرعان ما كشفت عن حقيقتها بعد عام واحد لا أكثر على الثورة، ونعني الحقيقة القمعية. وبات جليا ذلك الصراع بين ثقافتين: رجعية محافظة وتقدمية مجددة، أي بين موقفين اجتماعيين، ونحن هنا نتحدث عن السلطة السياسية لا عن السلطات الأخرى: سلطة المجتمع أو سلطة التراث مثلا. وكلها سلطات تخشى المثقف لأنها تدرك أن كل نتاج ابداعي في حقل الثقافة له بعد سياسي تغييري. وقد أدركت القوى الرجعية هذه الحقيقة، فوجهت سهامها الى ثقافة التقدم وممثليها الحقيقيين، السياسيين والابداعيين.

ومن ناحية أخرى يمكن القول إن الطبقة الوسطى، وهي حاملة مشعل التنوير وحاضنة مشروع الديمقراطية والمدنية، قد تعرضت الى عمليات "تغييب". واتضحت ملامح هذا التغييب منذ تصاعد الهجوم على القوى الديمقراطية اواسط عام 1959 وما تلاه. وقد مهد تقلص دور الطبقة الوسطى الى بداية تحول جديد في البنية الاجتماعية، وسيادة لقيم الانحطاط الروحي في المجتمع.

وفي سياق تشخيص العوائق الموضوعية والذاتية التي جابهت الحركة الثقافية في سنوات تموز يتعين علينا الاعتراف بطائفة من الحقائق. ولعل من بين أهم هذه الحقائق أن الحركة السياسية التقدمية (وكان الحزب الشيوعي قوتها المؤثرة الأعظم) لم تستطع عكس التغيرات الاجتماعية العميقة ونتائجها الفكرية في سياساتها الثقافية على النحو المطلوب المثمر، اذ بقيت، في الغالب، متشبثة بالمواقف التقليدية من الثقافة، والنظرة الأحادية الضيقة التبسيطية للابداع، والاستلقاء على أرائك المرجعيات السياسية والآيديولوجية، والمناهج "الفكرية" السائدة (عالميا) في ذلك الحين، حيث كانت العلاقة مع المبدعين تفتقر الى المنهج العلمي (بالمعنى الماركسي)، وبالتالي الى الأسس العلمية والرؤية الواضحة والانفتاح النقدي، كما كانت تراهن على قوة ارتباط المبدعين بالحزب السياسي في سياق التفسير التبسيطي لأزمة الثقافة، التي هي جزء من الأزمة الاجتماعية والسياسية.

ولا بد من القول إن هذا الواقع كانت له أسبابه الموضوعية متمثلة، بشكل أساس، في سيادة الفكر الماركسي التقليدي وأدوات تحليله القاصرة. وفي هذا السياق كان هناك اختلال في علاقة الثقافي بالسياسي.

وتمحور الصراع بشأن العديد من المفاهيم وبينها: التوصيف الاجتماعي للمثقفين، وعلاقة الفن بالآيديولوجيا، والاستقلالية النسبية للابداع، وفهم وظيفة الفن، والموقف التبسيطي من حرية الابداع. ومن المؤكد أن هذه المقولات بحاجة الى تفصيل وتحليل. غير أننا سنكتفي، هنا، في اضاءة واحدة من المقولات الهامة لنقدم صورة للالتباس الذي ساد في فترة تموز (وكذلك في فترات أخرى، بينها حتى فترة أواسط السبعينات التي شهدت فيها الثقافة التقدمية نوعا من الازدهار).

ففي سياق الفهم التبسيطي للابداع تشكل النظرة أحادية الجانب وطريقة الفهم الدوغماتية لمشكلة الحرية، وعدم القدرة على فهم الخاص وراء العام، واكتشاف الطبيعة الخاصة للمقولة وراء المعالجة الفلسفية العامة للمشكلة، ونسيان الديالكتيك عبر عزل الخاص عن العام، وتحويل الملموس المحدد الى مجرد مطلق، تشكل عائقا أمام التحليل. وكما قال ماركس فان على المرء أن لا يتجاهل التنوع من أجل الوحدة. وقد حدد غرامشي اطارا سليما لفهم الابداع بقوله إن "ممارسة الانسان السياسي للضغط باتجاه أن يعبر الفن في زمنه عن عالم ثقافي معين يعتبر نشاطا سياسيا وليس نقدا فنيا".

لقد كان هناك نوع من احتكار الحقيقة. فقد جرى تفسير "الواقعية الاشتراكية"، مثلا، لكي تعني في التطبيق العملي موقفا تبسيطيا من حرية الابداع واستقلاليته النسبية والخلل في فهم وظيفة الفن. والحق أن الواقعية الاشتراكية (التي ظل اليسار يدعو وينظر لها لا في سنوات ثورة تموز حسب، وانما أيضا في سنوات السبعينات) ليست مصطلحا جماليا، وانما هي مصطلح آيديولوجي وسياسي سعى البعض الى قسره ليشكل أسلوب وجوهر الفن. واذا كانت الواقعية الاشتراكية بالنسبة للماركسيين الحقيقيين واحدا من مناهج عديدة في الفن، فانها كانت المنهج الوحيد بالنسبة للماركسية التقليدية.

وأخيرا لابد من القول إننا نطمح الى أن تقدح اضاءتنا الوجيزة لموضوع العلاقة بين المثقفين وثورة 14 تموز 1958 (وهي بحاجة الى تدقيق وإغناء وتطوير) زناد عقول الباحثين وتحفزهم على الاسهام المعرفي في دراسة هذه التجربة الفريدة.

ثورة 14 تموز والتشكيل .. حداثة الأثر ورمزية الدلالة

د. جواد الزيدي

على الرغم من الفترة القصيرة التي تجلت فيها ثورة 14 تموز في الحياة العراقية، الا أنها اسهمت في رسم خرائط المعمار والسكن والفن، وأضحت مخططاتها منهاج عمل لمن يريد أن يستمر في إنجاز أي منها، والعديد من الشواهد ما زالت ماثلة حتى الآن بعد أكثر من نصف قرن على الاطاحة بوجودها الفعلي، لأنها مصطلح ثورة يصلح لهذا الفعل التغييري، حيث التبدلات الكبيرة في البنيات السياسية والاجتماعية والثقافية بعد نهاية العهد الملكي، الذي جاء أيضا بمجلس الاعمار الذي افادت من رؤاه ثورة تموز 1958. بيد أن الصدق المنهجي والاخلاص للشعب والوطن دعت قادة الثورة والمتضامنين معها الى البحث عن الجديد في المجالات كافة من أجل توطين هوية عراقية خالصة، ويقف الفن في مقدمة هذه التطلعات، اذا ما عرفنا أن هذه الحقبة تزامنت مع بداية الحداثة في التشكيل العربي والعراقي على وجه الخصوص وبداية التفكير ببنى جديدة يمر من خلالها الفن الى مثابات غير مأهولة، تتجاوز السابق الواقعي والانطباعي الذي كان يمارسه عدد من الريادات الفنية. وهذا السعي نحو الجديد له ظروفه الموضوعية التي أغنت هذا المشهد، منها ايفاد عدد من الفنانين الى كليات الفنون العالمية وتأهيلهم الذي رافق نزعة الحداثة وتكريسها لاتجاهات الفنون، وقد تعاملت الريادة الفنية العراقية مع هذا الموضوع بذكاء، حيث امتدت تطلعاتهم الى الجذور والروافد العراقية القديمة للظهور بمنهج توسطي يتخذ من الحداثة آلية للتنفيذ مع تثوير مرموزات عراقية تحيا داخل الارث العراقي، تم توظيفها داخل العمل الفني على مستوى النحت والرسم.

في هذا المنعطف التأريخي من حياة العراقيين برزت الحاجة الى رمزية

وطنية لترسيخ الواقع الجديد في الأذهان. وبعد استقرار الثورة والاطمئنان على سلامة وضعها في سكة الطريق الصحيح تم تكليف المعماري (رفعة الجادرجي) باقامة ثلاثة نصب في بغداد للاحتفاء بالجمهورية الناشئة، وكان أحدها نصب الحرية أو ما يدعى (نصب الثورة)، ومنذ اللحظة الأولى تبادر الى ذهن (الجادرجي) بأن الفنان (جواد سليم) قائد (جماعة بغداد للفن الحديث) هو من يكون مصمم الجدارية، وهو الذي اجترح قبل ذلك سمات اشتغال للجماعة تتواءم مع الهوية البغدادية، واشترط على أعضائها الالتزام بهذا السياق التصويري. وأشار اليه ان يكتب قصة الشعب العراقي لسردية صورية تحمل رمزيتها تبدأ من اليمين الى اليسار على غرار الكتابة العربية وأن يحمل النص المرئي قصة العراق بأزمنته المختلفة منذ القدم وحتى اليوم، وأن يكون عنوان الجندية مركز العمل وقلبه. وتشير المدونات التاريخية الى أن (جواد سليم) كان يحلم بتجسيد نصب يحمل هذا المضمون منذ بداية خمسينيات القرن العشرين ووضع مخططات اولية له، ولكن زيارة عبدالكريم قاسم الى معهد الفنون الجميلة بكرخ بغداد اسهم في تسريع هذه المهمة التي تزاوجت بها مجموعة رؤى تتقدمها رؤية (الجادرجي وجواد). ويذكر (الجادرجي) أن اسم النصب هو نصب (14 تموز) ، الا أن اسمه اصبح (نصب الحرية) وشاع هذا الاسم بين الناس.

هذا النصب الذي صمم قاعدته الكونكريتية (الجادرجي) نفسه على هيئة لافتة تحملها الايدي المؤيدة للثورة. ومن دون أدنى شك فإن النصب في هيئته العامة يتسق مع مبادئ الثورة والاشارة اليها، إذ تضمن ارتفاع القاعدة (8) امتار وبعرض (50) مترا، وهو ما يشير بوضوح الى ثورة 14 تموز عام 1958، حيث اقتصرت مفردات النصب أو السطر الكتابي على (14) مفردة تمثل كل منها موضوعا منفردا من حياة العراقيين ونضالهم من أجل الحرية، حين تجتمع كل هذه الموضوعات مع بعضها في قراءة جامعة. وتحاكي الأجزاء الأربعة عشر من نصب الحرية الجداريات الآشورية الحجرية من النحت البارز ليس باسلوب السرد فقط، بل في الرسالة التي تؤكد هيمنة الدولة وانتصاراتها على أعدائها في الداخل والخارج. وفي الوقت نفسه يعبر النصب عن مضمونه بدلالة معاصرة، ويحكي سفر العراقيين البطولي في نيل الحرية ومقارعة الظلم ضمن ملحمة متكاملة يشترك فيها (الرجل والمرأة) والانسان مع الطبيعة، بتواصل الماضي مع المستقبل. إذ يقدم النصب دورة حياة متكاملة، فيها ولادة وموت، واصرار، حزن وغضب وثورة وأمل وظلم وفرح وصبر وتفاؤل. هذا النصب الذي خلا من اللحظوي والتعبوي، الا بما يخص الهوية العراقية، لذلك كتب له البقاء وأضحى ايقونة يجدد الثوار أمامه احتجاجهم على الأنظمة السياسية، وكأن (جواد) كتب نبوءته الخاصة فيه، لتماثل

بعض مشاهده المنحوتة مع مشاهد واقعية حدثت في أزمنة متعاقبة تحت النصب، صوّرتها مخيلة الناس والتقطتها عدسات الكاميرات.

وعلى مقربة من نصب الحرية من جهة الشرق يصطفي الفنان (خالد الرحال) عام 1961 مكانا في منتصف حديقة الأمة ليصنع نصبا للامومة من الحجر، يصور الأم وهي تقف بشموخ بطيات ثوبها الجميلة، وتنطوي ذراعها على رأسها مع طفلها الذي يقف خلفها ممسكا بذراعها، يتسق مع موضوعات الثورة التي تكرست في القضايا الاجتماعية من خلال التفكير السائد انذاك بين اوساط الفنانين والعودة الى تلك الجذرية الاجتماعية ومعالجتها بفعل التقانات والأساليب التي يعتمدها كل فنان بالتعبير عن فكرته بشكل حسي. بينما صاغ المعماري (رفعة الجادرجي) نصب (الجندي المجهول) في ساحة الفردوس وسط بغداد، ليكون تحفة فنية تزاوج العمارة بالفن، معبرا عن المقاتل مجهول المكان، بفعل الحروب أو معارك الدفاع عن الوطن، وهو تجسيد ذات الفكرة التي جسدها (جواد) في نصب الحرية، وتلك المركزية التي كانت من نصيب المقاتل وهو يفتح قضبان السجن حتى تشرق الشمس على الشعب العراقي في ضوء نضالاته الطويلة. فيما ذهب النحات (ميران السعدي) الى تحقيق ميوله الآيديولوجية في الفن وايمانه بمبادئ ثورة 14 تموز لينجز عمله النحتي (14 تموز) عام 1963 في الساحة المقابلة لمدخل القصر الجمهوري من جهة الجسر المعلق، وهو مصنوع من مادة البرونز على قاعدة خرسانية مكسوة بالرخام، ويمثل (4) أربعة جنود في معركة أحدهم في المعركة يحمل الراية وبندقية واثنان آخران يقومان بحمايته، فيما يمثل الرابع معنى الشهادة ممثلة في تضحيات الجيش العراقي دفاعا عن الوطن.

بيد أن للرسم والفنون الأخرى حصتها أيضا، حيث كان الفن ـ وإن لم يك مباشرا ـ يقوم بتجسيد الموضوعات الاجتماعية ذاتها والاعلاء من شأن الجندية التي حققت التغيير المنشود الممثل في الثورة الفتية. وفي هذا الصدد كان التسابق نحو حفريات الأثر في الفن بما يعكس طبيعة المرحلة وتحولاتها الجوهرية، اذ جاء الفنان (فائق حسن) من الرسم الى فضاءات النحت والعمل الجداري ليصنع خطابا جماليا مختلفا عما كان ينتجه في أعماله السابقة التي تكرست في الاشتغال الواقعي والذهاب بالواقعة الحديثة والمتخيلة الى مثابات الجمال الخالص، الا أن أبطاله الشعبيين قد يكون له مناظرا في الواقع الفعلي، فذهب الى اختيار مكانيته في الجهة الشرقية من حديقة الأمة، ليشيد جدارية من الموزائيك في ساحة الطيران، تمثل رجالا ونساء يحتفلون بقيام الثورة باطلاق حمامات بيضاء رمزا للسلام، وهي مناجاة وتناص مرئي لقصيدة (سعدي يوسف) التي تدفع الى الموضوع ذاته (تطير الحمامات في ساحة الطيران) حيث الأكف المصفقة للثورة ورجالها الذين صنعوا تاريخا جديدا للحياة العراقية.

وعلى الرغم من أن أهمية المركز الثقافي (بغداد) وسيادة الأعمال الفنية المهمة فيها لأسباب موضوعية في أغلب الأحيان، تكمن في تواجد الفنانين الذين جاءوا من الهوامش، وتوافر الأكاديميات والمعاهد الفنية فيها، بيد أن هذه الهوامش انتجت ما يماثل تلك الموضوعات من أجل تسجيل اسماء فنانيها في سجل النتاج الفني الذي يلاحق المضمون الاجتماعي او الأهداف التي جاءت بها الثورة، فكانت أعمال مثل مشعل الحرية أو بطولات الجندي العراقي جوهرا في هذا الاشتغال الرمزي، بوصفها مضامين تفرضها اللحظة الراهنة وموحيات الثورة الاجتماعية، على الرغم من بساطة الطرح او التقنيات المستخدمة في هذه الأعمال الفنية، بعضها ما زال ماثلا حتى هذه اللحظة وبعضها الآخر تمت ازالته بحجج مختلفة. ولا يمكن ان نلحق هذه التأثيرات في الأعمال التي تمت ولادتها سنوات الثورة، بل أن المضامين التي استمرت بعد ذلك التاريخ كانت تاخذ من تلك الموحيات الرمزية أو قد يكون فكّر بها منتجو الخطاب، كما حدث في تجربة الفنان (كاظم حيدر) التي رفضتها سلطة بغداد انذاك، وتم عرضها في بيروت عام 1965. هذا الرفض الذي جاء بسبب مضامينها الثورية التي اتخذت من شهادة الامام الحسين وفعله الثوري أساسا في الاشتغال، وتتشظى مرمزاته لتتحول من محليتها الى مفهومها الكوني، وهذا الفهم يتسق مع بعض التجارب الأخرى على مستوى الرسم والنحت والعمل الجداري كما تؤشره فيما بعد أعمال (محمود صبري ، محمد مهر الدين ، فيصل لعيبي، صلاح جياد، رشاد حاتم) وغيرهم الكثير، بما يؤسس لفعل جديد في الفن وينقله من واقعيته الى بعده الرمزي الكامن في دلالة الأثر.

مقـــــالات

العواصف الغبارية في العراق.. ضوء على أبرز العوامل والتداعيات

د. كاظم المقدادي
باحث متخصص بالصحة والبيئة

تمهيد

العواصف الغبارية Dust Storms ، وتسمى أيضاً الرملية والترابية، هي ظاهرة جوية معروفة في المناطق الجافة وشبه الجافة من الكرة الارضية. وتمثل رياحاً شديدة محملة بدقائق الغبار والأتربة من تربة الأرض السطحية المفككة، منقولة لعشرات ومئات آلاف الكيلومترات من منطقة الى منطقة أو مناطق أخرى.

كظاهرة، تُعدُ اليوم مشكلة بيئية عالمية ساخنة نظراً لتداعياتها الوخيمة بيئياً وصحياً واقتصادياً واجتماعياً وأمنياً. وقد شهدت تفاقماً ملحوظاً في العقود الأخيرة. وتشكل اليوم بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والبيئية تحديا هائلا وواسع النطاق في طريق تحقيق التنمية المستدامة. وأصبحت مصدر قلق عالمي خطير بسبب آثارها الكبيرة على البيئة والصحة والزراعة وسبل العيش والرفاه الاقتصادي - الاجتماعي.

العراق، كجزء من هذا العالم، يتأثر جزء كبير منه، منذ عقود طويلة، بالعواصف الغبارية الناشئة في المناطق الجافة وشبه الجافة في المنطقة، لكن العواصف الشديدة، المتتالية والمتكررة في اجوائه تفاقمت كثيراً عقب الحروب العبثية، التي لعبت دوراً كبيراً في اشتداد التغيرات المناخية. وتداعياتها الجسيمة.

ويؤكد ذلك ما شهده العراق خلال شهري نيسان وايار 2022 من موجة عواصف غبارية شديدة ومتتالية عديدة، غطّت سحب الغبار الأصفر الكثيفة أغلب محافظاته، بما فيها العاصمة بغداد..

ويتوقع الخبراء تفاقم الظاهرة في العراق أكثر فأكثر، وحذروا من تزايدها، عدداً وشدة، في السنوات القادمة.

مقالنا هذا يسلط الضوء على أبرز عوامل تفاقم العواصف الغبارية في العراق وتأثيراتها الصحية.

أبرز عوامل تفاقم العواصف الغبارية

أولا- الحروب العبثية

لم يتم الإهتمام بدور الحروب العبثية في العراق على مستوى التغيرات المناخية

وتفاقم مؤشراتها، ومنها العواصف الغبارية، وحتى لم يتم تناولها في الأدبيات ووسائل الإعلام العراقية إلا نادرا..

لقد شهد العراق خلال العقود الاربعة الماضية شن عدة حروب مدمرة، داخلية وخارجية. والخارجية هي: الحرب العراقية - الإيرانية، التي دامت 8 سنوات (1980 - 1988)، وغزو النظام العراقي السابق للكويت عام 1990، وحرب الخليج الثانية (وسميت "حرب تحرير الكويت") في عام 1991، التي شاركت فيها 34 دولة ضد العراق، وغزو العراق واحتلاله في عام 2003 من قبل الجيوش الأمريكية والبريطانية والتحالف الدولي.

جميعها كانت، باختصار، حروبا إجرامية عبثية.. تجاهل مشعل فتيلها، أيا كان، ان الحرب وسيلة وحشية، لا تمثل سوى القتل والدمار والخراب والفواجع. وقد تجسد ذلك بأبشع صوره في الحروب المذكورة التي سببت للعراق ولشعبه هلاكاً بشرياً جسيماً (نحو مليوني نسمة)، ودماراً فظيعاً للبنى التحتية الحيوية، وتشويها بشعا للمجتمع العراقي، وخرابا لكل عناصر بيئته، وفاقمت التغيرات المناخية ومؤشراتها. والحصيلة: كوارث رهيبة، بيئية وصحية ونفسية وإقتصادية وإجتماعية.

ما الذي حصل للبيئة العراقية؟

الذي حصل، بايجاز، ان تحركات القطاعات العسكرية اثناء الحروب أدت الى تخريب الأرض وحركت الاتربة، سواء الصلبة او الرخوة، وبالتالي حدثت انجرافات في التربة، وحدوث العواصف.

وقد أكد علماء وخبراء في الجيولوجيا ان الحروب على العراق هي السبب وراء تحريك العواصف الهامدة في المنطقة نحو الأجواء العراقية..

فأوضح العالم فاروق الباز، مدير مركز الاستشعار عن بعد في جامعة بوسطن الأميركية، والمشارك في تأليف كتاب "حرب الخليج والبيئة"، الذي نشر عام 1994، وله العديد من الدراسات الجيولوجية لتأثيرات الحرب على الصحراء:

انطلقت أرتال من ألوف الدبابات وناقلات الجند المدرعة من الكويت قاصدة بغداد. السباق عبر الصحراء شوه الطبقة السطحية المثبِّتة المكونة من الحصى، وعرَّض التربة الناعمة تحتها للريح. وقد أظهرت الصور المتلفزة لحركة الآليات نتائج هذا التشويه: سحب من الغبار الكثيف".

وأشار البازالى انه "خلال الأشهر التي سبقت الحرب، أمضت القوات المسلحة العراقية وجيوش التحالف أوقاتاً طويلة وهي تحفر الخنادق وتبني الممرات والجدران الرملية. وهذه من الأعمال التي تقوم بها القوات المسلحة في صحراء مكشوفة"..

وأكد البرفسور الباز ان "تشويه التضاريس الصحراوية بهذه الحفريات والأكداس، يدمر أيضاً الطبقة الحصويّة الواقية ويعرض التربة تحتها للانجراف بفعل الريح. وتمثل التشوهات السطحية عوائق في طريق الريح، التي تعمل على اعادة الأرض الى وضعها المسطح الأصلي الأقل مقاومة. والحصيلة مزيد من الغبار الذي يفاقم المخاطر الصحية ومخاطر الرؤية، ومزيد من الكثبان الرملية التي تغزو الطرقات ومدارج المطارات والمزارع والمنازل[1].

من جهته، أكد د. حسني الخردجي - رئيس فريق الادارة المستدامة للبيئة في اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغرب آسيا (اسكوا): "فيما يتعلق بالبيئة الصحراوية، خاصة في جنوب العراق، فإن حركة الآليات الثقيلة والمجنزرات، وكذلك حفر الخنادق والاستحكامات، أدت بلا شك إلى تآكل الطبقة الكاسية لسطح الصحراء، وكذلك إلى تدمير الغطاء النباتي. وسيؤدي ذلك إلى كشف طبقات الرمال الناعمة وتعرضها للرياح التي سوف تحملها، لتفاقم من مشكلة زحف الكثبان الرملية، ما يتسبب بقطع الطرق الصحراوية وردم المنشآت وتدمير الغطاء النباتي والزحف على الأراضي الزراعية، والتسبب بزيادة التصحر".

وأشار الخردجي الى إستخدام القوات الاميركية لقذائف ذات قوة تدميرية غير مسبوقة ومجهولة العواقب. والى إعراب بعض علماء الجيولوجيا عن تخوفهم من حدوث هزات أرضية في هذه المنطقة غير المستقرة سيزموغرافياً، نتيجة لاستخدام القذائف، ولاستخراج مئات الملايين من أطنان النفط سنوياً. ومن المحتمل أيضاً حدوث تصدعات وشروخ في الطبقات المصمتة من التركيبات الجيولوجية القريبة من السطح، قد تؤدي إلى تسرب المياه من الخزانات الجوفية القريبة من السطح إلى طبقات أكثر عمقاً، مما يصعب ويزيد كلفة استخراجها. كما أن احتمالات تسرب الملوثات من خلال الشقوق الناتجة عن الانفجارات الضخمة إلى خزانات المياه الجوفية واردة بشكل جدي[2]..

وأفاد علماء جيومورفولوجيا كويتيون، متخصصون بدراسة شكل الأرض وتضاريسها، إن حرب عام 1991 كشفت عن الكثير من تلال الرمال المتحركة التي قد تبتلع يوماً ما مدينة الكويت بكاملها [3]

وأكدت وزارة العلوم والتكنولوجيا العراقية في عام 2011 ان تكسر التربة الذي حصل في اعقاب حرب الخليج الثانية عام 1991 ادى الى تزايد العواصف الغبارية خلال السنوات التالية. وأوضحت: "كانت العواصف الترابية تأتي الى البلاد مرة واحدة او اثنتين خلال فصل الصيف في ثمانينيات القرن الماضي، بينما تزايدت بشكل غير طبيعي في تسعينياته، واستمرت حتى يومنا هذا بسبب ظاهرة التصحر وقلة الامطار وتدمير البساتين".

وبينت: "ان تزايد العواصف الغبارية سببه تكسر التربة في المناطق التي دارت فيها العمليات الحربية على الحدود العراقية السعودية الكويتية والتي كانت قبل ذلك صلدة نتيجة الامطار التي سقطت عليها انذاك، وقد حصل ذلك إثر تحرك الدبابات والاليات الحربية وسقوط القنابل على تلك المناطق" [4].

ثانياً- التغيرات المناخية

بين واقع الحال البيئي جليا ان الحروب التي دارت على أرض العراق، من خلال التحركات العسكرية، واستخدام أسلحة فتاكة وشديدة التدمير، الى جانب التلوث الخطير بالغازات السامة نتيجة لحرق مئات ابار النفط الكويتية والعراقية، والتلوث بالانبعاثات الغازية المصاحبة لإستخراج النفط، وبعوادم السيارات، وبالملوثات الصناعية (لمعامل الطابوق

والإسمنت، مثلا)، وغيرها (الخوض في تفاصيلها يحتاج الى أكثر من مقال)، قد لعبت دوراً كبيراً في تفاقم التغيرات المناخية ومؤشراتها في العراق: تزايد موجات الحر الشديد، قلة الأمطار، شحة المياه، الجفاف، التصحر، نقص الغطاء النباتي، وهبوب العواصف الغبارية والترابية والرملية، وتداعياتها..

وقد تأكد علمياً ان للتغيرات المناخية دورا كبيرا في نشوء واتساع وتزايد هبوب العواصف الغبارية، التي تُعدُ في العراق، والدول المجاورة، عموماً، أحد أبرز مؤشرات التغير المناخي.

بالمقابل، لعب التغير المناخي دوراً كبيراً في تفاقم العواصف الغبارية وتداعياتها..

في هذا السياق، أوضح الخبير البيئي الدكتور علي حسين حنوش عميد كلية الزراعة في جامعة المثنى : "ان العواصف الترابية التي تجتاح مدن وأرياف العراق كافة قد تجاوزت الفترات الزمنية المحددة لها، وازدادت شدتها وكميات الغبار والأتربة التي تحمله". وأضاف: "كثيرا ما كانت الرياح الرملية والترابية تعصف على خطي العرض 32 و34 واقل منها على المنطقة الشمالية (خط العرض 36)".

وبين "ان التطورات المناخية الحديثة اظهرت اشتداد موجات الرياح على جميع الأراضي العراقية خلال اشهر الصيف، وان غالبية الرياح هي من نوع العواصف القوية، التي تؤثر سلبا على استقرار البيئة وتساعد على تنشيط التعرية". وأكد أن "نوعية الرياح وشدتها هي من عوامل التغيرات المناخية ذات التأثير الكبير على البيئة. فسرعة حركة الرياح ذات ارتباط مباشر بعملية التعرية، ومستويات التعرية ذات صلة بالجفاف والتصحر.. وتحمل الرياح كميات ضخمة من الغبار والرمل، وتبرز كرياح جنوبية - شرقية، وشمالية - غربية، وتصل ارتفاعاتها ما بين 20 الى 100متر، وهي مصدر متجدد لتلوث الهواء".

ولفت الأنظار الى ما تسببه "التعرية الهوائية تحت تأثير العواصف الترابية (وكذلك التعرية المطرية او المائية)، من فقدان تربة الأراضي الزراعية جزءا من طبقتها العليا، فضلا عن المناطق الشمالية والأراضي ذات المنحدرات"، مؤكدا ان "التعرية تتسبب بإحداث تلوث وتدهور لنوعية التربة الزراعية وبالذات عندما تكون الرياح العاصفة شديدة الوضوح بنتائجها". وأكد: "ان العراق وجيرانه يعانون من نقص في الغطاء النباتي"، مشيراً الى ان "المسطحات المائية تلعب دور المصفاة البيولوجية للرياح والتي تخفف من عبء أضرارها على الحياة الطبيعية وتقلل من مستويات التلوث".

ونوه د. حنوش بـ "تعرض أراضي العراق الى تدهور لغطائها النباتي الطبيعي، وتقلص مساحات ونوعية المراعي، بسبب الرعي الجائر، وعمليات قطع الأشجار والشجيرات للوقود، وزراعة الأراضي الهامشية غير مضمونة الأمطار. وهذه جميعا أسباب تؤدي الى تدهور غطاء التربة"، مؤكداً ان "للغطاء النباتي أهمية بالغة في الحفاظ على التربة من الانجراف، حيث تجعلها جذور النباتات متماسكة، وتساعد على زيادة نسبة المادة العضوية فيها، فضلا عن ان تلك الأشجار

والشجيرات تقلل من شدة الرياح وتأثيراتها على انجراف التربة وفقدانها لغطائها بحيث تصبح جرداء" [5]

ثالثاً-الجفاف والتصحر ونقص الغطاء النباتي

الجفاف والتصحر ظاهرتان متلازمتان، وحصيلتهما نقص الغطاء النباتي وتهديد الأمن الغذائي، الى جانب دورهما الكبير في هبوب العواصف الغبارية وتفاقمها..

يُعرفُ الجفاف Drough، بإيجاز شديد، بأنه ظاهرة تتجلى في نقص أو انعدام هطول الأمطار، الذي يتبعه شح الغطاء النباتي. وهذه الظاهرة تمثل تهديداً جدياً للأمن الغذائي، مؤثرة على المحاصيل الزراعية بشدة.

بفعل التغيرات المناخية، التي فاقمتها عوامل عديدة، يشهدها العراق، منذ سنوات، مواسم جفاف حاد، هي الاكثر جفافاً على مدى الاربعين عاما الاخيرة – كما أكدت منظمة "UNICEF".. وتزامن ذلك مع شحة المياه وقلة الأمطار، ما تسبب بتناقص حاد في تدفق المياه لنهري دجلة والفرات، بلغت نسبة النقص 29 % في عام 2020 وإرتفعت الى 73 % في عام 2021.[6]

وقد لعبت السياسات الإيرانية والتركية دوراً كبيراً في الإنخفاض غير المسبوق في منسوب المياه الواصلة من أراضيهما للعراق، من خلال قطع مياه الروافد القادمة من إيران، أو تحويل مسارها، وبناء السدود على نهر الفرات من قبل تركيا.. وتتواصل أزمة انخفاض المياه في نهري دجلة والفرات والروافد التي تصب فيهما، ما يجعل البلد أمام مواجهة حقيقية مع الجفاف وتداعياته الكبيرة.

واستكمالا للكارثة، كما يبدو، تواصل تراجع هطول الأمطار. فقد نبهت "الوكالة الامريكية للبيئة" (USEA) في عام 2009 الى ان حالات الجفاف ستزيد خلال الأعوام القليلة المقبلة، بسبب الاستغلال الخاطئ للموارد الطبيعية كالنبات والتربة والمياه، من قبل الانسان.

وأكد التقرير الشهري، الذي تصدره منظمة الأغذية والزراعة الدولية (FAO) مع 3 منظمات دولية أخرى، بان معدل هطول الامطار ومستوى المياه في فصل شتاء العراق لعام 2020 - 2021 هو ثاني ادنى معدل يشهده البلد منذ 4 عقود خلت.

واستنادا لـ "مرصد مؤشر التغير المناخي الدولي " (CCKP) ومؤسسات مرتبطة بالبنك الدولي، فانه من المتوقع ان يسجل العراق ارتفاعا بمعدلات درجات الحرارة بنسبة 2 درجة مئوية، وتراجع آخر بمعدلات هطول الامطار بنسبة 9%، بحلول العام 2050. وسيكون وقع ذلك اكثر صعوبة على شرائح متضررة تعتمد أساسا في معيشتها على الزراعة وتربية المواشي وصيد الأسماك .

وحذر "المجلس النرويجي للاجئين" (NRC) في عام 2021 من تفاقم الكارثة مع ارتفاع درجات الحرارة، وقلة الأمطار والجفاف في جميع أنحاء المنطقة، مما يؤدي لحرمان الأهالي من مياه الشرب ومياه الري.

والحال، تفاقمت ظاهرة التصحر اقتراناً بتفاقم ظاهرة الجفاف وارتباطاً بها.. فما هو التصحر؟

يُعرفُ التصحر Desertification بأنه ظاهرة تحول مناطق منتجة، معطاءة إلى صحاري خالية من الحياة، أي انخفاض البايولوجيا الإنتاجية للأرض. وأبرز مظاهره – كما أوضحها الخبير البيئي طعمة عبد الحمزة الحلو، هي: تدهور الغطاء النباتي الطبيعي، والتعرية الريحية وتكون الكثبان الرملية، اضافة الى التعرية المائية، وانخفاض نسبة المادة العضوية، وتكون المستنقعات الغدقة. وتتمثل الاثار البيئية لهذه الظاهرة في تدهور الغطاء النباتي وملوحة التربة وخسارة الاراضي القابلة للزراعة [7] .

وعملياً، يؤدي التصحر الى زيادة زحف البيئة الصحراوية على الأراضي الخضراء، ويتمثل في فقدان الغطاء النباتي لسطح الأرض.

ويُعدُ تدهور انتاجية التربة اولى مراحل خروجها من الانتاج الزراعي ومن ثم تترك وتتحول الى ارض جرداء وتتحول بعدها الى صحراء[8] .

الجفاف والتصحر والعواصف الغبارية في العراق

يُعدُ العراق من الدول الخمس الأكثر عرضة لتغير المناخ والجفاف والتصحر في العالم. وقد إرتفعت نسب التصحر ارتباطاً بالجفاف الناجم عن قلة مياه الامطار وتجاوز دول الجوار على حصصه المائية. وهو يشهد اليوم تدهورا متصاعدا لظاهرتي الجفاف والتصحر، وأصبحتا تشكلان تهديدا خطيرا للأمن الغذائي وللقمة عيش السكان. فقد أعلن مؤخراً المتحدث باسم وزارة الزراعة حميد النايف: ان ”مساحة الأراضي التي تعاني التصحر في البلاد تقدر بـ 93 مليونا و734 ألفا و314 دونما. ما يشكل اكثر من 53 بالمائة من مساحة البلاد الكلية“ [9]. ويذكر أنه عقب انخفاض مياه دجلة في العراق حصل في عام 2009 انخفاض الموارد الزراعية الى 80 % ”[10]..

وقدرت إحصاءات للأمم المتحدة في 2021، أن العراق يفقد نحو 100 ألف دونم من الأراضي الصالحة للزراعة سنويا، نتيجة التغير المناخي والاستخدام الجائر للتربة جراء الزراعة المتكررة ونظام الري الذي يسبب تملح التربة[11]..

ووفقاً ”لتقرير خطة التنمية الوطنية“ التابع لوزارة التخطيط العراقية لعام 2021، فإن الأراضي الصالحة للزراعة تبلغ 28 مليون دونم، إلا أن المساحة المُستغلة في الزراعة لم تتجاوز 11.5 مليون دونم من مجموع المساحة الكلية بالرغم من وجود مساحات شاسعة صالحة للزراعة، وثروة بشرية منتجة، فضلاً عن تنوع مصادر المياه المستخدمة في الري بين السقي الناجم عن نهري دجلة والفرات والمياه الجوفية، ومياه الأمطار [12].

حيال هذا، كشفت أحدث البيانات الرسمية في ايار 2022 أن الخزين الاستراتيجي للعراق من الحنطة (القمح) لا يسد حاجة البلاد سوى لشهر واحد، مما ينذر بحصول أزمة خانقة خلال الأيام المقبلة. ووصنف تقرير عالمي العراق كواحد من البلدان ذات المخزون المتدني للقمح، وسط ارتفاع أسعار تلك المادة عالمياً [13].

وبسبب الجفاف وقلة الأمطار سيكون موسم رز العنبر هذا العام محدوداً جداً.

وأكّدت وزارة الزراعة أن زراعته ستقتصر على أراضٍ مساحتها 10 آلاف دونم فقط تمتد في محافظتي النجف والديوانية، بعدما كان البلد يستغل حوالي 350 ألف دونم لهذه الزراعة خلال السنوات الماضية[14].

واقتراناً بظاهرتي الجفاف والتصحر وحصيلتهما نقص الغطاء النباتي، اصبحت العواصف الغبارية صفة ملازمة لفصل الصيف حيثما حل في اغلب المناطق والمدن العراقية، فقلة الزراعة وشح المياه وتعرية مساحات شاسعة من التربة وتحولها الى اراض جرداء ادت الى انجراف كميات كبيرة من الرمال والاتربة مع التيارات الهوائية التي تهب مرات متعددة خلال شهر واحد [15]..

في عام 2009 تعرّض العراق إلى واحدة من أسوأ العواصف الرملية التي تعيها الذاكرة لغاية ذلك العام، وقد تجاوزت الأسبوع، وسببت مشاكل كثيرة. وحذر علماء بمراكز أرصاد جوية عربية وعالمية من امتداد العاصفة الرملية إلى باقي بلدان المنطقة، حاملة معها مئات ملايين الأطنان من الأتربة [16] .

وتوقعت بيانات القمر الصناعي "TERA" التابع لوكالة الفضاء الأمريكية "NASA" الذي يعنى بأحوال الطقس والأجواء في المنطقة، أن تستمر العاصفة الترابية العنيفة نحو اسبوع. والتقط القمر المذكور صوراً من الفضاء، لأعنف عاصفة رملية تمر بالشرق الأوسط في التاريخ الحديث، بينت حدة العاصفة، التي غطت رقعة واسعة من شمال غرب العراق.

من جهتها، توقعت دراسة موسعة اجرتها وزارة البيئة عام 2012 أن ترتفع الأيام المغبرة في العراق من 272 يوماً إلى 300 يوم في السنة حتى عام 2050، وهو ما يهدد بحصول كارثة في الصحة وفي مجالات الحياة الأخرى [17]..

وأكد تقرير دولي أنه قد طارت كمية كبيرة من التربة الخصبة في العراق إلى أماكن بعيدة مع اشتداد التصحر [18]. وازاء تفاقم الظاهرة تطرق أمين عام الأمم المتحدة الأسبق بان كي مون اليها في تقريره الدوري عن العراق الذي قدمه الى مجلس الأمن في عام 2013، وثبت فيه توقع ان يتعرض العراق الى نحو 300 عاصفة ترابية سنويا. وأشار الى أن العراق أصبح بلدا مصدِرا للعواصف الترابية، ولم يعد يتأثر بها فحسب، وأكد أن تدهور البيئة في العراق بدأ يؤثر سلبا على القطاعين الاقتصادي والصحي فيه [19] .

وكانت الجهات العراقية قد أحصت في عام 2016 نحو 122 عاصفة ترابية و283 يوماً غبارياً في سنة واحدة. وتوقع معدو التقرير أن يشهد العراق خلال السنوات العشر المقبلة تزايد أعداد الأيام المغبرة في السنة أكثر فأكثر[20].

أشد هجمات "الزائر الأصفر"

سجل شهرا نيسان وايار 2022 قمة تصاعد العواصف الغبارية وتفاقمها، إذ شهدت المدن العراقية تفاقماً غير مسبوق، عزز التوقعات العلمية التي نبهت الى تزايد العواصف، اتساعا وشدة، حيث اجتاحتها نحو 10عواصف ترابية شديدة، ومتتالية،

ومتكررة، ودامت أياماً عديدة، وغطت سحب الغبار الأصفر الكثيفة العاصمة وأغلب المحافظات العراقية. وسببت الكثير من المشاكل وخسائر كبيرة.

هذه الموجة اعتبرها خبراء في البيئة والمناخ هي نتيجة حتمية للتغيرات المناخية، وللجفاف ونقص الغطاء النباتي، والتصحر، الذي زحف سريعاً نحو المدن. وجددوا التحذير من زيادة هذه العواصف وتأثيرها على حياة المواطنين في ظل انعدام الحلول.

ويبدو أن "الزائر الأصفر" يأبى الرحيل عن بلاد الرافدين، حيث تتوالى موجات العواصف العاتية الترابية بصورة غير مسبوقة، خلال النصف الأول من 2022. فبعد توقف دام لأيام قليلة، تعرضت من جديد اغلب المحافظات جنوبا، مرورا ببغداد، ووصولا للمحافظات الشمالية والغربية [21] للعواصف الترابية.

وتوقعت هيئة الأنواء الجوية العراقية استمرار العواصف الترابية طوال الموسم الحالي، وأرجعت ذلك إلى قلة الامطار والتصحر وهشاشة التربة، لاسيما في المناطق الغربية [22].

تداعيات جسيمة للعواصف الغبارية

قبل نحو عقدين أوضح العالم فاروق الباز ان الريح تنفث الجسيمات التي يقل قطرها عن 0.05 مليمتر في الفضاء في شكل غبار. وتلك التي يراوح قطرها بين 0.05 و 0.5 مليمتر تذروها الريح لتتراكم في شكل كثبان رملية. والحبيبات التي يتراوح قطرها بين 0.5 و2 مليمتر تتدحرج على السطح بلا انتظام.

أما الحصويات التي يزيد قطرها على مليمترين فتتخلف لتشكل "رصفة صحراوية" (Desert pavement)، وتعمل هذه الطبقة، التي هي بسماكة حبيبة واحدة، كدرع تحمي الرسوبيات التحتية من الانجراف مع الريح [23].

تقسم ذرات أو جسيمات الغبار (PM) حسب حجمها وتقاس بالميكرون (µm) والميكرون يعدل جزءا من مليون من المتر. وقد أكدت الأبحاث ان جسيمات الغبار والحبيبات الترابية الدقيقة تنتقل على متن العواصف الى مئات والاف الكيلومترات. فعلى سبيل المثال، قيمت دراسة مساهمة العواصف الترابية العراقية والسورية في تركيز جسيمات الغبار الدقيقة 2.5 µm و10 أو2.5 (PM) و(10 PM) في طهران خلال عاصفة ترابية، وتوصلت الى أن الانبعاثات المحلية تشكل معظم تركيزات الجسيمات، إلا أن مصادر الغبار العابرة للحدود أثرت بشدة على مستويات الجسيمات في جميع محطات المراقبة. وتبين ان 28% تقريباً من متوسط تركيزات الجسيمات الدقيقة عبارة عن جزيئات غبار تشكلت في العراق وسوريا. وأظهرت المحاكاة للغبار أن صحراء العراق كانت مسؤولة عن ضعف كمية تركيز الجسيمات الملحوظة في طهران، مقارنة بصحراء سوريا [24].

خسائر باهظة

للعواصف الغبارية تداعيات جسيمة، صحية وبيئية وإقتصادية وإجتماعية وجغرافية وأمنية.. تناول جميعها يستلزم عدة مقالات.. نكتفي هنا بالإشارة الى تأكيد

تقرير للبنك الدولي في عام 2021 بان الخسائر العالمية الناتجة عن العواصف الترابية والغُبار المحمول جواً وصلت لنحو 3.6 تريليون دولار سنوياً. وبلغت الخسائر في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا نحو 150 مليار دولار، أي أعلى بقليل من 2.5 في المائة من إجمالي الناتج المحلي سنوياً. وتُعدّ اقتصادات باكستان ومصر وإيران والسعودية والعراق الأكثر عرضةً في المنطقة للأضرار الناجمة عن العواصف الترابية [25] ..ونركز على التداعيات الصحية:

تأثيرات وخيمة على صحة وحياة الملايين

سببت موجة العواصف الغبارية التي اجتاحت العراق في نيسان وايار 2022 الاختناق وفاقمت حالات الربو والمشاكل التنفسية الأخرى والأزمات القلبية، وغيرها، لأكثر من 15 ألف مواطن ومواطنة - تقديرات أولية. وإكتظت ردهات المستشفيات بأضعاف طاقتها طلباً للإسعافات وللعلاج الطبي وتوفي العشرات منهم.

ولإنعدام الرؤية، التي بلغ مداها أقل من 100 - 500 متر، تعطل الدوام الرسمي، وتوقفت الرحلات الجوية القادمة والمغادرة للمطارات، وشُلَت حركة السير، وحصلت العديد من حوادث الطرق. وسبب كل ذلك خسائر بشرية ومادية باهظة.

التأثيرات الصحية للعواصف الغبارية كثيرة وأغلبها خطرة، وهي معروفة جيداً للوسط الطبي وللباحثين المختصين. وقد شهدت في حاضرنا تفاقماً متواصلا.

عموماً، أكدت الدراسات إمكانية نقل العواصف لمسببات امراض، ومنها خطيرة، اضافة لمواد مؤذية، تُحدثُ مشاكل صحية حادة ومزمنة في الجهاز التنفسي، وتؤثر على القلب والدورة الدموية، إضافة الى الحساسية الجلدية وإلتهابات وإحتقان العين والأنف والبلعوم.

أوضح أ.د. أحمد باهمام، أستاذ الأمراض الصدرية، أنه خلال العواصف الترابية يتشبع الهواء بذرات الغبار التي تتعرض لها جميع الكائنات بصورة مباشرة، سواء عن طريق الاستنشاق أو التلامس المباشر. وأكد إهتمام الكثير من الباحثين في مختلف دول العالم بظاهرة العواصف الترابية وتأثيراتها الصحية، واهتمت أكثر الأبحاث بالجسيمات التي يقل حجمها عن 2.5 ميكرون (PM 2.5) لأن الهواء يمكن أن يحملها لمسافات بعيدة جدا تصل لآلاف الكيلومترات، كما أن احتمال وصولها إلى الرئة في حال الاستنشاق يكون أكثر من الجزيئات الكبيرة التي تعلق في العادة في الجهاز التنفسي العلوي. واشار الى ازدياد تركيز الجزيئات الدقيقة (PM 2.5) خلال عواصف الغبار بنسبة قد تصل إلى 200% [26].

وقد ارتبطت مجموعة متنوعة من الأمراض المعدية وغير المعدية بالتعرض للغبار. فوجدت دراسة علمية ان مسببات الحالات المرضية المذكورة هي العوالق من السبورات وحبوب اللقاح النباتية والمواد العضوية العالقة الاخرى واشكالها المهيجة للجهاز التنفسي، التي اتت من المناطق الزراعية التي مرت عليها العواصف، اضافة الى مكونات معدنية مختلفة [27]

وبيولوجياً، درس الباحثون انواع البكتريا والفطريات والفيروسات المرضية وغير المرضية في الغبار، وأظهرت النتائج أن معظم البكتريا المعزولة، هي: عصيات الباسيلاس الموجبة (42,9 %)، تأتي بعدها: العصيات المعوية السالبة (9,5 %)، والمكورات الموجبة الرئوية، والمكورات الموجبة الجلدية (6,7 %)، وعصيات سالبة معوية مختلفة، منها الكلوكا (4,3 %) والكوكاس - النوع الاول (3,9 %)، والثاني (1,9 %)، والبسيدوموناس (2,7 %).. وبالنسبة للفطريات المرضية المعزولة فكانت بالمرتبة الأولى الأسبيرجيليس الرئوية (13,8 %)، بعدها - الكانديدا المرضية (8,4 %) [28].

وتسبب العدوى عدة كائنات حية، منها البكتريا والفيروسات والفطريات والطفيليات. أما الأمراض غير المعدية، فمنها: الربو والانسداد الرئوي المزمن، والساركويد، والتليف الرئوي [29]

أخطر عدوى مرضية

تُعدُ فيروسات الأنفلونزا وداء الكروانيديا الرئوي، والالتهاب الرئوي الجرثومي، والتهاب السحايا، أمثلة على الأمراض المعدية المرتبطة بالغبار.

بيد ان الخطير هنا هو إمكانية نقل العواصف لبعض مسببات العدوى والأمراض المعدية الخطيرة، مثل التهاب السحايا (Meningitis)، ويسمى أيضاً (مرض الحمى الشوكية)، وهو أخطر الأمراض المعدية المنقولة. تأتي خطورته من مهاجمته للغشاء المغطي للدماغ وتلفه للجهاز العصبي المركزي، الذي يتحكم بكامل الجسم. وأكدت منظمة الصحة العالمية (WHO) أنه مرض مدمر يسبب معدلات مرتفعة من الوفيات ويؤدي إلى مضاعفات خطيرة طويلة الأجل ..

تسبب العدوى عدةُ كائنات حية، منها البكتيريا والفيروسات والفطريات والطفيليات. بيد ان التهاب السحايا البكتيري يثير قلقاً خاصاً. إذ يتسبب هذا النوع في وفاة 1 من كل 10 أشخاص مصابين به ويعاني 1 من كل 5 أشخاص مصابين به من مضاعفات وخيمة[30] وفيما تحدث تفشياته المرضية في جميع أنحاء العالم، إلا ان أعلى معدل له يحصل في "حزام التهاب السحايا"، وهو جزء من افريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ويقدّر عدد سكانه بنحو 300 مليون نسمة، ويعاني من الجفاف وانخفاض الرطوبة [31].

وقد وجدت WHO أن العواصف الترابية التي حدثت في مناطق الصحراء في إفريقيا عام 1996 قد تسببت في انتشار وبائي لالتهاب السحايا، أصاب 250 ألف شخص، ونتج عنه وفاة 25 ألف شخص. وتبين ان سبب انتشار العدوى هو حمل ذرات غبار العواصف للبكتيريا المسببة لها لمسافات طويلة، وحين يستنشق الإنسان هذه البكتيريا بكميات كافية فإن احتمالية إصابته بالمرض تزداد[32]..

واستطاع الباحثون عزل البكتيريا المسببة من ذرات الغبار الدقيقة 2.5 (µm) التي نقلتها العاصفة لآلاف الكيلومترات. وأظهرت الأبحاث أن ذرات الغبار الدقيقة تستطيع حمل كائنات اخرى، ونقل أكثر من 40 % من انواع خطيرة من البكتيريا، التي يمكن أن تصل إلى داخل رئة الإنسان

عند استنشاقها وإصابته بالالتهابات الرئوية الحادة.

وعند دراسة تأثير الجسيمات الدقيقة في خلايا الرئة لدى فئران التجارب وجد الباحثون تأثيرات ضارة على عدد من الخلايا، مثل الخلايا البلعمية النخروبية (Alveolar Macrophages). وأظهرت نتائج أبحاث أخرى أن تعريض خلايا الرئة والقلب والكبد للجسيمات الدقيقة وبتركيز عال للغبار، يزيد من أكسدة الخلايا [33].

ووجدت دراسة كُرست لتأثير جسيمات الغبار على الخلايا الظهارية للرئة البشرية على مستوى الخلية المنفردة، وجود مصير خلوي (البقاء أو الموت) مختلف حتى عند الاستجابة لتركيز الغبار نفسه. وقد تفاعلت الخلايا التي ماتت مع جسيمات الغبار لفترات أطول، والتهمت المزيد من الجسيمات، مقارنة بالخلايا الباقية على قيد الحياة [34]

عواصف الغبار ناشرة للإشعاعات

حملت موجات الغبار التي ضربت العراق تلوثا إشعاعيا قادما من المناطق التي تم استخدام أسلحة اليورانيوم فيها الى مناطق مكتظة بالسكان، وسمي الغبار الملوث "غبار الموت" نظرا لما سببه لآلاف للسكان من امراض سرطانية وتشوهات خلقية واسقاطات وولادات ميتة، وعلل أخرى غير قابلة للعلاج، لم يسلم منها حتى الجنود الامريكيين الذين شاركوا في حرب عام 1991، وما زال يعاني أكثر من نصف عددهم من اعراض صحية خطيرة[35].

نشير في هذا المضمار الى دراسة أجريت في النجف بهدف التحقق من وجود أشعة (غاما) في عينات من العواصف الترابية، وتقدير مؤشرات المخاطر الإشعاعية. وقد جُمِع العينات من اجواء العراق عام 2013 ووجدت قيمة مدى مخاطر الإصابة بالسرطان مدى الحياة من (0.0762194) إلى (0.144037637) بمتوسط . (0.1132494 ± 0.025147) وتم العثور أيضاً على مؤشرات مخاطر الإشعاع ومخاطر الإصابة بالسرطان مدى الحياة الزائدة متوافقة مع تلك الواردة في المستوى الدولي [36].

هذه الدراسة مثال اخر من الدراسات التي تؤكد صحة ما نشرناه خلال العقود الثلاثة الماضية حول الذخيرة الحاوية على اليورانيوم المنضب وما سببه استخدامها في العراق من تلوث كيميائي واشعاعي نجمت عنه كارثة صحية، من أبرز معالمها الارتفاع الكبير في اعداد المصابين بمرض السرطان، التي بلغت لغاية عام 2012 نحو مليون اصابة، وقد ومات آلاف العراقيين بالسرطان . [37]

وأكد الباحث هاني كرم ان استخدام أسلحة اليورانيوم أسفر عن تلوث البيئة وزيادة معدلات الإصابة بأمراض سرطان الدم والرئة والجهاز الهضمي والجلد، وكانت 75 في المئة من الإصابات بين الأطفال، كما سجلت حالات متزايدة من الإسقاط والاعتلال العصبي والتشوهات الجنينية، اغلبها سُجل في المحافظات التي تعرضت للقصف بقذائف اليورانيوم المنضب [38].

على صعيد متصل، قيمت دراسة 5 معادن ثقيلة في العواصف الترابية والرملية، هي: الكادميوم والنيكل والزنك والرصاص والحديد، من 10 مواقع في

وسط وجنوب العراق، ووجدت ان المعادن الثقيلة قد سجلّت مؤشر تلوث مرتفع في الغبار. وتبين ان الكادميوم والنيكل والزنك والحديد كانت من نفس مصادر التلوث، بينما كان عنصر الرصاص من مصادر التلوث المختلفة [39].

وكانت دراسة للعواصف الغبارية الهابة على العراق خلال الفترة كانون الثاني 2008 ولغاية آذار 2009، بيّنت تحاليل النماذج المأخوذة من الغبار بان محتوياتها المعدنية كانت تتكون من: معادن الكوارتز (58,6%) والفلدسبار (17,3%) والكالسايت (15,4%)، والجبسوم (5,5%)، مع وجود المعادن الطينية: الكلورايت والألايت والمنتمورلولايت والباليغوسكايت والكاؤولينايت. الى جانب انواع المعادن الثقيلة [40].

ويطول استعراض نتائج الأبحاث العلمية، التي أثبتت بما لا يقبل الشك ان خطر التأثيرات الصحية للعواصف الغبارية جسيم، وهو يهدد مجموعة واسعة من الناس، وضرورة الرعاية الجدية، وقائياً وعلاجياً لشرائح كبار السن والأطفال والحوامل، الى جانب مرضى الربو والقلب والرئة، وغيرهم..

مثلما بينت التجارب تفاقم المشكلات الناجمة عن العواصف أكثر فأكثر في ظل سوء الإدارة والإهمال والتقصير في الحد من تأثيراتها، والتأخير في وضع المعالجات المطلوبة.. وهذا ما نشهده للأسف في العراق.

———

ملاحظة: لمن يرغب من القراء الكرام الإطلاع على مصادر البحث، يمكنه مراسلة الباحث على البريد الالكتروني الآتي:

kalmukdadi@hotmail.com

ستوكهولم، 17/ 5 / 2022

ملامح من الاقتصاد العراقي وارتفاع الأسعار

أ.د حاكم محسن الربيعي

حاكم محسن الربيعي دكتوراه في فلسفة إدارة الاعمال، عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثماني سنوات، وعميدا للكلية لمدة زادت على خمس سنوات، عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة وجمعية الاقتصاديين العراقيين والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية، كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية وله خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. اشرف الدكتور الربيعي على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير، وهو عضو هيئات استشارية في مجلات عديدة.

مقدمة

واجه العراق بعد عام 2003 وهو عام الاحتلال مشكلات متعددة ابرزها غياب الامن والاستقرار السياسي، وتبعا لذلك ليس هناك استقرار اقتصادي واجتماعي، لان هذه المحاور مترابطة مع بعضها في مجتمع له تقاليد واعراف متجذرة تاريخيا ومجتمعيا. وابرز الاسباب التي ادت الى كل ذلك هو طبيعة النظام السياسي القائم على المحاصصة الطائفية والقومية والمناطقية. وعطفا على هذه الحالة تراجع البلد الى سنوات عدة بحيث اصبح البعض يتغنى بماضيه، لأنه كان الافضل في حين دول العالم تتفاخر بما تحققه من تطورات في وقتها الحالي، رغم قلة ثرواتها قياسا بثروة العراق. وتوالت الحكومات وفق مبادئ المحاصصة بكل تصنيفاتها، وتنامي ظاهرة السلاح المنفلت والميليشيات غير القانونية في امتلاكها السلاح بحيث جعلت من العراق بيئة استثمارية طاردة. وفي تقرير نشرته New york Times في 29 تموز2020 وصفت النظام في العراق بالدولة اللصوصية، كما نشر على موقع جامعة كوبنهاكن بحث بإشراف كبيرة اقتصاديي البنك الدولي، أعد من قبل ثلاثة من الباحثين، والذي اعترض البنك على نشره الامر الذي دفعها لتقديم استقالتها، وعملت على نشر البحث في موقع الجامعة. وقد تضمن البحث المذكور بيانات ومعلومات تتمثل في ان القروض والمساعدات التي يقدمها البنك الدولي الى الدول الفقيرة والتي يؤمل اسهامها في انعاش التنمية الاقتصادية، تذهب الى مسؤولين في حكومات الدول التي منحت

إليها هذه القروض او المساعدات وبلغ عددها 22 دولة منها دولتان عربيتان، وتذهب كودائع في الملاذات الامنة، وهذا يسبب احراجا للبنك الدولي لانه ليست هناك متابعة للقروض التي تمنح لهؤلاء[1]. وهذه الودائع هي من القروض والمساعدات التي تمنحها المؤسسات المالية الدولية الى الدول الفقيرة، فتذهب باتجاهين الاول المسؤولين الحكوميين وباتجاه الملاذات الامنة كودائع في دول مختلفة، كما تمت الاشارة الى ذلك. والثاني مشروعات تحال الى شركات ذات صلة بالمؤسسات الدولية التي قدمت هذه القروض ومن ثم عودة الاموال الى حيث اتت. وسيتم عرض الموضوع من الزوايا الاتية:

أولا: **الايرادات** والنفقات

ثانيا: الازمة المالية في العراق – الاسباب والتداعيات

ثالثا: تغيير سعر الصرف

رابعا: الحلول لإدارة الازمة المالية

خامسا: الخلاصة والاستنتاجات

أولا: الإيرادات والنفقات:

تظهر الايرادات والنفقات وما يتعلق بهما كفقرتين هامتين ضمن الموازنة العامة التي عرّفها قانون الادارة المالية رقم 6 لسنة 2019 في مادته الاولى – الفقرة ثانيا، بانها "خطة مالية تعبر عما تعتزم الدولة القيام به من برامج ومشروعات، تتضمن جداول تخطيطية لتخمين الايرادات وتقدير النفقات بشقيها الجارية والاستثمارية لسنة مالية واحدة، تعين في قانون الموازنة العامة " [2]. وسيتم استعراض هذه الفقرة على مستوى السنوات الخمس الاخيرة وهي 2017 – 2021 وكما ياتي:

1.الايرادات: تشمل الايرادات كلا من الايرادات النفطية والايرادات غير النفطية (انظر الجدولين رقم 1 ورقم 2)، ولذلك سيتم تناول كل منهما على حدة.

أ. الايرادات النفطية

بلغت الايرادات النفطية لسنة 2017 ما يقارب 68 ترليون دينار فيما ارتفعت بمقدار عشرة ترليونات دينار لسنة 2018 لتصبح حوالي 77 ترليون دينار، وواصلت ارتفاعها في 2019 الى حوالي 94 ترليون دينار غير انها انخفضت الى 81 ترليونا في سنة 2021 ، علما انه لا توجد موازنة لسنة 2020 وكانت الايرادات النفطية لهذه السنة قد انخفضت الى حوالي 42 ترليونا بسبب انخفاض اسعار النفط والتي وصل سعر برميل النفط فيها الى ادنى مستوى له وهو 14 دولارا، في نيسان عام 2020 [3] ، وذلك نظرا لانخفاض الطلب اثر شيوع جائحة كورونا وتوقف النشاط الاقتصادي في اغلب المصانع وحركة الطيران التي تستهلك 11 مليون برميل يوميا. اما الايرادات النفطية للفصل الاول من عام 2022 فقد بلغت 27.88 مليار دولار لثلاثة اشهر وبمعدل سعر 83.3 دولار للبرميل الواحد لشهر كانون الثاني من عام 2022، فيما اصبح سعر البيع لشهر شباط 92.1 دولار للبرميل، وفي اعقاب الحرب الروسية – الاوكرانية ارتفعت الاسعار الى رقم تجاوز 100 دولار صعودا ونزولا مع اشتداد وهدوء الازمة الاوكرانية.[4]

ب. الايرادات غير النفطية:

تشمل الايرادات غير النفطية الايرادات التي تحصل عليها الدولة من مصادر مختلفة كالرسوم الجمركية والضرائب على

الدخول وعلى السلع المستوردة، وهي لا تشكل نسبة كبيرة من الموازنة لان مبالغها ضئيلة، وتشمل:

- الرسوم الجمركية على الاستيرادات
- الرسوم على التعاملات اليومية في دوائر الدولة
- إيرادات المطارات وشركة الخطوط الجوية
- حصة الدولة من ارباح القطاع العام باختلاف انشطته الصناعية والزراعية والخدمية وهذا القطاع معطل تماما.
- الايرادات الشهرية لاجور الكهرباء والماء وكل الخدمات التي تقدمها دوائر القطاع الحكومي المركزي او مؤسسات القطاع العام باختلاف عائديتها الى الوزارات وباختلاف انشطتها الاقتصادية.
- ايرادات المطارات وشركات الاتصال وهي مبالغ تشكل نسبة كبيرة من الايرادات.
- ايرادات الاستهلاك النفطي اليومي في الداخل، وتتراوح بين 700 - 880 الف برميل بمشتقاتها المختلفة [5].

جدول (1)

الايرادات السنوية للعراق للسنوات 2017 – 2021 (مليون دينار)

ت	الفقرة	2017	2018	2019	2020	2021
1	الايرادات النفطية والثروات المعدنية مع الصادرات النفطية	67950225	77160393	93741110	-----	81171113
2	مجموع الايرادات غير النفطية	11061196	13821448	11828576	-------	20149030
3	مجموع الايرادات	79011421	9098141	968710556	-------	101320142

المصدر: الميزانيات السنوية العامة للسنوات 2017 – 2021

جدول (2)

العوائد الشهرية للفصل الاول من سنة 2022 (مليون دينار)

التفاصيل	كانون الثاني	شباط	اذار	المجموع
الكميات المصدرة برميل/ يوميا	99286078	92790173	100563199	292640250
معدل السعر الموزون دولار/برميل	83.265	92.084	110.01	------
العائدات مليار دولار	8.27	8.54	11.7	27.88

2. النفقات:

تشمل النفقات، النفقات الجارية والنفقات الاستثمارية (انظر جدول رقم 3) الممولة من مصادر متعددة، كالمصرف العراقي للتجارة والرافدين والرشيد ومن الموازنة العامة اضافة الى القروض *الخارجية التي تحمل الدولة فوائد سنوية ليست قليلة، اذ لو تم اعتماد الرشد والعقلانية في الانفاق لما كانت هناك حاجة للاقتراض. هذا اضافة الى فقرة العجز المخطط وهي تحايل على الموازنة حيث الهدف منها توسيع الانفاق ليسمح بالاقتراض في حالة عدم كفاية الايرادات السنوية لتغطية النفقات، اضافة الى اثقال الموازنة السنوية برواتب عالية لا تستند الى اساس قانوني، وقد اشير الى ذلك من قبل العديد من المسؤولين والباحثين والكتاب ولكن لا استجابة، لان من لديه القرار هو احد اطرافها المستفيدين.

ثانيا: الأزمة المالية – الأسباب والتداعيات

1. أسباب الأزمة المالية

أ. انخفاض أسعار النفط:

انخفضت اسعار النفط في اعوام ظهور وانتشار جائحة كورونا، وقد القت الجائحة بثقلها على مجمل الانشطة الاقتصادية في عموم البلدان الامر الذي ادى الى انخفاض اسعار النفط الى ما دون 30 دولارا لانخفاض الطلب على النفط نتيجة لتوقف المصانع عن العمل وشل الحركة الاقتصادية وحركة النقل البري والجوي. وكان لانخفاض اسعار النفط العامل الرئيس للازمة المالية العراقية لان الايرادات النفطية تشكل النسبة الاكبر من الايرادات العامة. اذ وصل سعر برميل النفط في نيسان عام 2014 الى 12 دولارا [6]، ولكنها تحسنت تدريجيا ثم ارتفعت الى مستوى تجاوز 100 دولار بعد الحرب الروسية – الاوكرانية وقد سبقت الاشارة الى ذلك.

ب. الفساد المالي والاداري:

ظاهرة الفساد الاداري والمالي لا يخلو منها مجتمع او دولة ما، بل هي موجودة في كل الدول ولكن نسبية في بعضها مع وجود محاسبة وسيادة للقانون تحاسب الفاسدين. غير ان هذه الظاهرة قد تفشت في العراق بشكل واسع وكبير بحيث لا يستطيع مسؤول محاسبة آخر لأنه متورط ايضا، وهكذا عمت الظاهرة في كل مفاصل

جدول (3)

النفقات السنوية للسنوات 2017 - 2021 (مليون دينار)

ت	الفقرة	2017	2018	2019	2020	2021
1	النفقات الجارية		103997181	98828576470	-------	100993009
2	اجمالي النفقات الاستثمارية		244891109	32591374023	--------	
3	الانفاق الاستثماري من الخزينة		19164275	26772269823	----------	235325970
4	الانفاق الاستثماري عن طريق القروض الخارجية والمصرف العراقي للتجارة والرشيد والرافدين		5324834	5819104200	----------	5073300
5	اجمالي العجز المخطط	21659740	130153340	22873365557	---------	28672867
	اجمالي النفقات	100671161	103997181	128443052427	----------	129993009

المصدر: الميزانيات السنوية العامة للعراق للسنوات 2017 - 2021

الدولة. وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز الامريكية The New York Times في عددها الصادر يوم 29 تموز 2020 تقريرا بعنوان (الدولة اللصوصية في العراق: نظرة من الداخل) وردت فيه نماذج من حالات الفساد المالي الكبيرة ولكن لا حساب بل مزيد من الفساد وامعان فيه. ومما ورد في التقرير ان احد رجال الاعمال تحدث بشكل واضح وصريح وكمثال على ذلك، انه احيل عليه مشروع بقيمة 40 مليار دينار، اي ما يعدل 33 مليون دولار، وذكر بانه انجز المشروع بعشرة مليارات، وحصل هو على خمسة مليارات دينار. اما المبلغ المتبقي وهو 25 مليار دينار فكان مآلها الى المسؤولين والاحزاب كرشى [7]. والسؤال الذي يطرح نفسه هو اذا كان المشروع ينجز بعشرة مليارات فلماذا هذه المغالاة في التكاليف، الا يعد ذلك اسلوب تحايل للسرقات، وأين دور ديوان الرقابة المالية او هيئة النزاهة؟ ولكن هذه الاجهزة ذاتها تحتاج الى سلطة قوية، تمكنها من اتخاذ قرارها المناسب في المحاسبة واحالة الفاسدين الى المحاكم، وهذه السلطة غير موجودة على الاقوياء ولكنها متوفرة على الفقراء.

ج. غياب سيادة القانون:

عندما تفشل الدولة في بسط القانون على شعبها لا يعد للقانون معنى ولا دور فاعل او مهم للدولة طالما ليس هناك امكانية لفرض القانون ومحاسبة الخارجين عليه. وهكذا ستكون الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تراجع، عندها سيؤدي ذلك الى اتساع فقدان الامن والاستقرار الامني والسياسي، وهو ما حدث ويحدث في بعض الدول باستمرار، ومنها العراق.

د. غياب المساءلة القانونية:

تعددت حالات الفساد المالي والإداري، ولكن الحساب غائب، او ان الحساب يكون على الفقراء ومن لا احد يساندهم كسجن طفل سرق علب مناديل صحية، بينما يفرج عن سارق مليارات أو يودع في السجن ولكن اي سجن، ثم يصدر عنه اعفاء ويخرج وكأنه كان في فندق 5 نجوم. أي عدالة اجتماعية هذه في عراق ما بعد الاحتلال؟ هذا مأ فرزته ديمقراطية الاحتلال.

هـ. غياب الامن:

أدى غياب الامن الى انعدام الثقة بالبيئة الاستثمارية في العراق، وجعل منها بيئة طاردة وبالتالي ليست هناك رغبة لدى المستثمرين على الاستثمار في العراق، عدا ذوي الرغبة في المضاربات ومحبي المخاطرة. اما الباحثون عن بيئة آمنة فهي غير موجوده.

و. السلاح المنفلت:

يشكل السلاح المنفلت تحديا كبيرا للدولة، وبالتالي ليس بالإمكان محاسبة الفاسدين الامر الذي عمّق الفساد في كل مفاصل الدولة. وهي مشكلة يبدو انها اصبحت مستعصية وتشكل امرا محرجا للدولة، ولمن يريد ان يعمل بنيّة خالصة.

ز. النفقات الضاغطة:

هذه النفقات تضغط على الميزانية وهي

ضارة وغير نافعة ولكن هناك تساهل او تهاون في الانفاق، ومن بين هذه النفقات مصاريف الحمايات والحرس التي تشمل الطعام والسكن لأعداد كبيرة تعمل لحماية المسؤول المنتخب مع الصيانة التي تشكل ارقاما خيالية احيانا لارتفاع مبالغها ولأعدادها، لان السيارات العاملة في خدمة المسؤول الحزبي او الحكومي كثيرة وتحتاج الى الوقود والصيانة، وكلاهما مجال للفساد.

ح. ضعف الادارات الحكومية في تحصيل الإيرادات:

الايرادات غير النفطية مصادرها متعددة، ولكن ادارتها وتحصيلها ضعيفان، ولذلك تكون المبالغ المحصلة منخفضة قياسا بمصادرها وحجم عملها وانتاجها.

ط. غياب الافصاح والشفافية:

الافصاح هو عملية الكشف عن المعلومات والبيانات بشكل دقيق، وكما هي دون تضليل، والشفافية قبول الاجراءات بروح رياضية دون رد فعل غير مناسب. كان يقال لشخص ما انت مخطئ، فيقبل ذلك ويطلب بيان الخطأ لتلافيه مستقبلا، دون اي اعتراض.

ي. تلكؤ مؤسسات الرقابة والنزاهة:

في حالات يكون تلكؤ هذه الهيئات ناجما عن المحاصصة الطائفية والقومية، اي قد يتم اختيار شاغلي هذه الهيئات من اشخاص يدينون لجهة معينة بالولاء والفاسدين ممن ينتمون الى هذه الأطراف، وفي حالات من هذا النوع تتم التغطية على المشكلة وعلى الفاسدين.

ك. تراجع دور القضاء في حسم القضايا التي تعرض عليه والابطاء في اصدار القرارات الاصولية بالتجريم والحكم ويأتي هذا التردد من حالات التهديد للقضاة واستهدافهم، حيث يولد ذلك تخوفا من الاستهداف في بلد لا مان فيه.

2. تداعيات الازمة:

أ. البطالة:

تشكل البطالة مشكلة كبيرة في الاقتصاديات الوطنية، اذ انها تكون سببا رئيسيا في حصول مشاكل مجتمعية ربما كحالات السرقة والذي قد يكون مقرونا بالجرائم الجنائية كحالات القتل من اجل السرقة.

ب. ارتفاع الاسعار:

ارتفعت اسعار المواد الغذائية والاستهلاكية في اعقاب خفض قيمة العملة الوطنية (الدينار) تجاه الدولار، الأمر الذي هيّأ حجة للباعة برفع اسعار السلع المستوردة قبل خفض قيمة العملة الوطنية. صحيح ان هذا التغيير يزيد من كلفة المستورد، ولكن ليس بهذا المستوى وان الارتفاع في الاسعار عالمي، لكنه فاق المعقول عندنا، ما ادى الى معاناة اصحاب الدخول الواطئة.

ج. المخدرات:

عكست الازمة آثارها على المجتمع العراقي، ولذلك ادت الى بروز حالات

كانت غير مألوفة في العراق، وهي اللجوء الى المخدرات بسبب البطالة وعدم وجود ايراد؛ اذ يعتبر البعض ان تناول المخدرات وسيلة للتهدئة وراحة البال، بينما اثارها مدمرة لحياة من يتناولها وعائلته، ويترتب عليها مشاكل مجتمعية مؤثرة ومدمرة.

د. الانتحار:

وقد شكلت نسبة المنتحرين بعمر اقل من 20 سنة 36.6 %، اما المنتحرون بعمر بين 20 - 30 سنة فشكلوا نسبة 32.2 %, وشكل الذكور المنتحرون نسبة 55.9 % والنساء 44.1 % وكانت نسبة ربات البيوت المنتحرات 29.9 % وبلغت نسبة العزاب 55 %، اما المتزوجون فكانت نسبتهم 40 %، وعلى مستوى متعلم او غير متعلم من المنتحرين، كانت النسبة للمنتحرين الذين يقل مستوى تعليمهم عن الابتدائية 62.2 %، ونسبة من كان تعليمهم ادنى من المتوسطة 16.9 %[8]

هـ. الطلاق:

تعددت اسباب الطلاق ولكن كان العامل الاقتصادي واحدا منها، اذ ادى ويؤدي عجز رب الاسرة عن الايفاء بمتطلبات اسرته الى تصعيد الخلاف بين ربي الاسرة، الامر الذي يؤدي الى حالات غير مقبولة او غير مرضية للمجتمع ولأسرتي طرفي حالة الطلاق، وهي حالة آثارها كبيرة مجتمعيا وخصوصا على الاطفال.

و. هجرة الشباب:

ازدادت هجرة الشباب بحثا عن فرص عمل او عيش لائق في دول المهجر ولكن بعض هؤلاء يواجه بواقع مختلف يلوم نفسه احيانا على إقدامه على الهجرة، وهناك من كان مصيره الموت غرقا في البحار، اما من يحصلون على فرص مرضية في الهجرة ونتائج مرضية فهم ليسوا كثر.

جدول (4)

أعداد المنتحرين في العراق للسنوات 2016 – 2021

السنة	اعداد المنتحرين
2016	393
2017	462
2018	530
2019	605
2020	663
2021	772

المصدر: الشبكة الدولية wikipedia

ز. تراجع في الخدمات:

الخدمات التي يحتاج اليها الانسان الذي يعيش في مجتمع معين وفي دولة نفطية تحديدا وموازنتها تعدل موازنات 4-3 دول من دول الجوار، يفترض ان سكان هذا البلد ينعمون بالخدمات بكل انواعها، ولكن ما يحدث في الواقع هو عكس ذلك، حيث يلاحظ تراجع في الكهرباء والمياه الصالحة للشرب وانعدام الامن وتراجع الخدمات الصحية وتراجع التعليم... الخ.

ثالثا: تغيير سعر الصرف:

معدل سعر الصرف هو عدد الوحدات النقدية من العملة الوطنية مقابل عملة اجنبية اخرى، إلا ان هذه الوحدات النقدية تقل وتزداد حسب القوة الاقتصادية للعملة الوطنية، وتأتي هذه القوة للعملة الوطنية من عوامل عديدة، من بينها الاستغلال الكامل للموارد الاقتصادية الوطنية في ظل استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، مع اختلاف تأثير كل من انواع الاستقرار هذه. فقبل حرب الثماني سنوات 1980 - 1988 كان الدينار العراقي يساوي 3.333دولار وبسبب الحروب والحصار والخسائر التي مني بها الاقتصاد العراقي تراجعت قيمة الدينار الى ما هو عليه اليوم، وقد وصلت الى ارقام خيالية عام 1995 اذ زادت على 3500 دينار لكل دولار، وكان سعر الصرف في تقلب مستمر. اما تغيير سعر الصرف والذي كان على حساب الطبقات الكادحة وقد اضر كثيرا بها، بالمقابل كان سببا للبعض من التجار والباعة لزيادة الاسعار، وهو اجراء جاء من البرلمان العراقي في حين ان سعر الصرف هو من ضمن اعمال السياسة النقدية وهي مسؤولية البنك المركزي، فما شان البرلمان في ذلك؟ بعد تغيير سعر الصرف أصبحت ورقة فئة 100 دولار بـ 145000 – 148000 دينار، وهذا يعني ان من يحتاج الى الف دولار يجب ان يوفر 1450000 – 1480000 دينار بفارق مقداره 250000 – 280000 دينار عن سعره السابق البالغ 120000 دينار لكل ورقة من فئة الـ 100 دولار. لقد اضرت هذه العملية بذوي الدخل المحدود وبالمرضى الذين يطلبون العلاج في دول اجنبية لعجز الحكومة عن توفير العلاج في الداخل. كما اضرت بطلبة الدراسات على النفقة الخاصة ايضا واولئك الذين يرغبون في السفر والسياحة. ان الاقدام على هذه الخطوة انما يعبر عن عدم الشعور بالمسؤولية وغياب التفكير بالفئات ذات الدخل الواطئ. ثم ان الدول قد تلجأ الى خفض عملتها الوطنية في حالة وجود فيض في الانتاج الوطني لديها من اجل اقبال الدول الاخرى على الاستيراد من منتجات البلد الذي خفض عملته وبالتالي انخفاض سعر منتجاته، ما يشجع الآخرين على الاستيراد. وهنا يطرح سؤال آخر: ما هو الفيض في الانتاج العراقي ليخفض عملته؟ ام انها اجراءات غير مسؤولة في بلد تعم فيه الفوضى.

رابعا: الحلول لإدارة الأزمة المالية:

1. المشكلة اساسا ليست اقتصادية او مالية فقط، بل انها سياسية والاهم في ذلك الادارة الكفوءة والامينة للمال العام، وهو الذي افتقد خلال الفترة التي

اعقبت عام الاحتلال في 2003. لذلك من الضروري والملح ان يحصل تحول في النظام السياسي من خلال التخلي عن المحاصصة الطائفية والقومية والمناطقية، وان يحظى العراق بحكومة وطنية هدفها بناء البلاد وخلق دولة موحدة وذات سيادة وصاحبة قرار مستقل، وان يتم بناء جيش مهني واعادة العمل بنظام الخدمة الإلزامية، وتفعيل قانون الاحزاب السياسية، على ان يكون برنامج الحكومة الذي يجب ان يعلن مقدما، برنامجا وطنيا واعضاء الحكومة يعملون من اجل بناء البلاد من خلال تنشيط وزاراتهم على اساس برنامج يهدف الى تطوير كل وزارة للنشاط المسؤولة عنه، وللبرلمان صلاحية المراقبة على ان لا تسيّس او تشخصن كأن يطلب النائب من الوزير عملا معينا لا ينسجم مع القانون، وفي حالة عدم تنفيذ الوزير لهذا الطلب يبدأ النائب بطلب الاستجواب، علما ان من يريد بناء دولة يجب ان يبتعد عن هذه المناكدات.

2. إعادة هيكلة الحكومة والهيئات المستقلة: هناك وزارات ومؤسسات او هيئات مستقلة ضاغطة بالنفقات وبالأطر الادارية (الكوادر) وفي حقيقة الامر اما لم يكن لها ضرورة حيث يمكن ان تقوم بمهامها مديريات عامة في الوزارات كل حسب الاختصاص، مثال وزارتي حقوق الانسان والهجرة والمهجرين وهيئة النزاهة وهيئة الحج والمساءلة والعدالة ودواوين الاوقاف واية هيئات لم يرد ذكرها لأنها تحمّل الميزانية تكاليف عالية.

3. اعادة النظر في الرواتب الخيالية سواء لاعضاء مجلس البرلمان او الوزراء ومن في حكمهم وتقليص عدد الحمايات والحراس الأمنيين وقوافل السيارات المرافقة حتى لأناس ليست لديهم مسؤوليات في الدولة، والرواتب التقاعدية التي تدفع لأشخاص غير عراقيين، وما يسمى رواتب رفحة. اذ ليس من المعقول ان من لديه 14 سنة خدمة فعلية يحرم من التقاعد من موظفي الدولة لان قانون التقاعد يشترط 15 سنة خدمة فعلية، في حين يمنح راتب تقاعدي وبأرقام خيالية الى من لا تتجاوز خدمته عدة اشهر او بضع سنوات، اي عدالة اجتماعية هذه؟ وكذلك الارقام الخيالية للرواتب التي يتقاضاها مسؤولون لم يخدموا الا لبضعة اشهر او سنوات.

4. الغاء ما يسمى بدل المعونات الاجتماعية التي تمنح لبعض المسؤولين وكذلك بدلات الايجار التي تمنح للنواب او الوزراء ومن في حكمهم، وفي اقل اجراء اعادة النظر في حجم المبالغ، لانها عالية واعلى من مستويات الايجار السائدة في بغداد.

5. تأهيل القطاعات الاقتصادية، كالقطاع الصناعي العام والخاص والقطاع الزراعي وتشغيلها كاستثمار لموارد البلد الوفيرة ولتساهم في تقليص حجم البطالة مع توفير الحماية للمنتج الوطني وهو اجراء تعمل به جميع دول العالم. وكذلك الأمر بالنسبة لقطاع الخدمات والسياحة. اما القطاع الزراعي فهو الآخر يعاني من الاهمال وشحة المياه، حيث ان السدود التي تم بناؤها على نهر دجلة والفرات

خفضت المياه الى حد كبير كسد أليسو وسد الطبقة السوري على نهر الفرات، ومن ناحية اخرى غيرت ايران مجرى نهرين يصنفان بالأنهر الدولية، وفي نية تركيا اقامة سد جديد هو سد جزرة الاكثر ضررا على حصة العراق المائية، وليس هناك من تحرك جاد مع الدول ذات العلاقة، ولا احد يعرف سبب هذا الصمت. كما هناك اربعة سدود تجري اقامتها في المحافظات الشمالية ودون تنسيق مع حكومة بغداد، وليس هناك حراك او اعتراض منها. وهناك ايضا الصمت الحكومي إزاء حصة العراق الدولية في مياه دجلة والفرات مع تركيا وسوريا، ما يضر بمصلحة العراق وشعبه.

6. الاستفادة من الفوائض النفطية في تأسيس صندوق سيادي وادارته من قبل اطر كفوءة لضمان النفع العام للأجيال القادمة والحالية، على حد سواء.

7. القضاء على ظاهرة الفساد المالي والاداري، واحالة الفاسدين الى القضاء وتفعيل استعادة الاموال العائدة للعراقيين والمنهوبة بأساليب الفساد المتنوعة والمودعة في الملاذات الامنة.

8. الادارة الكفوءة للمال العام لتجنيب البلد طروحات واقتراحات صندوق النقد الدولي المدمرة للدول، لان العراق فيه موارد كثيرة ولكنها بحاجة الى ادارة أمينة وكفوءة ومخلصة.

9. دعم القطاع الخاص وكل الوحدات المنتجة الصناعية والزراعية بما فيها حقول انتاج اللحوم بكل انواعها وحقول الدواجن وبحيرات الاسماك والمراعي الطبيعية.

خامسا: الخلاصة والاستنتاجات

يواجه الاقتصاد العراقي تحديات ومشاكل كبيرة، منها فقدان الامن وغياب الاستقرار السياسي، اضافة الى مشكلة الفساد المالي التي تأصلت في مفاصل الدولة وقوضت كل التوجهات الرامية الى إصلاحه. وهناك ايضا امتداد للعشوائيات لقضم اراض زراعية صالحة للزراعة وخصبة وقريبة الى السوق، قام اصحابها ببيعها قطعاً سكنية مع وجود قانون يمنع ذلك ولكنه لم ينفذ. وهناك مصادر ايرادات متعددة مثل اجور الماء والكهرباء والضرائب والرسوم والمطارات والمنافذ الحدودية وايرادات داخلية من الاستهلاك النفطي الداخلي أو ايرادات شركات الاتصالات، وهناك تراجع في ادارة الموارد وتحصيل هذه الايرادات. هذا اضافة الى الاهمال المتعمد لكل القطاعات الاقتصادية، اذ ليس هناك صناعة او دعم لهذا القطاع، بل جرى تحييده بشكل مبرمج، علما ان هذا القطاع كان نشطا حتى في زمن الحصار. اما القطاع الزراعي فهناك من حاول ومازال يستمر في هذه المحاولات لتقويض القطاع الزراعي، بل ودفع المزارعين والفلاحين الى التراجع عن الزراعة من خلال طرح منتجات اجنبية اقل سعرا من المنتج العراقي الذي يتحمل كلفة اعلى بسبب غياب الدعم الحكومي. اضافة الى ان هناك دولا تحاول من خلال ادواتها داخل البلد تحييد القطاع الزراعي العراقي وهو قطاع له تاريخ معروف، اذ عُد العراق من خلاله دولة زراعية حيث كان يصدر المنتجات الزراعية الى دول عربية واجنبية. كما

يعاني من وجود ضغوطات كبيرة على الميزانية بسبب الانفاق غير القانوني لقسم من الرواتب وكأن ما يصرف للآخرين هو هبة من اموال العراقيين على حساب زيادة معدل الفقر ومشكلة البطالة، بسبب عدم توفر فرص العمل التي يمكن توفيرها وتقليل البطالة بدعم القطاعات الاقتصادية وتشغيلها، صناعيا وزراعيا، وبالتالي دعم السياحة وهناك مواقع سياحية جاذبة لو تم الاهتمام بها. وتبعا لذلك هناك تلكؤ في الخدمات كالكهرباء والتعليم والصحة، اما على صعيد الانفاق غير المنضبط فهناك ظواهر وحالات غريبة وتعبر عن عدم وجود اي حرص واهتمام بالمال العام، بل هناك شعور بالكسب الشخصي على حساب حقوق الشعب المهدورة.

1 -- Andersen,Jule, Jargen &Jabannesen, Niek and Rijkers,Bab, Elite Capture of Foreign Aid Evidence from offshore Bank Accounts, World Bank Group 2020

-2 جريدة الوقائع العراقية، العدد 4550 اب. قانون الادارة المالية رقم 6 لسنة 2019.

2 - الميزانيات السنوية العراقية للسنوات 2017 – 2021 .

3 - موقع شركة سومو لتسويق النفط http s //somoo. Gov.iq

4 - وزارة النفط – مديرية توزيع المنتوجات النفطية .

5 – الربيعي، حاكم محسن محمد، وباء كورونا وتداعيات انخفاض اسعار النفط، مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد413 - 414 ، 2020.

6 - The New york Magazine, Times, ,In side the Iraq kleptocracy,29, July-. 2020

7 - الشبكة الدولية ويكيبيديا .

خيانة الذاكرة
ثورة العشرين.. قراءة في ضوء منهجية الدراسات الثقافية

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي
مؤرخ وباحث اقتصادي عراقي معاصر، وباحث في الفكر السياسي، والتاريخ الاقتصادي.
الجامعة الأهلية – البحرين

مقدمة القراءة

ثمة خلط يكاد لا تستبان منه القسمات بوضوح، يحضر بقوة في طريقة استحضار مفهومي (الدراسات الثقافية) و(التاريخ الثقافي)، حيث المسعى نحو البحث في الفجوة القائمة بين الماضي والحاضر. الدراسات الثقافية ينصب اهتمامها في طريقة تشكل الوعي المعاصر [1] فيما ينهمّ التاريخ الثقافي في البحث عن آثار الماضي وتأثيرات التاريخ في تشكل الوسيط البيئي الذي أفرز التفاصيل المتعلقة بالواقعة حيث الحدث كما كان، فيما تتمايز قسمات المعاصر بناء على طريقة الوعي بالمعنى وطريقة تسلله في الذاكرة الثقافية، والطريقة التي يتم التعاطي بواسطتها معه في الواقع المعاصر المعاش. فجوة هائلة بين الذي كان، وبين ما هو قائم ومتداول وموجود ومتفاعل في صلب الواقع الاجتماعي والثقافي الراهن.

قد يتم استدراجنا نحو التركيز على الماضي من أجل العمل على تفسير وتحليل الحاضر. وهذا هو المقوم الأكثر حضورا الذي يقوم عليه إغراء التاريخ. لكن التداعيات التي تفرضها أحوال المعاصر والتشابكات والتعقيدات التي تقوم عليها الحياة الراهنة، تجعل من أشد المتحصلين على الدربة والحنكة المعرفية، وقد وقعوا في شراك تأثيرات المعاصر على حساب الواقعة التاريخية، تلك الأخيرة التي تبقى متفاعلة بناء على الشروط الخاصة التي تحكمها. وتتبدى المفارقة في أقصاها حين يتنادى الجميع قائلا: أنه لا يمكن محاكمة الماضي بعقل الراهن [2] باعتبار محاولة النأي عن تاثيرات الإسقاط Proje-tion، وتجنب حضور المفارقة التاريخية The fallacy of anachronism إلا أن غواية التاريخ سرعان ما تتسلل في صلب المعاصر، فارضة عليها شروحاتها وتفسيراتها وتحيازاتها واختزالاتها بل وتقمصاتها [3].

منهجية القراءة

تسعى القراءة نحو الإفادة من مقولة Raymond Williams حول طريقة النظر إلى الحاضر والتي يعمد إلى وضعها في تقسيم ثلاثي يقوم على: المترسب Residual والذي يتمثل في ما تم وراثته من الماضي ولكن تأثيراته تبقى محدودة على صعيد الراهن. والمهيمن Dominant وهو الحضور الطاغي للتشكيلات التي تحرك الراهن . والناشئ Emergent حيث التكوينات في طور التفاعل، لكن تأثيرها الفاعل في الراهن يبقى محدودا وغير واضح [4]. القراءة هنا تسعى إلى قلب العلاقة في طريقة التعاطي مع الواقعة التاريخية؛ فبدلا من الانهمام وتوجيه التركيز نحو التاريخ الثقافي، سيكون التوجه نحو قراءة الواقعة التاريخية (ثورة العشرين) بناء على موجهات منهجية الدراسات الثقافية Cultural Studies، انطلاقا من إمعان النظر في موجهات وتفاعلات الحاضر العراقي، من خلال الاستناد إلى المقوّم المنهجي والمتمثل في العناصر الثلاثة (المترسب، المهيمن، الناشئ) التي سبق ذكرها.

المترسب في الحاضر العراقي ينطوي على المزيد من ارث الماضي، حيث مشروع الدولة الوطنية الذي أسس له المستعمر البريطاني، وظهور المؤسسات ونشأتها وظهور النخبة السياسية الحاكمة (ضباط هاشميون، رجال إقطاع) التي تولت حكم البلاد طيلة العهد الملكي، سعيا نحو سلسلة الانقلابات العسكرية، مرورا بالشرعية الثورية وتقمصاتها الآيديولوجية . وما نجم عن كل هذا من أحوال وأهوال وقمع وتنكيل جراء الصراع على السلطة، حتى لم يخرج من كان على رأس السلطة برأسه سالما سوى الرئيس (عبد الرحمن عارف) فيما تمت الإطاحة بالرئيس (أحمد حسن البكر) بطريقة لا تخلو من إذلال. شهوة الملك ولوثة السطوة والسيطرة تبقى مترسبة في العقل السياسي العراقي على صعيد الحاضر الراهني. لكن هذا الحضور يبقى في الاطار النخبوي المحدود. حتى أن السؤال الأكثر تداولا في الحاضر العراقي راح يدور في فلك المقارنة بين الطاغية المتسلط المتجبر الذي حكم العراق عبر منظومة العائلة والقرابة، والراهن من السياسيين الذين اعتاشوا على معارضة النظام السابق، فيما عملوا على تقديم الخدمة المجانية للسابق عبر الأداء السيئ القائم على الحزبية والمحاصصة والفساد الإداري وتشريع اللصوصية والفوضى التي راحت تضرب أطنابها في البلاد، فكان الافصاح المخيب بطريقة شديدة الفجاجة عن أوضاع الفشل الذريع في إدارة الدولة المهيمن في الحاضر العراقي الذي يحرك الراهن، إنما يقوم على سؤال الهوية، بعد أن عقدت النخبة السياسية أواصر علاقتها مع مشروع السلطة بناء على المحاصصة الطائفية، وجعلت من مشروع الدولة وفكرة الاستقلال الذي نادى به ثوار العشرين مجرد شعارات مفرغة من المحتوى الأصيل والعميق، حتى غاب

مفهوم الوطن في الراهن الذي يعيشه العراقيون في ظل الاحترابات التي انشغل بها زعماء الطوائف الذين راحوا يعلونها على الملأ ودون أن يرف لهم جفن (امنحني حصتي وافعل ما تشاء). فيما راح الشعب يتلظى من أهوال الاهمال والبطالة والعوز والفقر وانعدام الخدمات وفشل الدولة المقيم . السؤال هنا يقوم على: كيف يستقيم الحديث عن ثورة العشرين التي مهدت لتبلور فكرة الوطن العراقي المعاصر، فيما يكشف الحاضر عن فشل الدولة، وبالتالي فإن السؤال الفاعل في الراهن العراقي إنما يقوم على (سؤال الوطن؟!)، الذي راح يعاني من سوء الإنشاء وسوء الاستعمال، فيما تداخلت المعاني فيه، حتى لم يعد لهذه المفردة من معنى في ظل هيمنة الصراعات الفرعية على حساب المركزي من القضايا. فالمهيمن على الراهن الحاضر، بات يقوم على تركيز النخبة السياسية للحصول على المزيد من الامتيازات وتوسيع المواقع وتركيز التحالفات، والعمل على جعل الموقع السياسي وسيلة للارتزاق ونبيل الحظوة والمكانة. ولعل اللافت في الأمر أن هذه النخبة لم تعد مكتفية بما تحصلت عليه، بقدر ما صار التطلع نحو تكريس الحضور عبر توسيع مجال التحالف بين المكونات الحزبية والقوى السياسية المختلفة، ليصار إلى ترك البلاد نهبا لأحوال الفشل، حتى لم تعد الحكومات المتعاقبة التي تولت شؤون إدارة الحكم والسياسة في البلاد قادرة على انجاز مشروع خدمي واحد لصالح الشعب، بعد أن استغرقت النخبة السياسية في جعل الدولة بمثابة الوسيلة التي يتم من خلالها توطيد المراكز وتوسيع المنافع الشخصية.

الناشئ في الحاضر العراقي ينطوي على المزيد من التفاعلات المحدودة وغير الواضحة، التي لا تزيد في حضورها على الأحلام المهيضة الجناح، حيث حلم الدولة المدنية المستندة إلى الدستور والقانون والهيئات التشريعية وفصل السلطات (التشريعية، التنفيذية، القضائية)، والتي غدت مادة للتلاعب ومجالا لتوزيع المآرب والمغانم، بعد أن تسيدت المحاصصة الطائفية على الواقع العراقي. فيما تغولت مؤسسات الطائفة والعشيرة والحزب، تلك التي راحت تتوجه نحو تشريع حضورها من خلال ارتهان المؤسسة الديمقراطية، والعمل على إعادة إنتاج المزيد من النفوذ والقوة والمصالح، بإزاء الدواء المرير لفكرة الوطن والمواطنة.

في الحاضر العراقي ظهرت ملامح التطلع نحو تفعيل مؤسسات المجتمع المدني، والإيمان المطلق بالتعددية الحزبية، والتأكيد على حرية التعبير وتعزيز مسار فكرة المواطنة والمشاركة الايجابية والشفافية، ألا أن الالتباس والغموض راح يفرد بقلوعه على جلّ هذه المسميات المفرغة من محتواها، بعد أن تمكنت مؤسسة السلطة (التنفيذية، التشريعية، القضائية) من عقد أواصر التحالف والعمل على رسم معالم نموذج (الديمقراطية الريعي)، حيث التمثل الفاضح لثقافة الغنيمة والعمل على استحضار ثقافة (الملك العضوض).

المشتركات الممكنة

ما هي المشتركات الممكنة بين الماضي والمعاصر؟ وكيف يمكن الوثوق بهذا الحبل الوثيق بين الماضي والحاضر؟ فيما الانفصالات لا تلبث حاضرة في صلب العلاقة القائمة بين الطرفين [5]. قد يتم استحضار وحدة المكان، العلاقة السلالية بين الأجداد والأحفاد، مشغلات مثل؛ (الهوية، الذاكرة، الإرث، النسب، المجد والفخر، الوصمة والعار). لكن خصوصيات الأجيال تبقى فاعلة في صلب السياق الذي يميز لحظة تاريخية بعينها. فما تفاعل خلال العام 1920 على سبيل المثال لا الحصر، لا يمكن وتحت أية ذريعة أن يتساوى وما يحدث في العام 2020. هكذا يقول المنطق وهذا ما يستند إليه الواقع وهذا ما يفصح به الزمان وتجلياته، الأمر هنا لا يقوم على الفاصل الزمني باعتبار الأمد الطويل (مائة عام) وتعاقب الأجيال والأحوال والأهوال، بقدر ما يستند الأمر إلى فاعلية اللحظة التي تتشكل عليها الواقعة. لحظة قد تكون طريقا إلى عقد أواصر علاقة متينة مع هذا الطرف أو ذاك، أو يتلبسها سوء الفهم لتكون مسارا لإرث من العداوة التي لا تعرف الانقطاع.

نحن بإزاء لحظة تأسيسية في تاريخ العراق المعاصر، تتمثل في ثورة العشرين. السؤال المركزي هنا يتمثل في: من كان يفكر في هذه (اللحظة التاسيسية)؟! رجل الثورة الذي تفاعل في خضم تفاصيلها ومشغلاتها ونتائجها وعواقبها، أم الشخص الذي جاء في أعقاب تداول الأجيال للواقعة ليضع عليها وعيه ومدركاته والسياق الذي يعيش فيه، ليعمل على إلباس الواقعة القماشة التي يراها هو من زاويته الخاصة [6] ؟! ولعل السؤال الأهم يبقى عالقا في مجال الدراسات الثقافية إنما يقوم على الطريقة التي يتفاعل فيها معنى ثورة العشرين في الذاكرة والثقافة العراقية المعاصرة. هذا مع أهمية أن التاريخي يحضر وبكل قوة في ترسيم معالم هذا المعنى، لكن الفاصلة التي تتوقف عندها القراءة إنما تنطوي على إشكالية رئيسة تقوم على تمييز مدى العلاقة القائمة بين؛ (الماضي) و(الحاضر). إذ تبقى العلاقة القائمة بين الطرفين يشوبها المزيد من الانقطاعات والتهويمات والمبالغات وسوء الإنشاء أحيانا وسوء الفهم في أحايين كثيرة وعديدة؟ إذ يبقى الالتباس سيد الموقف في طريقة التمييز بين (الماضي) و(الحاضر) [7]، لا سيما حين يكون التطلع نحو وضع الحدود الفاصلة بين الطرفين، فيما يكون لتسرب المعاني واقحامات المعنى حضورها الفاعل وسط هذه العلاقة، تلك التي لا تخلو من التأثير المباشر للتصورات والرؤى والرهانات والإرادات والتحديات، والآثار التي تحدثها طريقة التعاطي مع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتفاعلات التي تفرزها طبيعة العلاقات التي يفرزها الواقع، والأثر المباشر الذي يتركه على الفرد والجماعات في بث المعنى وطريقة تلقيه واستقباله، وبالتالي تمثله والانخراط في تجلياته.

المعاصر الذي يقرأ الحدث بعد مائة عام يمكّنه موقعه من تمييز طريقة تفاعل

نظام القيم داخل الوسيط العراقي خلال واقعة ثورة العشرين، حيث منظومة الثائر الذي استحضر منظومة القيم وكيف راح يتمثلها في موقف شديد الصراحة، غير قابل للالتباس أو التمويه، حيث الرفض لهذا المستعمر الذي جاء بقوته المفرطة كي يجثم على مساحته الخاصة به حيث (المعرفة) [8]. فيما المنتفع جعل من واقعة العشرين مجرد (حدث) يمكن من خلاله الانسلال في الوسيط التفاعلي العراقي لينال من خلاله جني الثمار والفوائد واحتلال الموقع الذي هيمن على المجمل من تطلعاته الشخصية والفردية.

القطائع والوشائج

الحديث عن التمييز بين الماضي والحاضر، لا يعني أن ثمة قطيعة تعتور العلاقة القائمة بين الطرفين، فلا حاضر من دون ماض بطبيعة الحال. فالحاضر لا يمكن أن يكون نبتا شيطانيا يظهر إلى الوجود دون تأسيس على هذا الماضي الذي يشكل دالة الحضور والتفعيل والتأسيس للسياقات والمدركات والمعاني والدلالات التي يقوم عليها الخزين المعرفي الإنساني [9]. حيث تشكلات الذاكرة الثقافية، تلك التي تمثل الذائقة والحاسة الإنسانية التي يتم من خلالها ترسم أحوال المعايير والأحكام والاشتراطات والاحتكامات الأكثر تداولا في الحياة الإنسانية، تلك التي يتم من خلالها تمييز هذه الجماعة عن الأخرى .

الواقع أن الحاضر الذي نعيش راهنه ما هو إلا نتاج الماضي، حيث الحضور الطاغي لهذا الأخير باعتباره الأصل الذي تستند إليه مجمل الفاعليات التي أثمر عنها ولادة المعاصر، علاقة جدلية غير قابلة للفصل والتقطيع والعزل. الأهم فيها أنها لا تقوم على أحوال التواصل (الذي يشكل أصلا فيها) بقدر ما يستند إلى أهمية تمييز أحوال الخفاء والتجلي لهذا الماضي الذي يغيب في خضم تفاصيل الحياة ومشغلاتها، لكن ثقل الماضي سرعان ما يتبدى على حين غرّة في لحظات من الحاضر [10]، حتى يطبعه بطابعه الخاص، ليتحول هذا الماضي إلى ثقل وأحيانا إلى أغلال من العسير الإفلات من قبضته الشديدة. وإذا كان للنجاح آباء كثر، وما يمكن أن تتحصل عليه القيمة والمثل الأعلى من إدعاء الجميع بالانتساب إليها. فإن نموذج (ثورة العشرين) ولما لها من رأسمال رمزي في الواقع العراقي وثقل وحضور في الذاكرة الثقافية العراقية، أضحت بمثابة الميدان الواسع الذي يتنافح الجميع عنه حتى صار الجميع يدعي وصلا بليلى، وهكذا تعددت التفسيرات والتأويلات بحق هذه الواقعة التاريخية [11]، وصار المسعى نحو الباسها الثوب الذي يناسب هذا التيار أو الاتجاه: الماركسي يركز ناظريه في التناقضات التي تلبست أحوال أنماط وعلاقات الإنتاج، وكيف آلت الأمور نحو انتفاض الجموع الفلاحية ضد القوى الاستعمارية وحلفائهم من القوى الاقطاعية والرجعية. والقومي لم يتردد لحظة من استدعاء رموز البسالة والبطولة الكامنة في الشخصية العراقية، والعمل على استنهاض الجهود لمقارعة المحتل البريطاني، فيما توجه الإسلامي

نحو تأكيد الدور الكبير والمساهمة الجادة لرجال الدين في حشد الطاقات الروحية عبر استدعاء مفهوم الجهاد نحو مقارعة المستعمر.

التزامن والتعاقب

اللافت في الأمر أن القوى التي تعززت مصالحها وتنامت الفوائد التي جنتها وتعززت المواقع التي تحصلت عليها، سعت وبكل ما لديها للتعاطي مع واقعة الثورة بكل أريحية وهدوء يثير العجب. حيث (الحدث،الانتفاضة، الواقعة، الثورة)، تلك التي لا تنفك تثير الشجن والعواطف والحماس والانفعال لدى جميع الأطراف، حيث الإشارة الباردة والتي لا تتخطى حدود التعاقب في ترسيم معالم الحدث. الأهم في كل هذا ينطوي على طريقة الكشف عن التحيزات التي يثيرها الماضي في صلب الحاضر، حيث أحوال انتشار القيم والمعايير وما يمكن أن تفرزه على طريقة التفاعل الاجتماعي داخل الفضاء الثقافي العراقي.

ثورة العشرين، هل بوصفها الحدث البطولي الذي ميز الفعل الإنساني للفرد العراقي في سياق تاريخي شديد الخصوصية؟ هل هي التعبير عن الموقف الوطني حيث المناداة بالاستقلال أو الموت الزؤام؟ هل هي الانتفاضة التي قامت على ردة الفعل المباشر إزاء أخطاء الضباط البريطانيين وتهورهم وتعاليهم وغرور القوة التي استبد بعقولهم؟ هل هي التفاعل المستند إلى قيم الرجولة والنخوة واستحضار المجمل من القيم والمعايير التي ميزت المجتمع العراقي؟ هل هي الورطة التي جعلت من الفدائي الذي قارع الجيش البريطاني يتنادى صائحا (وجوها وذبوها علينه) وهو يقصد أن أفندية بغداد قد رفعوا الشعارات المنادية بالثورة، فيما تركوا مهمة العمليات العسكرية لينهض بها فلاحو الفرات الأوسط؟ هل هي التمثيل لأحوال الإفراط في التناخي ورفع الشعارات والمقاومة بمجرد الصراخ والهتاف من واقع (يسقط المطر في الشتاء؟!)

تداعي أسئلة من هذا النوع لا يلغي البتة أن الماضي يشكل الأصل الذي يقوم عليه التاريخ. ومن هذا فإن هذا التعدد الذي يحاول تقديم مقاربة لأحوال التنوع في المواقف، إنما يعبر عن أحوال التفاعلات التي أنتجها الواقع العراقي بدءا من العام 1920 وصولا إلى لحظة 2020. وبالطبع أن مدار التفعيل لا يمكن أن يتوقف عند رقم بعينه أو سنة يمكن تشخيصها، بقدر ما يكون التطلع نحو تمييز المفارق التاريخي الذي يعن على الدارس والباحث، باعتبار المسعى نحو وضع نقطة دالة، يمكن من خلالها الانطلاق في الاستدلال المنهجي، والعمل على وضع خطاطة سردية يتم من خلالها استبيان ملامح العلاقات الفاعلة في الوسيط الثقافي العراقي إن كان على صعيد طريقة إنتاج المعنى، أو مستويات استقبال الأفكار، أو مسارات التصور السائدة [12].

المركزي والهامشي

التاريخ في أبسط تعريف إجرائي ممكن، إنما هو تمثيل لطريقة الوعي بالماضي من خلال الاعتماد على المنهجية العلمية

الصارمة. ثورة العشرين واقعة يتم التعبير عنها بدلالة الاسم، وهي بلا شك مغرقة في الماضي حيث الفاصل الزمني الذي تقوم عليه، حيث الاستناد إلى هذه المائة عام! ومن هنا يتناسل المزيد من الأسئلة حول هذه المائة عام من الماضي بكل أحداثه العارضة والمقصودة، والمؤثرة والفاعلة، والمركزية والهامشية، والفرعية والرئيسة، والمؤكدة والمختلف عليها. ومن هذا فإن السؤال الرئيس إنما يقوم على الطريقة التي يتم التعاطي بها مع هذه الثورة هل بوصفها (معرفة) أم (حدث)؟

الحديث عن (حدث) لا يعد إغراء للباحث والدارس، فما أكثر الأحداث التي مرت في تاريخ العراق والتي تفوق ثورة العشرين في أهميتها وقوة تأثيرها على الواقع العراقي. الأمر هنا لا يقوم على التطلع نحو عقد مقارنات بين قوة هذا الحدث بإزاء حدث آخر. وإلا فإن البعض يرى في ثورة العشرين بوصفها مجرد ردة فعل صادرة عن مجموعة من المنتفضين الذين رغبوا بالخلاص من ربقة الضريبة التي بالغ البريطانيون في طريقة استحصالها. فيما جعل البعض الآخر من هذا الحدث بمثابة الإعاقة التي ضربت مشروع الحداثة التي جاء به المستعمر البريطاني في الصميم، مبررين ذلك بأحوال الازدهار الذي نعمت به قرى وقصبات وبعض مدن العراق تحت السيطرة البريطانية، وكيف حل المَحْل والجدب والانحطاط أحوال العراق في أعقاب الثورة ؟!

ما يأتي بثورة العشرين بعد المائة عام، ويجدد فيها الحضور إنما ينطوي على معطى (المعرفة) المستل من معنى التاريخ، وإلا ما قيمة التاريخ إن لم يكن (معنى، إدراك، تصور، رؤية، مفهوم، هوية، سلطة،رهان، إرادة)، ها نحن الآن في هذ اللحظة الراهنة نكون رهنا بتجليات الحاضر واسباغ هيمنته على الماضي. إنه المسعى نحو الاقتراب من الفكرة التي يطرحها Williams Raymond حول هياكل الاحساس Structure of feeling وما يكتنف طريقة التفاعل مع الحاضر على صعيد (التنشيط، المرونة، الوقتي، المهم) [13]. وإلا كيف يمكن أن نفهم الماضي دون أن نفهم الحاضر، الأمر هنا لا يقوم على اسبقيات واولويات بقدر ما ينطوي على طريقة التمثل للمعرفة [14]. فإن كنت تنظر بقدسية ومهابة إلى واقعة ثورة العشرين، فهذا لا يعني أن القداسة والمهابة يجب أن تنسحب على الجميع من رصفائك الراهنين الذي يصطفون معك في الحاضر الراهني.

الحدود الفاصلة

تستلهم ربيكا كولمان Rebecca Coleman عن رايموند ويليامز مفهوم البنية التحتية للمشاعر infra-stru-tures of feeling سعيا للوقوف على طبيعة المشهد الذي يميز الحاضر الراهني في ظل طريقة إنتاج المعنى والاختلاف في طريقة التواصل الاجتماعي الذي جعل الحاضر مختلفا بطريقة متغوّلة، لا سيما وأن التماس مع الوقت صار أشد التصاقا وتأثيرا أكثر من اي زمن مضى. حيث الحاضر الذي بات يتوسع ويهيمن

على كل شيء، فيما راح الماضي يعاني من الوهن [15]. باعتبار ما تعكسه الثورة الرقمية على طبيعة العلاقات الإنسانية، واحوال التبدل السريع الذي راح يهيمن على مجمل التفاعلات الإنسانية، والتأثير المباشر الذي راح ينشر بقلوعه على المفاهيم والمعايير والقيم المتداولة. إنها أحوال الانتشار السريع للمعنى، الذي راح يتبدى بطرق شديدة الاختلاف، لم تجربها البشرية ولم تستشعرها سابقا. لكن هذا الزخم التقاني وعلى الرغم من ظهور تيار الحتمية التكنولوجية الذي راح المزيد من المنظرين يبشرون به، لا يمكن له أن يطيح بالحس التاريخي، الأمر هنا لا يقوم على صراعية بقدر ما راح يثمر عن المزيد من أحوال التلاقح في مجال المعرفة التاريخية، تلك التي راحت تنهل من هذا التنوع والتسارع والتفاعل حتى صار الاقتراب وشيكا من أحوال المعرفة التاريخية المحايدة [16].

إنها أحوال تفاعل المعرفة التاريخية في الوسيط الرقمي، الذي راح يترك آثاره وبطريقة مباشرة في صميم المعرفة التاريخية، هذه الأخيرة التي راحت تعيش أحوال الافلات من براثن أحوال النظرة الجاهزة والمواقف المسبقة؛ إذ لم يعد الأمر مرهونا بتشابه الأحداث ولم يعد من المقبول الوقوع في شراك المقارنة بين حدث وآخر، والعمل على حث الجهود في ترصد التطابق والاختلاف بين حدثين [17]، بقدر ما راح المسعى يتملى طويلا في قيمة هذا الحدث المراد تحليله، (هو بنفسه) دون اقحام عوامل أخرى. ومن هذا المعطى فإن القراءة هنا تتوجه نحو دراسة ثورة العشرين انطلاقا من أهمية المسعى نحو تمييز مفاصل هذه الثورة بوصفها (معرفة)، لها آثارها وابعادها وقسماتها على الواقع العراقي، لا سيما بعد مائة عام. بمعنى ماذا تبقى من هذه الثورة في الضمير والوعي العراقي؟ وهل ثمة تواصل لهذه المعرفة في الواقع العراقي؟ باق ومدرك ويمكن تمييزه في الراهن الذي يعيشه جيل الثورة الرقمية؟ وكيف لهذا الجيل أن يتعاطى مع (الحدث) المتعلق بواقعة الثورة، هل يتم عبر البحث عن الشواهد والقرائن والمصادر التاريخية [18] ومحاولة تمييز ملامح الاقتراب من الذاكرة الثقافية، حيث المدرك الشائع والمتاح والمتداول من الأنماط والعادات والاستجابات والتفاعلات الاجتماعية، بناء على معطيات منهجية الدراسات الثقافية وليس التاريخ الثقافي.

الحدث والمعرفة

لا يمكن الركون إلى واحدية النظر حول ثورة العشرين. (الحدث) الذي تم في سنة 1920، وطريقة التعاطي مع ثورة العشرين (المعرفة) خلال سنة 2020، حيث الاختلاف الذي لم يعد يطال طريقة النظر والتحليل والمصالح والإرادات والرهانات، بقدر ما راح يقف عند مجال (المعنى)، فخلال المائة عام التي مرت على ثورة العشرين بوصفها (الذاكرة) كم من الأفكار والرؤى والتصورات والتيارات والأيديولوجيات مرت عليها، تزامنا وتعاقبا، وظهورا وضمورا. فيما يأتي باحث الراهن المعاصر ليعمل على قراءة العلاقات والمؤثرات والتشكيلات

والبنى التي ساهمت في تبلور الحدث، وبالتالي سيره في مجال الواقع، وما أفرزه من نتائج وعواقب ليشكل معرفة لها قسماتها الفارقة [19].

الإشكال الأبرز في طريقة النظر إلى ثورة العشرين، تحيلنا إلى طريقة النظر تلك التي يمكن أن تصدر عن أهل الماضي (الذين عاصروا الحدث عام 1920) وأهل الحاضر (المعاصرين للواقع الراهن حيث العام 2020) الذين يحاولون دأبهم وجهدهم نحو الغور في الماضي والعمل على فحصه وتفكيك خصوصياته وعلاقاته وتجاربه [20]. المسعى هنا ينصب نحو أهمية العمل على فهم الإطار التاريخي لمجمل التفاعلات التي عاش في كنفها المجتمع العراقي خلال هذه المائة عام، سعيا نحو تمييز ملامح الفعل الاجتماعي (ماضيا وحاضرا)، إنه السبر في مجال الزمن وترصد أحوال التغيرات التي طرأت على طبيعة الوعي وترسم أوضاع الذاكرة الثقافية لهذا المجتمع [21].

ما هي الحدود الفاصلة التي تميز العلاقة القائمة بين الماضي والحاضر؟ الماضي الذي تشكل وراح يفرز معانيه وآثاره المباشرة على الواقع، حيث ثورة العشرين التي كان لها الأثر المباشر في إجبار القوة الأعتى في العالم على تغيير مسار خططها السياسية إزاء العراق، لكن زخم الواقعة (الثورة) سرعان ما تم الالتفاف عليها من قبل القوة الاستعمارية (بريطانيا) ورجال النخبة السياسية العراقية الذين تم انتقاؤهم وبعناية شديدة لتدبيج ملامح مشروع الدولة الوطنية التي تأسست عام 1921 عبر إعلان الملكية، والعمل على تكريس صورة الدولة من خلال التركيز على العلم والدستور ومجلس الأمة، ليصار إلى تقديم مبررات (الظرف التاريخي الذي يمر به العراق، الأولويات والضرورات) [22] ليتم اقصاء مادة الثورة والمتمثل في رجالاتها من الواقع السياسي، لكن هذا الإقصاء لم يكن له أن يتدبر أمر النبذ والتهميش والإبعاد عن الذاكرة الثقافية العراقية، تلك التي لم تنفك تردد على مدى المائة عام سرديات الثورة وبطولاتها وأهازيجها وشعاراتها ورموزها الكبرى.

بقيت ثورة العشرين تتفاعل في مجال الرأسمال الرمزي للمجتمع العراقي حيث الجوهر المدرك والقيمة التي ينطوي عليها المعنى الثقافي حيث وشيجة العلاقة القائمة بين الماضي والحاضر والتي لا تعرف الانقطاع بحكم الجوهر القيمي الذي ينطوي عليه الحدث الذي عبر عن مجمل وجوهر المعرفة القيمية والثقافية للمجتمع العراقي خلال اللحظة التي تم إنشاؤها عام 1920. حدث في الماضي اختصر مجمل المعرفة التاريخية والوعي والجوهر القيمي للمجتمع العراقي. نعم قد يذوي أو يضعف، قد يتم استذكاره سنويا بطريقة متحفية، ربما يتحول إلى فلكلور أو كرنفال سنوي لا ضير. لكن المعطى القيمي الكامن فيه يبقى بمثابة التعبير الأشد حضورا عن هذه الاستمرارية بين الماضي والحاضر. استمرارية لا تعني النكوص والرغبة في العودة إلى الماضي والتغني بالامجاد والارتهان إلى قوة حدث ما، بقدر ما يكون المسعى نحو البحث في مجال التأثير العميق والدال الذي يفرزه مسار العلاقة القائمة بين الماضي والحاضر [23].

الهوامش:

1. Jennifer L. Koosed, Robert Seesengood , 2013, Jesse's Lineage: The Legendary Lives of David, Jesus, and Jesse James, Bloomsbury, New York, p 16.
2. Todd Tremlin, 2006, Minds and Gods: The Cognitive Foundations of Religion, Oxford University Press, p 43.
3. Amos Morris-Reich, Dirk Rupnow, editors, 2017, Ideas of 'Race' in the History of the Humanities Palgrave Macmillan, Switzerland, p 201.
4. During, op, cit, p. 62.
5. Wen-chin Ouyang, 2013, Politics of Nostalgia in the Arabic Novel, Edinburgh University Press, p 193.
6. Irwin C. Lieb, 1991, Past, Present, and Future: A Philosophical Essay about Time, University of Illinois Press, p 129.
7. Susan Sellers, editor, 2010, The Cambridge Companion to Virginia Woolf, Cambridge University Press, p 70.
8. Chris Barker, 2005, Cultural Studies: Theory and Practice, SAGE, London, p 198.
9. Dmitri Nikulin, 2017, The Concept of History, Bloomsbury, London, p 19.
10. Max Scheler, 2012, Person and Self-Value: Three Essays, DePaul University, Chicago, p 96.
11. Susan L. Mizruchi, 2014, The Power of Historical Knowledge: Narrating the Past in Hawthorne, James and Dreiser, Princeton University Press, p 50
12. Joram ten Brink, Joshua Oppenheimer, editors, 2013, Killer Images: Documentary Film, Memory, and the Performance of Violence, Columbia University Press, p 177.
13. Rebecca Coleman,20 Dec 2017, Theorizing the present: digital media, pre-emergence and infra-structures of feeling, Cultural Studies Journal , Taylor and Francis Group, Volume 32, nr 4, p 600.
14. Reinhart Koselleck, 2004, Futures Past: On the Semantics of Historical Time, Columbia University Press, p 111.
15. Coleman, op cit , p 601.
16. Diviacco, Paolo, editor, 2014, Collaborative Knowledge in Scientific Research Networks, IGI Global, USA, P 367.
17. Efraim Podoksik, editor, 2012, The Cambridge Companion to Oakeshott, Cambridge University Press, p 48.
18. Danny P. Wallace, Connie J. Van Fleet, 2012, Knowledge into Action: Research and Evaluation in Library and Information Science, ABC-CLIO, LLC, California. P 161.
19. Christopher Lane, 2010, History, Letts. UK, P 174.
20. Ian Hodder, 2012, The Present Past: An Introduction to Anthropology for Archeologists, Basford Ltd, UK, p 72.
21. Carmel Schrire, editor, 2009, PAST AND PRESENT IN HUNTER GATHERER STUDIES, Walnut Greek, California, p xiii
22. Steward T.A. Pickett, Jurek Kolasa, Clive G. Jones, 2010, Ecological Understanding: The Nature of Theory and the Theory of Nature, Elsevier, Amsterdam, p 159.
23. Martin L. Davies, 2015, How History Works: The Reconstitution of a Human Science, Routledge, London, p 108.

نظرية المادية الثقافية عند ريموند ويليامز (رائد التحليل النقدي للمنتوج الثقافي)

د. حسام الدين فياض
الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة
قسم علم الاجتماع كلية الآداب في جامعة ماردين - حلب سابقاً

المادية الثقافية مصطلح صاغه الناقد والمُنظّر الماركسي ريموند ويليامز* (31 أغسطس 1921 26- يناير 1988) ونشره جوناثان دوليمور وآلان سينفيلد (في مجموعة مقالاتهم لشكسبير السياسي)، تشير المادية الثقافية إلى التوجه الماركسي للتاريخية الجديدة، والتي تتميز بتحليل أي مادة تاريخية في إطار مُسيَس، بطريقة راديكالية. تؤكد المادية الثقافية على دراسة السياق التاريخي، والنظر في تلك الجوانب التاريخية التي تم تجاهلها أو إسكاتها في روايات التاريخ الأخرى، من خلال نهج نظري انتقائي، مدعوماً بالالتزام السياسي الناشئ عن تأثير المنظور الماركسي والنسوي، وبالتالي تحليل النص وقراءته قراءة متعمقة تنتقد المقاربات التقليدية، لا سيما تلك المتعلقة بالنصوص المتعارف عليها.

تنبع أهمية ويليامز من كونه أحد الآباء المؤسسين للدراسات الثقافية في الغرب وأبرز من لعب دوراً محورياً في الكشف عن نقائص النقد اليساري التقليدي الذي غرق لسنوات طويلة في التفسير المادي الميكانيكي الأحادي البعد للنصوص الأدبية وللظاهرة الثقافية والفنية بشكل عام. ومن بين عناصر قوة هذا الناقد قدرته على نحت المفاهيم الخاصة به وكذلك تشغيل الجهاز النظري في فضاء الممارسة النقدية الثقافية على نحو متميز. ومن المفاهيم المهمة التي ساهم وليامز في إبداعها مفهوم "المادية الثقافية" الذي يستلهم موروث (مدرسة فرانكفورت، النقدية وغرامشي الإيطالي)، ومفهوم بنية المشاعر الذي يعتبر مفهوماً مفصلياً في حركة النقد الثقافي الغربي.

حاول وليامز من خلال تطويره لمفهوم المادية الثقافية تجاوز المنطق النقدي

التقليدي الذي يدرس أي ظاهرة ثقافية كمجرد نتاج للبنية المادية فقط، وقد برز هذا التوجه في كتابه "الثقافة والمادية". بذلك تؤكد المادية الثقافية على ضرورة التفاعل بين الإبداعات الثقافية، مثل الأدب وبين سياقاتها التاريخية، بما فيه العناصر الاجتماعية والسياسية والتاريخية.

في حقيقة الأمر، تحتفظ المادية الثقافية باندفاع الماركسية السياسي الراديكالي قديم الطراز، وتتوسع به من القضايا الطبقية إلى القضايا العرقية والنسوية، لكنها تسقط العلم والنظرية الاقتصادية ليس بشكل تام، فتكف قيمتها الراديكالية عن أن تكون قائمةً على أية نظرية عامة في التاريخ الإنساني، كتلك التي تقوم عليها الماركسية. وتتمثل اهتمامات هذه المادية الثقافية الأدبية في البنية الفوقية ونظريتها في القيمة هي نظرية نسبية، ويسعدها أن تتوافق مع تلك الأنماط الشكلانية الصرف من الراديكالية الفكرية مثل ما بعد البنيوية، وتركز على الصراع الثقافي لا الاقتصادي، ولا تنظر إلى الثقافة الفنية على أنها شيء ذو أهمية جوهرية بالنسبة إلى الإنسانية عموماً، بل إنها في جوهرها موقع من مواقع الصراع السياسي. بذلك تتعامل المادية الثقافية مع وثائق تاريخية محددة وتحاول تحليل وإعادة إنشاء المجموعة المهيمنة من المثل العليا أو المعتقدات في لحظة معينة من التاريخ.

طوّرت المادية الثقافية مجموعة قوية من الأدوات المفاهيمية والتجريبية لدراسة الطرق التي تظهر بها الثقافات، ويتم إنتاج الهيمنة من خلال التكوينات والممارسات والمؤسسات الثقافية، حيث تعتبر المادية الثقافية الإطار النظري والطريقة الأساسية لبحث وفحص العلاقات بين الجوانب المادية والاقتصادية للإنتاج. كما تستكشف القيم والمعتقدات ووجهات النظر العالمية التي تسود المجتمعات الإنسانية. هذا المفهوم متجذر في النظرية الماركسية وهو شائع في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع ومجال الدراسات الثقافية. بمعنى آخر هي نهج للبحث العلمي يعطي الأولوية للظروف المادية في شرح أسباب الاختلافات والتشابهات الاجتماعية والثقافية. أي باستخدام المادية الثقافية كأسلوب بحث، يمكن لعلماء الاجتماع إنتاج فهم نقدي للقيم والمعتقدات ووجهات النظر العالمية لفترة ما من خلال الدراسة الدقيقة للمنتجات الثقافية. كما يمكنهم أيضاً تمييز كيفية ارتباط هذه القيم بالبنية الاجتماعية والاتجاهات والمشكلات. للقيام بذلك، لذا يجب عليهم أن يأخذوا في الاعتبار السياق التاريخي الذي تم فيه صنع المنتج، وتحليل رمزيته، وكيف يتناسب العنصر مع الهيكل الاجتماعي الأكبر.

بناءً على التحليل السابق يذهب ويليامز الى أن هدف التحليل الثقافي هو استيضاح وتحليل الثقافة المدونة المسجلة الخاصة بزمان ومكان معينين. وفي ذلك يسعى ويليامز إلى إعادة تشكيل بناء الشعور أو القيم والتوقعات المشتركة في ثقافة معينة. ويؤكد على فهم الثقافة عن طريق تمثلات وممارسات الحياة اليومية في سياق الظروف المادية لإنتاجها. ويطلق ويليامز على ذلك "مادية ثقافية" وتشمل تحليل كل أشكال الدلالة أو المضمون داخل الوسائل الفعلية وظروف إنتاجها.

وهكذا ينظر إلى المادية الثقافية باعتبارها واحدة من أهم وجهات النظر السوسيولوجية والانثروبولوجية الرئيسية لتحليل المجتمعات البشرية. يتضمن أفكاراً من الماركسية والتطور الثقافي والإيكولوجيا الثقافية، حيث تؤكد المادية الثقافية أن العالم المادي يؤثر ويضع قيوداً على السلوك البشري.

بالمقابل، يعتقد الماديون أن السلوك البشري جزء من الطبيعة، وبالتالي يمكن فهمه باستخدام طرق العلوم الطبيعية. لا يفترض الماديون بالضرورة أن الواقع المادي أكثر أهمية من الواقع الفكري. ومع ذلك، فإنهم يعطون الأولوية للعالم المادي على عالم الأفكار عندما يشرحون المجتمعات البشرية. وكما هو معروف لدينا بدأ التيار المادي وتطور مع أعمال كارل ماركس وفريدريك انجلز. قدّم ماركس وانجلز فهماً ونموذجاً تطورياً للمجتمعات قائماً على المنظور المادي. لقد جادلوا بأن المجتمعات تمر بمراحل عديدة، من القبلية إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية. لفت عملهم القليل من الاهتمام من قبل الأنثروبولوجيا في أوائل القرن العشرين. ومع ذلك، منذ أواخر عشرينيات القرن الماضي، أصبح علماء الأنثروبولوجيا يعتمدون بشكل متزايد على التفسيرات المادية لتحليل التطور المجتمعي وبعض المشاكل المتأصلة في المجتمعات الرأسمالية. يشمل علماء الأنثروبولوجيا الذين يعتمدون بشكل كبير على رؤى ماركس وانجلز أنصار التطور الجدد والماديين الجدد والنسويين وما بعد الحداثيين.

يحدد الماديون الثقافيون ثلاثة مستويات من النظم الاجتماعية التي تشكل نموذجاً عالمياً: -1 البنية (البناء الاجتماعي- المحرر) -2 البنية التحتية، -3 البنية الفوقية. فالبنية التحتية هي الأساس لجميع المستويات الأخرى وتشمل كيفية تلبية الاحتياجات الأساسية وكيفية تفاعلها مع البيئة المحلية. يشير الهيكل إلى التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمع ، بينما ترتبط البنية الفوقية بالإيديولوجيا، والقانون، والتقاليد، والرمزية.

ويمثل هذا الاتجاه الماديون الثقافيون على رأسهم مارفن هاريسMarvin Harris عالم أنثروبولوجيا أمريكي شديد التأثير في تطوير المادية الثقافية (مواليد 18 أغسطس 1927 - توفي 25 أكتوبر 2001)، الذي يؤكد أن البنية التحتية هي الجانب الأكثر أهمية حيث يحدث التفاعل بين الثقافة والبيئة هنا، فجميع المستويات (البنية التحتية والفوقية) مترابطة بحيث تؤدي التغييرات في البنية التحتية إلى تغييرات في الهيكل والبنية الفوقية، على الرغم من أن التغييرات قد لا تكون فورية. بينما يبدو أن هذا هو الحتمية البيئية، لا ينكر الماديون الثقافيون أن التغيير في الواقع والبنية الفوقية لا يمكن أن يحدث دون التغيير الأول في البنية التحتية. ومع ذلك، يزعمون أنه إذا كان التغيير في ذلك الواقع غير متوافق مع البنية التحتية الحالية، فمن غير المرجح أن يتم وضع التغيير داخل الثقافة.

إلا أن ريموند ويليامز يرى أن الثقافة ليست مجرد انعكاس لتلك القاعدة وليست مستقلة تماماً عنها. هذا لا يستبعد الممارسة

البشرية المتعمدة، لكنه يرفض الموقف المثالي في رؤية هذه الممارسة على أنها لا تنفصل عن ظروف تاريخية محددة، بالمقابل مع عدم تحديد الثقافة بالكامل من خلال قاعدة اقتصادية، فإنها تلعب دورها في بناء أو إعادة إنتاج الكلية الاجتماعية، لتصبح بشكل حتمي مسرحاً للصراع الإيديولوجي. بذلك يعتمد ويليامز على ما سماه بـ: (المادية الثقافية) على النسق الذي طرحه المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي من ارتباط بنيوي بين هيمنة النخب والأدوات التي تشكل ثقافة المجتمعات.

خلاصة القول يؤكد ويليامز Williams، أن الثقافة نفسها هي عملية إنتاجية، بمعنى أنها تؤدي إلى ظهور الأشياء غير الملموسة، بما في ذلك الأفكار والافتراضات والعلاقات الاجتماعية الموجودة في المجتمعات. تنص نظريته عن المادية الثقافية على أن الثقافة جزء من عملية أكبر تتعلق بكيفية صنع الأنظمة الطبقية وتعزيز عدم المساواة الاجتماعية. تلعب الثقافات هذه الأدوار من خلال تعزيز القيم والافتراضات ووجهات النظر العالمية وتهميش أولئك الذين لا يتناسبون مع القالب السائد. ضع في اعتبارك الطريقة التي تم بها تشويه سمعة موسيقى الراب في وسائل الإعلام السائدة أو كيف يُعتبر أسلوب الرقص المعروف باسم Twerking "من الطبقة الدنيا" (وهو نوع من الرقص نشأ كجزء من مشهد موسيقي "بونس Bounce " في نيو أورليانز أواخر الثمانينات)، بينما يُنظر إلى الرقص في القاعة على أنه "راقٍ" ومهذب.

وهكذا يرى فيه ويليامز أن الأبعاد الروحية والفنية ومجمل ما يدعى بالبنية الفوقية تساهم مجتمعة جنباً إلى جنب مع العوامل المادية في أي مجتمع في إنتاج الظاهرة الثقافية أو النص الأدبي، قد سبق أن درسها بعمق المفكر الفرنسي لوي ألتوسير في مقاله الألمعي "الإيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية" الذي غير الكثير من توجهات النقد الأدبي والفني والثقافي اليساري الغربي في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وانطلاقاً من هذه الفكرة فإن ويليامز يفهم النقد كممارسة وكنظرية أنه ليس مجرد تحليل نصي فقط وإنما هو "اختبار للبنيات ولأشكال المقاومة في الحياة اليومية".

بذلك نجد أن مفهوم المادية الثقافية أثرى إمكانات الدراسات الثقافية القائم على تحليل تاريخ الثقافة البشرية بأسره بوصفه انعكاساً معقداً أو تمثيلاً لهذا التاريخ المادي. وإنها لكارثة بالنسبة إلى الدراسات الثقافية أن يؤدي أفول الماركسية إلى التخلي عن محاولات تفسير ظواهر ثقافية استناداً إلى الواقع الاقتصادي الأساس، ولعل هذا يكون أعمق تبصر لدينا بأساس الثقافة الاجتماعي، ما فتح الآفاق أمام علماء الاجتماع لتوسيع نظرية ويليامز عن المادية الثقافية لتشمل عدم المساواة العرقية وعلاقتها بالثقافة. كما تم توسيع المفهوم لفحص الفوارق المتعلقة بالنوع الاجتماعي والجنس والجنسية، وقبول الآخر والتعايش بين ثقافات المجتمعات البشرية.

* ريموند هنري ويليامز (بالإنجليزية: Raymond Williams) (31 أغسطس 1921 26- يناير 1988) منظر ماركسي ويلزي، وأكاديمي، وروائي، وناقد. وهو

شخصية مؤثرة داخل اليسار الجديد وفي مساهمة كبيرة في النقد الماركسي للثقافة الثقافة. ساهمت كتاباته عن السياسة والفنون. وضع عمله الأسس لمجال والثقافة والإعلام الجماهيري والأدب الدراسات الثقافية والنهج المادي الثقافي.

المراجع المعتمدة:

1. Ashley Crossman: " Definition of Cultural Materialism." , ThoughtCo, Feb. 16, 2021, thoughtco.com.
2. Margolis, Maxine L. "Cultural Materialism." In Theory in Social and Cultural Anthropology, Vol. 1, edited by R. Jon McGee and Richard L. Warms, 147-149. Thousand Oaks, CA: SAGE Reference, 2013.
3. Johnson, Michelle C. "Symbolic and Interpretive Anthropology." In Theory in Social and Cultural Anthropology: An Encyclopedia, Vol. 2, edited by R. Jon McGee and Richard L. Warms, 841-846. Thousand Oaks, CA: SAGE Reference, 2013.
4. West, Barbara. "Functionalism." In Encyclopedia of Anthropology, Vol. 3, edited by H. James Birx, 1012-1013. Thousand Oaks, CA: SAGE Reference, 2006.
5. Hans Bertens: Cultural Materialism, Oxford bibliographies, 26 FEBRUARY 2020. https://www.oxfordbibliographies.com/view/document/obo-9780190221911/obo-9780190221911-0091.xml
6. ليونارد جاكسون: شكلان من المادية الثقافية (المادية في الانثروبولوجيا وفي الدراسات الثقافية)، ترجمة: ثائر ديب، مجلة تبين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، المجلد:1، العدد:1، صيف 2012.
7. حفناوي رشيد بعلي: قراءة في نصوص الحداثة وما بعد الحداثة، دار اليازوري العلمية، عمّان، ط1، 2013.
8. أزراج عمر: ريموند وليامز والمادية الثقافية، صحيفة العرب الدولية، لندن، العدد: 10665، السنة 40 16/06، 2017.
9. سيد فارس: نظرية الثقافة المعاصرة تجليات إعادة الإنتاج والاندماج، مجلة الانثروبولوجيا، المجلد:4، العدد:7، الجزائر، 2018.

اللعب ودوره في تنمية مهارات الطفل

عبد العزيز ججو

عبد العزيز ججو، خريج جامعة بغداد عام 1970 كلية التربية ـ قسم علوم الحياة. عمل في التدريس في العراق والجزائر والسويد حتى العام 2020. درس علوم الرياضيات في السويد. ودَرَس باللغة السويدية مادة الاحياء والرياضيات في الإعدادية والفيزياء والكيمياء والتكنيك، في المدارس المتوسطة السويدية.

من المعروف للغالبية أن الطفل يُحب اللعب والذي يسمح له به على الاقل في الطفولة المبكرة في المجتمعات عموماً. ويعتبر ذلك من بديهيات الحياة ودورتها الطبيعية، حيث عادة ما تكون الرعاية للطفل بعد الولادة لمدة تصل لغاية قدرته على المشي والتحرك لوحده وبداية الكلام والتعبير عن حاجاته المتنوعة حتى يتمكن من البدء بالتفكير المجرد نسبياً حسب تدرج النضج الذهني (بياجيه)، والانتقال من مرحلة الأنا. في هذه الحالة ما يزال الطفل يحس بأنه بلا وزن لأنه كان يشعر بأنه يسبح في الكيس الجنيني في رحم الأم بانعدام الوزن، ويمكن أن يحس به عندما يتم رميه للأعلى والتقاطه من قبل الكبار. كذلك يشعر به عندما يرمى في حوض سباحة، لذا يمكن ان يتعلم السباحة مبكراً في الشهر السادس في بعض الحالات لأنه لا يخاف من الماء، ويتذكره. هنا يكون هو مركز الكون كله وإن كل ما يحدث يدور حوله هو بالذات، ثم إلى مرحلة الأنا والآخرين، أي يبدأ بالاحساس بأن هناك آخرين موجودين خارج ذاته وعليه أن يتعامل معهم، حينها تبدأ مرحلة جديدة في اكتشاف العالم الخارجي، ويتجسد ذلك بأنه عند اللعب في المرحلة الاولى لا يسمح لأحد غيره أن يقرر أي شيء من اللعب لأنه لا يحس بهم وبدورهم، بينما في المرحلة الثانية يبدأ بمشاركة الآخرين وقبولهم والتفكير بان هناك ذوات اخرى عليه ان يتعلم التعامل معهم. وهذا كله له علاقة بدرجة نمو الدماغ والخلايا العصبية ودرجة توسع تشابكاتها.

بعض الأخطاء الشائعة عن الطفولة

ـ يقال ان الطفل ينتقل من الألف إلى الباء وهكذا لغاية البلوغ والنضج. بينما الحقيقة هي أن الفرد يجمع كل شيء من الألف إلى ما لا نهاية (الموت)، المقصود هو ليس التراكم الكمي، بل تحديث وتوليف المعلومات التي يكتسبها من التجربة لتتناغم مع بعضها البعض، وان لا تتقاطع بحدّة ويكون فيها نوع من الانسيابية والمنطق. علما ان كل شيء يصل الانسان من خلال حواسه المختلفة تترك اثرها فيه.

ـ الطفل يسمع كلام الذين يحبهم (أولياء الأمر). والحقيقة ان الطفل يكتسب ويطبق السلوك العملي لهم. أي انه يفعل مثلهم ويكتسب سلوكهم وطريقة تعاملهم مع الواقع الخارجي والداخلي لأنه يرى انهم قدوة ناجحة ويحاول في البداية ان يقلدهم في هذا النجاح الاجتماعي، لانه لا يستطيع ان يفرق بين الاشياء بمقياس آخر عدا تلك المسطرة المتوفرة لديه.

ـ الطفل صفحة بيضاء نكتب عليها ما نشاء. الحقيقة إن الطفل لديه خبرة حسية غير قليلة عند الولادة ومتنوعة لذا يجب أن نهتم بهذه الخبرة وكيفية التعامل معها في مراحل نمو الجنين والطفولة المبكرة، وتوفير ظروف إيجابية مهدئة للأم وجو مليء بالسعادة والراحة النفسية والاستماع للموسيقى والاسترخاء والراحة الجسدية، وتنوع الأكل من جهة، والروائح وغيرها لأنها تترك أثرها لدى الطفل الواضح المبكر وفي المرحلة الجنينية. كما أن الأكل الذي تتناوله الأم بشهية والغذاء المتنوع يعطي الطفل احساسا بذلك أيضاً وهذه الخبرة المكتسبة الأولى تنمو منذ الشهر الرابع بوضوح مع نمو مراكز دماغ الجنين والطفل، فهو يبدأ بالسمع بشكل ترددات وإيقاعات وتساعد على نمو الاحساس الموسيقي نسبياً، وفي مراحل متأخرة يحس بدرجة الضوء والاسترخاء أكثر. لذا هناك تعبير لمثل هذا الأمر ألا وهو (طفل مرغوب بقدومه) والمقصود به أن الام الحاضنة تعيش حالة من السعادة والتي تؤدي إلى إفراز هورمون السعادة (الدوپامين) أكثر الأوقات عندما تفكر بطفلها وهذا يؤثر على الطفل بشكل ايجابي أيضاً.

ـ الطفل الذي نسميه العنيد هو في حقيقة الامر (بادرة للتوحد الذي يظهر بوضوح أكثر عند سن الثالثة تقريباً). إن نمو الدماغ والتشابكات العصبية

لدى الطفل تتحكم بها عدة عوامل لكنها ليست سهلة في تفاصيلها، فبعضها يسبق الآخر في توسيع شبكة اتصالاته اكثر من الاخر مما ينتج عنه عدم توازن (حسب تصورنا الحالي) ويؤدي إلى أن الطفل يعاني مما نسميه التوحد، أي إنه يعيش عالمه بمعايير لا تنسجم مع المجتمع سلوكياً أو معرفياً أو علمياً إلخ. والتوحد درجات مختلفة لكن هذا لا يعني أنه ليس لديه قابلياته الخاصة والتي أحياناً تصل لحد العبقرية في مجال ذهني محدد. ويحتاج إلى دعم من نوع معين لاكتشاف ذلك الجانب لديه وتطويره حسب شروط الطفل لكي يعيش ويساهم في مجتمعه. كان عندي تلميذ في الصف الأول المتوسط لديه حالة توحد تمكن في حينها من الدخول إلى صفحة المدرسة والتحكم بكل دائرة المنطقة الالكترونية وتغييرها جميعاً في عام 2002 لانه توفرت له فرصة تعلم برمجة في حينها وهو في ذلك العمر المبكر.

ـ الطفل الكثير الحركة (بادرة النشاط العالي يظهر بوضوح في السنة الثالثة). هذا نوع آخر من الارباك في الجانب العصبي والحركي للطفل بسبب زيادة غير عادية للنشاط فيكون كثير الحركة ويعاني من صعوبة الجلوس لفترة طويلة أو السكوت وغيرها. وهناك عدة أشكال للتمرين على التجاوز عليها، وآخرها هو تناول نوع خاص من الاقراص التي تقلل من هذا النشاط ويتعلم التحكم به ويستطيع القيام بعمله في المجتمع كالبقية اذا ما توفرت له فرصة تعلم خاصة حسب الحالة.

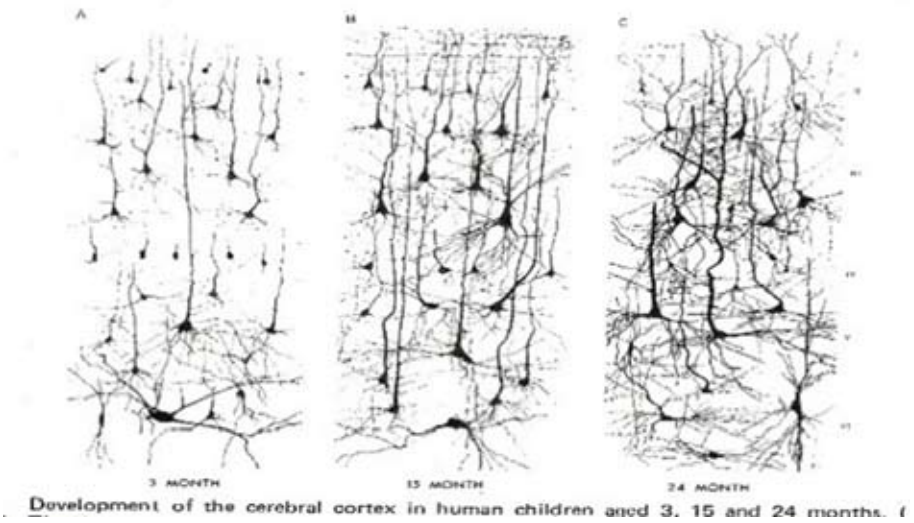

صورة لمراحل نمو شبكة الخلايا الدماغية للطفل

الخلايا العصبية في قشرة دماغ الطفل وتشابكاتها الأولى من اليسار هي لطفل في عمر ثلاثة أشهر الوسطية لطفل في عمر خمسة عشر شهراً الصورة اليمنى هي لطفل في عمر أربعة وعشرين شهراً

بعض سمات الطفولة

الطفل مستعد وراثياً للعب والفوضى وللخيال والأحلام، ليس لديه حدود لأي شيء كالكبار، وبالتالي عليه أن يجرب كل الإمكانات لكي يصل إلى تنمية إحدى المهارات الوراثية التي لديه ويطورها لأنها هي الأسهل بالنسبة له، ولديه الارضية الوراثية التي تساعده على استيعابه، لديه الاستعداد للإيمان بشيء ما. إنه نشط عموماً، لديه قدرة على رؤية الاحتمالات لأنه غير مرتبط بحدود معينة. يحب إنعدام الوزن بالأشكال المتاحة كالقفز والتأرجح.

يقول البروفيسور في جراحة الدماغ (ماتتي بيري ستروم) الفنلندي الأصل، يرث الطفل الذكاء من الأم (لان مُوَرِثات الذكاء توجد فقط على كروموسوم (X) بينما الكروموسوم الذكوري (Y) به القليل جداً من المورثات) كما في الصورة.

يعتبر اللعب الساحة المفتوحة أمام الطفل لاختبار وتنمية قدراته من خلال اللعب غير المبرمج مسبقاً، جسدياً وذهنياً، أي الفوضى حسب وصف الكبار لها، من خلال حركات جسده المتنوعة واستخدام أحاسيسه وحب الاستطلاع الذي يتمتع به لاكتشاف العالم الخارجي من لمس النار وأكل التراب إلخ، لكي يكتشف الممتع والمؤذي منها له. وهكذا يكتسب خبراته الاولية، أما الألعاب التربوية والتعليمية فهي لا تؤدي هذا الدور في تنمية المواهب الطبيعية الموروثة، وغالباً ما نسمع لماذا هذا الطفل ليس كأخيه مع إنه نشأ في نفس البيئة؟ والجواب سهل لأن كل منهم لديه أسس وقابليات موروثة مختلفة، ويجب أن نوفر فرصة لها لكي تنمو وتتطور. لكن هذه الألعاب التعليمية والتربوية تعلّم الطفل القواعد والقوانين والتي يجب احترامها. أما العاب مثل الشطرنج أو المكعبات إلخ فهي قد تفيد البعض فقط والذين لديهم مثل هذه الاسس الوراثية. كما إن الطفل عموماً يحب الحكايات والأكاذيب والخيال.

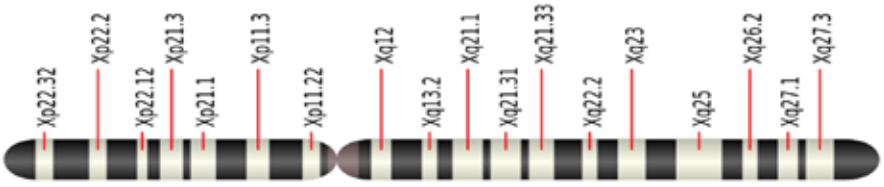

كروموسوم X

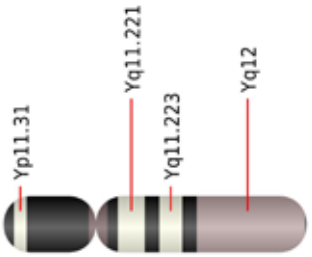

كروموسوم Y

ما هي القدرات أو المواهب الموروثة التي يمكن أن يطورها ويتفوق بها الطفل؟

يقول البروفيسور (ماتتي بيري ستروم) بأن كل جزء من الدماغ الابتدائي يحتاجه الشخص لاحقاً لذا لا يجب الاسراع في تطويره، ويجب أن يكون هناك توازن بين الفوضى والترتيب لكي يكون جيداً، لكن دون أوامر مباشرة أو من خلال الضغط، بل من خلال اللعب والحكايات واشكال اخرى من الحرية التي تحتاجها كل ذات لكي تتطور.

ففي عالم الحيوان هناك وظائف دماغية لدرجة ما تعتبر بانها نشاطات حرّة، والتي تؤدي نفس الوظيفة في تطور الدماغ، ونجد القردة في القمة في درجة الحرية هذه. واما فيما يخص الانسان فلديه حرية كبيرة تُفتقد عند الحيوانات.

لماذا اللعب مهم للطفل؟ سؤال مهم، والجواب هو أن اللعب تعبير مساوي للخيال والابداع، وقدرة الطفل للتعبير عن خياله، وهي سبيل لإدخال الفوضى إلى نشاط الدماغ المرتب، لأن الطفل يعيش في عالم ثالث حسب (وينيكوت)، ويسطر عدة أهداف لدور اللعب منها:

ـ اللعب هي البيئة والظرف المناسب للتطور، وهو عند الطفل يشبه الابداع لدى البالغين، لا يجب النظر للعب باعتباره قابلا للتطور (أي إنه لا يؤدي

(ماتتي بيري ستروم الفنلندي)

الطبيب البروفيسور في أبحاث الدماغ واستاذ الفسلجة في جامعة هلسنكي، ومحاضر في جامعة يوتبوري. (1922 ـ 2014) والمهتم بامكانيات تطوير قدرات ومواهب الطفل التي يحتاجها لكي ينجح في حياته، انه يعتني بأهمية اللعب والخيال والابداع والفوضى والنظام في ذلك.

إلى نوع معين من الابداع من مستوى أعلى من خلال اللعب الأكثر تعقيداً أو تطوراً)، اللعب يتطور مع وجود الآخرين وليس مع البالغين، اما الألعاب التربوية فهي لا تزيد من الابداع لدى الطفل، بل تعلمه النظام فقط. أما ما يسمى بالألعاب السوداء (الفوضوية) فهي التي تفتح الافاق والانظمة (الدماغ والبيئة). اللعب يزيد من الثقة بالنفس والذات، ولا يجب السيطرة أو التحكم بوتيرة اللعب العفوية، واللعب هو أساس لكل الثقافة في المجتمع.

هناك تسع قدرات وراثية ذات اتجاهات مختلفة عن بعضها تجعل الطفل يستخدم تلك القدرة بسهولة ويحس بها بشكل أعمق، وبالتالي يشعر الطفل بالسعادة عندما يمارسها أو يتعامل معها وبالتالي ينجح فيها ويبدع بالمعنى العام أفضل من غيره، والتي هي:

1) القابلية على تعلم الطبيعة، وحب البيئة بما فيها الحيوانات والنباتات وإمكانية الربط بينها وتكوين صورة عنها. فالاهتمام بالحيوانات يخلق نوعا من الاحساس بالقدرة على التعامل معها والنجاح في ذلك يخلق احساسا بالسعادة. نفس الشيء يقال عن النباتات والتمكن من طبيعتها ودورتها الطبيعية، وغالباً ما يعيش هؤلاء في بيئة قريبة من الطبيعة لأنها توفر لهم هذا الاحساس.

2) القابلية الفردية، أي العمل بالاعتماد على نفسه كلياً، ومعرفة نقاط الضعف والقوة لديه ومحاورة نفسه. يكون هؤلاء ناجحون في مجال عملهم دون الاعتماد على الآخرين في عملهم ويحسون بالراحة لعدم إشغال الآخرين لهم في عملهم.

3) القابلية الجسدية، والتي تتميز باستخدام اليد والجسم كله للقيام بأعمال عدة يستوعبها الشخص بالتطبيق العملي كالرياضة والأعمال الحرفية، وبعد القيام بالعمل الجسدي يشعر الفرد بالاسترخاء والراحة النفسية رغم صعوبة الجهد الذي يبذله غالباً، ويكافئ بهورمون السعادة من الدماغ.

4) القابلية الصورية، وهي قدرة الشخص على تذكر الصور والمشاهد بالتفاصيل والتي تمر عبر البصر. مثل هؤلاء يصلحون لمجالات عدة تعتمد على التذكر الصوري للأشياء التي تمر عليهم ويتم خزنها في الذاكرة لفترة طويلة، فمثلاً يتذكر الشخص أحياناً الكلمة والصفحة وربما السطر حتى، كما يمكن تذكر الأحداث الأكثر تعقيداً لأنها تخزن في الذاكرة الدائمية وليس فقط الذاكرة المؤقتة.

5) القابلية الموسيقية التي تتميز بحس عال للموسيقى والايقاع والغناء وتأليف الموسيقى، وهي إحساس وذاكرة خاصة يتمتع بها البعض ولذلك يستطيع أن يطورها إلى عمل فني مؤثر على مسامع الآخرين.

6) القابلية الاجتماعية المتمثلة بحب العمل مع الناس ضمن مجموعة والمساهمة في قيادة العمل والاصغاء للآخرين، هؤلاء هم الذين يصلحون أن يكونوا قياديين في أماكن العمل المختلفة وإدارتها بنجاح وتطوير العلاقات بينهم بشكل إيجابي أو سلبي، حسب عوامل

أخرى، فيجب أن تكون لديهم هذه القدرة الوراثية لكي ينجحوا فيها.

7) القدرات اللغوية التي تظهر في الرغبة بالقراءة والكتابة والخطابة والسرد.. إلخ، قدرة الفرد على التعبير عن المشاعر بطريقة مؤثرة على القارئ بالتعبير عن مشاعر وأحاسيس تؤثر من خلال اللغة المستخدمة وإعطاء صور ذهنية مشوقة تجذب اليها القارئ او المستمع.

8) القابلية المنطقية والرياضية وهي التفكير المجرد والتحليلي. التفكير المجرد الرياضي المبني على منطق منظم يعتبر قدرة موروثة يمكنها ان تتطور كغيرها ويصبح الشخص ذا قدرة على التحليل للأحداث في مجال معين أو أكثر.

9) القابلية الفلسفية والوجودية وهي الرغبة في التفكير بكل ما يتعلق بالحياة والموت وما حولهما من الاسئلة التي تشغل الفلاسفة وعلماء الفلك وغيرهم. وهو قدرة يكون الفرد فيها لديه نظرة مختلفة لما حوله ويحاول أن يجيب على أسئلة معقدة وصعبة المنال مثل الوجود وما بعد الموت.. الخ، ويكون لديه أجوبة معينة لبعض منها على الاقل.

بعض الآراء حول تعلم الطفل

(ليف فيگوتسكي) (1896 - 1934) باحث تربوي ونفسي وفيلسوف روسي، يقول أن التعلم هو حصيلة ضرورة إجتماعية لبقاء الطفل وليست إختيارا، مؤكداً على الجانب الاجتماعي باعتباره الحاضنة للفرد وبالتالي يحتاج إلى أن يتعلم قواعد المجتمع ولغته لكي يتمكن من التعبير عن أفكاره والعيش في المجتمع. صدر له كتاب عام 1924 بعنوان الافكار واللغة ولم ينشر الا عام 1965 باللغة الروسية، وتمت ترجمته الى اللغة الانكليزية عام 1971 .

(جان بياجيه) (1896 - 1980) سويسري، باحث في البيولوجيا والتربية وعلم النفس والفلسفة يتحدث عن مراحل التطور السِلَمية والنمو العصبي والنفسي كأساس للقدرة على التعلم لدى الطفل، والذي ما زال يسود العالم إلى اليوم. يوضح فيها نمو القدرة الذهنية كاساس للقدرة على التعلم وهناك إختبارات لتحديد تلك المراحل. وقد تطور علم النفس واصبح يوجه بعض النقد لتلك الاختبارات لتحسينها وجعلها اكثر فائدة. من مؤلفاته كتاب بعنوان مفهوم الطفل عن العالم عام 1951.

(البرت اينشتاين) (1879 - 1955) عالم الفيزياء يعتبر أن الخيال وتنميته أهم من المادة العلمية للطفل ومصدر مهم للابداع، أي انه يؤكد على ضرورة إعطاء الطفل فرصة تجربة بلا حدود مسبقة لكي يكتشف العالم من حوله بطريقته.

(فرانس مارتون) (1939) بروفيسور في كلية التربية في جامعة يوتبوري (السويد) حالياً، يؤكد على أن التعلم يكون أفضل إذا توفرت فرصة لتجربة أنماط عديدة من أساليب التعلم لكي يستطيع كل طفل أن يجد الأسهل والأفضل له لكي يتطور، أي إنه يجب أن يكون لديه الحرية الكاملة في استعمال خياله وقدراته الداخلية.

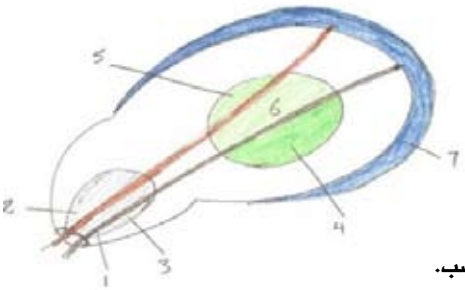

تركيب المخ لدى الطفل حديث الولادة ومراكزه.
1ـ مركز الاحساس بالجاذبية.
2ـ مركز انعدام الجاذبية.
3ـ الجذع (مركز الفوضى).
4ـ مركز اللعب عند الطفل الأكبر سناً.
5ـ مركز اللعب عند الصغار.
6ـ مركز الذات (الأنا).
7ـ قشرة المخ، مركز الترتيب والنظام والذكاء المكتسب.

هل هناك فرق بين الألعاب التقليدية والإلكترونية الحديثة في تطوير قابليات الطفل؟

الألعاب، بغض النظر عن نوعها كما سبق وأن تطرقنا إليها، تؤدي دورها لكن دار الحديث كثيراً في بداية القرن عن هل العنف في سلوك الطفل وخاصة في مراحله المتأخرة حتى السنة العاشرة له علاقة بتلك الألعاب، وقام عدد من الأخصائيين بدراسة سريعة وجاءت بالنتائج الآتية:

الإيجابيات

ـ أن الطفل يحس بفقدان الوزن فيها وهو الاحساس منذ فترة الكيس الجنيني والذي يريده ويشعر بانه خارج قانون الجاذبية، ويمكنه القفز على الواقع اليومي (الموت والعودة من جديد)، والهروب من الواقع أو خلق واقع مفقود من خياله.

ـ إنه يحفز حاسة البصر واللمس ويتدرب على سرعة رد الفعل العصبي من خلالها.

ـ ينمي المنطق والتوقع لما قد يجري والتخطيط له ويتعلم التنبؤ وتقدير النجاح والفشل ويتعلم من أخطائه ويتجنبها في المرة القادمة في اللعب ويصقل براعته.

ـ إن الألعاب الجماعية تخلق دور الاحساس بالعدالة (احترام قوانين اللعبة من قبل الجميع)، لأن الجميع تشملهم نفس قوانين اللعب وبنفس الدرجة، حتى في مجال شراء وقت اضافي مثلاً أو ما يسمى بالغش، فالكل يعرفها لكنه يختار الأفضل له فيها.

ـ يحتاج الطفل الى التخلص من الواقع الحقيقي بان يعيش حالة من العالم الافتراضي وبشروطه هو.

أما السلبيات فهي:

ـ الادمان على اللعب كظاهرة عصبية يأخذ الكثير من وقت الطفل ويتطلب التركيز، وقد يكون لديه استعدادا للادمان بسهولة على هورمون الدوپامين ويقع في مطب ويحتاج إلى مساعدة المجتمع لتجاوزه.

ـ غالباً ما يكون الطفل، في هذا النوع من الألعاب جالساً لفترات طويلة في حين يحتاج إلى الحركة لبقية نشاط الجسم مما يؤثر على صحته لدرجة معينة إذا لم يتم تعويض ذلك، لتقوية عظامه وتنشيط

الدورة الدموية التي يحتاجها للنمو وقد يتأخر عن الأكل الصحي أيضاً.

- إن المطالبة بهورمون السعادة (الدوبامين) قد يخلق حاجة أكثر من الطبيعي، لأنه عند النجاح باللعبة كل مرة يحصل على الهورمون والاحساس بالسعادة، وهذا غير متوفر في الحياة العامة مما يجعله يحس بان الواقع غير جيد لدرجة كافية.

- إن التنافس الاجتماعي قد ينمو باتجاه سلبي، ويحس الطفل بالغيرة والحقد على المنافس وما يتبع ذلك من عواقب اجتماعية ونفسية.

- قد يترسخ العنف الذي يكون في اللعب كسلوك مقبول تدريجياً لدى البعض، وينعكس على علاقاته في الواقع، ويصبح الافتراضي مساويا للواقع ويقوم الطفل باستخدام اليد أو أداة للعنف حينما يريد أن يعبر عن مشاعره دون تفكير بالعواقب.

مفاهيم التربية والتعليم

إنّ مفهوم التربية الاجتماعية يمكن إختصاره بالتزام الفرد بالاعراف والتقاليد والسلوكيات الإجتماعية السائدة في المجتمع والتي تفرض عليه بأشكال عدة منذ الطفولة لكي يتقيد بها إلى الحد الأقصى الممكن لأنه بذلك سيكون من السهل عليه أن يعيش في أمان إجتماعي ويكون مقبولا من الوسط الذي يعيش فيه. إن من يخرج على هذه القاعدة غالباً هم في مرحلة متأخرة نسبياً من الطفولة وبداية المراهقة (8 - 12 سنة) وما بعدها عندما يعيش الفرد نوعا من التقييد لما هو متعود عليه كطفل ولتجاربه الخاصة التي تتقاطع مع المعروف منها لأسباب من بينها: زيادة الوعي المعرفي، ومن تلك الظروف التي تساعد في إبراز هذه الحرية الاجتماعية هي الانتقال إلى بيئة اخرى غير تلك التي قد تعود عليها، والتي قد تكون دراسية أو مهنية وبعيداً عن البيئة التي نشأ فيها الطفل، والابتعاد عن الناس الذين يعرفونه عن قرب ويشكلون عليه عبئا إجتماعيا بهذا القدر أو ذاك. بينما الطفل ليس لديه حدود ويعيش في عالمه بالحرية الكاملة إلى أن يبدأ تطوره الذهني والانتقال من مرحلة الأنا (الذات) إلى مرحلة الـ (نحن)، أي تجاوز مرحلة أنا وأنت (البيئة القريبة) حسب (جين بياجيه)، حينها يبدأ يحس بالقيود الاجتماعية، ويقارن نفسه مع الطفل الذي ما زال في المراحل الأدنى من التطور. يقول (غرامشي) (أن البرجوازية تملك السُلطة على التربية) أي إنها تُشكل هذا الجزء بما يخدمها. وبمعنى آخر إنها تُهيئ الفرد وتُربيه على تلك القيم التي تضمن به إنها ستلتزم بها وان تكون جزءا من المجتمع الكبير.

أما التعليم فهو القسم الآخر من الخبرات التي فيها نوع من الاختيار في مجتمعاتنا والتي نسميها (النامية) إن صح التعبير، لأن النمو في كل المجتمعات يجب أن يكون مستمراً. أما في بلداننا فإننا متأخرون عن الركب وإن كنا مستهلكين لكل ما ينتج في تلك الدول التي سبقتنا في تطورها الاجتماعي والاقتصادي والمسافة تزداد اتساعاً مع الاسف. التعليم كمفهوم هو أكثر حرية

في اختياره لأنه يتعلق بالفرد ودوره المعنوي والاقتصادي في المجتمع أكثر مما هو في موضوع التربية، وهذا يعتمد على درجة تطور المجتمع عموماً. ففي الدول التي بها درجة تطور عالية للغالبية مثل الدول الاسكندنافية وليس للنخب كما في أمريكا، فإن التعلم للدرجة الدنيا أصبح من متطلبات الحياة الاقتصادية التي لا بد منها لكي يمكن للفرد العيش وإيجاد فرصة عمل والمساهمة في المجتمع. وبالتالي تقوم هذه الدول بتوفير كل المستلزمات لكي يصل الانسان إلى ذلك الحد حتى إذا كان لديه نقص في جانب معين لكي يصل إلى الحد الأدنى المطلوب من التعلم، وليس فقط القراءة والكتابة والحساب، ففاقد البصر أو السمع أو الحركة.. الخ جميعاً تتوفر لهم هذه الفرصة: أحد العاملين في البلدية بدون أيدي ويعمل بالادارة بنجاح ويكتب بالقلم بفمه هو مثال على ذلك، لأنه لا يمكن للانسان اليوم أن يقوم باستخدام الآلة الحديثة دون معلومات معينة لضمان نجاح العمل والانتاج وسلامة العاملين.

المصادر:

1 - Jean Piaget, 1951, The child´s conception of tha world, A 20th-century classic of child psychology.

2 - Lev Vygotsky, 1986, Thought and Language, The MIT press London, England.

3 - Ference Marton, Shirley Booth, 1986, Learning and Awareness, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, New Jersey.

4 - Matti Bergström, 2008, Fantasi och kreativitet, föreläsning på handels högskola Gothenburg/ Sweden.

5 - اوراق غرامشي

الثقافة في كواليس C.I.A

قراءة في كتاب (من دفع للزمّار: الحرب الباردة الثقافية، المخابرات الأمريكية وعالم الفنون والآداب) *

قاسم حنون
كاتب وناشط سياسي

بتفكك الإتحاد السوفيتي وانهياره في أواخر العام 1991 انتهت الحرب الباردة بين العملاقين وطويت في ما بدا حينذاك صفحات المؤامرات والتدابير الخفية وسباق التسلح وحرب الجاسوسية، لتبدأ الباحثة (ف .ف.سوندرز) مشوارها في كواليس المخابرات وأرشيف الصحف والمجلات الثقافية والمكتبات في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، فتنجز عملا توثيقيا نادرا عما فعلته المخابرات الأمريكية والبريطانية على الجبهة الثقافية خلال حقبة الحرب الباردة.

بعد عامين من اندلاع الحرب العالمية الثانية وفي أعقاب ضرب الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر 1941، بادرت الولايات المتحدة الى إنشاء "مكتب الخدمات الإستراتيجية" من عناصر ذات مهارات تدريبية عالية، مهمته اكتشاف الخطر قبل وقوعه. كان كل عضو من أعضاء هذا المكتب يحمل حقيبة صغيرة فيها بندقية قصيرة وعدد من القنابل اليدوية وبعض العملات الذهبية وحبة دواء، وكانت المهمة تنفيذ عمليات قذرة.

بعد انتهاء الحرب ألغى الرئيس ترومان المكتب المذكور بزعم أنه لا يريد تشكيلا شبيها بالغستابو الألماني، وسرعان ما تغيرت الرؤية بعد هزيمة النازية – الفاشية، اذ انفتح الصراع على اتجاهات جديدة بنشوء معسكر آخر ضمّ دول شرق أوربا التي حررها الجيش الأحمر من الإحتلال النازي... في 1947 تبلور "مشروع مارشال" الذي يتلخص في تقديم مساعدات اقتصادية الى بلدان اوربا الغربية وخاصة الدول التي تعاني من أزمة اقتصادية حتى لا تسقط في يد الأحزاب الشيوعية (ايطاليا، فرنسا، اليونان). وفي مقابل ذلك أنشأ السوفيت "الكومنفورم" بديلا عن "الكومنترن" التي حلّت في 1941، ثم خطت الحكومة الأمريكية خطوة أخرى عندما أعلن ترومان في يناير 1949 برنامج

(النقطة الرابعة) الذي يقوم على دعم الأمم المتحدة والإصلاح الاقتصادي على أساس مبادئ الاقتصاد الحر وتقوية الدول التي تقف ضد الشيوعية.. ولأن عدوها الجديد يملك امكانات وخبرات في المجال الثقافي وشبكة من المثقفين المنخرطين في الحركة الثورية العالمية وحركات السلام، اتجهت السياسة الأمريكية الى تركيز ضرباتها في الجبهة الثقافية بما تشمله من أفكار وفنون وآداب وعلوم وكل ما يتعلق بالمقروء والمسموع وتقديم النموذج الأمريكي في الحرية وطريقة الحياة... في يوليو 1947 أنشأت الولايات المتحدة جهاز المخابرات المركزية متكونا من بعض أعضاء مكتب الخدمات الاستراتيجية ومنهم (ألن دالاس) الذي سبق أن كوّن مكتب الخدمات الخاصة بالتعاون مع (كيرميت روزفلت)، أول أعمال الجهاز تكوين جبهة على الصعيد الثقافي لتحصين العالم ضد الشيوعية، فتشكل كونسرتيوم من مجموعة من الراديكاليين اليساريين الذين تحطم ايمانهم بالشيوعية وأصابهم الإحباط بسبب سياسات ستالين، خاصة اتفاقية عدم الإعتداء مع المانيا الهتلرية 1939، يتلخص عمل المجموعة بنقد الشيوعية بمختلف الوسائط (مقالات، محاضرات عامة ، روايات، أعمال مسرحية، أفلام سينمائية ، ..). يقوم بهذه النشاطات شيوعيون منشقون لذا فإن الخطاب أكثر اقناعا وتأثيرا من خطاب العناصر اليمينية المعروفة ... افتتح السوفيت مركزا ثقافيا في برلين في تماس مع الوجود الأمريكي هناك لبناء ثقافة جديدة معادية للنازية والفاشية، حيث أعيد اعداد اوبرا ريجوليتو بصياغة معادية للفاشية على المسرح الألماني ومنع عرض مسرحية شكسبير (يوليوس قيصر) لأنها تمجد الدكتاتورية وعرضت مسرحية تولستوي (الجثة الحية) لأنها تخدم أهدافا غير رأسمالية.. وردا على ذلك اسرع الأمريكيون في افتتاح مراكز ثقافية في عدة بلدان من العالم، لتقديم الثقافة الأمريكية في عروض سينمائية وحفلات موسيقية ومعارض فنية ومحاضرات وارسال فرق الجاز لتقديم صورة مغايرة عن العنصرية المتفشية في المجتمع الأمريكي آنذاك. حصل الجهاز في العام 1949 على حق انفاق الأموال لتمويل نشاطاته دون تقديم بيانات عن أوجه الصرف كي لا يترك مستندا يدلّ على دور الحكومة، وباكورة أعماله في داخل الولايات المتحدة هي كشف الشيوعيين والمتعاطفين معهم وتعريتهم باختلاق شائعات وأفكار مضللة عنهم ومنهم مارلون براندو وشارلي شابلن.

صراع في برلين

وفي المانيا أعيد تشكيل اوركسترا برلين ليكون حصنا ضد الثقافة السوفيتية بما تقدمه من معزوفات وأعمال خارج القوالب الموسيقية السائدة. كان هناك نوع من التفاهم بين الوكالة والمثقفين المنشقين والمهاجرين لكي يخوضوا الحرب الثقافية ضد الشيوعية. كتب المؤرخ (آرثر شيلسنجر): لم يكن نفوذ الوكالة وعملها دائما شريرا أو رجعيا، وقيادتها كانت مستنيرة سياسيا وشديدة الذكاء، دون أن يكترث لأعمال الوكالة في اسقاط حكومة مصدق في ايران وآربنز في غواتيمالا 1954 وعملية خليج الخنازير وبرنامج فونيكس في فيتنام وتجسسها على عشرات آلاف الأمريكيين لكنها استطاعت أن تقدم نفسها كوعاء ذهبي لليبرالية... برز

(مايكل جوسلسون) وهو ضابط أمريكي كان يتكلم أربع لغات بطلاقة لذا يعتبر ثروة لا تقدر بثمن بالنسبة للأمريكان وهو ابن مهاجر من روسيا بعد ثورة 1917، التحق بالجيش الأمريكي في 1943 وبعد ثلاث سنوات تسرح ليقدم خدماته الى سلطة الإحتلال في برلين للمساعدة في اللجان التحقيقية، كما عيّن نيكولاس نابوكوف وهو ابن عم الروائي الروسي المهاجر فلاديمير نابوكوف وكان يحتفظ بعلاقات واسعة مع الأدباء والكتاب والفنانين وفي عام 1945 التحق بقسم الشؤون المعنوية بصفته موسيقيا، كانت مهمته استئصال الروح النازية في الموسيقى الألمانية. وهكذا أصبح جوسلسون ونابوكوف ثنائيا متجانسا الى حدٍ كبير، حاولا استقطاب الكفاءات الألمانية ممن كان لهم دور كبير في ظل النظام النازي لاستخدامهم في سياق حملة ضد الشيوعية. كان السوفيت أضعف من الناحية الاقتصادية وليس لديهم قدرة نووية ولكنهم كانوا أكثر حماسا للعمل على الجبهة الثقافية بينما كانت أمريكا ضعيفة الخبرة في الميدان الثقافي. كانت الدعاية السوفيتية تصور أمريكا بمثابة صحراء ثقافية ودولة مصانع اللبان والسيارات الفارهة والعنف والتمييز ضد السود، وسيردّ الامريكان عليهم بارسال مغنين سود لإحياء حفلات غنائية وموسيقية وإحياء حفلات اوبرا بالتنسيق مع أرقى الأكاديميات وتبني برنامج ضخم لطبع ونشر وارسال كتب عن الحياة في امريكا واغراء الناشرين التجاريين والترويج لمساهمات كتاب أوربيين ومن بينهم كتاب اندريه جيد (العودة من الإتحاد السوفيتي) ورواية آرثر كويستلر (ظلام في الظهيرة) .. في يونيو 1947 أعلن جورج مارشال وزير الخارجية الأمريكي مشروعه لإعادة تعمير أوربا من على منصة جامعة هارفارد، خطابه الذي استغرق عشر دقائق كان لحظة فارقة وتحولا في مصير أوربا بعد الحرب. كان من بين الحاضرين في حفل الافتتاح عالم الفيزياء الألماني اللاجئ في الولايات المتحدة (روبرت اوبنهايمر) والشاعر (ت.س. اليوت) وهما موجودان لتسلم درجات فخرية، بينما كان السوفيت يعقدون اجتماعا للكومنفورم يدعون فيه الى مقاومة النفوذ الأمريكي في اوروبا واستثمار ما تحقق بعد الحرب. كان كثير من الأدباء والفنانين والعلماء منخرطين في عمل منظم لإحلال السلام وتجنب اللجوء للحرب في حل الخلافات بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة. في اكتوبر 1948 صدرت مجلة (ديرمونات) في برلين بدعم الجنرال الأمريكي كلاي ورئاسة تحرير ميلفن لاسكي، كانت تطبع في ميونيخ وتنقل جوا عبر طائرات شحن تابعة للحلفاء الى برلين، وتموّل من الإعانات السرية في مشروع مارشال ثم من صناديق الوكالة ثم عن طريق مؤسسة فورد. كانت المجلة نموذجا لاستراتيجية الحرب الباردة، وقد تأكد أن المساعدات المالية ليست كافية، ولا بدّ أن تقترن ببرنامج مكثف للحرب الثقافية. لقد جمعت (ديرمونات) بين لاسكي المقاتل السياسي وجوسلسون رئيس المشتريات ونابوكوف الموسيقي. وفي امريكا ظهر فرع جديد من الدراسات يعرف بالكرملينلوجي للتعرف إلى ما يجري في الكرملين، أسسه (بوهلن) الذي عاش في روسيا وعرف قادتها ودرس أدبيات الثورة والأعمال الكلاسيكية، ليتطور الأمر في ما بعد بتأسيس معاهد وأقسام في الجامعات

الأمريكية للشؤون الشيوعية. كان (جورج كينان) أحد صناع السياسة الأمريكية والنافذين في النخبة الأمريكية وهو أيضا أحد آباء المخابرات، فضلا عن كونه دبلوماسيا مثقفا ومهندس مشروع مارشال ومدير تخطيط مجموعة وزارة الخارجية، دافع عن مبدأ التدخل العسكري المباشر في ايطاليا لمنع وصول الشيوعيين الى الحكم.

مؤتمر في نيويورك

في أجواء من التوتر والتحضيرات لمواجهة ثقافية عقد مؤتمر في نيويورك في الخامس والعشرين من مارس 1949 برعاية المجلس القومي للعلوم والفنون في فندق والدورف استوريا بمشاركة وفد سوفيتي برئاسة فاديف رئيس اتحاد الأدباء والكتاب وحضور يساري، حوصر المؤتمر بتظاهرات نظمها تحالف يميني من الرابطة الأمريكية ومجموعة من الجمعيات الكاثوليكية والانجيلية، كما تم اختراق الفندق بشبكة اتصالات مكثفة أدارها عملاء الوكالة والمتعاونون معهم. كتب (آرثر ميللر) الذي قبل الدعوة لترؤس احدى جلسات المؤتمر (كل مدخل من مداخل والدورف استوريا يسدّه صف من الراهبات اللائي كنّ يصلين من أجل المشاركين الذين شوّش النشطاء أذهانهم، وكان عليّ أن أمرّ بين راهبتين راكعتين في الممر، وأنا متجه نحو باب الفندق كان من المحيّر أن يتأمل المرء هذا العالم: عالم الإيماءات والتعبيرات الرمزية). نيكولاس نابوكوف قرر أن يحضر جلسة أدارها الموسيقار السوفيتي شاستاكوفيتش وقد وجّه سؤالا حول ثلاثة موسيقيين غربيين تم حظر أعمالهم في الإتحاد السوفيتي على انها منحازة للرأسمالية ما سبّب الحرج للموسيقار المعروف بإخلاصه للجمال. استمر المؤتمر عدة أيام وقد أرسل (أليوت) و(جون دوس باسوس) برقيات يعارضان فيها انعقاد المؤتمر، وخلال مناقشات المؤتمر ظهر شاب اسمه (نورمان مايلز) يشبه في أدائه (فرانك سيناترا)، أشار الى أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مسؤولتان عن انتهاج سياسة خارجية عدوانية تقلل من فرص التعايش السلمي، وختم خطابه بالقول مادامت هناك رأسمالية ستكون هناك حرب ولن يتحقق السلام الا بتطبيق الإشتراكية وتحقيق المساواة وإن كل ما يفعله الكاتب هو أن يقول الحقيقة كما يراها. بعد أشهر من انعقاد المؤتمر أصبح أيّ مؤيد للمؤتمر أو مشارك فيه متهما بالخيانة. كان هناك اعتقاد لدى كثير من أفراد النخبة الثقافية الأمريكية أنه لولا المقاومة السوفيتية لتمكنت النازية من اخضاع اوربا كلّها وبريطانيا ولتمّ عزل الولايات المتحدة بعيدا عن اوربا. وكان قد تمّ تعيين لجنة مضادة للبرنامج السوفيتي مؤلفة من بنديتو كروتشه، ت.س.أليوت، كارل باسبرز، اندريه مالرو، جان ماريتان، برتراندرسل،ايغور سترافنسكي.. وجنّد شيوعيون سابقون وتروتسكيون لأداء دور في مقاومة النفوذ الشيوعي. في العام 1949 أنشأت بريطانيا (ادارة البحث الإعلامي) للمساهمة في الحرب الدعائية ضد السوفيت والشيوعية، وبالرغم من اسمها العادي المشوب بالحيادية والاعتدال فإنها كانت بمثابة وزارة سرية للحرب الباردة وكان الكاتب المجري (آرثر كويستلر) واحدا من أهمّ المستشارين لدى الإدارة المذكورة، وكان كتابه (ظلام في الظهيرة) بمثابة ورقة

اعتماده لديها ضد الشيوعية، وبصفته مجريا يعرف أكثر من الآخرين أساليب وتقنيات آلة الدعاية السوفيتية قبل مغادرته للولايات المتحدة. وخلافا لسارتر الذي كان معارضا بشدة للمؤسسات الحكومية كوسطاء للحقيقة، كان كويستلر يصرّ على مساعدة نخبة السلطة من أجل القيام بوظيفتها، وعن طريقه أدركت المخابرات ضرورة الإفادة من الشيوعيين السابقين لتبديد الأوهام بصدد الشيوعية وكذلك تعبئة اليساريين غير الشيوعيين في حملة واسعة للإقناع واستخدام رواية جورج اورويل 1984 وكتاب الإله الذي فشل (وهو مجموعة مقالات كتبها شيوعيون سابقون تلخص تجاربهم وتحولهم الى صف العداء للشيوعية وكان يوزع بواسطة أجهزة الحكومة الأمريكية في كافة أنحاء أوربا وبلغات مختلفة) وكتاب الوسيط الحيوي للمؤرخ شيلسنجر، وان الاشتراكية الديمقراطية يمكن أن تكون سندا في الحملة ضد الشيوعية. تأسست منظمة الحرية الثقافية في الولايات المتحدة في العام 1951، صمم هيكل عملها (ميلفن لاسكي) وهو يقوم على تعيين لجنة دولية مكونة من خمسة وعشرين عضوا وخمسة رؤساء فخريين وتقوم بتوجيه الأنشطة لجنة تنفيذية من خمسة أعضاء، يشبه هذا الهيكل التنظيمي جهاز الكومنفورم (مكتب الإعلام الشيوعي). وكما لاحظ أحد المؤرخين أن عمل المنظمة يتسم بالسرّية وإن أعضاءها كانت لهم أسماء مثلما هو معمول في الأحزاب الشيوعية، ومن مهامها اكتساب المتأرجحين بين التيارين وكان هناك اعتقاد أن السوفيت ينفقون أموالا لتنظيم مثقفي اوربا، وكان لابدّ للمنظمة أن تبتكر الوسائل للرد على ذلك التوجه... يقوم مشروع مارشال على قاعدة أن تقوم كل دولة من الدول التي تتلقى المعونات بإيداع مبلغ يعادل المبلغ الممنوح لها من الولايات المتحدة في مصرفها المركزي، وكان الهدف أن يؤدي الدعم المالي دورا مزدوجا يسمح بإنفاق مشترك بين الدولة المعنية والولايات المتحدة باستخدام تلك الإعتمادات معا. الجزء الأكبر من الاعتمادات 95% ملكية قانونية لحكومة الدولة، بينما تكون 5%من الوديعة وتقدر بمائتي مليون دولار ملكا للحكومة الامريكية وهي تحت تصرف الوكالة، قسم منها ينفق في الإنتخابات الأوربية ودعم منظمة الحرية الثقافية. أنشئ الفرع البريطاني لمنظمة الحرية الثقافية في عام 1951، وكانت بدايته مرتبكة بسبب الخلاف بين أعضائها، وبخاصة بين ستيفن سبندر والسكرتير الفخري للمنظمة حتى أصبحت في حالة تفكك. كان كثير من المثقفين البريطانيين مترددين في أن ترتبط أسماؤهم بمنظمة ذات أصول غامضة أو أن للحكومة الأمريكية يدا فيها، يقول أحد موظفي الجمعية البريطانية لحرية الثقافة (كنا نمزح ونحن نتكلم عن ذلك، نأخذ أصدقاءنا الى الغداء وعندما يحاولون أن يدفعوا الحساب نقول لهم :لا، لا، دافعو الضرائب الأمريكان سيدفعون) .. في ابريل 1952 وبإقتراح من نابوكوف أقيم مهرجان فني كبير في باريس ليكون علامة على التعاون الوثيق بين المؤسسات والثقافية الأمريكية والأوربية، وكان اقتراحه أن لا يكون المغزى السياسي والفكري واضحا. رفض سارتر حضور المهرجان معلقا بطريقة حادة أنه ليس معاديا للشيوعية الى هذا الحدّ، ولو كان هناك لغادر المكان، واذا كان هناك إله فشل كما روّجت

المخابرات وواجهاتها الثقافية فإن ذلك الحشد وجد إلها آخر ولكن معاديا للشيوعية. لقد أشادت بالمهرجان صحيفة لوفيغارو اليمينية بسبب العلاقات التي تربط رئيس تحريرها بنابوكوف، الا أن الأجواء في باريس ما كانت تتقبل النفوذ الأمريكي بسبب الدور الذي قامت به الصحافة الشيوعية، وتتذكر (ديانا جوسلسون) تلك الأيام التي تموج بالعداء للولايات المتحدة في فرنسا. وبشكل عام فإن المهرجان أسهم في تعقيد علاقات الدعاية الفرنسية الأمريكية أكثر مما هي في السابق.

كونسرتيوم لإدارة الحملة

أحد الملامح الرئيسة لجهود الوكالة من أجل كسب الحرب على الصعيد الثقافي تنظيمها الدقيق لشبكة من الجماعات المستقلة ومن (الأصدقاء) في اتحاد غير رسمي هو عبارة عن تحالف مقاولات بين مؤسسات خيرية ومؤسسات تجارية وبين أفراد يعملون مع الوكالة. كان (ألن دالاس) شقيق (جون فوستر دالاس) الذي أصبح وزيرا للخارجية هو الذي أوحى بفكرة الكونسرتيوم، وكان الهدف المعلن استخدام المهارات العديدة والمتنوعة لليهود الشرقيين في المنفى من أجل تطوير برامج تتصدى بنشاط للنفوذ السوفيتي. بعد أشهر من إنشائها نجحت في التحول الى برنامج واسع وقد بلغ عدد أعضائها 412 عضوا من الامريكيين والأوربيين والخبراء المنفيين من اوربا الشرقية. الشعبة المسؤولة عن جمع التبرعات والاعانات لجنة اوربا الحرة، وكان المتحدث باسمها ممثل شاب هو (رونالد ريغان) الذي سيكون له دور في حملة مكارثي. كان استخدام المؤسسات الخيرية أنجع الوسائل لتمرير مبالغ كبيرة من المال لمشروعات الوكالة دون التنبيه الى مصادرها، وكانت مؤسسات فورد وكارنيجي وفارفيلد وروكفلر أكثر المؤسسات عطاءً بين المؤسسات الأمريكية الخيرية حتى قيل أن أي مؤسسة خيرية أو ثقافية لا بدّ أن تكون واجهة للوكالة. وبسبب قربه من البيت الأبيض أصبح (سي.د.جاكسون) هو الشخصية الأكثر شهرة في دائرة النفوذ التي أصبحت تعرف بالحكومة الخفية، كان يجلس مثل ملك شرقي أو حكيم يوناني قديم يتدفق عليه سيل الزائرين يلتمسون الحكمة والمشورة، يأتي اليه ضباط مسلحون بخطط للحرب الأيدلوجية ومن بينها مطبوعات دعائية تلقى فوق الستار الحديدي من بالونات الهليوم، وبوجوده في البيت البيض كسبت (الحرية الثقافية) موطئ قدم في واشنطن باعتبارها المؤسسة الوحيدة التي يمكن أن تصنع تحولا مضادا للشيوعية. كانت اللجنة الأمريكية لمنظمة الحرية الثقافية مؤلفة من (سيدني هوك) الذي كان يعمل مع الوكالة كمستشار متعاقد والمؤرخ (شيلسنجر) وقطب الحرب الباردة (رينولد نيبور) و(نورمان توماس). كانت اللجنة بمثابة سلاح بازوكا صغير في ترسانة امريكا السياسية، إلا أنها كانت تمثل مركز قيادة معاداة الستالينية، وهي تشرف على مجلات كومنتري، نيوليدر، بارتيزان ريفيو. وبينما كانت "بارتيزان ريفيو" توشك على التوقف كتب (سيدني هوك) التماسا الى مساعد وزير المالية لإعفائها من الضرائب. وبدعمها للمجلات المحلية كانت الوكالة تخرق ميثاقها التشريعي الذي كان يحظر دعم المجلات المحلية، إلا أن هناك

سببين مقنعين لتجاهل هذا القيد القانوني أولا: أن المجلتين كانتا تقدمان رأس جسر يربط المثقفين الأمريكيين بالأوربيين الذين تجمعهم أرضية العداء للشيوعية، كانت الحياة الثقافية في نيويورك في الثلاثينات تقارن بموسكو، وكانت "بارتيزان ريفيو" المجلة التي أنشأتها جماعة من التروتسكيين بدأت كمطبوعة داخلية خاصة بنادي جون ريد الذي كان يسيطر عليه الشيوعيون، وصنعت لنفسها لغة هادئة تعبر عن الأفكار الماركسية، إلا أن اتفاقية عدم الإعتداء الموقعة في عام 1939 بين المانيا والاتحاد السوفيتي ثم الاغتيال الشنيع لتروتسكي في المكسيك 1941، دفع كثيرا من المثقفين الى تغيير أفكارهم والتوجه الى راديكالية تروتسكية او الى اليمين، وأخيرا وجدوا ضالتهم في الولاء لأمريكا.

شغلت مجلة "انكاونتر" التي صدرت خلال الفترة 1953 - 1990 مكانة هامة في التاريخ الثقافي لحقبة ما بعد الحرب. كانت المجلة تقرأ في بريطانيا وامريكا وآسيا وأفريقيا، وبينما كانت مشوشة وغامضة في الموضوعات الثقافية إلا أنها صامتة وبشكل غريب في القضايا السياسية، بيد أنها كانت مجلة ايديولوجية بوضوح. كانت كل من المخابرات الامريكية والبريطانية تدرسان فكرة تأسيس مجلة جديدة رفيعة المستوى لتشجيع خطاب يساري مغاير لنهج ولغة الكرملين، كما كانت وزارة الخارجية معنية بهذا المشروع لنقل وتوصيل الأفكار المعادية للشيوعية الى المثقفين في آسيا وافريقيا، وستقوم بضمان توزيع عدد معين من أعداد المجلة. كانت (ادارة البحث الإعلامي) تودع الأموال في حساب سري لصالح الجمعية البريطانية لحرية الثقافة وكانت حكومة صاحبة الجلالة تدفع راتب ستيفن سبندر بطريقة غير مباشرة، وقد ظل راتبه ثابتا عند الرقم 2500 جنيه وهو رقم كبير بقياس تلك الأيام، وبحلول 1953 صدرت المجلة فصلية ثقافية اما السياسة فتأتي مع الأدب والفن كجزء من نسيج الثقافة لاجتذاب أكبر عدد من القرّاء ... وبسبب قلة المجلات عالية المستوى في انكلترا، لم يكن ممكنا أن يقابل ظهور "انكاونتر" باللامبالاة وأصبح اسم المجلة على كل لسان ولم يخل منها حفل عشاء .. في أواخر الخمسينات كانت الوكالة تعتبر مجلة "انكاونتر" الصادرة في لندن رايتها، وكان مبدأ الوكالة كما وضعه (توم برادن) أن المنظمات التي تتلقى دعما من الوكالة لا ينبغي أن يكون مطلوبا منها بالضرورة تأييد كل جانب من جوانب السياسة الأمريكية، ربما تعبر عن طيف من اليسار ولكنها ليست منبرا يساريا، فقد كانت تنشر آراء تنقد امريكا ولكنها ليست نقدية في حقيقتها. وبينما كانت المجلة تواصل دورها في فضح الأكاذيب ورفض تسميتها حقائق، إلا أنها لم تكن متحررة من فخ الأيدلوجيا ومن سيكولوجية الحرب الباردة، كان يقال أن مقال أي مجلة يحمل ما يحمل من أفكار وأن الكاتب مسؤول عما يكتبه من أفكار وحجج ولكنها كانت تستبعد مواد لا يرضى عنها الذين يدعمونها في السرّ. كانت يد (مايكل جوسلسون) هي التي رسمت الأغلفة التجريبية الأولى للمجلة، وكان يقرأ ويراجع مواد الأعداد الأولى ويتلقى معلومات مسبقة عن المحتويات من المحررين، كان يوبخهم عند هبوط المستوى ويتملقهم لطرح مقالات أو موضوعات معينة.

لم تتورع "منظمة الحرية الثقافية" عن استخدام مثقفين عملوا لحساب النازية مثل (فون كارايان) و(فورتفانجلر). وقد أشار (جورج كينان) وهو أحد مهندسي استخدام الثقافة في الحرب الباردة (في السنوات الأخيرة ظهر توجه كريه وهو توجه شمولي يحكم على صلاحية الإسهامات الثقافية على ضوء الانحياز السياسي). وهكذا وجد أقطاب الحرب الباردة أنفسهم في تناقض سافر، فبينما يطالبون بالفصل بين الفن والسياسة لكنهم عندما يتعلق الأمر بالشيوعية لا يكونون على استعداد لممارسة ذلك الفصل أو تقبله. وبينما كان يحتفى ببعبع النازية (فورتفانجلر) في الأوساط الثقافية الأمريكية كانوا يسخرون من (برتولد بريخت) على صفحات مجلة ديرمونات الصادرة في برلين ... دعمت الوكالة طبع ونشر الكتب لأن كتابا واحدا يمكن أن يغيّر أفكار وسلوك قارئ بشكل لا يتحقق عن طريق وسيلة أخرى ما يجعل الكتب أهم وسيلة في استراتيجية بعيدة المدى، وذلك عن طريق دعم المطبوعات الأجنبية والناشرين بشكل سري لا يظهر فيه أي أثر لعلاقة واضحة بحكومة الولايات المتحدة، منها على سبيل المثال كتاب (الطبقة الجديدة) من تأليف أحد الشيوعيين اليوغسلاف المنشقين وهو دراسة عن الاوليجارشيات الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، كما عهدت بترجمة قصائد اليوت المعروف بعدائه للشيوعية (الرباعيات الأربع)، وكانت تلقى نسخ منها بالطائرات على الاتحاد السوفيتي. كما دعموا منح الشاعر (عزرا باوند) جائزة بوللنجن للشعر عن عمله (أناشيد بيزا) لأنه يمثل برأيهم قمة الثقافة الراقية، وأثار منحه الجائزة جدلا واسعا ليس لأنه كان نزيل مصحة نفسية ولكنه كان الأمريكي الوحيد المتهم بالخيانة في الحرب العالمية الثانية، فقد كان يقدم برامج من اذاعة موسوليني تتضمن نقدا لاذعا للرئيس روزفلت، وكان يقول أن كتاب "كفاحي" لهتلر تحليل ذكي للتاريخ.. كيف يمكن للفن أن يكون مستقلا من ناحية ومتورطا في السياسة، ولكن يبدو أن الحملة ضد الشيوعية تقتضي تملق ومداهنة النازية - الفاشية.

ولأهمية السينما في الدعاية أدركت هوليوود الحاجة الى تقديم أعمالها بما يتناسب والمزاج السياسي والاجتماعي، فأنتجت أفلاما معادية للبولشفيك في العشرينات والثلاثينات، وخلال الحرب الثانية أنتجت أفلاما تمجد روسيا كحليف مثل "نجم الشمال"، "أيام المجد" "انشودة روسيا"، وهي أفلام تدافع عن الإتحاد السوفيتي الى حدٍ ما، ولكنها انتقلت في الخمسينات الى انتاج أفلام معادية للشيوعية والسوفيت مثل "الكابوس الأحمر" ، "غزو أمريكا"، "كنت شيوعيا" ، ...وحتى الخمسينات لم تكن هوليوود تشغل مكانة لائقة بين صناع السينما لدى الأوربيين. وقد تمثل ذلك في غياب تمثيل دبلوماسي أمريكي أو من صناعة السينما الأمريكية في مهرجان كان 1951 ، بينما أرسل السوفيت نائب وزير السينما الى جانب المخرج بودوفكين الذي قدّم خلاصة عن الإنجازات السوفيتية في السينما ، ما دفع الحكومة الأمريكية الى إعارة اهتمام استثنائي للفن السابع .. بعد وفاة الروائي (جورج اورويل) تم التعاقد مع أرملة الكاتب لإخراج فيلم عن روايته (مزرعة الحيوان) مولته الوكالة وتولت توزيعه في كافة أنحاء العالم، وتم حل مشكلة السيناريو بتغيير النهاية. ففي

النص الأصلي لا يمكن التمييز بين الخنازير الشيوعية والرأسمالية، كلهم منجذبون الى بركة العفن ذاتها، أما في الفيلم فيتم تجاهل ذلك التطابق، كما عملوا على توظيف روايته 1984 بما يجعلها في سياق الحملة المعادية للشيوعية، على أن أورويل يهاجم ويشجب مساوئ ومفاسد مختلف الأنظمة التسلطية.

في 1956 حدث التدخل السوفيتي في أحداث المجر ما تسبب بردات فعل لدى كثير من مثقفي أوربا، دان (جان بول سارتر) بشدة تدخل السوفيت وخصّ شيوعيي فرنسا بقدر من الذمّ والطعن، طبعت منظمة الحرية الثقافية آلاف النسخ من بيان سارتر مع بيان البير كامو الذي هدّد بتزعم مقاطعة للأمم المتحدة إن هي فشلت في التصويت لصالح الإنسحاب الفوري للقوات السوفيتية. ويبدو أن ثمة تصدعا في صفوف الشيوعيين واليسار إزاء ذلك الحدث وواجهت اللجنة الوطنية للكتاب برئاسة (لوي اراغون) تحديا لوجودها واستمرارها. وعلى أثر الحدث أخذت منظمة الحرية شكلها وصيغتها، بدت كما لو أنها المنظمة المستقلة الوحيدة التي تعلي من شأن الحرية. كانت المسألة هي صنع مساحة من الحرية التي يمكن أن تزدهر فيها الأعمال الفنية والأدبية والفكرية، ولكنها في المطاف الأخير تخدم هدفا سياسيا معينا. إحدى النتائج المتحصلة عن الأزمة المجرية هي تكوين اوركسترا المجر السيمفوني بفضل منحة مالية قدرها 70000 دولار، صارت الأوركسترا بؤرة الصراع الثقافي ضد السوفيت... وفي غمرة الأحداث وبعد عام تقريبا أطلق السوفيت في اكتوبر 1957 سبوتنك – 1 الذي كان يزن أقل من 200 رطل، كان حدثا علميا وثقافيا باهرا أسهم في تفريغ الحملة الصاخبة بسبب أحداث المجر، وقد أثار ذلك الحدث العلمي رد فعل داخل الولايات المتحدة، حاولوا بعد شهر اطلاق قمرٍ أصغر حجما ولكنه سقط على الأرض علىً مرأى من كاميرات العالم، كان طعم الهزيمة مرا.

من بين المجلات التي أصدرتها المنظمة مجلة (حوار) باللغة العربية في 1962 وقد رأس تحريرها توفيق صايغ، وعلى صفحات عددها الأول مقابلة مع ت.س.اليوت ومقال سيلوني يدعو فيه الى استقلالية الكاتب واستقلالية الفن. كما صدرت مجلة "ترانزشين" في اوغندا، وفي لندن صدرت مجلة "سنسرشب" في عام 1964، ودخلت منظمة الحرية الثقافية في الترتيبات الجديدة مع (بارتيزان ريفيو) و(نيوليدر) للتعاون مع المنظمة، والذي تمثل في مطبوعات مشتركة واتفاقات تحريرية وتبادل المعلومات والمعارف.

لقد ارتبط عشرات المثقفين الغربيين بالوكالة عبر حبل (الذهب) السرّي وهم لا يستطيعون مقاومة اغراء الكسب غير المشروع، عندما كان المثقفون الزائرون الى نيويورك يحظون بكرم باذخ، حفلات فخمة وطعام باهظ الثمن وأشياء أخرى، فضلا عما يتمتعون به في فيللا بيللوني في بيلاجيو شمال ايطاليا الممنوحة لمؤسسة روكفلر وفي روما فندق انكلترا وفندق غراند، وفي لندن فندق كونوت، وفي باريس الجناح الملكي من فندق بالتيمور.

في عام 1962 وبعد أشهر من بناء سور برلين تلقى (نيكولاس نابوكوف) دعوة من (فيلي براندت) عمدة برلين الغربية حينها ليكون مستشارا للشؤون الدولية. كان

الأمريكيون يمولون براندت وكذلك البرنامج الثقافي للمدينة، وكانت برلين الغربية قد فقدت توهجها الكوزموبوليتاني ولذا كان الوقت ملائما لإعادة استثمارها في اللعبة الثقافية لصالح الوكالة.

اعتبارا من العام 1964 فكّر (مايكل جوسلسون) أن يوجّه دفة عمل منظمة الحرية الثقافية بعيدا عن المفاجآت المنتظرة، فكّر أن يغير الاسم أو قطع الصلة المالية مع الوكالة ليحلّ محلها تمويل من مؤسسة فورد، وقبل كل شيء حاول ان يوجه عمل المنظمة بعيدا عن الحرب الباردة أو أن تكون أداة في يد حكومة الولايات المتحدة. وبالرغم أن علاقة مجلة (انكاونتر) بالوكالة لم تكن بعيدة إلا أن هناك من حاول أن ينفي ذلك، في بيان موقع من كريستول وستيفن سبندر وميلفن لاسكي نشر في مايو 1966 أشاروا فيه الى أننا (لا نعرف عن أية تبرعات غير مباشرة فنحن سادة أنفسنا ولسنا جزءا من دعاية أحد، كانت مؤسسات تمويل خاصة تتولى الإنفاق على نشاطات منظمة الحرية الثقافية واصدار المجلات ومنها مؤسسات فارفيلد وروكفلر وفورد). وفي العام نفسه نشرت مجلة "رامباراتس" تحقيقات عن العمليات السرية للوكالة وشبكة المنظمات الوهمية التي تدعمها، وما كشفت عنه المجلة انتقل الى الصحف القومية ما جعل (سبندر) الذي كان لا يزال في الولايات المتحدة يدخل في دوامة ويبذل جوسلسون ولاسكي جهودا لتهدئته وكذلك كان حال أشعيا برلين عندما تكشفت علاقة المجلة بالوكالة كان يتحدث عن المجلة بازدراء وهاجم جوسلسون ولاسكي لأنهما عرّضا سمعة أشخاص محترمين للشبهة. وفي 1967 تكشفت علاقة المخابرات الأمريكية بمنظمة الحرية الثقافية وتمويلها أنشطتها عبر مؤسسات خاصة واعترفت الجمعية العمومية للمنظمة بدور الوكالة كما أن قدامى العاملين فيها (جوسلسون، لاسكي، نابوكوف) يدركون حقيقة الأمر. كتب (جاياراكاش نارايان) رئيس الفرع الهندي للمنظمة (لا أستطيع أن أتصور كيف لشخص أن يؤمن بالحرية والمجتمع المفتوح والتطابق الأخلاقي بين الوسائل والغايات كيف لهذا أن يعتبر قبول معونات وتبرعات من مؤسسة للتجسس العالمي أمرا مقبولا).. أصبح واضحا فساد الصفقة التي أبرمها المثقفون وأنه لا يمكن أن تكون في صالح الفن والأدب ولا في صالح البشرية. إن العملية التي اندفع مقاتلو الحرب الباردة لكي يجعلوها مشروعة قوّضها افتقارها للإخلاص والصدق، والحرية التي تبجحوا بها كانت عرضة للشبهات، وفي سعيهم نحو فكرة مطلقة عن الحرية انتهي بهم المطاف الى تقديم ايدلوجيا أخرى ...ظلّ (ميلفن لاسكي) رئيسا لتحرير (انكاونتر) حتى العام 1991 حيث توقفت. وفي ذلك الوقت كان قليلون هم الذين يستطيعون تقديم شهادة ايجابية عنها، كانت تبدو صورة هزلية لبداياتها، أصبحت مكرسة للتجارة بالحرب الباردة، وبذل لاسكي قصارى جهده ليحتفظ بالبقية الباقية من المجموعة القديمة ونظّم لقاءً أخيرا في برلين 1992 احتفالا بنهاية الحرب الباردة.

*** للباحثة البريطانية فرنسيس ستونر سوندرز، ترجمة طلعت الشايب، مراجعة عاصم الدسوقي، المشروع القومي للترجمة، 2009.**

هامش على مقال: محاسبة القيمة في رأس مال ماركس: اليد الخفية

د. صباح قدوري

قرأت العرض المترجم لكتاب محاسبة القيمة في رأس المال لماركس: اليد الخفية المنشور في مجلة الثقافة الجديدة، العدد 430، أيار 2022 الذي كما يبدو من العرض أنه يقدم رؤية جديدة لقانون القيمة في كتاب راس المال لكارل ماركس. يتمنى المرء أن يترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية للتعرف على أطروحة مؤلفه بشكل أفضل، إذ لا يكفي تكوين نظرتنا لهذه الأطروحة من خلال قراءة عرض له. وقد طلب مني الزميل مصباح كمال، مترجم عرض الكتاب، الكتابة عنه لفتح مجال لمناقشة المفاهيم المحاسبية من منظور أوسع، خارج السياقات الفنية التطبيقية لهذه المفاهيم، فكتبت هذا الهامش.

بداية، أود الإشارة الى ان نموذج (نظرية ماركس للمحاسبة) لم أجد تفاصيل كثيرة عنه في المقال، لربما موجودة في الفصلين الثاني والرابع من الكتاب، لم أطلع عليها. ادناه أدرج بعض ملاحظاتي المتواضعة بصدده المقال، وكالاتي:

1. ان المحاسبة الحديثة، يطلق عليها النظام المحاسبي، ويتكون من شقين: المحاسبة المالية ومحاسبة التكاليف، أحدهما يكمل الثاني. وتستند مبادئها على طريقة القيد المزدوج. وهذا يعني تسجيل كل المعاملات الاقتصادية مرتين، بقيد مدين يقابله قيد دائن، وبذلك يكون المجموع الجبري لطرف المدين يساوي المجموع الجبري للطرف الدائن، والفرق بينهما يساوي صفرا، وبذلك تحتفظ التسجيلات على الموازنة خلال مرحلة الدورة المحاسبية، أي اجراء حساب النتيجة، (الأرباح والخسائر)، والحالة المالية/ الميزانية العمومية (الموجودات ـ المطلوبات، و/ أو الأصول ـ الخصوم).

2. ان إشكالية التطبيقات في النظام المحاسبي بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، تكمن في استخدام المحاسبة، وخاصة التكاليف من قبل الأول لغرض الاقتصاد النقدي، أي رأس المال، بينما في الثاني يأخذ بنظر الاعتبار ايضا الجانب الاجتماعي.

3. ان الهدف الأساسي للنظام الاقتصادي الرأسمالي، الذي تكون فيه وسائل وأدوات الإنتاج ملكية خاصة، هو تحقيق مزيد من الربح، باعتباره عائدا لرأس المال، والذي يعتبر أهم عنصر من عناصر الإنتاج. ولتحقيق ذلك يركز

النظام اهتمامه على الكفاءة الاقتصادية في الانتاج، ويوجه أرباحه نحو راس المال الذي يتراكم لدى فئة محددة، أو توجه الارباح الى العمل، عبر الأجور التي تتجه نحو الاستهلاك.

اما في النظام الاشتراكي الذي يستند على التخطيط الاقتصادي، والملكية العامة لوسائل الإنتاج، حيث يهدف الى ربط البيانات المحاسبية في ترشيد القرارات على مستوى الوحدة الاقتصادية والمستوى القومي، لتحقيق مجموعة من الأهداف، (من دون الدخول في التفاصيل): التسعير المحلي، أسعار صرف العملة ودورها في تحديد هيكل أسعار الصادرات، استغلال الطاقة الإنتاجية، توزيع الدخل القومي بين عوامل الإنتاج، هياكل الإنتاج والمدخلات والمخرجات، قرارات مالية وائتمانية داخلية وخارجية، وذلك لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية من النشاط الاقتصادي. لذلك فان العمل يعتبر هو اساس القيمة، التي تتكون من تكلفة اجوره، بالإضافة الى قيمة جديدة إضافية، تسمى (فائض القيمة)، الناتجة من الربح. ويعتبر العمل من اهم عناصر الإنتاج، ومشاركته بشكل عادل في توزيع الارباح وتحقيق العدالة الاجتماعية.

4. بما ان الإشكالية تكمن في تطبيقات محاسبة التكاليف، فان مصطلح التكلفة يستخدم بمفاهيم مختلفة، بحيث لا يمكن وضع تعريف واحد يرضي جميع الأطراف. فالتكلفة تمثل تضحية (عبئا نقديا او ارتباطا لتحمل هذا العبء في المستقبل) للحصول على فائدة معينة. والفائدة قد تكون في صورة ملموسة مثل: شراء مواد وآلات، او تأخذ شكل خدمات، مثل: الأجور والايجار والقوة المحركة.

إن ألفاظا مثل التكلفة والمصروف شائعة الاستعمال في المحاسبة دون تحديد واضح لمضمون كل لفظ من هذه الالفاظ؛ ففي قائمة الدخل فان التخفيضات عن الإيرادات، اللتين تربطان بعلاقة واضحة ومباشرة يطلق عليها لفظ تكلفة، بينما التخفيضات التي لا توجد بينها وبين الإيرادات هذه العلاقة الواضحة المباشرة يطلق عليها لفظ (مصروف). ان التكاليف هي البيانات الاصلية في المحاسبة ويجب استخدام اللفظ بمعناه الواسع. فمفهوم التكلفة يعادل مفهوم تجميع السعر الذي يساوي (وحدة السعر مضروبا بالكمية او السعر المتفق عليه). ويمكن النظر الى المصروف على انه تكلفة مستخدمة، أي أعباء على الايراد توضع في التقسيم المناسب لها.

5. إن مصطلح الكلفة له معنى واسع في الادب الاقتصادي. تدخل ضمن تعاريفه الأفكار الاقتصادية والإدارية والاحصائية. وفق المفهوم الماركسي وفي نظرية القيمة ومنها نظرية العمل، يمكن تصنيف ثلاث مقولات اقتصادية في تحديد الكلفة، وهي: كلفة الإنتاج الاجتماعي، كلفة الإنتاج، الكلفة الحقيقية للإنتاج، وفق المعادلة الاتية:

$$Q = C + V + M$$

C - يعبر عن قيمة وسائل الإنتاج

الضرورية للإنتاج؛

V - يعبر عن قيمة العمل المنفقة في الإنتاج؛

M - الإنتاج المضاف وهو عبارة عن:

M2, M1

Q - يمثل كلفة الإنتاج الاجتماعي الاجمالي

يمكن التعبير عن هذه المفاهيم بمفهومها المبسط، كالاتي:

يمثل كلفة الإنتاج، وهو مفهوم الكلفة وفق الاقتصاد الجزئي، أي من وجهة نظر الوحدة أنC+V الاقتصادية.

اما C+V+M1 فهو يمثل الكلفة الحقيقية للإنتاج، أي كلفة الإنتاج مضافا اليها الجزء من الفائض للوحدة الانتاجية.

اما C+V+M = Q فهو يمثل قيمة الناتج او المنتوج الاجتماعي الإجمالي، وهو مفهوم الكلفة وفق زاوية الاقتصاد الكلي، أي على الصعيد الوطني. وهذا يعني تحميل كلفة الإنتاج تكاليف إضافية وهي بالأصل لا تعتبر تكاليف بالمعنى الكلي ومنها على سبيل المثال: بعض الضرائب، مصاريف التامين الاجتماعي للعمال، فوائد البنوك اللازمة للإعادة توزيع الإنتاج الاجتماعي، أي تحويل جزء من الفائض (M) الى ميزانية الدولة.

(M2) ويسمى هذا الفائض في الاقتصاد المخطط بالفائض الاقتصادي، وفي الاقتصاد الرأسمالي بفائض القيمة.

ان تحديد مفهوم الكلفة بهذه الطريقة سيساعد الوحدة على أساس احتساب الدخل القومي الذي هو

(Q=V+M)، أي الناتج الإجمالي، وتوزيع نصيب عوائد عوامل الإنتاج من هذا الدخل.

ويكمن التعبير عن ذلك بالرسم الاتي:

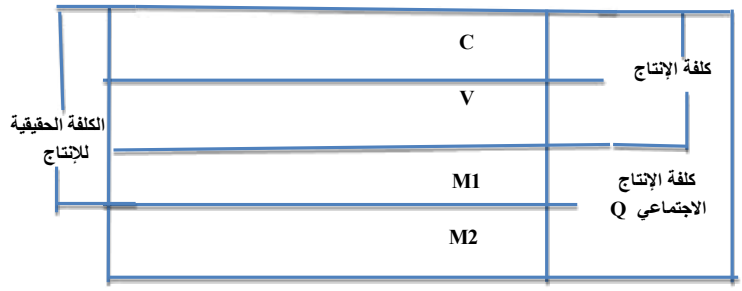

المصدر: عمل شخصي

6. ظهر في أوائل السبعينيات من القرن الماضي فرع متخصص ضمن محاسبة التكاليف عُرف باسم (المسؤولية الاجتماعية للمحاسبة)، وذلك لضرورة مساهمة جزء من الارباح المتحققة في النشاط الاقتصادي، بهدف الربط بين الأهداف النقدية (رأس المال) للوحدة الاقتصادية ومردودها الاجتماعي، في مجالات: اعداد وتنمية وتطوير الموارد البشرية في العمل، وفي حماية البيئة من التلوث والتدهور والاضرار، وكذلك الاهتمام بتحسين الاداء النوعي للانتاج وحماية المستهلك، ومعالجتها محاسبيا.

وسبق لي ان كتبت في هذه المواضيع ونشرتها في مجلة (الثقافة الجديدة) والعديد من المواقع الالكترونية، ومنها البحوث التالية:

- "محاسبة تكاليف (المعضلية): محاسبة عوامل الإنتاج/ الموارد البشرية، كمثال على ذلك" الثقافة الجديدة العدد 406، أيار، 2019 وأعيد نشر البحث في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ 08 /06 /2019، وموقع الحوار المتمدن بتاريخ 08 /06 /2019

- "محاسبة التكاليف (المعضلية): محاسبة حماية البيئة انموذجا" مجلة الثقافة الجديدة، العدد 419 - 420، اذار 2021، واعيد نشر البحث في موقع الحوار المتمدن بتاريخ 19 /03 /2021. ومتاح على الانترنيت على الرابط التالي: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=712659

- "محاسبة تكاليف (المعضلية): محاسبة تكاليف النوعية/الجودة مثالا"، الثقافة الجديدة، العدد 424-425 أيلول 2021، وأعيد نشره على موقع الحوار المتمدن بتاريخ 13 /09 /2021.

توضيح لا بد منه

مارف كويي

قرأت في مجلة (الثقافة الجديدة) الغراء (العدد 426 – 427) مقالة معنونة (في صحبة الرفيق البرليني الكبير) بقلم د. حامد فضل الله وهو يتحدث عن ذكرياته مع الراحل الدكتور كاظم حبيب في برلين خاصة بعد سقوط جدار برلين الغربية عام 1989.

يتذكر السيد حامد زمان ومكان تعارفه مع د. كاظم ويقول: "جاء التعارف بمناسبة اقتراح تكوين منظمة عربية لحقوق الانسان في المانيا، وهو اقتراح من بنات أفكار كاظم حبيب، وبحضور مجموعة كبيرة من العرب، غالبيتهم من العراق". لم يكن الحضور فقط من العرب العراقيين. لقد كنت أحد الحاضرين في هذا الاجتماع مع مجموعة اخرى من الكرد. وجه إلينا دعوة الى الاجتماع مع ابلاغنا مقدما الهدف من الاجتماع الذي هو تأسيس (منظمة عربية لحقوق الانسان في المانيا) كما نوه السيد حامد في مقالته.

نحن المدعوين الكرد اجتمعنا قبل ذهابنا الى الاجتماع المذكور وناقشنا مضمون الدعوة وهدف الاجتماع. كان هناك رأيان: الأول؛ كان على شكل تساؤل: ما دخلنا نحن الكرد بتشكيل منظمة عربية لحقوق الانسان، أو منظمة لحقوق الانسان العربي؟ أما الرأي الثاني وهو الرأي الذي اتفقنا عليه جميعا أن نحضر الاجتماع ونبدي موقفنا ورأينا حول الموضوع.

لا أعرف سبب انكار د. حامد وجودنا نحن الكرد في الاجتماع ومحاولة تهميشنا؟ وهل يا ترى استقر به الرأي بأن الكرد العراقيين هم من العرب؟!

حضرنا الاجتماع وشاركنا في مناقشاته وحين طرح من قبل رئاسة الجلسة اسم المنظمة (منظمة حقوق الانسان العربية) أبدينا إعتراضنا ومن الطبيعي أن لا نرضى نحن الكرد بهذا الاسم. وبعد مناقشات مستفيظة وطويلة عبرنا صراحة: اذا كان هذا خياركم الوحيد وتصرون على تلك التسمية، نباركم ونتمنى لكم النجاح والتوفيق، ولكن بدوننا. وسوف نغادر قاعة الاجتماع، لاننا نرى ذلك غبنا بحق شعبنا الكردي.

وفي النهاية وبدون قناعة تامة وافقنا على اسم (منظمة حقوق الانسان في الدول العربية). وهكذا تأسست هذه المنظمة في 14 من شهر كانون الاول 1991 في مدينة برلين.

نصوص قديمة

الصراع الطبقي في الاسلام *

هادي العلوي

توطئة

يتمتع صدر الإسلام بموقع خاص في مجمل التاريخ المطرد للعرب من جهة، وتاريخ الاسلام من جهة اخرى. وقد تبلورت في إبانه أمور كان لها تأثيرها على مدى عصور متعاقبة ربما اتصلت بأيامنا الحاضرة. فقد شهدت هذه الحقبة انتقال العرب من القبيلة الى الدولة ونشوء المجتمع العربي القائم على التراتب الطبقي، وفيها وقعت الانقسامات الكبرى في الإسلام، كما تحدد الكثير من الأوضاع الدينية والسياسية التي صارت من سمات مجتمع الاسلام في صيغته الناجزة. من المؤكد ان هذه التحولات ترتبط بأساس التحول الجذري الذي أصاب الحياة العربية بظهور الاسلام، ولكن اذا كانت ملابسات هذا الظهور مناط اختلاف شديد بين الباحثين ومنطوية، قبل ذلك، على مردودات سجلتاريخية في غاية التعارض، فان تاريخ صدر الإسلام يوفر لنا مجموعة من المواد المنسقة، يمكن أن تخدم هدف السعي الى تشخيص طبيعة ومجرى التحولات التي تمكنت فيه . وربما وفر ذلك اغراء لدراسة هذه الحقبة على انفراد، رغم ما في الاستجابة لهذا الاغراء من دلالة على حب العافية وإيثارها على الخوض في معمعة قد لا يخرج منها المرء بنتائج قاطعة ، مهما يكن الحال فان دراسة صدر الإسلام تتمتع بقيمة غير ضئيلة في دراسة ما قبلها، فضلا عن أهميتها بالنسبة الى ما بعدها، وذلك بالنظر إلى ترابط هذه الحقب.

كثيرا ما تواجهنا في دراسة هذه الحقبة وجهات رؤية ينطلق في إنشائها من المظهر الديني الغليظ الذي يسطح ناسها وأحداثها. وقد أعطى المستشرقون قسطا وافيا من الاهتمام بهذا المظهر فوقعوا في خطيئة التفسير العقائدي لوقائع مشبعة بالحوافز والنوازع البشرية، وانتهى الكثير منهم تحت تأثير هذا الفهم الى رسم لوحة لأحداث صدر الإسلام، يدور فيها الصراع بين طرفين: اهل الورع والتقوى، واهل الدنيا ... وانها لمفارقة ان تحملنا هذه اللوحة على العودة الى ما قبل الاستشراق، ساعين الى استجواب بعض الشهود العيان حول أسرار ما جرى لهم أو على مقربة منهم. وفي هذا الصدد يرد في بعض المصادر ان عمر عبدالعزيز (101 هجرية) قال مشيرا الى اختلاف المسلمين [1]: "أن هذه الامة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها، وانما اختلفت في الدينار والدرهم"، وفي رواية عن الحسن البصري (110هـ) استغرب فيها من حمل السلاح ضد الخليفة الأموي قائلا انه لا يمنع احدا من "الصلاة وايتاء الزكاة والحج والعمرة"، فما الداعي

لقتاله؟ وقد اجاب على ذلك ان رفع السلاح يستهدف مطالب دنيوية [2]. وتكلم الداعية الإسماعيلي ابن حيون (363 هجرية) عن اختلاف الفرق الإسلامية فقال ان مرده الى الانقسام حول الخلافة، اى حول السلطة[3] وفي وسعنا أن نستذكر اخيرا نبوءة تقول ان الدينار والدرهم اهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم. وقد اسندها صاحب أصول (الكافى 329 هجرية) الى علي عن محمد[4]. وتقع هذه النبوءة في صميم احداث صدر الاسلام. ولعلها أن تكون من نسج هذه الاحداث نفسها.

هذه الإشارات تستبطن بدورها حقيقة ان قدرا من الخلاف حول فروع الدين لا يبرر كل تلك الحروب الأهلية الطاحنة. فأي وجه من الصراع الدامي يمكن ان يحمله الاختلاف حول شعائر الحج والصلاة؟ وحول ما إذا كان من الصواب في الوضوء المسح على الخفين او على ظاهر القدمين؟ في الواقع أن هذه الاختلافات في فروع الدين لم تتجاوز في تأثيرها دائرة النقاش الفقهي دون ان تصل الى تشكيل مبرر لتكفير الفقهاء بعضهم بعضا او لاشهار السلاح بين مسلم حاكم ومسلم محكوم.

ان ثمة عددا من العوامل التي كونت خلفية لصراع صدر الإسلام، تمنحه صفة الصراع الاقتصادي، بامكاننا أن نرصد من بينها، قوة العناصر الدنيوية في الاسلام المبكر والتأكيد الواضح للاهتمام بالمطالب الدنيوية وعدم التخلي عنها لاغراض رهبانية، لم تلق أي تحبيذ من مؤسس الاسلام. وقد اعطت الممارسات التي شكلت مفهوم ''السنة'' دليلا على ان التمسك بهذه المطالب يدخل في صميم خصائص المسلم ذي الايمان الصادق. وبازالة هذا التعارض بين الإيمان وحاجات الجسد انهار حجاب روحاني كان يمكن أن يكبح روح التنافس على المطالب الاقتصادية، والمادية بوجه عام. وقد تكافلت هذه النزعة مع التكوين السيكولوجي البدوي، المنحدر من بيئة تحكمها تقاليد البيئة ''المشاعية''، والخاضع من الجهة الاخرى لتأثيرات ردود الفعل التي تثيرها المفارقة بين رفاهية المدينة وشغف البادية، مما يشكل بحد ذاته موقداً لصراع ذي محتوى اقتصادي سافر حيناً، ومستتر أحياناً.

ان هذه الدراسة تحاول بالاستناد الى هذه التخطيطات الأولية، القاء مزيد من الضوء على طبيعة هذا الصراع وابعاده، منطلقة من القناعات التي وفرتها المصادر ذات العلاقة.

عرض للطبقات في مجتمع صدر الإسلام

شغل الاسلام في هذه الآونة كلا من شبه جزيرة العرب والعراق والشام وأفريقيا الشمالية وايران وكردستان واجزاء من القفقاس، ويمكن القول تبعاً لذلك ان هذه الاقطار أصبحت داخل ما يصح عليه وصف عالم الاسلام، وان كان دخولها ذلك متفاوت الدرجة.

بالقياس الى نفس الحقبة، فهناك فارق ملموس بين مدى انتشار وتمكن الدين الجديد في جزيرة العرب وما جاورها كالعراق والشام وبين تلك الاقطار التي لم يمض على وصول الاسلام اليها امد

يكفي لاندماجها في مجتمعه. وعلى اية حال فقد نجم عن هذا الامتداد الواسع لمجتمعات صدر الاسلام تفاوت كبير في التوزيع الطبقي، حيث نجد: في شبه جزيرة العرب مجتمعا يتألف من القبائل الرحل أو القبائل الحديثة الاستقرار في المدن أو القرى، فهو مجتمع قبلي - بدوي في بنيته الغالبة. وهناك فئة من التجار كانت تتجمع بالدرجة الأولى في مكة، كما وجدت في الجزيرة بعض العلاقات الزراعية في المناطق التي كانت صالحة للاستزراع كاليمن والمدينة والطائف في الحجاز، الا ان هذه العلاقات ظلت - ربما لمحدودية البيئة الزراعية - محكومة بالوضع القبلي السائد، اعني انها لم تتطور الى الحد الذي يكفي لإحداث تبدل جوهري في النظام الاجتماعي.. على أن قبائل الجزيرة عانت في هذه المرحلة تغيرا كميا، تمثل في تحول أعداد هائلة من أفرادها الى "مهاجرين" وهو وصف يشمل افراد القبيلة الذين يتركون البادية الى المصر - المدينة - بقصد العيش فيه والانضمام الى جيوش الفتح[5] وكان المهجر الأول هو بلدة يثرب التي تحولت الان الى مركز سياسي وعسكري يملك ثقلا سكانيا واجتماعيا متميزا على نطاق شبه الجزيرة.

اما في العراق والشام ومصر وبقية شمال افريقيا، فان الأغلبية كانت من الفلاحين، في مقابل طبقة مالكي - او حائزي - الأرض. وقد وجدت في مدن وقرى هذه الأقطار فئات من التجار والكسبة وارباب المهن كانت في البداية محدودة التأثير. على ان المدن التي مصرت بعد الفتح الإسلامي، او المدن القديمة التي صارت مركزا للنشاط الإسلامي مثل دمشق، الكوفة، البصرة، والفسطاط ، أصبحت تضم عناصر اجتماعية جديدة تتألف من مهاجري القبائل العربية، الى جانب اعداد آخذة بالتزايد من الفلاحين الذين هجروا قراهم، ثم الموالي وهم المسلمون من غير العرب، كما ضمت هذه المدن اعدادا كبيرة نسبيا من العبيد، الذين تكاثروا بسبب حروب الفتح.

منطلق الصراع

كانت القبائل العربية - او بعضها على وجه الدقة - قد بدأت تواجه قبيل الاسلام بعض اشكال الانفصام الاجتماعي بين افرادها العاديين وشخصياتها المتنفذة التي اخذت حينذاك تحمل لقب (اشراف). وقد تصاعد نفوذ هذه الشخصيات باتجاه تكوين مركز اقتصادى متمايز. وتمثل ذلك بقوة في نظام الحمى الشخصي، حيث كان بمقدور الشريف ان يستولي على مساحة يحددها بنفسه ويجعلها مرعى خاصا لأبله وأغنامه. ويشير الحمى الشخصي الى اتساع الهوة ما بين مقتنيات أفراد العشيرة او القبيلة. اذ من الواضح ان مقدرة الشريف على الحمى لنفسه مستمدة من كثرة ما يملكه من الابل والغنم. وقد اخذ التفاوت الطبقي شكلا حادا، نسبيا، في مدينة تجارية مثل مكة، وبدرجة أقل في بلدة زراعية كيثرب والطائف وكثيراً ما تحدث القرآن عن مظاهر هذا التفاوت وآثاره خاصة في آيات الفترة المكية.

هذه المظاهر الأولية بالانفصام الاجتماعي سبقت مرحلة اشتداده وتحوله

نوعياً في عاصمة الدولة الاسلامية الأولى – وقد اشرت آنفاً الى ان هذه البلدة قد اتسمت لتغدو مدينة كبرى تكتظ بالسكان، الذين وفدوا اليها من البادية لينضموا الى جيش الدعوة. وكان الحافز المعلن لهذه الهجرة الواسعة دينيا، الا ان نجاحات الدعوة، خاصة بعد فتح مكة، حملت اغراء قوياً لتلك الجموع الغفيرة التي انهكها الفقر في بوادي جزيرة العرب. وكان الانتقال من الاعرابية – البداوة – الى "المهاجرة" يوفر ضماناً اقتصادياً لهذه الجموع لا تجده في باديتها. هذا الضمان ادخلته قيادة الدعوة في جملة أهدافها ليصبح في ما بعد قاعدة شرعية ملزمة. وقد طبق بطريقة متفاوتة في المساواة الى نهاية عهد الخليفة الثاني، ثم أخذ يتعرض للخرق في عهد الخليفة الثالث. وقد اطلق على سياسة هذا الخليفة مصطلح (استئثار) ويقصد به الاستيلاء على الموارد العامة لمصلحة الخليفة وحاشيته والمقربين اليه، ويعني ذلك بدوره حرمان جمهور الدعوة من نصيبها المقرر في هذه الموارد. وقد امتدت سياسة الاستئثار فضلاً عن الموارد المالية، الى قطاعات اقتصادية رائسة كالاراضي، حيث اخذ عثمان بالاقطاع من ارض الخراج وهي رقبة عامة لا يصح الاقطاع فيها. كما عاد الى اسلوب الحمى الشخصي للمراعي الذي مارسته الأرستقراطية القبلية في السابق وابطله الاسلام المبكر، وتشدد عمر خاصة في تحريمه[6].

نجم عن سياسة الاستئثار ظهور فئة المستفيدين من السلطة الذين اطلق عليهم اصطلاح (اهل الاثرة) بفتحتين، اي الذين استأثروا بالمكاسب لانفسهم. وقد تألفت هذه الفئة من كبار الصحابة وقادة الفتح الذين أصبحوا بدورهم مالكي العبيد والعقارات والضياع، فضلا عن كنوز الذهب والفضة. ومن الجدير بالذكر ان عناصر هذه الفئة كانت محدودة الحرية في عهد عمر بن الخطاب الذي حجر على المتنفذين، من قريش خاصة، ومنعهم من مغادرة المدينة الى الامصار وذلك لخوفه، كما كان يقول: من استغلال مركزهم الدينى والسياسي للاثراء والتعسف بالناس. ويخبرنا الطبري ان عثمان رفع هذا الحجر فخرج هؤلاء إلى الأمصار، ولم يمض عليهم سنة حتى امتلكوا فيها الضياع والقصور. وكانت ثروات اهل الأثرة تتضخم بشكل مثير للانتباه بينما تركت جموع العرب المهاجرة في نفس حالتها التي كانت عليها، وهي في بواديها.

كان لمجمل هذه التطورات اثره الحاسم في احداث خلخلة في النظام القبلي على نطاق المدن، وذلك لحساب صراع اجتماعي كان قطباه: المستأثرين من مختلف القبائل، في مقابل جماهير العرب المسلمين من مختلف القبائل ايضا. وهنا واجه المجتمع العربي فرزا اجتماعيا تفاوتت فيه مواقع الناس، تفاوتاً حادا، بحسب علاقتهم بالسلطة وحظهم من أعطياتها وامتيازاتها. وقد اتخذت فئة أهل الأثرة وجها جديدا بالقياس الى شيخ القبيلة الجاهلي، حيث أصبح المستأثر يشغل موقعا سلطويا يستند الى تفوقه المالي. اما الفرد العادي فقد بات يواجه الى جانب

انتمائه القبلي دولة يديرها "الجبابرة والأغنياء". ومن الواضح بالاستناد إلى معطيات الأحداث ان المستأثر ينتمي الى "خاصة" المسلمين، اي الى الفئة القليلة منهم. اما الفرد العادي فينتمي الى "عامتهم" أي الى الاكثرية - وبذلك يأخذ الصراع حالة مجابهة بين أقلية حاكمة وأكثرية محكومة مما يؤدي بالضرورة الى اكتسابه محتوى ديمقراطياً في اطار معين. وسيأتي في الفقرات القادمة مزيد من الايضاح لهذه النقطة.

كان "الاستئثار" اذن محور الصراع بين مسلمي صدر الإسلام. وهنا ينبغي ملاحظة أن ظهور محرك اقتصادي أساسي لا بد أن يستتبع ممارسات تجري في الخط نفسه، فالتكامل بين نهج السلطة الاقتصادي وسياستها في سائر المجالات تمليه تبعية السلوك السياسي والقانوني للاقتصاد، وقد تحدثت مصادر سيرة الخليفة الثالث عن أمور تعتبرها من اسباب النقمة عليه، وهي في الحقيقة من مستلزمات النهج الذي سار عليه في المسائل الاقتصادية. من هذه الأمور ضرب الناس بالسوط والعصا، وهي كناية عن اسلوب معين للتنكيل مارسه الخليفة وعماله، ومنها استخدامه للصبيان المراهقين في المناصب السياسية والعسكرية. ويبدو أن هؤلاء كانوا يتصرفون على طريقة الجلاوزة المستبدين، وهو ما تشير إليه رواية للطبري وصف فيها علي بن ابي طالب سياسة عثمان قائلا: اتخذ بطانة اهل غش ليس منهم احد الا وقد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل اهلها. ويذكر القلقشندي عن عثمان أنه أول من اتخذ صاحب شرطة أي مدير للشرطة، ويعني ذلك تأسيس اول جهاز قمع في الاسلام. وتعكس هذه المبادرات بجملتها نزوعا نحو الاستبداد السياسى يساير الاستثمار في المصالح الاقتصادية. وقد عبر احد اقطاب أهل الأثرة عن حاجة هذه الفئة الى البطش لمجابهة مد المعارضة لسياستهم، اذ يقول الزبير بن العوام - في رواية للطبري - معلقا على مقتل عثمان: إذا لم يفطم الناس عن أمثالها لم يبق إمام الا قتله هذا الضرب .. والضرب كناية عن الموجة التي اكتسحت الخليفة الثالث . ويتكلم الزبير هنا بلغة قد تبدو غريبة على مسمع عرب ذلك الزمن، الذين لم يكونوا قد استكملوا في أذهانهم، بعد، صورة ملموسة للقمع السياسي.

مجرى الصراع

مرّ بنا أن مبدأ ضمان المهاجرين طبق حتى نهاية عهد الخليفة الثاني بطريقة متفاوتة الدرجة في المساواة. ويتعلق الأمر هنا بقدر من التحيز في خطة توزيع "العطاء" واذا تركنا جانبا مسألة المؤلفة قلوبهم لما تثيره من الملابسات، فان خطة عمر بن الخطاب تعطي مثالا لهذا النوع من التحيز. فقد فرق عمر في تقدير العطاء بين المسلمين بحسب السابقة والقرابة والبلاء: أي بحسب زمن الدخول في الإسلام ودرجة القرابة من النبي ودور الفرد في الجهاد. وبموجب هذه الخطة حصلت فئات معينة من المسلمين - الأولين وكبار الصحابة وبني هاشم وقادة الفتح على امتيازات مالية خاصة، ما مهد لنشوء فئة المستأثرين

التي ذكرناها في الفقرة السابقة. ويبدو أن عمر قد استشرف في اواخر ايامه مساوئ هذه الخطة فاعلن في رواية للطبري عزمه على مصادرة الفائض من اموال هذه المجموعة، ونص اعلانه يقول: لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على فقراء المهاجرين.. (الفضول هي الفرائض) وفي رواية أوردها ابو يوسف في الخراج اعلن عمر نيته في نبذ خطته المذكورة والعودة الى المساواة في العطاء، أي الغاء الاعتبارات التي استخدمها لهذا الغرض. لكن عمر لم يعش طويلا حتى يحقق أفكاره الجديدة، وقد أتاح مقتله فرصة كبرى للفئة الجديدة لكي تقفز الى السلطة عن طريق عثمان وفق الأسلوب الذي اتبع في مسألة الشورى. وقد تصرف عثمان في خلافته كممثل لمصالح الذين استخلفوه حيث يسجل عهده بداية السيطرة الكاملة لأهل الأثرة على مرافق الدولة الإسلامية ومواردها. وهو يسجل في الوقت عينه، وتحت تأثير نفس العوامل، ظهور المعارضة المنظمة لسلطة الخليفة المسلم، وقد تمحورت نشاطات المعارضين حول علي بن ابي طالب الا ان العناصر البارزة في جبهة المعارضة جاءت من خارج قريش، اذا استثنينا محمد بن أبي بكر وهو ربيب علي - ويقفز الى المقدمة اسم عمار بن ياسر وهو كما نعلم من العبيد السابقين في مكة وابو ذر الغفاري ومالك الأشتر النخعي، وقد لعب الأول والثاني دورا أساسيا في التأليب ضد الخليفة، وبسبب ذلك نفي الثاني من الشام الى المدينة ثم عاد الى البادية وظل منفيا الى وفاته، نظر إلى عمار بوصفه من اوائل مثيري الفتن في الاسلام [7] وكان يتعرض بسبب نشاطه المناوئ للخليفة الى الضرب والجلد، هذا عدا الاضطهاد المعنوي الذي كان يعانيه بسبب ماضيه الطبقي. أما الأشتر فقد تولى تنظيم معارضة اهل الكوفة وقاد في نهاية الأمر مسلحيهم الذين قصدوا المدينة واشتركوا في حصار عثمان وقتله بالتنسيق مع الساخطين من مصر والحجاز.

كانت الانتفاضة المسلحة ضد عثمان مدخلا للحرب الأهلية في الإسلام، وقد اخذت هذه الحرب شكلها النظامي في عهد علي بن ابي طالب، الذي قيل عنه قديما انه اول من علم قتال أهل القبلة أي أول من وضع القواعد التي تحكم الحرب بين المسلمين. ويمكن اعتبار الجمل وصفين صدى عسكريا للمشكلة التي أثارتها سياسة الاستئثار. وكانت جبهتا المعارك تتألف من نفس طرفي الصراع في عهد عثمان: أهل الأثرة والمحرومين. وقد سجل استيلاء معاوية بن ابي سفيان على الخلافة بعد اغتيال علي، وتنازل ابنه الحسن نصرا حاسما للطرف الاول، حيث حققت سياسة الاستئثار أبعادها الكاملة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي. وكان هذا التحول يعني في جوهره اتباع سياسة نهب منظم في الداخل مع اتخاذ النهب الخارجي - الفتوحات - بعدا متطرفا، هذا مع استكمال الدولة منذ عهد معاوية الأول طابعها الاستبدادي كدولة من الطراز الشرقي الشائع [8] على أن هذه السياسة كانت سببا في تشديد اوار

الحرب الأهلية التي خاضتها من الجانب الاخر: عامة المسلمين من عرب شبه الجزيرة والموالي الذين دخلوا ساحة الصراع منذ وقت مبكر قد يتصل باواخر الراشدين. وقد انتظم هذا الطرف في تنظيمات ذات صفة حزبية (الفرق) وهي هنا: شيعة العراق، الخوارج، القدرية. وكانت هذه الفرق تسلك بوجه عام سبيل العمل السري ثم تظهر في حركات مفاجئة في المناطق التي تختارها ميدانا لنشاطها العسكري. وقد انفرد الخوارج باتباع اسلوب مشابه لحرب العصابات يظهر من رواية للجاحظ. ان تخطيطه يرجع الى الاحنف بن قيس (72هـ) احد الدهاة المشهورين[9]. وانضم الى هذا المعسكر عدد من الفقهاء ذوي الميول المعادية للاستبداد حيث نشأت في هذه الاثناء حركة مقاطعة الاشتغال في الدولة - القضاء خاصة - وكونت تيارا ساحقا ساهم في عرقلة جهود الدولة الأموية لإقامة جهازها القضائي.

سلكت الحرب الأهلية في هذا العصر خطاً يختلف بعض الشيء عن خط الحروب الخارجية، فقد جرت الاخيرة ضمن الحدود المتعارف عليها دوليا في تلك الأيام، والتي وفر مبدأ المقابلة بالمثل عاملا هاما في فرض احترامها على الأطراف المتحاربة. اما الحرب الأهلية فكانت في منأى عن هذه القيود، وما هو اهم من ذلك كونها حربا تقوم على صراع اجتماعي مباشر ما جعلها تبدو في ممارستها من قبل الدولة حرب فظائع اكثر منها حربا اعتيادية. لقد اتبع الأمويون والزبيريون - وهو نفس النهج الذي سار عليه العباسيون في ما بعد – عددا من الاجراءات بحق الطرف الاخر في هذه الحروب يشمل:

1 - قتل الأسرى: ان الاسير في الحروب الخارجية كان يسترق او يفادى ولا يقتل الا في حالات مخصوصة. اما اسير الحرب الاهلية فليس أمامه الا القتل. وفي الحروب الكبيرة كانت هذه الخطة تعني مذبحة جماعية كما فعل الحجاج بأسرى دير الجماجم، ومصعب بن الزبير بأهل الكوفة بعد تصفية حركة المختار. وقد اقترن قتل الأسرى عند العباسيين باضافات: فالأسير لم يعد يقتل بالسيف في كل الأحوال، بل يحرق حيا او يشوى على نار هادئة او يبنى عليه بناء وهو حي.

-2 استباحة المدن العاصية: ويتوقف هذا على مدى التأييد الذي يمنحه اهل المدينة للثائرين، ولهذا السبب استبيحت المدينة لمدة ثلاثة أيام على يد جنود أهل الشام سنة 63 هـ، لان اهلها اجمعوا على خلع الخليفة الأموي. وتفيد بعض المصادر أن سبعة الاف عذراء من بنات المدينة ولدن بعد هذه الحادثة من غير زواج، وهو يشير مع مراعاة المبالغة في الرقم، الى الشكل الذي تمت به الاستباحة، ونفذت خطة مماثلة في أول الحكم العباسي ضد مدينة الموصل. ومن الجدير بالذكر ان مثل هذه الحوادث لم يقع في حروب الفتح.

3 - التمثيل بجثث القتلى وحمل رؤوسهم المقطوعة من بلد الى اخر وتعليق أجسادهم في الأماكن العامة وحرقها بعد ذلك، وقد بلغت خصوبة

الخيال عند بعض الولاة أنه أمر باحراق جثة احد الزعماء الثائرين في الكوفة، ونشر الرماد في مكانين: نهر الفرات والمزارع وقال معلقا على ذلك: يا اهل الكوفة لأجعلنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم.

كما طبقت في الأحوال الاعتيادية اجراءات ضد المعارضة من قبيل:

1 - الحبس على التهمة - ويقصد به حجز المشتبه بولائهم. وليس للحبس امد معين فهو رهن بالوضع السياسي والعسكري. ومن الأرقام المثيرة في هذا الصدد قول المسعودي "في مروج الذهب" أن الحجاج مات وفي سجنه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة منهن ستة عشر امرأة حبسهن عاريات وكان سجنه بلا سقف.. "الرقم يؤخذ للدلالة على الكثرة لا بحرفيته".

2 - الإعدامات وكانت تسمى القتل صبرا. ويذكر المسعودي أن عدد من أعدمهم الحجاج بلغ مئة وعشرين الفا من العراقيين، في حين تذكر رواية للطبري أن هذا العدد بلغ عند ابو مسلم الخراساني ستمئة الف. وأعدم والي البصرة زمن معاوية، وهو الصحابي سمرة بن جندب ثمانية الاف.

الحدود الطبقية للصراع

أوضحت في السطور السالفة أن الصراع الاجتماعي في صدر الإسلام كان صراعا بين أهل الأثرة وجماهير المحرومين. ومن الجدير بالملاحظة أن كلا طرفي الصراع كان من العرب وهو لذلك، وكما بيّنا، اول تجربة من نوعها يخوضها هذا الشعب البدوي الذي نقله الاسلام من القبيلة الى الدولة. على ان ارتباط هذه العملية بالدين فتح باباً للخروج من اطار الشعب الواحد الى الشعوب المتعددة. وبالنظر الى ان اعتناق هذا الدين كان يمنح المرء عضوية كاملة مجتمعة فقد انضمت الى الصراع عناصر غير عربية، دخلت الاسلام مع بداية التوسع خارج بلاد العرب، وبهذا اتسع نطاق المحرومين بانضمام الموالي الى العرب في ظروف سيطرة الاستئثار على السلطة، ثم انضاف إلى هؤلاء فلاحو النبط - الآراميون - من الذين هجروا قراهم بعد اسلامهم ودخلوا المدن آملين أن ينقذهم ذلك من اوضاعهم السيئة. اما ارياف البلاد المفتوحة - الشام والعراق ومصر - فكانت مساهمتها محدودة نسبيا، وينبغي ان يلاحظ هنا ان العلاقات الزراعية لم يطرأ عليها تحول مهم في ظل الاسلام اذا استثنينا بعض الأحكام ذات المحتوى الإنساني البحت مثل: تحريم السخرة وعدم اقرار الارتباط بالارض - القنانة - ولم يكن لأوائل المسلمين معرفة بجوهر هذه العلاقات وذلك بحكم اصولهم البدوية. على اننا نلمس تحت تأثير هذه الأصول من جهة، وملابسات التركيب الاجتماعي للاسلام المبكر من جهة اخرى، ميلا الى تعزيز هذه الأحكام عبر موقف سياسي معين، أن هذا ما تعكسه بشيء من الوضوح المحادثات التي يقول الطبري انها جرت بين مندوبي الجيش الإسلامي ورستم قائد الجيش الساساني قبيل معركة القادسية، حيث يؤكد بعض المندوبين العرب على

مبدأ المساواة بين الناس ويدين العبودية عند الإيرانيين بشكل يترك أصداءه خارج المحافل الرسمية، فيثير حماس الفلاحين والعبيد الذين تدرجهم الرواية تحت اصطلاح (السفلة)، على وزن علية ورفقة، في مقابل هلع الدهاقين الذين عقبوا على ذلك بقولهم: "لقد رمى العربي بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه".

على أن تأرجح هذا الموقف وعدم تحديد مضمونه عمليا او شرعيا افقده التأثير المنتظر في صفوف الفلاحين.

في ما يتعلق بالعبيد، يسجل تاريخ هذه المدة مساهمتهم في اثنتين من الحركات المسلحة هما الإنتفاضة ضد عثمان وحركة المختار بن عبيد الثقفي (67 هـ). ويؤخذ من مجرى الأحداث أن حضورهم في هاتين الحركتين كان مؤثرا الى حد ما، وقد اقترن في الحالتين بالتمرد على اسيادهم والانفلات من العبودية. ويذكر الطبري أن وضع العبيد في قضية عثمان كان من جملة اسباب الخلاف بين طلحة والزبير وبين علي بن ابي طالب، الذي اضطر تحت ضغطهما الى اصدار نداء يدعو العبيد للعودة الى سادتهم، ولا يخبرنا الطبري شيئا عن مصيرهم بعد صدور هذا النداء. أما في حركة المختار فان العبيد الذين حرروا انفسهم بالتمرد على اسيادهم كونوا فصيلا خاصا بهم في جيش المختار، وساهموا في المعارك التي خاضتها الحركة حتى مقتل المختار، حيث تمت تصفيتهم على يد مصعب ابن الزبير. وقد تميزت هاتان الحركتان بتنوع تركيبهما الطبقي، اذ يورد الطبري روايات تصف الثائرين على عثمان بانهم: الغوغاء من الأمصار ونزاع القبائل والاعراب والعبيد. وتضيف رواية لصاحب العقد الفريد: "انباط يثرب" ولدى تحليل هذه العناصر نرى ان كلمة (غوغاء) تطلق في الاصطلاح السياسي القديم على فئات يقرب وضعها من وضع مايسمى في السياسات المعاصرة بالبروليتاريا الرثة، وان كان استعمالها خاضعا لمزاج المتكلم، الذي قد يجد من الدوافع ما يغريه باطلاقها على "العامة". ولكن التفريق في هذا النص بين الغوغاء وبقية الثائرين يرجح تخصيصها بهذا المعنى. اما نُزّاع القبائل "بضم النون وتشديد الزاء" فهي كناية عن افراد القبائل المنضبطين عشائريا، واما "انباط يثرب" فلعل المقصود بهم فلاحوها او سفلتها بوجه عام، ومن المعروف ان الأنباط - الآراميين - هم فلاحو السواد وليست لهم صلة اقامة او عمل في المدينة، فربما كان استعمال الاسم في رواية العقد الفريد من باب الكناية. وفي حركة المختار كان الفرز الطبقي على جانب اكبر من الوضوح، فقد جوبهت الحركة بانتفاضة مسلحة قام بها اشراف الكوفة وهربوا بعد فشلها الى البصرة ملتحقين بمصعب بن الزبير، وبرروا تمردهم بقولهم عن المختار "تآمر علينا بغير رضا منا وادنى موالينا فحملهم على الدواب وعصتنا عبيدنا .."، واشار احدهم إلى الحقد الطبقي الذي يحرك جيش المختار قائلا وهو يستعرض قوة هذا الجيش: " .. ثم معهم عبيدكم ومواليكم، وعبيدكم ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم" [10]..

بقي أن نشير الى أن جموع المهاجرين من العرب والموالي لم تنخرط كلها في الجهاد، فقد فرضت الحياة في المدن ان يتوزع اهلها بين النشاطات العسكرية والنشاط الاقتصادي المعتاد، فكان هناك الكسبة والحرفيون والتجار، تلك الفئات التي تدخل في ما نسميه اليوم طبقة وسطى ما عدا كبار التجار وهم اقرب الى الأرستقراطية. وكان وضع هذه الطبقة سيئا بوجه عام ما وفر دافعا لارتباطها بعلاقات تنظيمية مع بعض الفرق المعارضة، كالخوارج فضلاً، عن دخول الكسبة والحرفيين بحكم وضعهم الاجتماعي ضمن مفهومي "الضعفاء والغوغاء" اللذين استخدما لتسمية عناصر بعض الحركات مثل حركة المختار.

نخلص من هنا إلى أن دور الريف الإسلامي كان ضعيفا نسبياً طوال صدر الاسلام، اي ان الصراع لم يمتد حينئذ الى العلاقات بين الفلاحين ومستغليهم من ملاكي الأراضي او حائزيها. ربما مع استثناء حركة زيد بن على (121هـ) حيث نقرأ في الطبري رسالة كتبها هشام بن عبد الملك الى عامله على الكوفة يقول فيها عن زيد: لا يخف معه الا الرعاع واهل السواد .. ثم يعبر عن خوفه من بادرة السفلة وانهم قد يحملونه على الخروج .. اما دور العبيد فكان محدودا في حركتين اتسمتا بقصر المدة كما أن حجم هذا الدور - رغم بروزه في حركة المختار - لم يصل الى ان يعطي الحركتين طابع "انتفاضة عبيد". ويلاحظ الى جانب ذلك أن انتفاضات العبيد في العصور الاسلامية - بما فيها ثورة الزنج - لم ترفع شعار الغاء الرق وانما توقفت عند تحرير العبيد الذين يشتركون في الحركة، مما يسبغ عليها سمة ردود الفعل الموضعية ضد الاضطهاد الطبقي. وبذلك يبقى الصراع الاجتماعي في صدر الاسلام محكوماً بالتناقض الخاص بين الأرستقراطية العربية - الإسلامية وبين المحرومين من احرار المدن. وبكلمة اخرى انه صراع بين اغنياء المدينة الإسلامية وفقرائها. وبحكم هذا الاستقطاب المحدود ظل هذا الصراع يدور في حلقة مفرغة حالت دون أن يخلق مناخاً مؤاتيا للانقلابات الاجتماعية التي تلازم الصراعات الطبقية الحادة في المعتاد. هذا على الرغم من شدته التي تجسدت في حرب أهلية ضروس استمرت، لتنتهي الى تقويض الخلافتين الراشدية والاموية، ولكن دون أن تتوصل الى احداث تبدل جذري في أوضاع الفئات التي خاضت الحرب، ناهيك عن أوضاع سائر طبقات المجتمع الإسلامي.

ملاحظة تكميلية

يذكرنا الدوران الذي اتسم به صراع صدر الإسلام بتحليل انجلز للحركات الاجتماعية في الاسلام. وقد ورد موجز في هامش دراسته عن تاريخ المسيحية المبكرة، واشار فيه الى ان هذه الحركات هي في جملتها صدامات دورية كانت تحدث تحت شعار العودة إلى الشريعة وازالة الظلم، ولكن دون أن تتوصل الى تغيير جوهري في بنية النظام القائم حتى في حالة نجاحها. وقد طبق انجلز هذا الوصف على حركة المرابطين

والموحدين بشكل خاص، وجعل طرفي الصراع اهل المدن واهل البادية. وتعطينا التجربة التي بحثناها توا دليلا على ان هذا الوصف يمتد الى ابعد من تاريخ المرابطين والموحدين كما أنها تضيف إلى الصراع بين المدينة والبادية صراع المجتمع المديني نفسه، وهو ما يشكل لحمة احداث صدر الإسلام. وبالنظر للاهمية الخاصة لتحليل انجلز في ما يتعلق بتقييم هذه المشكلات الاسلامية فسوف نختصه بدراسة مفصلة في مناسبة قادمة.

نتائج ومحصلات

اذا كان الصراع الاجتماعي في صدر الاسلام قد فشل في احداث نتائج اجتماعية على صعيد التغيير بالنظر الى طبيعة تركيبه الطبقي فان عنف هذا الصراع وشدة الاستقطاب بين طرفيه، الى جانب الاسس المادية والاقتصادية التي قام عليها، جعلته يترك بصماته على الكثير من نواحي الحياة العربية الإسلامية. وقد أومأت في مقدمة هذه المقالة الى أن ما حدث في هذه الآونة امتد تأثيره الى ما بعدها. وفي وسعنا الان ان نضع ضمن الاثار البالغة الأهمية مسألة الانشقاق بين المسلمين وتكوين الفرق التي تحولت بعد سقوط حضارتهم الى ما يعرف باسم الطوائف والمذاهب ذات المنحى الديني الصرف. ومن المعروف ان تكوين الفرق استمر طوال عصور الحضارة الاسلامية تحت تأثير مختلف العوامل ذات الصلة بتاريخ هذه الحضارة، الا ان انشقاقات صدر الإسلام تحتفظ بتفردها من وجهين: وضوح ومباشرية الصلة بالعوامل الاقتصادية وكون هذه الانشقاقات مصدرا للقسم الأكبر من الكيانات الفرقية والطائفية اللاحقة. ففي هذه الاثناء ظهرت الفرق الآتية:

الشيعة - الخوارج - القدرية - المجبرة - المرجئة، كما ظهرت أوليات الفكر السني.

وقد تفرعت الشيعة الى الكيسانية والامامية والزيدية في نفس المرحلة، ثم ظهرت الاسماعيلية وتفرعاتها في العصر العباسي. اما الخوارج فاستمروا بفروعهم، التي ظهر اكثرها في العصر الأموي، حتى العصر العباسي الأول، وبقيت منهم بقية الى العصر الحاضر، وتطورت القدرية الى المعتزلة بينما استمرت المجبرة والمرجئة من خلال الفكر الحنبلي والسلفي عموما.

إن استمرار هذه الفرق في العصور الاسلامية المختلفة يعكس ثبات المنحى العام للظروف الاجتماعو - اقتصادية طوال هذه العصور. ويتصل هذا الثبات بدوره ، بمسألة نمط الانتاج الأساسي الذي قامت عليه حضارة الاسلام ، وهي مسألة خارجة عن غرض هذا البحث. ومهما يكن الحال فإن الفرق التي تضرب بجذورها في القرن الأول للهجرة وصلت الى العصر الحاضر على شكل انتماءات دينية صرفة، قد تحمل بعض صفات الأحفور الا ان بقاءها حية يدل على مقاومتها لعوامل التغيير. تلك المقاومة التي تكرس منحى الثبات في ظروف نشأتها وديمومتها.

على صعيد السياسة: افرز الصراع بعض المبادئ التي جرى تأكيدها حينئذ

واستمرت فيما بعد كمواد اساسية ضمن الفكر السياسي الاسلامي. وترتبط هذه المبادئ مباشرة بموضوعات الصراع الاجتماعية والاقتصادية:

1- مبدأ تدخل الدولة في النشاط الاجتماعي، مسؤوليتها عن مصائر الأفراد. تأثيرها الأحادي على الأخلاق العامة.

2 - زهد الحكام (كمطلب للمعارضة).

3 - مبدأ الخروج على الحكام الظلمة.

4 - مبدأ عدم الخروج على الحكام الظلمة.

5 - مبدأ ولاية العهد وبذور عقيدة الحق الإلهي.

6 - تقييد شرعية الخلافة بالاختيار.

وقد تناولت هذه الموضوعات بدراسة مفصلة ضمنتها كتابي المعنون (في السياسة الاسلامية بيروت 1975).

7 - اثارة العلاقة المتبادلة بين الفقر والغنى. ظهور تيار مناوئ للملكية الشخصية مع بعض الاتجاهات التنظيرية حول مشتركية المنافع والخيرات.

8 - تأكيد حق النقد السياسي. ظهور اوليات الرأي العام.

في مضمار الادب: ترك الصراع انعكاسات قوية في الشعر الأموي تمثلت في مولد الشعراء الرسميين وطغيان شعر المدح، استجابة لحاجة اعلامية ملحة أثارها الكفاح ضد المعارضة. وكان للمعارضة بدورها عدد من الشعراء الا انه قليل بما لا يقاس. اما موضوعات الصراع فلم تنعكس الا في شعر الكميت بن زيد الذي يشكل احدى الحالات النادرة في تاريخ الشعر العربي القديم.

وفي الفكر الفلسفي، ظهرت مبادئ القدرية حول خلق الإنسان لأفعاله - حرية الإرادة الإنسانية - كما ظهرت المجبرة بعقائدها عن القضاء والقدر خيره وشره من الله . وكانت الأولى عقيدة المعارضة والثانية عقيدة الخلافة الأموية، وهما تؤشران ظهور علم الكلام الذي يمكن اعتباره من هنا احد افرازات الصراع في هذا العصر. وقد فتحت القدرية بأطروحتها حول حرية الارادة وخلق القرآن باب الهرطقة، التي سايرت على يد هذه الفرقة شعارات المعارضة السياسية المطالبة بالعودة الى احكام الشريعة، ثم تطورت في فكر العصر العباسي على صورة زندقة مستقلة عن هذا الخط، الا انها حافظت في بداية ذلك العصر على صلتها بالسياسة، مستعيدة نفس تقاليد الهرطقة القدرية في العصر الأموي (تمثل ذلك في اتحادها مع الشيعة). ثم استمرت في الفكر الفلسفي من خلال مدارسه المختلفة.

ملحق لغوي

وردت في هذه المقالة مفردات تحتاج إلى تحديد وهي: سجل تاريخي: ترجمة حرفية لكلمة Historiographic

وتعني التاريخ كمادة خام قبل أن تخضع لإجراءات (علم التاريخ Hi-toriology وقد فضلت استخدام هذا المصطلح لتفريقه عن كلمة (تاريخي) التي تدخل في استعمالات اخرى.

رائس: صيغة قياسية من "رأس يرأس" وقد فضلتها على كلمة (رايس ورئيسي) لتخليصها من الالتباس بمفهوم الرئاسة.

مع العلم ان هذه الصيغة كانت مستعملة قديماً في بعض الرتب العسكرية.

بلدة: مقابل Town الإنكليزية. ان الكتّاب العرب يخلطون بين هذه المفردة والمفردة الاخرى City رغم اختلاف دلالتيهما. فالأولى تتمتع بخواص (المدينة) الريفية، أما الثانية فهي المدينة الكبيرة التي تضم نشاطاً صناعياً تجارياً واسعاً. وقد فرق العرب القدماء بينهما فسموا (Village) بأسماء مثل: ضيعة، رستاق، فلوجة، جمعها فلاليج – وهذه الأخيرة وثيقة الصلة بالكلمة الإنكليزية. ومن هذا أطلقت على يثرب والطائف اسم بلدة، وعلى مكة اسم مدينة.

القبيلة والعشيرة: الاولى عامة والثانية خاصة – فرع فعندما نذكر قريش مثلاً نقول: قبيلة فاذا ذكرنا بني أمية أو بني هشام وجب أن نقول: عشيرة، والكتابات المعاصرة لا تفرق بينهما وهذا خطأ.

أحفور: وهو المتحجر من نبات أو حيوان. وقد استعملت في موضعها من هذه المقالة استعمالاً مجازياً.

الهوامش:

1. ابن كثير - البداية والنهاية في التاريخ ج 10 الفصل المكرس لترجمة عمر بن العزيز أيضا: أبو القاسم الاصبهاني – سير السلف .. مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد رقم 4883. ورقة (133).
2. ابو حيان التوحيدي – البصائر والذخائر – تحقيق ابراهيم الكيلاني – دمشق 1964 ج1/185.
3. شرح الاخبار- مخطوطة في مكتبة الاوقاف في بغداد 39-6596 ب. الصفحات غير مرقمة.
4. الكيليني – اصول الكافي – ط. طهران 1381هـ ج2 - 216.
5. اطلقت "مهاجر" أول الأمر على من هاجر الى يثرب قبل فتح مكة، وقد توسعت بعد هذا الفتح فصارت تطلق على من يترك البادية او الريف الى اية مدينة اسلامية، ولذلك تستعمل هذه الكلمة مقابل "اعرابي" كما هو واضح في ارجوزة للحجاج الثقفي: قد لفها الليل بعصلبي أروع خراج من الدوي مهاجر ليس بأعرابي .
6. ابن عبد البر – الاستيعاب – ط، حيدر آباد 1318 – هـ - ج 2 / 405. وترد فيه مقطوعة شاعر معاصر لعثمان، تعدد انحرافاته ومنها: وأعطيت مروان خمس الغنيمة أثرته وحميت الحمى ولعائشة في هذا المعنى عن عثمان: انما نقموا عليه ضربه بالعصى وتأميره الصبيان وحماية موضع الغمامة وفي العبارة الأخيرة كناية بليغة عن المراعي.
7. يروي المقريزي في (النزاع والتخاصم) ان يوسف بن عمر حاكم العراق لهشام بن عبد الملك خطب يوماً فقال: ان أول من فتح على هذه الأمة باب الفتنة وسفك الدماء علي وصاحبه الزنجي. يقصد عمار بن ياسر. والزنجي تصغير زنجي بقصد التحقير.
8. تتحدث المصادر عن بعض السمات الأساسية للحكم الاموي من قبيل:

أ- الحديث عن تحول الخلافة الى ملكية. وترد اشارات مماثلة لعلي وعمار في أيام صفين عن معاوية وجماعته انهم يريدون أن يكونوا "حبارين ملوكاً" ويبدو ان معاوية كان واعياً لمهمته هذه، اذ يخبرنا ضيفور (280) في بلاغات النساء انه خاطب امرأة من همدان تجرأ عليه قائلا: لقد لمظكم ابن ابي طالب الجرأة على السلطان وبطيناً ما تفطمون.

ب – استيلاء الاسرة الحاكمة وحواشيها على الاراضي الخراجية.

ج – فرض ضرائب اضافية على الفلاحين واتباع اسلوب الضرائب غير المباشرة في المدن.

9. انظر: كتاب البغال – ضمن رسائل الجاحظ لعبد السلام هارون، القاهرة 1964 حيث يقول الجاحظ ان الخوارج دسوا رجلاً منهم ليتعرف الى رأي الاحنف فيهم. فقال اما انهم ان جنبوا بنات الصهال (الخيل) وركبوا بنات النهاق (البغال والحمير) وأمسوا بأرض واصبحوا بأرض طال أمرهم وقد اتبع الخوارج في معظم الحالات اسلوب القواعد المتحركة.
10. الطبري – فقرات من الجزء الرابع بين ص 501 و577 ط الاستقامة 1939.

*** الثقافة الجديدة – العدد 82 حزيران 1976.**

نصوص مترجمة

الاشتراكية - مراجعة وآفاق *

بقلم: فرانك ديب
ترجمة: رشيد غويلب

في نقطة التحول التاريخية العالمية 1989 /1991، انتهت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية لنظام المنافسة، الذي تميز بـ "ثنائية القطب"، نظامان لكل منهما سلطة قائدة (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي). كلاهما يختلف عن الآخر بنظام الملكية والاقتصاد وكذلك في أنظمتهما السياسية: الملكية الخاصة وجني الأرباح، مقابل ملكية الدولة، السوق مقابل تخطيط الدولة، والديمقراطية البرلمانية ونظام التعددية الحزبية مقابل "دكتاتورية البروليتاريا" أو حكم الحزب الواحد. وشكلت المواجهة العسكرية العالمية الدائمة بين الأنظمة القائمة على التطوير التقليدي والنووي، الأساس لمنطق أمني كان لا بد من أن يؤدي إلى تطوير وتصاعد سباق التسلح المستمر، بالإضافة إلى زيادة نفقات التسلح. وفي الوقت نفسه كانت الحرب الأيديولوجية مستعرة بين الرأسمالية والاشتراكية، بين "الحرية" و"الشمولية"، وفق الوعي السائد في الغرب.

كان أنصار الغرب ينظرون إلى نقطة التحول في 1989/ 1991 على أنها ساعة انتصار. لقد انتصروا في صراع الأنظمة. لقد هُزم الخصم الرئيسي - الاتحاد السوفياتي ومعه ادعاء الأحزاب الشيوعية بالعمل في "حقبة انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية على الصعيد العالمي". وغالبا ما أعطى أنصار الاشتراكية صورة غير مشجعة للغاية.

احتفل المنتصرون. واستنتج عالم السياسة الأمريكي فرانسيس فوكوياما في وقت مبكر من عام 1989، وفي ضوء أزمة الوجود في الدول الاشتراكية، "نهاية التاريخ". لكن كان أتباع ما يسمى "المدرسة الواقعية" بين المحافظين الجدد يدركون بالطبع، قبل غيرهم، ان تاريخ البلدان الغربية يتحدد: أ) من خلال التناقضات الداخلية الهائلة والتضادات الطبقية. ب) في مجال السياسة الدولية - من خلال الصراعات والحروب، وان الأمر يتعلق بتقاسم السلطة في النظام العالمي وأن هذه التناقضات ستظهر الآن الى الواجهة مرة أخرى. وقبل وقت قصير من نقطة التحول في عام 1989، حدد المؤرخ البريطاني بول كينيدي بوضوح "صعود وانهيار القوى العظمى" باعتباره القانون الداخلي لتطور التاريخ العالمي منذ عام 1500. ودافع جون جيه.ميرشايمر، عالم السياسة الواقعية المفرطة من الولايات المتحدة الأمريكية، في مقال نوقش كثيرا

في صيف عام 1990 عن أطروحة مفادها أنه بعد نهاية القطبية الثنائية في أوروبا، ستعود السياسة العالمية إلى حالة من المنافسة الفوضوية وصراع القوى العظمى، بالشكل الذي أدى، قبل مئة عام إلى آب 1914 (اندلاع الحرب العالمية الأولى – المترجم).

ومع تقدم قطار الليبرالية الجديدة في الربع الأخير من القرن العشرين، تمت إزالة تلك "القيود" التي فرضت على الرأسمالية، نتيجة لنضالات الحركة العمالية في القرن العشرين، والمنافسة مع الدول الاشتراكية. وعلى الأقل كانت هناك تحذيرات بشأن: أ) مسألة العدالة الاجتماعية، و ب) الخطر المتزايد للحرب في خضم فترة جديدة من انعدام الأمن الاجتماعي والتوتر السياسي في ميدان السياسة الدولية، ما دحض بسرعة أطروحة "نهاية التاريخ" (ديب 1991).

الصحفي المحافظ والمؤرخ المعاصر (يواخيم فيست)، مؤلف السيّر الذاتية، من بين آخرين، لأدولف هتلر وألبرت سبير (مهندس ومسؤول عن الإنتاج الحربي ومستشار هتلر - المترجم)، والمشارك في اصدار جريدة " Frankfurter Allg-meine Zeitung"، أعلن بسرعة "نهاية عصر اليوتوبيا" وان "حلم الاشتراكية قد دمر نهائيا" واصبح "مادة للمؤرخين". و"عادت الماركسية بعد نزهات دامية الى المتحف البريطاني" (فيست 1991: 113). بالنسبة لـ (بيري أندرسون)، مؤسس مجلة New Left Revie، وأحد أهم مؤرخي ومنظري الماركسية في نهاية القرن العشرين، كانت الأزمة السياسية للدول والأحزاب الاشتراكية في نهاية القرن، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتراجع طويل الأمد في شرعية وجاذبية الأهداف والقيم الاشتراكية، خاصة بين أفراد الطبقات الثانوية. ان "المساواة، التي لعبت بعد الحرب العالمية الثانية دوراً بلاغياً في الحياة العامة، حتى لو تم تجنبها بشكل راديكالي في الواقع، ليست ممكنة حالياً ولا مرغوبة. نعم، فحسب السائد في يومنا هذا، فإن كل الأفكار التي شكلت الإيمان بالاشتراكية هي مجرد موضوعات ميتة. لقد فتح عصر الإنتاج الضخم الطريق أمام حقبة ما بعد الفوردية. يُنظر إلى الطبقة العاملة على أنها ذكرى من الماضي آخذة في التلاشي، والملكية الجماعية على أنها ضمانة للاستبداد وعدم الكفاءة؛ المساواة الجوهرية لا تتوافق مع الحرية، ولا يملك في الوقت الحالي أيٌّ من التيارات التي تحدث الرأسمالية في هذا القرن، روحاً قتالية أو قاعدة جماهيرية". (اندرسون 1993: 141 و143).

أعطى العالم السياسي البريطاني (رالف ميليباند) - أحد الشخصيات البارزة في اليسار الجديد (نيومان 2002) - كتابه الأخير، الذي ظهر عام 1994، بعنوان "الاشتراكية لعصر شكاك". تبنى فيه الأمل في أن القيم الأساسية للاشتراكية - الديمقراطية والمساواة والتعاون - ستستمر في كونها "المبادئ المحددة للتنظيم الاجتماعي" في المستقبل (ميليباند 1994: 194). في نهاية عمله الواسع حول "قرن من الاشتراكية في أوروبا الغربية"، أشار المؤرخ (دونالد ساسون) إلى الأزمة العميقة للأحزاب الديمقراطية

الاجتماعية والشيوعية. وخلص إلى أنه "لا يمكن فصل مصير الاشتراكية الأوروبية الغربية ومستقبلها المحتمل عن مستقبل الرأسمالية الأوروبية". وأضاف: "المشروع الاشتراكي مهما كان تعريفه قد يختفي مع بقاء الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية" (بعد تخليها عن السياسات التقدمية والاتجاه يمينا – المترجم) (ساسون 1997: 776). ربما فكّر في حزب العمال، الذي كان ناجحا في عهد توني بلير في التسعينيات والذي ابتعد بشكل واضح عن تقاليده وبرنامجه الاشتراكي. بعد عشرين عاماً، بيّن جيريمي كوربين وأنصاره أن الهيكل التنظيمي القائم للحزب - بما في ذلك ناخبوه الأساسيون من طبقات المجتمع الدنيا - يمكن تعبئته ببرنامج اشتراكي متجدد ("للاكثرية، وليس للاقلية"). في الانتخابات العامة لعام 2017، فاز حزب العمال بنسبة 40 في المائة بزيادة بلغت قرابة 10 في المائة من الأصوات.

نهضة مناقشة الاشتراكية

بعد ثلاثة عقود من مواكب انتصار الرأسمالية والليبرالية، تجري ثانيةً مناقشة الاشتراكية بشكل مكثف في الخطاب العام، باعتبارها "خطراً أحمر" من ناحية، وكمشروع سياسي للتغلب على الأزمات وعدم المساواة الاجتماعية في رأسمالية السوق المالية العالمية من ناحية أخرى. تحت عنوان "الاشتراكية في الألفية الجديدة"، أكدت الصحيفة الاقتصادية الرائدة في العالم الغربي، الإيكونوميست، في 14 شباط 2019، نهضة الاشتراكية في المراكز الرأسمالية القديمة. "بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991، بدا وكأن المعركة الأيديولوجية الكبرى في القرن العشرين قد انتهت. لقد انتصرت الرأسمالية - وأصبحت الاشتراكية مرادفة للفشل الاقتصادي والقمع السياسي. وهي تتمايل في التجمعات الهامشية، في الدول الفاشلة ومع وثوب ليتورجيا (شعائر) الحزب الشيوعي الصيني. اليوم، بعد 30 عاماً، عادت الاشتراكية إلى الرواج مرة أخرى. الاشتراكية تعود عاصفة، لانها تصوغ انتقادات حاذقة للاخطاء الحاصلة في المجتمعات الغربية. بينما تخلى سياسيو اليمين في الغالب عن معركة الأفكار وتراجعوا إلى الشوفينية والحنين إلى الماضي، يركز اليسار على عدم المساواة الاجتماعية والبيئة وكيف يمكن استعادة السلطة من النخب الى المواطنين. بينما يصحح اليسار المنبعث من جديد بعض الأمور، فإن تشاؤمه بشأن العالم الحديث يذهب بعيداً. إن سياسته تعاني من السذاجة تجاه الموازنات الوطنية والبيروقراطيات وعالم الأعمال".

عبرت الجريدة المركزية لرأسمالية السوق المالية (مقرها سويسرا)، جريدة زيورخ الجديدة في 20 تموز 2019، عن غضبها بسبب "الرغبة الجديدة في الاشتراكية". على الرغم من أن الاشتراكية فشلت "بشكل هائل" في القرن العشرين، إلا أنها فجأة تمارس جاذبية هائلة - خاصة على الشباب. دوغمائيان من اليسار المدعوان - كوربين وساندرز، وكذلك الاشتراكيون الديمقراطيون السويسريون - "يتمتعون بتعاطف مرة أخرى في الانتخابات". وفي استطلاعات الرأي،

يؤكد الكثير من الناس، وخاصة الشباب، أن "مُثل الاشتراكية ذات قيمة كبيرة للمجتمع". وفقا لمؤسسة غالوب، فإن " 51 في المائة من الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 - 29 عاماً لديهم رأي إيجابي بالاشتراكية". حتى في البرامج التلفزيونية هناك حديث عن الصراع الطبقي وحرب النظام. إن "إحباط" الشباب "بقدر تعلق الامر بالرأسمالية أمر مفهوم تماماً، لا سيما في أعقاب الأزمة المالية" - وهناك بالتأكيد أيضاً "مدراء تنفيذيون غير لائقين". لكن يمكن ان تقرأ عن الاشتراكية عند (فريدريش أوغست فون هايك) (فيلسوف واقتصادي نمساوي بريطاني دافع عن الليبرالية الكلاسيكية)، وفقا لكاتب جريدة زيورخ الجديدة، وهذه بالتأكيد إجابة خاطئة وخطيرة بالأساس. لذلك من الواجب مقاومة إغراء الأيديولوجية الاشتراكية!

تتلاءم عودة الاشتراكية مع انتعاش حركات الاحتجاج الاجتماعي والسياسي في جميع أنحاء العالم. صحيفة "Süddeutsche Zeitung" الألمانية المحافظة والصادرة في (28/29 كانون الأول 2019 ، رأت ان "العالم في حالة اضطراب" وأحصت قائمة طويلة لبلدان ومدن نزل فيها مئات الآلاف إلى الشوارع في عام 2019 للاحتجاج على "النخب الفاسدة" و"عدم المساواة الاجتماعية".

في بعض البلدان، بدأت حركة جديدة من الشباب - "جيل الألفية" - وهي في طليعة الاحتجاجات وتعمل بقوة على إثارة المنظمات القائمة لليسار القديم (الأحزاب والنقابات العمالية). ومع ذلك، في العديد من البلدان، يتقدم المستبدون الشعبويون المتطرفون اليمينيون، مستغلين استياء قطاعات واسعة من السكان، وأحياناً فشل الحكومات اليسارية. الاحتجاجات سوف تغذيها خيبات الأمل المكبوتة منذ فترة طويلة من سياسة القوى الحاكمة. يضاف إلى ذلك الخوف من التدهور الاجتماعي.

تعتبر حركات الاحتجاج العالمية لعام 2019 غير متجانسة بشكل غير عادي، وتشكلت من خلال السياق الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني والسياسي المعين. ان تصاعد الحركات الشعبوية اليمينية وانتصارات السياسيين القوميين والعنصريين من احزاب اليمين السياسي (من ترامب إلى بولسونارو، ومن أوربان إلى كاتشينسكي) يعكس العجز والغضب الذي تعبر عنه هذه الحركات. من ناحية أخرى، يناشد السياسيون الاشتراكيون، الذين يجمعون بين انتقادهم للظروف السائدة وانتقاد الرأسمالية، الطبقات التابعة لإنهاء حكم النخب والأوليغارشية ("نسبة الـ 1 في المائة"). ويعكس هذا "الارتباك الجديد" أيضاً "التغيير الأساسي في العالم" منذ الأزمة الكبرى لعام 2008 (توزو 2018 – أكاديمي واقتصادي بريطاني – المترجم). لقد دخلت دورة هيمنة الليبرالية الجديدة، التي مرت بمرحلة صعود في سبعينيات القرن العشرين، وبلغت ذروتها في التسعينيات، مرحلة من الانحدار منذ مطلع القرن الجديد وانتهت بعد عام 2008 أساساً نتيجة لاستراتيجيات الغرب في ادارة الأزمات. وعلى نحو متزايد في تشكل الازمة الاجتماعية الاقتصادية البيئية السياسية (ديب 2019).

أزمة عام 2008 كنقطة تحول

لقد كانت أزمة عام 2008 نقطة تحول. وأصبحت العولمة انعكاسية. إن التناقضات والأزمات التي أنتجتها وتعيد إنتاجها رأسمالية الأسواق المالية العالمية، ترتد بشكل متزايد على عواصم رأس المال التي انطلقت منها العولمة. وعلى المستوى الأيديولوجي، تخلق هذه الأزمة "المتعددة" الظروف والأطُر للدعاية اليمينية الشعبوية وكذلك للحركات السياسية والاجتماعية التي تستند الى الاشتراكية وتلاقي ردود فعل. يضع بانيتش وغيندين (2018/12/11) (اقتصاديان كنديّان - المترجم) الارتباط بين أزمات الرأسمالية العالمية وسياسة الليبرالية الجديدة من ناحية و"التحدي الاشتراكي" الجديد في مركز الاهتمام: "نزع الشرعية عن الليبرالية أعاد للقضية الجذرية للاشتراكية شيئاً من المصداقية، للعمل على تحقيق تطلعات البشرية في الديمقراطية والمساواة والبيئية. في العقد الأول من القرن الحالي، كانت مناهضة العولمة الرأسمالية في مركز اهتمام حركات المعارضة. وافتتح العقد الثاني من قبل حركة "احتلوا" ثم تم تحديده من قبل الحركات المناهضة للتقشف في اليونان وإسبانيا (حركات الاحتجاج ردا على الأزمة المالية – المترجم). لقد سلط هذا الضوء بشكل كبير على التفاوت الكبير بين الطبقات في الرأسمالية. لكن الحركات الاحتجاجية التي تفوح منها رائحة الانتفاضة سرعان ما تنكشف محدوديتها السياسة، وتبقى في الشارع ولا تترك اية آثار ثورية على مؤسسات الدولة.

بعد عشر سنوات من الانهيار الكبير في عام 2008، يهز وباء كورونا النظام العالمي الرأسمالي. من شباط 2020 إلى حزيران 2021، تم تسجيل 4 ملايين حالة وفاة؛ انهارت التجارة والإنتاج مرة أخرى نتيجة لإجراءات الإغلاق، خاصة في قطاع الخدمات الخاص، قطاع السياحة، المطاعم، وفى القطاع الثقافي. وارتفعت معدلات حالات الإفلاس والبطالة بشكل مذهل. واستمر بالاتساع التفاوت بين الأغنياء والفقراء، بين بلدان الشمال والجنوب، وخصوصا عجز النظام الصحي، الذي تضرر بشدة من إجراءات خصخصة الليبرالية الجديدة في العقود الماضية. ودعم ذلك، المطالبة بـ أ) توسيع الخدمات الشاملة على أساس المصلحة العامة من قبل الدولة. و ب) التوسع الهائل في الإنفاق الحكومي بهدف الحد من البطالة وكذلك مكافحة تغير المناخ وفي نفس الوقت تعزيز إعادة هيكلة الاقتصاد، بشكل يعزز القطاع العام والبنية التحتية، وأسبقية تأمين المصالح الاجتماعية على مصالح الربح الخاصة للشركات الكبرى والقطاع المالي. وبالنسبة للقوى الاشتراكية، يؤكد الوباء من جديد صحة مطالبتها بتحقيق إصلاحات هيكلية مناهضة للرأسمالية.

كان على السياسيين والأيديولوجيين في الكتلة الحاكمة (مثل بوريس جونسون في بريطانيا العظمى، وجو بايدن في الولايات المتحدة، وأنغيلا ميركل في ألمانيا، وأورسولا فون دير لاين في الاتحاد الأوروبي) القطع مع عقائد الليبرالية الجديدة الخاصة بالتقشف وسياسة المنافسة تحت ضغط عواقب الأزمة. ولا يزال الأمر مفتوحاً تماماً حول كيفية حدوث ذلك

بعد النهاية الرسمية للوباء: أ) كيف سيسير تعافي الاقتصاد الوطني والعالمي، و ب) كيف سيتم التعامل مع هذه التناقضات، جنباً إلى جنب مع الغضب المكبوت لدى قطاعات كبيرة من السكان، في ميدان السياسة.

فقدان السيطرة وارتباك جديد

يثير الجدل العالمي حول بعث الاشتراكية، العديد من الأسئلة بطبيعة الحال. أولاً، يجب دائماً التحقق تجريبياً من أهمية أطروحة "الموجة الثالثة" من الاشتراكية (ميشائيل بري 2016) (فيلسوف وباحث الماني – المترجم)، بعد الموجة الأولى من "ميلادها" وصعودها في "القرن التاسع عشر المطول" (1789 - 1914) والموجة الثانية التي تميزت بظهور وهزيمة الاشتراكية الفعلية بأبعاد عالمية (1917 - 1989/91) – كما يجب التأكيد والتحقق من ان الموجتين الأوليتين تعكسان تاريخ الاشتراكية بشكل كافٍ: بعد كل شيء، كان لكل موجة حتى الآن حركاتها الموجية الخاصة بها، والتي غالباً ما تضمنت قرارات مهمة. قد يكون مصطلح "دورة" أكثر ملاءمة لوصف التاريخ الدرامي والمتناقض للغاية مع الاشتراكية. تشكل الحركة الدورية لتراكم رأس المال وعمليات الأزمة ("الأمواج الطويلة") وكذلك الصراعات الطبقية وتوازن القوى بين الطبقات، البنية الأساسية لهذا التاريخ. ويتضمن هذا أيضاً مسألة كيفية فهم تاريخ الاشتراكية في الدورات المختلفة على أنها سلسلة من عمليات التعلم.

من ناحية، تصبح هذه ضرورية مراراً وتكراراً بسبب الظروف المتغيرة للعمل والنضال في الصراع الطبقي - في سياق تطور الرأسمالية. ومن ناحية أخرى، فإن عمليات التعلم هذه في تاريخ الاشتراكية تشمل أيضاً التعامل مع الهزائم والأخطاء. ويشمل ذلك أيضاً التعلم من المحاولات العملية الفاشلة لتشكيل الاقتصاد والمجتمع والدولة والثقافة خارج الملكية الخاصة وإنتاج الربح والعمل المأجور والاستغلال، وخارج شكل تنظيم الدولة الذي يعمل على تأمين هذا النظام من الحكم الطبقي. من المجتمعات "الشيوعية" في أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر إلى القوى العالمية، الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية، كان لا بد من استخلاص النتائج من التجربة العملية، من النجاحات والتناقضات وانهيارات الأنظمة الاشتراكية. يشير الحزب الشيوعي الصيني، على سبيل المثال، مراراً وتكراراً إلى أن النجاحات التي حققتها الدولة منذ بدء الإصلاحات في عام 1978 ناتجة أيضاً عن تحليل شامل لـ (أ) أوجه قصور الهيكلية في النموذج السوفيتي و (ب) فشل بيريسترويكا غورباتشوف.

إنّ الحركات الموجية التي أكدت فيها الاشتراكية مراراً وتكراراً مطالبها بتشكيل المستقبل، لا يمكن فصلها في القرن العشرين عن الأزمات والحروب والكوارث التي هزت المجتمع الرأسمالي البرجوازي في أبعاد عالمية. لقد أدت الكوارث الإنسانية التي خلفتها الحربان العالميتان، ما بين الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى وأخيراً الفاشية التي رأت نفسها على أنها خلاص النظام البرجوازي

من البلشفية، إلى "موجات" اشتراكية جديدة في نهاية الحروب الكبرى: 1918 و1945 مرتبطة بأمل كثير من الناس في عالم خالٍ من الفاشية والحرب. في القرن الحادي والعشرين، وبعد نهاية المنافسة بين النظامين و"الاشتراكية الفعلية"، لم يتزايد خطر الحرب فقط. بل تشير احتمالات الأزمة في رأسمالية الأسواق المالية العالمية وزيادة احتمالات المخاطر البيئية إلى آفاق كارثة جديدة تماماً. بالنسبة لأنصار علاقات الهيمنة القائمة، يبدو أن عودة الاشتراكية تشكل خطراً أيضاً لأنهم يشعرون بأن إمكاناتها لا يمكن السيطرة عليها بواسطة الآليات الوظيفية لنمط الإنتاج الرأسمالي وآليات السوق الخاصة به. يتبع ذلك حالة عدم اليقين التي لاحظها الصحفيون لبعض الوقت، على سبيل المثال، في القمة الاقتصادية العالمية في (دافوس). ومع زيادة الوعي بالمخاطر العالمية، يزداد كذلك إدراك الكتلة الحاكمة بانها لا تستطيع إيجاد إجابات مناسبة لحلول إنسانية وعادلة لمثل هذه المخاطر.

يعكس تراجع الديمقراطية في الدول الرأسمالية في الغرب انعدام الأمن لدى النخب باعتباره فقدانا للسيطرة (كيتيرير / بيكر 2019) (أكاديميتان المانيتان شابتان مهتمتان بقضايا السلام - المترجم). في اقصى يمين الكتلة الحاكمة، تنمو بالطبع تلك القوى التي حاولت القضاء على الاشتراكية بالقوة منذ بدايتها. وكذلك كانت حملة دونالد ترامب الانتخابية ضد "الاشتراكية". إنّ المسار الدموي لمناهضة الاشتراكية والشيوعية لا يقتصر بأي حال من الأحوال على تلك الفترات التي اندلعت فيها الثورات البروليتارية في القرن العشرين في نهايات الحروب. خصوصا في ألمانيا، كان منتسبو أجهزة الدولة التنفيذية (الجيش والشرطة والقضاء)، هم من أطلقوا العنان لكراهيتهم للاشتراكية في ثورة نوفمبر عام 1918، وبعدها في الإطاحة العنيفة بحركات وجمهوريات المجالس، وأخيراً في عنف الفاشيين الألمان المفرط ضد أعضاء الحركة العمالية الاشتراكية والشيوعية.

تعلم من التجارب وركز على الجديد

وتنعكس "الموجة الثالثة" بالفعل في بعض التحذيرات المثيرة حول "الخطر الأحمر" وكذلك في "البنية الفوقية" العلمية والثقافية، وفي سياق توازن العلاقات السياسية والمجتمعية الحقيقية للطبقات، لكنها تتحرك في مرحلة جنينية مبكرة. ولم يدفعني الانشغال بهذه "المرحلة" إلى الاحتفال بـ "ولادة" الاشتراكية من جديد "بأسلوب البيان أو للعمل على التنبؤات بالانتصارات المستقبلية". بدلا من ذلك، عدت مرة أخرى إلى تاريخ الاشتراكية الحديثة منذ أوائل القرن التاسع عشر، من ناحية لالقاء نظرة على العلاقة بين تاريخ الأزمة في المجتمع البرجوازي الرأسمالي وتاريخ الاشتراكية الحديثة، ومن ناحية أخرى، على موجات ودورات، وصعود وهبوط المسارات المختلفة في هذا التاريخ. ان التاريخ مليء بالضرورة بالتناقضات - وهذا هو السبب في أنه يدحض دائماً كل المفاهيم الخطية للتاريخ عن الصعود الذي لا يمكن وقفه للاشتراكية وجميع المحاولات الرامية إلى

اختزال تنوع هذه المسارات إلى "نموذج" قابل للتطبيق بشكل عام. لقد ميّزت الأفكار الاشتراكية وتنفيذها العملي نفسها بطرق عديدة منذ البداية. وفي كل حقبة تاريخية يتم في النضال من أجل الاشتراكية إعادة تشكيل القوى والبرامج والاستراتيجيات، فمن ناحية، ينبغي ان يكون واضحا أن الاشتراكية في متغيرات مختلفة، يجب ان تلعب دائما دور "المعارضة الأساسية" في مجتمع ذي نمط إنتاج رأسمالي. ومن ناحية اخرى، تؤدي العلاقة بين النقد النظري والتطبيق العملي في المجتمع والسياسة إلى مجموعة واسعة من التناقضات. من ناحية، يجب التعرف على هذه التناقضات، ومن ناحية أخرى، يجب على الفاعلين في السياسة الاشتراكية، التعامل معها بهدف إلغائها أو تجاوزها. إن تقييم تجارب القرن العشرين قرن "التطرفات" (هوبسباوم) يعلمنا على الأقل، أن معالجة مثل هذه التناقضات في مجال: أ) الاستيلاء على سلطة الدولة، و ب) "اعادة سلطة الدولة الى المجتمع" (إنجلس) يقرر دائماً، ما إذا كان مسار "طبقة – دولة - حزب" (وهو ليس اختراعاً نظرياً، ولكنه محدد مسبقا بشكل موضوعي من خلال هيكل المجتمع الرأسمالي ونظامه السياسي) ينتهي الى طريق مسدود تاريخيا أو يساهم في خلق ظروف تكون فيها الحقوق والحريات الديمقراطية من ناحية، مرتبطة بالعدالة الاجتماعية، ومن ناحية أخرى مرتبطة بحماية البيئة والطبيعة والأشكال المتطورة للإدارة الذاتية.

المصادر:

Anderson, Perry (1993), Zum Ende der Geschichte, Berlin.

Anderson, Perry (2010), Zwei Revolutionen. Zur historischen Bilanz der Umwälzungen in China und der Sowjetunion, in: Lettre international, 89, S. 43 – 65.

Brie, Michael (2016), Die dritte Welle des Sozialismus. Eine Skizze, in: Sozialismus, 12/2016, S. 56 – 61.

Deng Xiaoping (1949, Selected Works, Vol. III, Beijing.

Deppe, Frank (1991), Jenseits der Systemkonkurrenz, Marburg.

Deppe, Frank (2016), Kapitalismus und Demokratie im neoliberalen Hegemoniezyklus, in: Eberl, Oliver / Salomon, David (Hrsg.), Perspektiven sozialer Demokratie in der Postdemokratie, Wiesbaden 2017, S. 43 – 64.

Deppe, Frank (2019), Überlegungen zum Charakter der politischen Krise, in: Z. Zeitschrift Marxistische Erneuerung , Nr. 117, März 2019, S. 15 – 35.

Deppe, Frank (2020), Brexit schlägt Sozialismus, in: Z. Zeitschrift marxistische Erneuerung, Nr. 121, März 2020, S. 52 – 59.

Dörre, Klaus / Schickert, Christine (2019), Hrsg., Neosozialismus. Solidarität, Demokratie und Ökologie vs. Kapitalismus, München.

Fest, Joachim (1991), Der zerstörte Traum. Das Ende des utopischen Zeitalters, Berlin.

Fukuyama, Francis (1990), Das Ende der Geschichte?, in: Europäische Rundschau, Winter 1990, S. 1 ff.

Honneth, Axel (2015), Sozialismus. Versuch einer Aktualisierung, Berlin.

Ketterer, Hanna / Becker, Karina (2010), Hrsg., Was stimmt nicht mit der Demokratie? Eine

Debatte mit Klaus Dörre u.a., Berlin.
Kennedy, Paul (1989),, Aufstieg und Fall der großen Mächte. Ökonomischer Wandel und militärischer Konflikt zwischen 1500 und 2000 (1997), Frankfurt / Main.
Klein, Dieter (2019), Zukunft oder Ende des Kapitalismus. Eine kritische Diskursanalyse in turbulenten Zeiten, Hamburg
Maersheimer, John J. (1990), Back to the Future. Instability in Europe after the cold War, in: International Security, Vol. 15, No.1, S. 5-56.
Miliband, Ralph (1994), Socialism for a Sceptical Age, Cambridge.
Newman, Michael (2002), Ralph Miliband and the Politics of the New Left, Pontypool.
Nikolic, Milos (1985), Ed., Socialism on the Threshold of the Twenty-first Century, London.
Panitch, Leo / Gindin, Sam (2018), The Socialist Challenge Today, London.
Sassoon, Donald (1997), One Hundred Years of Socialism. The West European Left in the Twentieth Century, London.
Streeck, Wolfgang (2013), Gekaufte Zeit. Die vertagte Krise des demokratischen Kapitalismus, Berlin.
Sunkara, Bashkar (2019), The Socialist Manifesto. The Case for Radical Politics in an Era of Extreme Inequality, London/ New York: Verso.
Tooze, Adam (2018), Crashed. Wie zehn Jahre Finanzkrise die Welt verändert haben, München.
Wallerstein, Immanuel u.a. (2014), Stirbt der Kapitalismus? Fünf Szenarien für das 21. Jahrhundert, Frankfurt / New York.
Z-Redaktion (2020), Die Bundesrepublik am Beginn der zwanziger Jahre – „Kontrollverlust“, Krisenfelder, schwache Akteure, in: Z. Zeitschrift Marxistische Erneuerung, Nr. 121, März 2020, S. 21 – 37.

* نشر هذا البحث في العدد 127، أيلول 2021 من فصلية "التجديد الماركسي"
(Zeitschrift Marxistische Erneuerung)
وسجلت هيئة تحرير المجلة الملاحظة التالية: هذه المساهمة مستلة من مدخل كتاب فرانك ديبFrank Deep جديد: " الاشتراكية - ولادة وصعود، تناقضات وانحدار، وآفاق"، الذي سيصدر قريبا من احدى دور النشر في مدينة هامبورك الألمانية. والنص المنشور مختصر وبعناوين فرعية. ننشر هذا البحث بمناسبة عيد ميلاد فرانك الثمانين، الذي مرّ في أيلول 2021. وفرانك هو أحد الذين ساهموا وتركوا بصمة في تطوير هذه المجلة واستمرارها. وتنتهز هيئة التحرير هذه المناسبة لتقديم الشكر له، كعالم ماركسي ومفكر، وكمستشار مهم وكاتب دائم، على عقود من التعاون الودي والمنتج، والذي نأمل أن يستمر في المستقبل.

أدب
و
فن

14 تموز.. ثورة وطنية

حسب الله يحيى

عندما ثقلت وطأة الاستعمار البريطاني، وهيمنة القوى السياسية العميلة في ظل معاناة شعبنا وحرمانه من ابسط حقوقه، ووطأة الاقطاع على مجمل الواقع الزراعي العراقي، وبقاء القوى العمالية التي لا تجد نفسها إلا تحت رحمة ارباب العمل، وغياب النشاط العلني للاحزاب السياسية والوطنية الديمقراطية وسيادة الجهل والأمية والعشائرية التي كانت تنخر في جسد المجتمع العراقي.

تحت هذه الظروف وسواها، كان لا بد من التفكير في حل سياسي سريع وحاسم ..

وهذا ماحدث حيث تحركت القوى الوطنية الملتحمة بين الجيش والشعب، وقامت بالثورة المجيدة في 14 تموز 1958 التي جاءت عبر مخاض صعب من الهيمنة الملكية ومجيء نظام وطني ديمقراطي تجسد في الزعيم الوطني عبد الكريم قاسم الذي حقق العديد من الانجازات خلال اقل من خمس سنوات لحكمه، ومازالت موئل الفقراء في مدينة الثورة ومدينة الشعلة وقناة الجيش وبناء المئات من المدارس ومشروع محو الامية والقضاء على الاقطاع والعبودية ومواجهة المجتمع البدوي المتخلف وانتشار الحياة السياسية الحرة بأحزابها الوطنية وصحفها العديدة، الى جانب الكثير من القوانين التي تصب في صالح الشعب .

ومع كل هذه المنجزات خاضت الثورة مخاضا صعبا في مواجهة القوى الظلامية والرجعية وانحراف الثورة عن مسارها الوطني، حيث تحولت الى حكم فردي وافق محدود، وهو الامر الذي ادى في نهاية الامر الى قيام البعث بانقلاب 8 شباط عام 1963 الدموي حيث تمت المؤامرة الرجعية واتساع رقعتها السلبية على القطاعات الثقافية كافة، ومن ثم تقييد حريات الشعب التي كان قد اكتسبها من قبل، ما جعل الاوضاع مثيرة للاستياء الشعبي العارم، وألحق بهذا الانقلاب، انقلاب آخر في 17 تموز عام 1968 الذي كان لاحقا بتلك المؤامرة الشوفينية المرة.

وكان من جراء هذا التعسف الدكتاتوري للبعث ودخوله في سلسلة من الحروب الدامية التي لم يكن للعراقيين اية مصلحة بحدوثها، فكانت تشكل وطأتها على الواقع الاجتماعي الذي بات الناس يبحثون فيه عن سبل للخروج من وطأة هذا الحكم الفاشي.

وكانت رغبة كل العراقيين ملحة في تغيير الاوضاع، فجاء التغيير عام 2003 تغييرا دمويا، ما زال يعيش العراق تحت احداثه التي خسر فيها العراقيون خيرة الشباب في سلسلة من اعمال العنف والجريمة وتقييد الحريات من جديد.

هذا الواقع المريض الذي شهدناه منذ ذلك التغيير حتى الآن جعل العراق يعيش واقعا سلبيا في جميع مرافق الحياة، وكان في مقدمة هذه السلبيات سلب المواطن ابسط حقوقه الانسانية.. وما نشهده اليوم من سياسة صعبة الحل، والتي لا يمكن ايجاد مفاتيح لها إلا في تنازلات سياسية لا ترتضيها تلك القوى التي هيمنت على السلطة.

كل هذه المتغيرات المتلاحقة للعراق والعراقيين كانت تشكل ثقلها على واقع ثقافي لا يجد له سبيلا للحرية وللعطاء الابداعي الذي نبحث عنه على مدى سنوات طوال.

الان.. نرى ان الواقع الثقافي العراقي جزء اساسي من الواقع السياسي الذي تحكمه المصالح الشخصية والفئوية التي تحاصر الثقافة وتشيع الفوضى والامية والخراب والفساد على نطاق واسع.

من هنا نرى اننا لا يمكن ان نفتح صفحات بيضاء نقية للواقع الثقافي الا من خلال المتغيرات التي نتأملها في واقع سياسي جديد، نناضل من اجله وصولا الى افق جديد .

حسب الشيخ جعفر: ذكريات نصف قرن في القلب!

إبراهيم أحمد *

كان لقائي الأول بالشاعر حسب الشيخ جعفر في مقهى البرلمان، شارع الرشيد أواخر الستينات، ربما كانون الاول عام 1969، كان عائدا لتوه من موسكو تسبقه سمعة شعرية قوية حققها بعد صدور ديونه الأول "نخلة الله". كان يوم الجمعة الذي اعتاد أدباء ومثقفون كثر أن يجتمعوا فيه بهذا المقهى. كان معنا الشاعر والناقد يوسف نمر ذياب وكان يعرفه قبلي؛ فأتم التعارف بيننا! خرجنا ثلاثتنا جهة شارع أبي نواس وكأننا على موعد سابق مع كؤوس في بار "سولاف" وأظنه أزيل الآن. توطدت صداقتنا خاصة بعد أن عرف اتجاهي السياسي الشيوعي آنذاك، واطمأن لي سريعا. كلانا يعرف أن يوسف نمر ذياب بعثي، ولكنه لم يكن متعصبا للبعث بل كان مرنا منفتحا على من في الأحزاب، أو الاتجاهات السياسية الأخرى! كما إن البعث نفسه آنذاك وفي بدايات اغتصابه السلطة بمؤامرة القصر المعروفة كان يطرح دعوات وأفكارا تآلفية مع الآخرين ويدعي نقده ونبذه لممارساته الإجرامية السابقة خاصة لدى انقلابهم الدموي في 8 شباط 1963، رغم أن أعماله على الأرض ظلت طافحة بدماء اغتيالات وانتهاكات كثيرة. كان قادة منهم وآخرون حتى من اوساطنا يدرجونها في إطار بدايات سلطة تتلمس طريقها متعثرة وإنها ستتجاوزها إلى وضع أفضل قريبا، لكن ما كان يتفاقم يوما بعد آخر هو طابعها الاستئثاري الاستحواذي الدموي خاصة بعد ان اتضحت ملامح الشبح الخفي وراء معظم ذلك وهو صدام حسين صاحب السوابق الإجرامية الشهيرة منذ ذلك الحين. كان صديقنا يوسف نمر ذياب الذي يعرف صداما عن قرب وحوكم معه (هرب صدام إلى القاهرة وحوكم غيابيا) في محكمة الشعب (المهداوي) بقضية محاولة اغتيال الزعيم، يحدثنا عن لقاءاته السابقة معه في مقهى الآداب في باب المعظم وسلوكه وعن انطباعاته عنه قائلا: "صدام ميموت موت الله"، وإن هذا الرجل سيكون هو من سيدمر البعث، والبلاد

كلها، وقد صدق تماما! ارتحنا ثلاثتنا لبعضنا وصار لنا لقاء يومي كل مساء في بار. كان ينضم الينا أحيانا الدكتور مجيد بكتاش الذي كان يعرف حسب من أيام دراستهما معا في موسكو، أو القاص ناجح فليح الهيتي، وأحيانا الدكتور جلال خياط أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب، أو الأستاذ مدني صالح، فتتحول جلساتنا إلى ما يشبه الندوة الشعرية أو الأدبية ولم تخل طبعا من حدة أو انفعال من هذا أو ذاك لكنها عموما تنتهي بحالة من مزاج ابداعي منعش وجميل!

في احاديث خاصة بيني وبين حسب عرفت أنه مذ كان في قريته أو بلدته "الميمونة" اطراف العمارة -ولد فيها عام 1942 - كان على صلة تنظيمية مع الحزب الشيوعي ارتقت إلى مستوى العضوية أو ظلت متأرجحة على أمل أن تترسخ وتتطور! سعى الحزب الشيوعي لإرسال حسب في زمالة دراسية إلى معهد غوركي، أعتقد عام 1959. وهذا المعهد يختلف عن المعاهد الأدبية في عموم الاتحاد السوفيتي والعالم فهو لا يحظى بدراسة فيه إلا من امتلك موهبة ابداعية مشهودة وموثقة بنتاج يعتد به في الشعر او النثر القصصي أو الروائي، ويحاضر فيه أو يقيم ورشات عمل مبدعون كبار من الاتحاد السوفيتي او الدول الاشتراكية او زائرون من دول أخرى، شيوعيون عادة. وقد عرف عن حسب الجد والدأب والمثابرة فتمكن من تحقيق منجزه الإبداعي من اتقان للغة الروسية والاطلاع على أهم ذراها وينابيعها في الشعر أو الرواية والقصة دون أن يغفل تطوير وصقل لغته العربية وأداته الشعرية ما مكنه من مواصلة ما بدأه في نتاجه الشعري والنثري فيها ومواصلة ترجماته إليها من الروسية. لكن لحسب حياته الروحية الخاصة التي من لوازمها الأساسية الخمرة والمرأة جسدا وروحا حد الانبهار والتيه! ظل حسب بمزاج خاص مرهف أو بحاسة قلقة، فهو لا يحتمل أجواء الخلية الحزبية التي يصفها بالخانقة ولا أعباء العمل التنظيمي والتزاماته حتى في بلد الشيوعية الأول الاتحاد السوفيتي. فكيف لو عاد إلى العراق وواجه قمع السلطة وملاحقتها للشيوعيين وسجنهم وقتلهم؟ توترت علاقته مع المنظمة الحزبية في موسكو أو قطعت لكنه ظل على ايمانه بالشيوعية وحبّه للشيوعيين وكان يحدثني عن ماضيه البكر معهم بفخر واعتداد ودائما يتذكر أنه في احدى سفراته إلى بغداد قبل سفره إلى موسكو عاد محملا ببريد الحزب لرفاقه في القرية: لفة مخبأة بين متاعه من جريدتهم ومنشوراتهم السرية والتي لو مسكت معه لما نجا من براثن سلطة قاسية مع الشيوعيين رغم انها كانت آنذاك في ظل عبد الكريم قاسم المدعوم كثيرا من الشيوعيين!

اتذكر أنه هو من بادر لإعادة صلته او علاقته بالحزب الشيوعي رغم أن الحزب كان آنذاك جريحا ومنهكا ضعيفا، وسلطة البعث لا تكف يوما عن ضرباتها له باعتقال أعضائه وتعذيبهم وقتلهم ومضايقة انصاره ومحاربتهم في انشطتهم ومناقلتهم من وظائفهم الحكومية كان وضع الشيوعيين في العراق أوائل السبعينات صعبا ومريرا جدا وأقرب

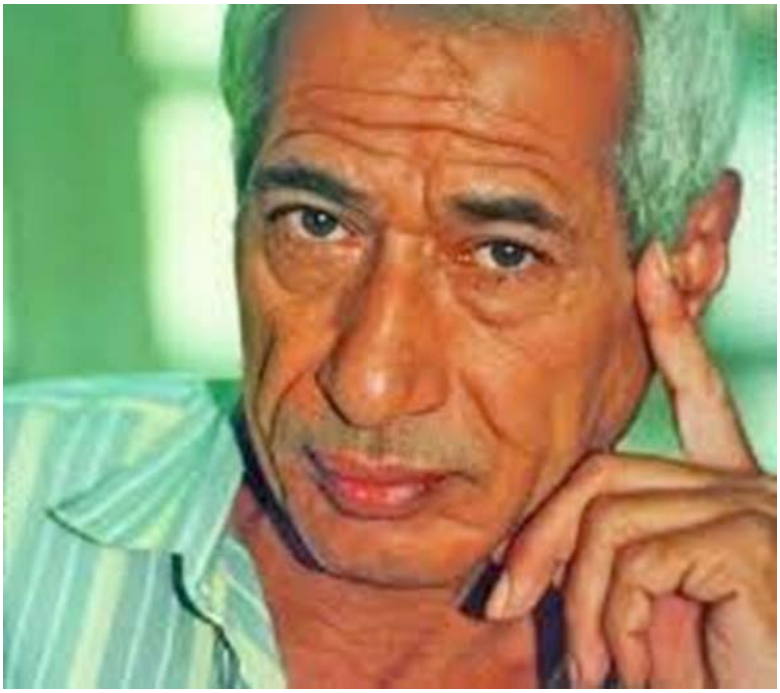

لحرب إبادة، تحت صمت مطبق عادي من اوساط محلية وعالمية بما فيها شيوعية. صار حسب يدفع للحزب من خلالي دينارا تبرعا كل شهر، ولذلك قيمة عندنا تفوق قيمته المادية وهي ليست قليلة في تلك الأيام! وكان رفاقي آنذاك في التنظيم وأتذكر منهم الصحفي المعروف الراحل عزيز سباهي والمسرحي نور الدين فارس مسرورين بعلاقتنا بحسب، معترفين انها مكسب معنوي مهم ومن الصعب بل ومن غير المجدي دعوته لتطويرها لأكثر من ذلك!

كان حسب قد دعاني آنذاك للمشاركة في برامج القسم الثقافي للإذاعة العراقية حيث يرأس هو قسمها الثقافي، فشاركت في اعداد حلقات اذاعية صباحية كان يشارك فيها آنذاك حسين مردان ونبيل ياسين واحمد خلف وحميد الخاقاني، وكان حسب يعرف بالميول اليسارية لمعظمنا كما أنه دعاني لبرنامج ثقافي خاص بي وهو "في المرآة " ثم "فكرة على الطريق" وأطلق برامج ثقافية أخرى شارك فيها فاضل ثامر وياسين النصير، وباسم عبد الحميد حمودي وغيرهم. ولكن بعد توقيع ميثاق ما سمي بالجبهة الوطنية والقومية التقدمية عام 1973 فوجئنا بقرار اصدره محمد سعيد الصحاف المدير العام لهذه المؤسسة، يلغي برامجنا الثقافية ويمنع كل الشيوعيين أو المحسوبين عليهم من دخول الإذاعة، بينما نحن توقعنا أن نشاطنا الثقافي التقدمي عموما سيتسع ويتعمق بعد هذه الجبهة التي انتظرت

طويلا وعلقت عليها آمال كبيرة! ورغم ان شواغلي الحزبية جعلت لقاءاتي مع حسب وجلستنا المشتركة مع يوسف نمر ذياب أخذت تتباعد بل توقفت تقريبا لكن حرصي على صلة حسب مع الحزب، ظلت موضع اهتمامي لأبقي عليها فكنت ألقاه بين فترة وأخرى تطول او تقصر. (من الطريف لدى حسب أن عليّ أن القاه رأس الشهر موعد استلام راتبه او اليوم الذي يليه وإلا فإن جلساته الخمرية ستقضي على مصروفه المقنن وهو محدود طبعا، فيصعب عليه دفع التبرع). كنت أحدثه بهمومنا السياسية والحزبية خاصة مع السلطة ووضع الجهة المتلكئ او المتردي واستلم تبرعه بالدينار الذي انخفضت قيمته الشرائية بحكم التضخم المتسارع لكن قيمته المعنوية ظلت كبيرة لدينا فهي من حسب الشاعر المتفرد الذي ظل قريبا من الحزب في حقبة عصيبة تزايد فيها الهاجرون له بعد أن تزايد نشاط السلطة والمتملقون لها في الترغيب والترهيب فراحت افواج من المثقفين تتهالك على البعث هربا من مظالمه، او طلبا لمغانمه. في العيد الأربعين لميلاد الحزب الشيوعي قررت جريدة "طريق الشعب" اصدار كتب خاصة في هذه المناسبة منها كتاب شعري وكتاب قصصي فسارعت لأطلب من حسب قصيدة خاصة للكتاب الشعري فقدمها لي دون تردد، وإذا اسعفتني الذاكرة أنها كانت بعنوان "النهر" أو موضوعها نهر تكونه ينابيع وروافد كثيرة تجف او تنضب بين فترة وأخرى ولكنه يظل لا يتوقف عن الجريان قويا جارفا. بعد ذلك بأشهر فوجئت بحسب يتلكأ او يتماهل في ملاقاتي ثم حين القاه لا يدفع التبرع ويبدو فاترا في حديثنا الحزبي أو السياسي، فأخذت تراودني ظنون وشكوك شتى. في احتفال البعثيين بعيد ميلاد حزبهم في 7 نيسان 1975 في حدائق مقر اتحاد الادباء في ساحة الاندلس وقف عبد الامير معلة الذي كتب لصدام رواية "الايام الطويلة" عريفا للحفل ليرفع عقيرته امام الميكرفون نافشا ريشه كديك منتصر: "والان اليكم كلمة حزبنا، حزب البعث العربي الاشتراكي، يلقيها عليكم الرفيق حسب الشيخ جعفر". جفلت غير مصدق، وقف حسب امام الميكرفون شاحبا مرتبكا ولم يكن اهتزاز الورقة كأنها ستتمزق بين يديه وحده يعلمني بعدم قناعته بل افتراقه عن موقفه الأليم هذا، كان كل شيء من نبرة صوته الى طريقة نطقه بالكلمات التي لم يكن هو قد كتبها ينبئ بذلك، كأن البعثيون قد أقاموا احتفالهم هنا على غير عادتهم إلا ليعلنوا فيه ضمهم حسب إلى حزبهم! تذكرت ما كان يحدثني به عن ملاحقة ولجاجة عبد الأمير معلة معه لضمه للحزب وابعاده عن الشيوعيين، الذي بات واضحا انتماؤه لهم وجدانيا من قصيدته في الكتاب الاحتفائي! كان معلة الشاعر الفاشل والذي ارتمى بأحضان صدام لا يطيق ان يرى شاعرا موهوبا يسير في طريق قناعاته وتألقه الشعري والإنساني فأصر على اعاقته وتهشيمه روحيا! خرجت قبل انتهاء الحفل كي لا ألقى حسب وكنت مدركا محنته متألما لها كما هو، ومنذ ذلك الحين انقطعت علاقتنا إلا من سلام عابر ولقاءات مصادفة او مناسبة لا كرهاً بل حبا به، فما كنت

أريد احراجه أو وضعه في موقف يؤذي مشاعره وهو الذي به حاجة إلى كل ذرة من طاقته لإبداعية الجميلة! وبقي الحال كذلك حتى انهيار الجبهة وملاحقتي من قبل اجهزتهم لاعتقالي واضطراري للخروج سرا من العراق!

بعض من ثلة الستينات او مريديهم لم يغفروا لحسب أنه نأى بنفسه عن تجمعاتهم وتوجهاتهم ودعواتهم وصخبهم خاصة ما سمي بالبيان الشعري، وإنه تمسك بالأوزان بل وبالقوافي، وإنه رغم سمعته كيساري منذ يفاعته بدا لهم فرديا متقوقعا داخل محرابه الذاتي، وهمومه العاطفية وتوقفه عند جسد المرأة حتى ولو استذكارا لا شبقا ماثلا! فتحدثوا أن شعره بإيقاعاته وموضوعاته يشكل امتدادا لشعر السياب، بل ان بعضهم رآه نسخة منقحة من السياب ذاته، وأنه ما اتى بجديد، وقد لا يأتي! وكنت ارى ان هذا الرأي متعسف كثيرا، وقد وجدت في شعره حالا مغايرا بدءا من كتابه الشعري "نخلة الله" وما تلاه في السبعينات من شعر متدفق بغزارة. فنخلة الله تمثل الشجرة أو كل مصدر خير وثمر وظل لا مالك لها وهي تعود لله كعطاء متاح للجميع تمثل لدى حسب شيئين متباعدين ومتقاربين في آن، فهي مركز حنين وانجذاب إلى الطفولة والقرية والوطن أولا او كرمز لفكرة حسب الشيوعية الأولى في ان يكون ثمة عطاء سخي مجاني للإنسان لا حد له طالما تواصلت أداة الإنتاج واليد المنتجة وتواصلت حاجة الإنسان! وقد كتبت في حينها اوائل السبعينات دراسة طويلة عن شعره بهذه المنطلقات التي تتراوح بين فهمي الماركسي والأدبي الخاص آنذاك، نشرت في مجلة "الأجيال" التي تصدرها نقابة المعلمين وقد اقرني حسب على استنتاجاتها! أما عن اسلوبه الشعري فهو رغم ما يحمله من نكهة سيابية لكنه ظل يحمل سمة حسب الخاصة ونبرته الثابتة المتمكنة والمجدولة من أصوله التراثية العربية العميقة ومن قراءات وخبرات شعرية انسانية يشكل بالطبع الشعر الروسي رافدها الأساس. لم اجده ميالا او متذوقا للشعر الأمريكي لكنه كان يتحدث بود عن الشعر الانجليزي ويعبر عن اعجابه بإليوت و"الأرض الخراب" كجزء من الشعر الإنجليزي لا الأمريكي!

في تشرين الثاني من عام 1989 التقيت حسب فجأة في موسكو وفي بيت صديقنا معا الكاتب والإعلامي المعروف سلام مسافر، الذي هو من رتب دعوة لي لقدومي مع زوجتي وطفلي من المجر علني أجد سبيلا مع المهربين من اجل ايصالنا لاجئين إلى السويد. وحين علم حسب بوجهتي تألم كثيرا، واقترح عليّ أن يتصل بصديقه الشاعر حميد سعيد في بغداد ليرتب لنا عودة سالمة آمنة إلى بغداد، فأستعيد بيتي الذي عرف ان نظام صدام قد صادره، طبعا لم اقبل ذلك، وشكرته على موقفه الذي لا شك أنه كان بدافع المحبة والصداقة والخوف علينا من رحلة محفوفة بالفشل او المزيد من عذاب التشرد. انتظمت لنا جلسات لا تنسى مع صديقنا الروائي غائب طعمة فرمان والصحفي جلال الماشطة، وكانت ثمة أحاديث كثيرة في الأدب والسياسة وقد

لمست ان حسب يتحمس كثيرا لستالين، ولا يقبل بأي نقد يوجه له ما جعلني أفكر؛ أيكون ذلك مدخلا لقناعته بصدام حسين؟ أو مبررا لبقائه في ظل نظامه؟ ذلك أقلقني لكن معرفتي بنقاء سريرته، وعمق موهبته وإبداعه جعلني استبعد أن يؤمن حسب بصدام وبما يدعيه من ايديولوجية ثورية بناءة، وإن حب حسب لستالين هو جزء من انشداده للحياة السوفيتية التي وفرت له منذ مطلع شبابه فردوسا ارضيا ظل ينبوعا لا ينضب لعطائه الشعري وسكينته الروحية! كانت أيامنا في موسكو هي الأخيرة معه، وقد اغتنمنا فرصا لنجلس فيها معا ونستذكر الكثير من الموضوعات التي ظلت تثير شجني حتى اليوم مدركا كم اكتظت حياتنا الثقافية والعامة بمعضلات وانتهاكات كادت تتلف ارواحنا لولا اصرارنا على مجابهة رذائل عصرنا ورجاله السيّئين نتاجها الطبيعي وما اكثرهم واسرع تجددهم جيلا بعد جيل.

عند عودتي بعد سقوط صدام ونظامه حاولت كثيرا لقاءه، فلم افلح، كلما أتيت إلى مقر اتحاد الأدباء على امل ان اجده يقول من أساله عنه أنه صار قليل التردد على نادي اتحاد الأدباء وإن وضعه الصحي يمنعه من الخروج من البيت، اكثر من محاولة قمت بها في زياراتي المتقطعة لبغداد للتواصل معه وهو في بيته فلم أفلح، آخرها كانت عندما حضرت قبل اسابيع الحفل الذي اقامته دائرة الشؤون الثقافية بمناسبة اصدارها اعماله الكاملة، وهناك التقيت بالصديق القاص كاظم الجماسي، فعرض ان يجمعنا في لقاء بمكان ما، فجاء الرد من عائلته أن مرضه يشتد عليه ولا يستطيع الخروج أو اللقاء بأحد، حتى جاء النبأ الفاجع بسرعة لم اكن اتوقعها!

بعض الأصدقاء حين يرحلون يأخذون قطعة من قلوبنا معهم إلى القبر، وقطعة القلب التي أخذها حسب ستظل حية نابضة معه!

• قاص وروائي عراقي يقيم في المنفى.

ومضات سريعة عن العلم والدين

د. افراح لطفي عبد الله *

نسَجت شعوب الحضارات الاولى فكرها تحت سطوة آلهة الاولمب وصراع الجبابرة، تغضب لغضب الآلهة وتفرح لفرحهم.

ولم يكن هذا السلوك مجاملة بل خارطة طريق وجودية، تحتفل بتقديمها قربانا بشريا كضحية لتمشية فصول القحط ومراحل الخوف.

ومع الفكر الفلسفي الأول اصبح الاندماج بين العالِم والباحث بالإلهيات اكثر وضوحا، لكن مع صبغة سلطوية جعلت مجاملة ارسطو مثلا تذهب إلى حدّ وصفه بالمعلم الأول، ما يعني إنه السلطة التعليمية للبشرية، فهو طبيبهم، فقيههم، عالمهم الطبيعي، وما بعد الطبيعي، مرشدهم الفكري، فلَكيّهم، شاعرهم.. الخ...

ووجد فكر ارسطو حاضنة دينية في العصور الوسطى، وعلى مدى قرون طوال..

وهنا اصبحت المجاملة نوعين، مجاملة رجال الدين لفكر ارسطو ربما لإبعاد شبهة الانتماء للسماء فقط، او بالأحرى لتعزيز دورهم السلطوي الأرضي، فأمسكوا بالأرض قبل أن تهرب منهم بعد أن هرّبوا وعي الناس للسماء..

والمجاملة الأخرى ميزت الشعوب القراوسطية لرجال الدين، فبعدما كان سلوك هذه الشعوب عفويا تجاه الآلهة قبلا، اصبح مصطنعا خوفا او رياءً لرجال الدين، وبمجاملة رجال الدين هذه تكون الشعوب قد اطفأت شعلة العقل ما جعل هذه القرون مظلمة..... فكان الناس يحتفلون وسط الظلمة بإعدام العلماء، وينافقون رجال الدين على الباطل وعلى حساب الحقيقة، فسادت ظلمة العقل وغُربة الفكر..

واحتاجت النهضة من هذه الظلمة آلاف الأرواح وأنهارا من الدم لتكتمل..

واكتملت باكتمال المناخ العلمي مع نيوتن الذي اصبح معه العقل البشري هو المركز، والمركزية هذه قد أصابت الإنسان بالغرور باعتباره العارف بكل شيء، فاصبح سلطة معرفية تنتقص من كل فكر آخر يدّعي غير ذلك وكانت هذه نقطة سوداء في صفحة الفكر العلمي الناصعة..

لكن من مميزات هذه الفترة إنها أسست لثقافة تنويرية حرة، وخلقت شعوبا عفوية في نصرة العلم والعقل الحرّ، فاستثمرت هذه الشعوب الفرصة التنويرية حاملةً شعلة العقل لإنارة

الطريق الذي بقي مظلما لقرون عديدة خلت..

وبعكس الشعوب التي كانت عفوية في هذه الفترة، كان رجال الدين غير عفويين بل مجاملين للعلم... فلما لاحقَ الفلاسفة صولات العلم بعدما وجدوا انفسهم مفكرين من الدرجة الثانية بعد العلماء ... توَسَل رجال الدين كافة الطُرق لإيجاد ما يشابه طروحاتهم من العلم، هذا ربما لأنهم كانوا يشعرون بأنهم ذوو عقول درجة ثالثة.. وقد كوَنت هذه لديهم عقدة نقص كبرت باستمرار مع التجديدات العلمية ككرة الثلج.

إن ما حَيَّر البشر من ظواهر قام رجال الدين بتفسيرها وتبديدها لكن مقابل ثمن باهض من حياة الناس، وعلى عكسه العلم الذي كلما كبر واتسع كان يزيل حيرة البشر بمقابل اسعادهم من دون أن يجحف حق أحد في الحياة، او أن يزهق روح..

واستطاع العلم بهذا أن يخلق حيزا من الثقافة تحترم العقل، مضيّقا الخناق على الدين ورجاله، الذين -أي رجال الدين- وبسبب إفلاسهم الفكري والمُعامَلاتي انحسر دورهم في بقعة أرض صغيرة ومحددة..

وفضلا عن ضفة العلم اليانعة هذه، تربعت الفلسفة على الضفة الأخرى فقدمت بتوصيفاتها النقدية محاولات فلسفية مهمة ورائعة لتعريف رجال الدين بحدودهم ضمن المفاصل المعرفية الجديدة.. وقبلاً أقول إنه بالرغم من أن سطوة العلم في الفترة الحديثة قد هزّت كبرياء الفلسفة، لكن تبقى الفلسفة كنبات الكاكتس (الصبار) قادرة على العيش في أحلك الظروف.. إنها تعرف بأنها سرعان ما ستفرض كلمتها وعاجلا ما ستثبت وجودها.

كانت الفلسفة تغرد في سربها الخاص عقليا وتجريبيا، وقد لمعت تغريدة)كانت(عندما ميزَ بين العلم والميتافيزيقا، إذ لاقت اصداء واسعة عند فلاسفة العلم المعاصرين واكثرهم من العلماء.. فوجد بوبر مثلا في (كانت) لقية فلسفية.. بالمقابل كانت تغريدة الوضعيين متطرفة تجاه الميتافيزيقا وبضمنها الدين عندما وصفوها بأنها بلا معنى مقابل العلم الذي يحمل كل المعنى، فكانت فرصة لبوبر اثناء هجومه الحاد على هذا الكلام أن يبني مشروعه للتمييز بين ماهو علم وما هو غير علم..

فبوبر رغم اهتمامه واشتغاله على العلم قد احترم الفكر الميتافيزيقي بما فيه الديني أيضا، كونها بنظره منتجات بشرية لا يمكن احتقارها، وإنه من غير الممكن إقصاؤها لمجرد امتلاكنا اداة معرفية حازت مصداقيتها في الساحة الفكرية..

لكن حتى نعرف حدود وطبيعة الميتافيزيقا والمعارف غير العلمية رأى بوبر من الأهمية أن نُقَيّم طروحاتها هذه بمقارنتها بطروحات العلم..

وبدءا يجب أن نفهم ان العلم غير بقية الحقول المعرفية، فالعلم الذي حظى بالثقة والاحترام من كافة المؤسسات والاكاديميات العلمية وغير العلمية مقابل بقية المعارف التي اقتصر الاعتراف

بقطاعها الخاص على الموالين لها فقط، أقول إن العلم حاز هذه الثقة بسبب أن العلم يخضع على الدوام لشروط صعبة لا يخضع لها غيره من الحقول الفكرية ..

وأهم هذه الشروط هو أن يكون قابلا للتكذيب، وأن يخضع للاختبار القاسي بالبحث عن مكذبات، أي يكون معرّضا للنقد باستمرار.. وهذا يعني إن نظريات العلم هي على المحك باستمرار، إنها دائما بانتظار مكذب ما يهزّها ليمهد للمغاير، فلا يقين هناك ولا اطلاق معرفي ابدا..

وهو باعتقادي ما أسس لمشروع التواضع العلمي إن صح التعبير، مقابل الغرور الديني الذي يدعي اليقين ولا يقبل النقد، ولا يسمح بأن يوضع على المحك..

لأن الكمال والاطلاق واليقين لا يعني المعرفة الكاملة، بل معرفة تقع في براثن الدوغمائية السوداء، الذي هو من أعمال الدين والآيديولوجيات والشموليات..

ووفقا لمشروع التواضع العلمي تجسدت رؤيا تستبعد المجاملة، فلا خوف ولا رياء يُطالب به العلم، إنه سلطة معرفية حرة متواضعة سارت بالبشرية باتجاه ماهو بهيج، فلولا السياسات المغرضة والمتهرئة لكان العلم شجرة الزيتون البشرية الوارفة بالسلام ابدا..

وأخيرا، في مقابل مجتمعات تنويرية الثقافة، كانت السياسات المتهرئة تلك عاملا مساعدا لإستبدال الجهل بالعلم، الظلمة بالتنوير في مجتمعات أخرى، إذ خلقت الظروف المساندة سطوة رجال الدين فيها فكانوا مشروعا لإحياء المجاملة. هكذا أعاد التاريخ نفسه في مجتمعات ضالّة، ومن جديد أطفَأت شعوب هذه المجتمعات شعلة العقل لتسير في طريق مظلم تتلمس فيه خيباتها مرّة بسعادة غبية، وبرياء أخرى.

---

*باحثة وأكاديمية عراقية

الناصرية التي في العلا الشعري والتاريخي في (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي

ناجح المعموري *

تشكل عتبات النصوص وجوداً جوهرياً ضمن مجموع النصوص التي يتكون فيها الكتاب الأدبي وتؤدي دوراً مركزياً لافتاً للانتباه وأحياناً كثيرة تتجاوزها قراءات المتلقي، على الرغم من كونها تمثل وسيطاً ضرورياً بين المتلقي والنصوص، وهي قادرة على فتح مجال إبداعي، يضيء النصوص أو بعضٍ منها، كما أنها تضيء كونها تكوينا ثقافيا وبنائيا في العمل الأدبي، بالإضافة للذي تتمتع به من مشاركة بنائية، ليست خارجية، أو هامشية، بل هي ذات حضورٍ بنائي داخلي وفي أحيانٍ عديدة يتحول إلى موجود عميق تنشغل به القراءات النقدية.

هذا رأي وأنا أدخل لقراءة المجموعة الشعرية "بريد الفتى السومري" للشاعر عدنان الفضلي، وأول ما يلفت انتباه المتلقي، العتبة الأولى وبدون عنوان، لأنها تكتفي بما انطوت عليه من إشارات ذات بلاغة قوية، لأنها مكتوبة عن سومر، التي لا تحتاج عنونة

لها- لأنها مكتفية بكنيتها التي تجاوزت جغرافيتها لتمتد نحو جغرافيا عالمية.

لقد قصدت بمنحي "الجغرافيا" لسومر ولا تحتاج إلى إيضاح إلى المدينة السومرية العتيقة "الناصرية" التي علمتني ما لم أعلم. وإلى الشرفاء الذين أنجبتهم وفي مقدمتهم (عقيل الناصري، سهيل عبد الله، وأحمد علوان فارة).

الإهداء مثير، لأنه حاز هذه الصيغة في تنوعه الطافر عن النمط والتقليد واختار الشاعر الفضلي ثلاثة أسماء رموزاً تنتمي إلى سومر.

ملاحظتي الأولى "الناصرية" التي

عدّها الشاعر عتيقة، بينما هي جديدة باستمرار، متجددة في كل يوم، لأنها منذ زمنها الأول صارت منبعاً لتغذية المدن العراقية بما لم يكن فيها على الرغم من التماثل بين الناصرية "سومر" وبين المدن الأخرى بما عرف عنها حضارية، لكني أعني الدور الثقافي والسياسي الذي اختارته هذه المدينة وانفردت به، وتحولت إلى منبر للجميع "الكلمة"، القول بأن الأسطورة تتسلل في السرد والشعر، ليس متطابقاً مع التاريخية الخاصة بالفنون/ الآداب. لأن الأسطورة، النوع الأول في تاريخ الحضارات الأولى، وخصوصاً الشعرية. وعلينا أن نؤشر بأن اقتناص الأسطورة، يعني العودة إلى الشعر، من أجل قيادته إلى الحاضنة الأولى، واعتقد بأنه لا يمكن المداخلة أو التشارك بين الشعر والأسطورة، لأنهما معاً تكونا في لحظة، قد تبدو واحدة، لكنهما يساكنان فاصلة بينهما - وهذه عتبة جوهرية وضرورية، لأنها تؤكد وجود العتبة الأسطورية أولاً ومن بعدها ما هو ملاحق للأسطورة من طقوسٍ وعقائد وشعائر، لكن الشعر هو التالي.

هذا ما نريد الوصول إليه والتعامل وإياه، بوصفه ركناً مكرساً لا تستطيع العلاقة الأدبية والثقافية، فك الاشتباك بينهما. واستطيع الإشارة لذلك من خلال شاهد ولكنه جوهري وضروري، إنه نص للشاعر عدنان الفضلي (الناصرية التي في العلى). وهذه العنونة مثيرة للحيرة والدهشة لأن التاريخ حقيقي. الشعر كامن وحاضر وسط التاريخ. وتاريخ قصيدة الفضلي، محيرة، مثيرة للقلق والإثارة، والسبب في حصول ذلك، هو المتن النصّي وما يثيره من أسئلة وإشكالات، ليست شكلية، تبرز أحياناً في بعض القصائد التي تذهب سريعة، من أجل توضيح الأسطورة/ الطقس/ الشعائر/ السحرية. التي هي أعقد السحريات والأسطوريات لأنها تستلزم الخضوع لعلاقات السلطة والاشتباك معها، وعدم الاستسلام لإخضاعاتها، وإنما الإعلان عن بقاء القوة المترامية بفضاء ليس ضيقاً، بل هو متسع وعميق، لكن الإشكالية هي، هل بالإمكان التجاور مع الأسطورة/ الحكاية/ مقدس/ واضح؟، وليس ملتبسا. أنا أنبه لذلك من أجل خلق صدمة ثقافية قوية وعارفة. حتى تفضي لمساحة مضادة، متشاكلة، لأن الحضور، متوتر، مشكوك به.

وكثيراً ما تحدثت مع أصدقائي أبناء هذه المدينة مع أنني عندما كنت قادراً على زيارتها باستمرار بدعواتٍ ثقافية، ولحظة أغادرها، أجد نفسي أستدير إليها، ملتفتاً لما تركت ورائي، للعلاقة العميقة التي تربطني منذ زمنٍ مبكر جداً، لا للسبب الحضاري وإنما السياسي أولاً وهو الذي قادني لاحقاً لما أنا فيه منذ سنواتٍ طويلة.

هذه هي المدينة الجديدة، التي تنزع جلدها سنوياً وتعلن عن انبعاثها وتجددها من أجل الحفاظ على ديمومتها.

1 - الناصرية التي في العلا

اختار الشاعر الفضلي عنونة مهمة جداً للعتبة ذات الشعرية، لكنه لم يرد التورط بازدواجٍ ثنائي بين الناصرية وبابل، على الرغم من أن الناصرية هي الأصل الذي أفضى إلى "حينما كنا في العلا" وإضفاء مثل هذا تاريخي متواصل، وأساطير مع عقائدها وطقوسها وسحرياتها، وأيضاً مع كل الأنظمة التي صاغتها سومر وانتقلت بهدوءٍ متحاور مع الأصول إلى أكد، وحازت بابل ما شاء لها أن تختار، واعتقد بأن عنونة الفضلي "الناصرية التي في العلا" ليست بعيدة عن المكان لأنه منح هذه المدينة بعضاً من الذي أنا تحدثت عنه وركزت عليه بوعي تام.

فالناصرية التي في العلا، منذ لحظتها الأولى وحتى الآن. وتضمن هذا النص التماعات ذات طاقة شعرية، تقود المتلقي بهدوءٍ ومرونة، ليتعرف على بعضٍ من تاريخ هذه المدينة، وحتماً لا يقوى الشعر على تدوين التاريخ إلا عن طريق صفته الملحمية. لذا اختار الفضلي السرد لاقتناص التاريخ أو لاحتضانه، لأنه موجود وغير بعيد. واللغة الشعرية دائماً ما تتمكن من مطاردة التاريخ وتتلاعب بوقائعه وأحداثه وتقدمه للمتلقي نصاً مدهشاً ومثيراً بتنوعات الوحدات السردية فيه.

أنا واثق بأن نص "الناصرية التي في العلا" عتبة مكان كان وما زال منعكساً على سطوح المرايا والمدهش أن هذه المرايا ليست محددة بمكانٍ هو الذي ذهب إليه الشاعر الفضلي، بل المكان هو الجغرافيا الواسعة، والمتشظية.

واجهت هذه المرايا كثيراً من الرضات وصارت كسراً موزعة في ما لا يحصى من الأماكن هنا في جغرافيات العالم. ضغط الفضلي على الذاكرة الفردية والجمعية للأفراد، وضغط على جرس الخزان، كي يستعيد ما كان سرداً في حقبٍ من تاريخٍ طويل. لذا استطاع الشاعر اصطياد نجاحٍ مهم، تمثل في إخضاع المتلقي لشعرية سرده التاريخي لبعض الشواهد والمشاهد وكأنه يدعونا بهدوء بلغته أن نعيشها مرة أخرى، أو يأخذ من لم يعشها من أجل التعايش معها من جديد.

"في الطريق إلى الناصرية..

قد يصادفك مشحوف، لم يكتب عليه لفظ الجلالة.

إنه يعود لبوذا، وقت جاء يتعلم العزف الجنوبي،

في مضارب بني أسد

نسيه عن جدتي التي أورثتني الضلالة السومرية اللذيذة..

قد تسقط نظراتك على أطلال بئرٍ، تحرسه أفعى خضراء،

هذا منبع الأهوار، التي سكنها شعب يتلو على نفسه فقط،

الأبوذيات التي تكتبها النسوة، مدافة بالطين وبقايا القصب (ص7)

اخترت هذا النص اعتباطاً، وربما بسبب موقعه ضمن النص استهواني جداً، لأنه اختصر كثيراً من أساطير وعقائد وطقوس. وأشار بذكاء للدور الأمومي

الذي اضطلعت به الآلهة الأم الكبرى وظلت بحضورها حتى هذه اللحظة، عبر كل ما تركته من نظامها الثقافي والديني. كما وجدت وهذا ما سأحاول المرور عليه سريعاً.

اعتباطية الفضلي في التقاط تجوهرات ذات صلة عميقة مع عتبات سومر الأولى. هذا يعني استمرار موروثها المودع في ذاكرةٍ قوية ويقظة وسنرى تأثيرها في الوعي واللاوعي واستيقاظ بلحظةٍ ما وجدت حاجة حياتية لتلك اليقظة، لكن عارض مجتمعي، جمعي، أو فردي هو الذي أزاح المتراكم فوق الثابت الذي لا يغيب تماماً، بل يختار لحظة يقظته. كما أن السرد يستقوي على ما تتوفر فيه من عناصر، لها صلة بالتاريخ. مكونات، أو عناصر نظام الإلوهة المؤنثة بشغاقة، لأنها استعانت

بالذاكرة والشعر. فالمشحوف رمز بكري، موجود، لكنه غادر علاقته بالرب، مثلما كانت تتعامل معه سومر. والأساطير التي كان المشحوف مجالاً حيوياً فيها، عديدة، ومثال ذلك، هروب الآلهة (إنانا/ عشتار) معتمدة عليه عند سرقتها للنواميس الإلهية من ''أنكي'' وهربت بها إلى مدينة أوروك. فالمشحوف في نص الفضلي لم يكن إشارة عابرة لوجوده في التداول اليومي الآن، بل هو جزء مكتظ بأساطير خاصة بالديانة السومرية وامتد وعرفته أسفار التوراة كوظائف الانتقال والحركة للإله (يهوه)، متماثلاً بما كان يفعله آلهة سومر.

وأضاف الشاعر معلومة خاصة ببوذا واقترانه بالمشحوف ولذلك رواسب موجودة في بعض المرويات عن وجود أقوام وفدت من الهند إلى سومر، واختار الفضلي للتنوع المقدس أن يكون بوذا موجوداً، أنه يوظف الشعر من أجل طاقة الرمز الكامن، والذي يفضي للدلالة،

لأن الديانة البوذية متأخرة كثيراً للغاية عن ديانة سومر. فالقرن السادس ق. م هو اللحظة التاريخية الحضارية التي تحدث عنها جورج سورتان في عمله الموسوعي "تاريخ العلم". وأشار إلى أن تلك اللحظة هي أهم ما عرفه التاريخ في الشرق وتجاوز المانونية/ الزرادشتية/ المسيحية/ البوذية/ هل أراد الفضلي الإشارة للتشاكل الثقافي والديني والعلمي عبر الإشارة لبوذا؟

ملاحظة الفضلي بشأن العزف ورغبة بوذا بتعلمه من سومر مباشرة وعبر العلاقة الدقيقة مع روحها لها شيء من الصواب لأن الموسيقى في سومر أقدم من الهند بكثير. واعتمدت الموسيقى في الهند حتى هذه اللحظة، معياراً للتعامل مع الكائن لحظة تعلمه الموسيقى ويحوز بذلك كينونته وآدميته. أنا أتحدث عن نص فتح لي منفذاً للحديث ولا يعنيني الفضلي، عرف ذلك أم لم يعرف! المهم ما فجره النص من تداعيات ثقافية في داخلي وأنا اسجل ملاحظاتي عن عتبتي الديوان فقط، ويبدو لي واضحاً أن الشاعر الفضلي يأخذ المتلقي نحو الرضا والقبول بالمعلومات الافتراضية ويقنعه بها. مثال ما ذكره عن مجيء بوذا وتعلمه العزف الجنوبي في مضارب بني أسد. وهذه الإشارة تحويل الافتراض إلى واقعة معلومة ومعروفة في التداول وصارت ذات حضور قوي عبر التواتر. أما رمز البئر وعلاقته بالأفعى الخضراء فهو ظاهراتياً متنوع الدلالة، ولعل أهمها هو التعامل معه بوصفه فرجاً، ولم يكن هذا الحضور الرمزي غريباً، لاسيما وأن سومر عرفت طقوس الزواج والجنس.

وهو لا يبتعد تماماً عن معناه الجنسي والبئر أثر الموجودات وجوداً قوياً وعرفته المراحل الحضارية العراقية منذ سومر وحتى آشور. ولم تكن ملحمة كلكامش بعيدة عن هيمنة هذا الرمز وتكرره ست مرات ووظفته حقبة التوراة ووظفوه كثيراً والتأثير واضح للتماثل بعدد التكرارات. واعتقد أن الحضور البئري والنبعي والعيني يمتد كثيراً في كل ديانات الشرق ودارت حولها الكثير من الأساطير والعقائد والبئر في سبيل المثال - هو الشاهد على ضياع عشبة الخلود التي عاد بها الملك جلجامش وسرقتها الأفعى بعد نزوله للبئر للاغتسال أو التطهر. وتعاود الأفعى حضورها مرةً جديدة، لكنها في هذا النص ذات لونٍ أخضر، دلالة لاقترانها بالانبعاث ولونه الدال على الحياة. كما اعتقد بأن مجاورة الأفعى للبئر، كافية لتأكيد المعنى الذي ذهبت إليه بشأن الجنس المقدس.

منح الشاعر البئر كنية أخرى، أنه نبع، وهذا ممكن لأنه يتمتع بحضورٍ قوي. ومن البئر تصاعدت وامتدت مياه الأهوار وتسيدت بقوةٍ هائلة شخصية الإله "إنكي/ آيا/ الإله الخاص بالآبسو وهو منتج كل ما له حضور في كل الأهوار.

من هنا أنا اعتقد - مثلما أشارت الدراسات - إلى أن هذا الإله أكثر

الآلهة في مجلسهم بالعراق القديم عقلاً وحكمة وخبرة في مناصرته المستمرة للمضطهدين من الأفراد والجماعات ولا حاجة للتذكير بذلك لأنها كثيرة.

الأهوار سكنها شعب يغني لنفسه فقط نصوص الأذى والضيم والجوع التي ابتكرتها النسوة امتداداً لوظيفةٍ مبكرة اقترنت بالآلهة الأم الكبرى، الأم السومرية: ننخرساك/ ماما/ مامي هي التي أسست نظامها الأمومي ووظائفها الحياتية، الرقص/ الشعر/ الغناء/ العطور.

قال الفضلي ما نعرفه عن الأصول المبكرة التي كانت الأم السومرية هي المنتجة والمرسلة لها لكل حضارات الشرق.

ليس هذا فقط، بل وظف الفضلي عناصر الشعر المستعارة من الأسطورة التي هي الأصل الأول، كما قال "الأبوذيات التي تكتبها النسوة، مدافة بالطين وبقايا القصب". المخيال أخذ الفضلي نحو عتبة الخلق الأولى والتكوين المبكر حيث الطين، عنصر الخلق السومري والأكدي، فالارتكان للغناء من الأبوذيات تعني خلقاً، لأن الطين العنصر الأول في إبداعات الأم الأولى، ليس من الطين فقط، بل من القصب.

هما المركز الحيوي القوي، والجبار للحضارة السومرية التي امتدت وصعدت للشرق وما زالت حتى هذه اللحظة تغذي الناصرية التي بالعلا بمخزونها العظيم وموروثاتها.

2 - في الطريق إلى الناصرية

ستلاحظ ثمة مسرى على شكل زقورة
تنتصب في ساحةٍ عتيقة،
هذا طريق الله الذي تسلكه الملائكة
فالرب في صومعته العليا...
وكلما نال منه العطش،
بعث بطلب شربةٍ من الفرات،
وكلما جاسه الحنين إلى خلقه الأولين..
أرسل بمن يأتي له بمطربٍ سومري عتيق... (ص9)

في المقطع الثاني لنص "في الطريق إلى الناصرية" حصل تراكم واضح بما يجعل من الناصرية مكاناً غنياً بمتروكات هي علامات واضحة على التاريخ، والعلامات عيانية/ شواهد، آثار، وليست سرديات مثلما في البداية. وهذا المقطع المغتني بما عرفته سومر. وهو أبرز معالم لحظة سومر العظيمة، وهي زقورة أور. واللافت للانتباه التتالي في الكشوف حتى تكتمل الصورة التي جعلت من الناصرية في العلا والزقورة التي تضمنها المقطع الثاني هي زقورة الإله ننا/ سين والتي رممها طه باقر وفؤاد سفر، وهي قائمة وسط ساحة واسعة جداً وعلى يسارها مقبرة الملوك.

إشارة الفضلي لزقورة ننا/ سين تعني حضور سومر في الذاكرة، فلا وجود لسومر بمعزل عن الزقورة وهذا هو السبب – كما اعتقد- الذي جعل طه باقر وفؤاد سفر يقومان بترميمها بالكامل

وحتى المكان الخاص بالإله هابطاً إليه من السماء.... إنه في قمة معبده ودائماً ما يرتشف ماءً فراتياً، عندما يشعر بالعطش، هو الذي يطلبه. هذا الإله المتعالي المندهش بحنين مفاجئ لأول من خلق. وهذه ملاحظة مثيرة، لأن الإله نانا/ سين كان إلهاً خالقاً مثل الآلهة: آنليل، شمشي، آنكي. وإشارة الخلق حضور الشعر من أجل كسر السياق الرتيب وتحطيم النمط بالإضافة المجددة لما هو جديد، والخلق الأولين، فضلاً عن المخيال الشعري للسياق الذي حطم الانتظام النثري.

يفتتح الشاعر عدنان الفضلي فجوة صغيرة جداً، تجعل من الإله نانا/ سين متصلاً عن طريق الطاقة الشعرية في خاتمة النص وهو يحلم بمطربٍ سومري عتيق، يريد الاستماع له مرتلاً الأغاني التي كتبتها النسوة ممزوجة بالطين والقصب.

هنا توحيد للمقطعين في نص "الناصرية التي في العلا" والتي سمحت لإلهٍ حضر في تخيلات الشعر إلى الحاضر وهو يستمع إلى داخل حسن.

*** الرئيس السابق للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق**

عمر السراي: كثرة العمل تجلب الإبداع

عمر السراي شاعر عراقي، تولد 1980، بكالوريوس آداب لغة عربية/ الجامعة المستنصرية، ماجستير أدب حديث/ كلية التربية/ الجامعة المستنصرية، طالب دكتوراه أدب حديث/ جامعة المنصورة. مدرس في معهد الفنون الجميلة. محرر صحفي. الأمين العام لاتحاد ادباء العراق. من مؤلفاته الشعرية: ساعة في زمن واقف 1999، وضفائر سلم الأحزان 2005، سماؤك قمحي 2007، طواويس ماء 2009، وصدر له أخيرا في عام 2022 حلويات. اما في النقد فصدر له عام 2016 كتاب: الهوية والشعر. وله العديد من المخطوطات الأخرى في مجال الشعر والنقد والمسرح.

الثقافة الجديدة: لا يمكن فهم التجربة الشعرية عند الشاعر كمبدع، إلا بارتباطها برؤيته الشعرية. وإذا كانت الرؤية الشعرية، لا تمثل التلقي السلبي فقط لمؤثرات واحداث العالم، بل هي ذلك التفاعل والتصادم والصراع، فإن التجربة الشعرية على تعدد عناوينها، هي ذلك التجسد للرؤية بصفائها ورونقها، بشغفها وعنفوانها وعنفها.

منذ مجموعتك (ساعة في زمن واقف- 1999)، كيف تستطيع ان تبسط لنا ملامح تطور تجربتك - أو تجاربك - الشعرية الطويلة، التي امتدت أكثر من نصف عمرك، وارتباطها بتطور رؤيتك الشعرية.

السراي: أكاد أجزم بأني أكثر الشعراء تحوّلا في كتابة الشكل الشعري، اذ ان عدم الثبات على سكّة كتابية واحدة ومستمرة، منحني تنوعا داخل التجربة الشعرية.

ففي بدايات الكتابة، ومنذ مراحل الكتابة في الصغر كنت مهووسا بقراءة ما أجده من شعر مترجم لنيرودا ومايكوفسكي ورامبو وغيرهم بحكم المكتبة المتوفرة في المنزل، فقد كنت أصغر أسرة كلها تقرأ.

فإذا كانت الكتابة الشعرية إعادةً لاستيلاد المقروء، فمن الممكن القول إن تعدد مشارب قراءاتي في الشعر الحديث والتراث والأخبار والفضاء والخيال العلمي الى غير ذلك من مناهل القراءة جعل كل ذلك من تجربتي ملونة ومتطورة دائماً، إلا أن المخالف لمنطق التطور الشعري لدى مجمل الشعراء، انني ابتدأت الكتابة بقصيدة النثر، ومنها الى التفعيلة ومنها الى القصيدة ذات الشطرين، وحالما اكتملت تجربتي صرت اكتب بما يمليه عليّ الذوق المغروز في كل مراحلي القرائية.

الآن أمتلك رؤية أصفى إزاء الشعر، والقصيدة الآن عندي، تمثّل مرحلةً يجب ان تكون قريبة من القارئ بيوميتها وضراوة طاقتها الكبيرة.

الثقافة الجديدة: نستطيع الحديث، وربما على درجة كبيرة من المصداقية، ان الخطاب الثقافي المسيطر الراهن - بمختلف تنويعاته- يعيش حالة من الرتابة والنمطية ويدور في حلقة مفرغة. وهو منذ فترة طويلة حبيس موضوعات متداولة ورهين احداث معينة تمجد البطل الوهم أو يخاطب حالة اللاوعي وتمجيد السلفية والطائفية ويستخدم اصطلاحات متأنقة ومختارة، يخاطب بها حالة اللاوعي (او ما قبل الوعي) عند الجمهور، يمارس وظيفته الايديولوجية في ظروف الازمة وهي خلق حالة من اللاوعي بتلك المشكلات يحرف القضايا الثقافية عن حقلها الصحيح، كمحاولة لتهميش الجمهور ثقافيا، وكجزء من محاولة اعادة انتاج سيطرته الايديولوجية المتسمة بحالة متفجرة دوما.

والسؤال هو: كيف السبيل الى خطاب جديد يتجاوز اللحظة الراهنة؟ وما هي شروط وامكانيات انتاج خطاب ثقافي يكافح حالة الرتابة والانغلاق على الذات ويخلق مساحة رحبة " لتفجير " الطاقات الابداعية وازدهارها في ظل التنوع والتمايز؟ وبنظركم ما هي القوى الاجتماعية القادرة حقا على صياغة مشروع ثقافي بديل؟

السراي: لا أتّفق - بدءا - مع التوصيف المساق أولا بخصوص الثقافة، فالوجود الثقافي مختلف عن وجود سياسي او اقتصادي مرتبك، لأن العراق شهد تطورا ثقافيا كبيرا بسبب الحرية المتاحة، والتي وإن كانت ذات مضار، إلا أنها تحمل فوائد جمّة أهمها المصداقية، والتعبير المباشر غير الموارب.

أما الخطاب الثقافي الذي من الممكن الوصول إليه وترسيخ وجوده في

المجتمع، فهو خطاب ليس آنيا وليس لحظيا، ولا يمكن لأية جهة ادّعاءه او اختصاره، لذلك هو عام وسيبقى عاما، وستفشل كل محاولات انشاء خطاب غير منتمٍ او بعيد عن الواقع..

بصراحة كبرى لم تمتلك الدولة العراقية خطابها الثقافي قط، وارتهنت لأمزجة عشوائية تقدم رؤية السلطة على رؤية الحاجة الفعلية، كما سقط الخطاب الثقافي في فخاخ ايديولوجية لم تكن ناجحة في صناعة واقع او مستقبل ثقافي.

والحل في صناعة خطاب وطني ثقافي هادف، يكمن في الدراسة العلمية لكيفية تكوّن هذا الخطاب، والمسح الاجتماعي ودراسة الجدوى المسبقة لهذا المشروع، واستقراء التلقي وهمومه، وبعد استقرار هذه الموضوعات من الممكن الشروع في ربط أواصر المجتمع بثقافة هادفة وفاعلة.

الثقافة الجديدة: هناك توظيف جميل للتراث في العديد من نصوصك الشعرية، كما ان هناك اعتمادا على مفردات تصدم قارئك وتعيده الى وعيه الجاد، ولكن تلك النصوص لا تعتمد التقريرية المباشرة وانما تحلق في فضاءات اسمى. لكن الجوهري في العديد من نصوصك الشعرية هو انها منحازة، تعكس البسطاء من الناس وتلعن نقيضهم. ينطرح هنا سؤال بسيط وحارق في آن وهو: الى أي حد يمكن للمبدع ان يكون مبدعا من خلال انتاجه لنص رفيع التكوين، نص لا ينشغل بالمباشرة والتقريرية من جهة، والى ان يكون النص هذا قريبا من هموم وآمال الناس البسطاء، نص لا يتعالى ولكنه يفهم جيدا وظيفته ورسالته؟ كيف تولف أو قل كيف تحل اشكالية الشكل/ المضمون في ابداعك؟

السراي: على النص أن يكون واضحا الى درجة معينة، فكتابة المعمّيات لا تعد شعرا ابدا، اذ ليست ثمة جدوى في التعتيم اللغوي، والشعر ابن المعنى، ولا يكتفي بأن يكون نشاطا لغويا مجردا من الهدف، لذلك انا اكتب الحياة كما اكتب عن الحياة، واكتب عن نفسي، ومن يكتب عن نفسه بالضرورة ان يكتب عن الآخرين، فالشاعر فرد في مجتمع اكبر.

الانتماء الفكري هو انتماء طبقي ايضا، او محاولة لإلغاء الطبقية عبر النهوض بالمعدمين الى طبقة فاعلة واحدة، وانا بحكم انتمائي الفكري للفقراء، اسعى لكتابة نص يغادر فوقيته المتعالية نحو كتابة طبق شعري مثمر ومفيد وممتع، ليظل الشعر ابنا للجمال والفائدة.

الثقافة الجديدة: هناك الان جيل من المبدعين، شعرا ومن الاجناس الاخرى، خرج من رماد القيامات العديدة والحروب وصراعات الطوائف والاثنيات، يشق طريقه للإبداع بقوة محاولا التحليق بعيدا عن ارغامات المؤسسة الرسمية وتوابعها التي حاصرت السؤال الابداعي في مناطق الصمت وراح همها ينحصر في توزيع الوظائف ووضع اكاليل الغار على صدور المقلدين والعائدين بخشوع الى

بيت " الاب "، وبالمقابل تشطب على كل مشتبه في طاعته. في هذا الجيل هناك من يقدم اليوم صورا شعرية ونصوصا ابداعية مبهرة وتخترق كلماته مناطق الصمت وكثير من "المحرمات "، انه جيل يمتاز بطرح اسئلة حارقة تحاول كسر اصنام الوثوقية وثقافة السلطة السائدة.

هل لك عزيزنا الاستاذ عمر ان تحدثنا عن ابرز المعالم والسمات المميزة للجيل الجديد وهو يسير بقوة في مغامرته الابداعية، بمختلف تلاوينها شعرا ونقدا وقصة ورواية...الخ؟

السراي: الجيل المعاصر هو جيل ذكي، بمعنى انه يجيد فتح النص الذي يكتبه نحو النصوص الأخرى، وجيل يدرك ان القصيدة لم تعد وحدها قصيدة، انما جاء الوقت لتكون القصيدة متعددة المخرجات، وقد استطاع هذا الجيل الخروج من البناء الخطي والأحادي نحو البناء الاتْجاهي ومتعدد الأصوات.

في قصائد شعراء الجيل المعاصر الأخير - واعني بهم الشعراء الذين ظهروا بعد عام ٢٠١٠ - أو سبقوه أو تأخروا عنه قليلا، هناك بعد علموي، وابعاد كبيرة من التعبير المعرفي، وثمة توجه نحو الهوية والثبات على الهوية الوطنية، كما ان اسطورة الشاعر الوجداني تكاد تنتهي، الا ان حظوظها مازالت موجودة، والجميل ان ما حل محلها، هو الشاعر العضوي، المحلل والكاتب والمعبر عن الرأي.

الثقافة الجديدة: ظلت الحياة الثقافية في العراق تحمل هوية وطنية ذات طابع تقدمي. وبقي الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق أحد أبرز دعائم ترسيخ هذه الهوية التقدمية. ولكونك كنت ولسنوات طويلة الناطق للاتحاد الادباء، ترى ما هو تقييمك لمسيرة الاتحاد في دورتيه الاخيرتين وما ميزتهما عن الدورات السابقة؟ ومن ناحية ثانية، كيف يمكن تعزيز هذه في دورة الاتحاد المقبلة؟

السراي: النطق باسم الاتحاد أمر مهم وصعب ايضا، فالنطق موقف وليس كتابة او كلاما فحسب.. ما يجدر ذكره بخصوص هذا الشأن، ان خطاب الاتحاد ظل مدنيا، محافظا على الثوابت الوطنية، ولم ينجر نحو خطابات مسيئة او مهادنة، وقد استطاعت الناطقية الاعلامية ان تعلن عن كلماتها وترتب آليات عملها، وتمارس التغطية الدورية واليومية، اما اسلوب الكتابة او اصدار البيانات فكان منسجما مع التوجه الأدبي برشاقته المعهودة، كما ان اضافة الكلمات المعبرة والدالة دليل على نجاح هذه الخطابات، وقد تمت متابعة نشر كلمات شهرية باسم الاتحاد توضح المبادئ العامة والنشاطات وارشفة المطبوع والمرسل والخطط المستقبلية.

يحق القول ان الاتحاد كان وظل ممتلكا خطابا مشرفا خصوصا ايام الشدائد لا سيما تشرين، اذ اصطف اولا مع المواطنين، وسبق انطلاق التظاهرات بالإشارة اليها وتحذير المتنفذين من مضار عدم

الاستماع الى مطالب الثائرين، وهكذا مرَّ الاتحاد عامرا بالنطق السليم والمؤثر، وهكذا سيستمر دائما.

الثقافة الجديدة: وانت تتنقل بين بين عملك (الاتحاد) وعملك الوظيفي (مدرساً في معهد الفنون) وفناناً يعد ويقدم برنامجاً تلفزيونياً! كيف توفق وتجمع كل هذه المهام في شخصك؟ اي كيف وفقت في جمع المختلف وعشّقت بين فضاءات متناقضة، على الاقل ظاهريا؟ في ظل هذه الجلبة أين الشاعر عمر السراي الان؟

السراي: أؤمن ان كثرة العمل تجلب الإبداع، وان الانشغال يقود الى استثمار الوقت بصورة امثل، لذلك انا استثمر يومي بصورة جيدة. لا أنام كثيرا، ولا آكل كثيرا، وأحاسب نفسي على كل دقيقة تضيع من دون خدمة الآخرين. أحب التدريس فهو النبل بعينه، وأمارسه مهنةً لزرع القيم الحميدة لدى الأجيال، وعلاقتي بالإعلام مشروطة، فأنا لا أقدّم من البرامج الا ما اقتنع به من أمور ثقافية تخدم المجتمع والشريحة التي انتمي إليها.

اما الاتحاد، فهو بيتي الأول، أشمّ جدرانه كل دقيقة وأحصي مصابيحه ونسمات هوائه. لا أعظم من الانتماء إلى أكبر كينونة ثقافية أدبية، لا أبهى من أن تحافظ على صرح أسسه الجواهري وحلّ فيه، لا أسمى من أن تكون أديباً، تمتلك التاريخ وتصنع الواقع وترسم خطوات المستقبل.

حرج الانتقاء والإحالة في كتاب (السرديّة الحرجة) للدكتور عبد اللّه الغذاميّ

د. نادية هناوي *

- حرج الانتقاء الفلسفي

منذ أن تهشم التمركز المنطقي للعقل وتفتت متربولويات اللوغوس وهمشت متعالياته وتضادت أحادياته حتى غابت السرديات الكبرى وتميعت، ولم تعد لها أولوياتها في الهيمنة بعد أن حلت محلها السرديات الصغرى التي بها اتسعت ميادين السرد وتعددت نظرياته وتنوعت مسمياته، وصارت الرؤية التعددية والهوية الكونية هما الطاغيتان بدلا من مفاهيم وتصورات كانت شائعة حول العقل والهوية والثقافة والزمان والمكان والآخر وما شاكلها من موضوعات تدخل في باب الأدب، وبعضها الآخر ينتمي إلى ميادين مجاورة أو بينية للأدب كالاجتماع والميثولوجيا وعلم النفس والتاريخ والفلسفة وغيرها.

ولعل واحدة من السرديات التي كانت مهمشة في ظل السرديات الكبرى هي السردية العربية وما حفل به قديمها وحديثها من ظواهر وقضايا كان يُعتقد في الغالب أنها مجرد بدايات لا تؤسس لأية تقاليد ليكون كل ما لدينا من سرود دخيلة علينا، انتقلت إلينا بالترجمة من آداب الأمم المجاورة.

ولا خلاف أنّ السردية العربية من التنوع والثراء ما يجعل أية دراسة لها متشعبة وكبيرة وتحتاج الى عمل جماعي لرصد ظواهرها والوقوف على مراحلها واحصاء تصانيفها.

وإذا كان السرد كمفهوم اتسعت ميادين تطبيقاته حتى عمت مختلف جوانب الحياة، فإن التراث العربي سيكون ميدانا رحبا لدراسات سردية جديدة ستثير اهتمام الباحثين الغربيين في العقود القادمة أكثر مما كانت قد أثارت اسلافهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولا غرابة أن تراثنا غني بالتصانيف العلمية والادبية فمن الفلسفة الاسلامية والتاريخ وعلوم اللغة والنحو والفقه والطب والجغرافيا الى الادب وما فيه من

خطب ومقامات ومنامات وحكايات وسير واخبار وتراجم ورحلات وقصص حيوان ورسائل وقصص فلسفية.

وما قد يسفر عنه هذا الغنى من كنوز سردية مستقبلية ستكشف عنها منهجيات جديدة وستظهر لنا ما هو غامض ومتروك من تراثنا الدفين.

وواحدة من صور تلك الكنوز السردية هي سرديات الفلسفة الإسلامية كأحد المناطق الغنية في تراثنا، نظرا لما يجتمع فيها من مفاهيم الفكر التجريدي والميتافيزيقي الجدلية المتعلقة بمسائل ذهنية كالوجود والنفس والعقل، وما يتغلغل فيها من مفاهيم السرد النصية المتعلقة بالزمان والمكان والمنظور والهوية والمبنى والمحتوى.

ولأن النقد الثقافي يجمع المنهجيات ويداخل بين العلوم والآداب برؤى منفتحة وبتعددية نظرية، لذا يغدو له دوره المهم في الاتجاه بالفلسفة اتجاها سرديا عبر دراسات نقدية تبشِّر أو تعرِّف بسرديات الفلسفة الإسلامية. وهو ما أخذنا نشهده مؤخرا في كتابات بعض المفكرين العرب في مجال فلسفة التاريخ، منطلقين انطلاقات سردية ما بعد كونيالية ومتبنين نظريات ميتا تاريخية تجمع السرد بالتاريخ والفلسفة.

ويعد الناقد الدكتور عبد الله الغذامي واحدا من الذين تنبهوا إلى نصوص الفلسفة الإسلامية وما فيها من غنى متطرقا وبدرجات متفاوتة إليها في أغلب كتبه وبشكل ينم عن حرص واضح بالبحث فيها وتحري ما في عقلانيتها من قضايا تتلاءم وطبيعة ما انهمك بالاشتغال عليه من مفاهيم الحداثة الغربية التي تصب في باب الدراسات الثقافية ما بعد كولونيالية وما فتحته له من آفاق للتلاقي ما بين الفكر العالمي المعاصر والتراث الفكري العربي وكيف أن الأخير سابق في مفاهيمه كثيرا من المفاهيم الغربية.

ولعل البداية التي منها انطلق الدكتور الغذامي في سردنة النص الفلسفي الإسلامي تظهر من اول كتاب له هو (الخطيئة والتكفير) 1985 وفيه اهتم بمقاربة آخر المناهج الغربية بما في تراثنا من مسائل نقدية وفلسفية، فحين وقف عند نظرية الاتصال الياكوبسنية بادر الى تأكيد اسبقية حازم القرطاجني في التلميح لعناصر الاتصال فيما ذكره عن الاقاويل الشعرية والتخييل كما وجد أن الفارابي في كتابه (جوامع الشعر) وضع تأسيسا اصطلاحيا محملا بالمد الدلالي لمفهوم الشعري والشعرية. أما السيميولوجيا فقادت الغذامي إلى الحديث عن الاشارة مستعينا بفلسفة الغزالي "لإثراء فكرتنا عن علاقة الدال بالمدلول"[1]. واجدا في تقسيم الغزالي حلا لمعضلة الدال والمدلول.

ولم تمنع كشوفات البنيوية الكثيرة الغذامي من تأكيد أسبقية ابن سينا للبنيويين في كتابه (الشفاء) الذي ناقش فيه مسائل شكلية، منها الصوت وعلاقته بالمعنى بما سماه المشاكلة.

وظل النزوع الى رصد الفلسفة الاسلامية ملازما الغذامي في كتبه اللاحقة جنبا الى جنب عنايته برصد المستحدث من المناهج النصية وما بعد النصية. ولا خلاف أن هذا النزوع الفلسفي ليس

جديدا فلقد اهتم به كثير من النقاد العرب، وبعضهم كان أكثر توغلا في مسائل هذه الفلسفة وتأويلاتها كنصر حامد ابو زيد ومحمد اركون وهشام جعيط وحسام الدين الالوسي بيد أن أبحاثهم وطروحاتهم كانت تتوغل فكريا باتجاه عمودي تاريخي أو باتجاه افقي بنيوي بينما كانت توجهات الغذامي ثقافية تلامس ولا تتعمق، وتختار ولا تحصي، وباتجاه نقدي يجمع التراث الادبي بالتراث الفلسفي من جانب، ويواصل ربط النقد العربي بالنقد الغربي من جانب آخر.

وهو ما يتضح جليا في كتابه (السردية الحرجة العقلانية أم الشعبوية)[2] وفيه اتخذ الغذامي السرد وسيلة بها واكب الدراسات الثقافية الغربية في شكل أنموذج فلسفي إسلامي لم يتعمق فيه ومع ذلك عممه على الثقافة العربية فاتحا أيضا بابا بحثيا جديدا يتيح للباحثين التعمق في فلسفتنا وما تحويه من مجالات وفروع استحكمت عليها السردية.

وصحيح أن فكرة الكتاب قائمة على تضادية مفهومي العقلانية والشعبوية اللذين هما أطروحة الامريكي جوناثان هايت في كتابه (العقل الصالح أو المستقيم) المنشور بطبعة نيويورك عام 2012 وفيه حصر العقلانية بالفكر السياسي المحافظ والليبرالي، فإن الغذامي وسّع نطاق العقلانية عبر الالتفات إلى الفلسفة الإسلامية واجدا فيها (سردية حرجة) هي عبارة عن نسقية ذهنية مضادة للعقلانية تتمثل في(حاكمية العقل).

والسردية الحرجة أيضا سردية ثقافية اهتدى الغذامي إليها عن طريق وقوفه

عند مفردة العقل في الثقافة الإسلامية، فبدا بالفقيه (ابن سعدي والالباني) ثم البلاغي (الجرجاني صاحب التعريفات) ثم الفيلسوف (الغزالي) متسائلا هل للعقل الخالص أن يتحول إلى عقل عملي؟

وبعد وقفة عند العقل الكانطي وجد أن سبب الحيرة يكمن فيما سماه الغزالي "عجز العقل" ويعني أن العجز ميزة في العقل تجعل كل علم وكل عالم يتجاوز هذا العجز بحيل معرفية "تحتال على العجز بمثل ما يحتال العجز عليها"[3].

وبهذا التخييل تكون السردية الحرجة نشاطا فلسفيا يدفع نحو الغوص فيه سرديا، بيد أن الفيصل في هذا النشاط هو كيفية انتقاء النص الفلسفي. ولا يخفى أن للفارابي منظورا خاصا للعقل هو أكثر سعة من تضييقات الغزالي ومع ذلك انتقى الغذامي نص الغزالي الفلسفي. وليس جديدا هذا الانتقاء فمنذ كتابه (الخطيئة والتكفير) وهو يقدم الغزالي على غيره

من الفلاسفة ربما لأن الفلسفة ختمت به وربما لأنه الأكثر رضا عند الفقهاء بسبب وسطيته وربما تشدده ازاء مسائل تصب في باب التربية والاخلاق.

ويكون التوظيف النقدي للنص الفلسفي الإسلامي متزامنا مع توظيف النص الفلسفي الغربي من خلال تتبع معنى العجز في المعاجم الغربية وفي نصوص بعض فلاسفة العقل الغربيين والمحصلة أن العقل مفهوم يعجز عن الاستقلال الموضوعي ضد استعمار الذهن بالمخاتلات "وهي مخاتلات أدخلت البشرية في سردية متصلة من الالتباسات المفاهيمية ولم تفعل الفلسفة اكثر من شحن مزيد من الالتباسات المفاهيمية وكل محاولات تفكيك الالتباسات ظلت محبوسة عبر طرح مفهوم مقابل مفهوم وكلها تضمر المخاتلة الدلالية"[4] وهو ما يرى فيه الناقد الغذامي سردية حرجة تتمثل في تضاد التفكير بين نفس ناطقة مادية وصورة تجريدية للعقل وتحولاته غير العقلانية التي تحصل بتحول اللغة ومثاله العملي على الحرج السردي هو تجربة الابتعاث للدراسة في جامعات الغرب التي مرت بها أجيال سعودية "فكان لا بد لهذا العقل أن يتغير"[5] كأن العقل العربي المعاصر لم يشهد تغيرا إلا حين غير لغته.

ليكون الحرج العلمي لا فيما أسفرت عنه السردية الحرجة في مثاله الفلسفي الوحيد (الغزالي) بل في إعمامه هذا النموذج على الثقافة الإسلامية ثم في مثاله المحلي الذي ضربه وأراد إعمامه على واقعنا العصري.

ولا يمكن لدراسي الفلسفة والمتخصصين فيها أن يسلكوا هذا المسلك الانتقائي فيقعوا في الحرج العلمي، ولا أن تكون لهم هذه الطريقة في النمذجة ليس لأن مناهجهم العلمية لا تسمح لهم بهذا كله حسب، بل لأنهم أيضا لا يتخذون الثقافة منهجا للبحث عن الحقيقة.

وما اتخاذ الثقافة وسيلة لفهم الفلسفة سوى نوع من مشاكسة المفكرين لا بقصد إعاقة عملهم وإنما إنهاض هذا العمل بما هو غريب غير بيداغوجي عن طريق فبركة المسائل وتسخيفها أو بتمويه الجهود وتمييع الحدود والقفز على تراتبية الفروع والأبواب، اختبارا للعقل ونقضا لمسلماته الذهنية وتذكيرا بأن المعطيات لا تتأتى بالمناهج العلمية وحدها بل يمكن للثقافة ايضا أن تدلو بدلوها فتخرج من ثم بمعطيات سردية وليست علمية.

وعلى هذه الشاكلة راح الغذامي يبحث عن السردية الحرجة في أطروحة كانط الثلاثية عن العقل العملي والعقل الخالص او المحض وحكم العقل وتعاليه ثم مفهوم جون لوك للعقل الناقص، قافزا إلى الغزالي مقدما إياه عليهما، مؤيدا طرحه لمفهوم العجز العقلي. وما يتوصل إليه

الغذامي من جراء السردية الحرجة هو أن الفلسفة ليست أم العلوم بل هي اختراع لا لسد حاجة، بل اختراع هو أبو الحاجة.

وأما مقاربة الفلسفة كاختراع بالذكاء الاصطناعي الذي هو أيضا اختراع إنما انبنى على تمثيلات من المجتمع الأمريكي، تدلل على ما سماه (العقلانية الاصطناعية) بوصفها عقلانية جديدة أي ذكاء جديد. وما يترتب على الفلسفة كعلم هو بالتأكيد ليس مما يترتب عليها كاختراع فالأولى تترتب عليها معرفة الحقيقة والثانية يترتب عليها الخوف من الذكاء الاصطناعي. ومن ثم تظل عقلانية هي هي قديمة كانت أو جديدة.

حرج الإحالة على الذات

بالخوف قلب الغذامي مقولة إن الحاجة أم الاختراع إلى مقولة إن الاختراع هو أبو الحاجة، فهل المسالة مسالة تبني أم أنها مسالة خوف من علم يواجه الخوف؟

لا يتضح الجواب عند الغذامي لأن القطع والتحول هي السمة العامة التي تسم أغلب مباحث كتبه. فأنت ما أن تقف على ظاهرة أو مفهوم أو جدلية ما حتى تجد نفسك وقد تحولت فجأة إلى مفهوم أو ظاهرة أو جدلية مختلفة مقطوعة عما سبقها مفاهيميا.

وإذا كانت الثقافة هي حلقة الوصل بين المباحث، فإنه وصل يشاكس ذهن القارئ ويدفعه إلى الانبهار أكثر من التعمق والى التشتت بدلا من التركيز.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي نحن بصدده (السردية الحرجة) فإن القطع حصل في الفصل الأول وفيه عرض المؤلف موضوعة العقل والعقلانية والذكاء الاصطناعي ليقطعه متحولا في الفصل الثاني إلى موضوعة أخرى هي الهوية وعلاقتها بالمدينة بوصفها صانعة الهويات، متتبعا في البدء مفهوم الهوية في معاجم اكسفورد وكامبردج ثم وقفة قصيرة عند كتاب التعريفات للشريف الجرجاني وكتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ورؤيته للاختلاف والائتلاف، منتهيا إلى أن مفهوم الهوية زئبقي ومن ثم هو اختراع شأنه شأن الفلسفة.

ولم يبنِ ماهية هذا الاعتبار علماً أن تمثيله على الأقليات وأنواع الهويات كان كله من داخل المجتمع الامريكي ومن منظور الرجل الابيض الذي عده الغذامي صانع الهوية وصانع معانيها، ليتحول إلى المدينة التي هي على أنواع: فمنها المنغلقة كجمهورية أفلاطون أو المتعددة كالمدينة المنورة أو بغداد أو الحديثة الطبقية كأثينا أو حديثة البناء والثقافة كالمدن الامريكية والقائمة على وجود عقد اجتماعي اساسه الاختلاف.

ويقطع الحديث عن الهوية متحولا الى مبحث جديد ومختلف هو صناعة الخوف متتبعا اياه في الاساطير والدين والعلم ثم اللغة ودورها السلبي في صناعة الخوف بـ(التواطؤ اللغوي) وفيه يجد سردية حرجة تتمثل في الضخ اللغوي المستخدم في الشاشات التي تصير (اسطورية) وما يحصل عند المشاهدة من تشابك ذهني بين العين والاذن والذهن فيصبح ما هو مألوف خارقيا. ويضرب الغذامي المثل بنفسه حين سكن في احدى الولايات

الامريكية خلال فترة ابتعاثه للدراسة وكيف ان الخوف سيطر عليه بسبب متابعة التلفزيون.

وإذا كانت السردية الحرجة في الفلسفة تعني الحرج العلمي فانها في الهوية تعني القطع والتحول فيكون الخوف رأسمالا للامان الذي يصير حرجا لأنه تامين يزيد الخوف حدة وهو يزعم مكافحته وبسبب هذه الصناعة "ينشأ الزمن الثقافي كسردية حرجة طابعها الخوف من كل شيء"[6] بما في ذلك المدينة التي تصير خائفة من الراسمالية والاستهلاك "وكأن الناس يشترون شقاءهم ويزهدون براحتهم في سردية معاشية تنطوي على النقيض والمضاد في كل مظاهرها"[7].

ويأتي الفصل الرابع قاطعا الموضوع المبحوث بموضوع جديد هو لب الكتاب وبه عُنوّن (أي الشعبوية) كسردية حرجة تعبر عن ثورة المحظوظين. ولأن الشعبوية أطروحة جوناثان هايت يغدو كتابه (العقل المستقيم) المرجع الأساس للناقد الغذامي بمصطلحات (الشعبوية popularism والشعب الحقيقي حيث اليسار شعبوي واليمين شعبوي والليبرالية الجديدة والمانوية الجديدة والتي تعني الفردانية ومقولة العاطفة تحكم أي العقل يخدم العاطفة والعصبوية أو الغالبية الاخلاقية والعدالة للاقوى والحرية للاقوى والوهم العقلاني والضد المتوحش).

وعادة ما تأتي إحالات الدكتور الغذامي إلى هايت حينا في الهامش أو في المتن وحينا آخر لا تأتي أصلا على نية أنها تُفهم ضمنا بينما تكثر إحالاته المتكررة إلى كتب الغذامي نفسه وأهمها كتابه (الليبرالية الجديدة) الذي بالكاد يخلو منه هامش من هوامش الكتاب كنوع من تأكيد أن ما يستعمله من مسميات هي شخصية من اجتراحه وأن لا فضل لهايت عليه في هذا المجال.

ونظرا للاعقلانية الشعبوية كان حريا أن يضمها المؤلف إلى الفصل الأول المعنون (العقلانية الجديدة والذكاء الاصطناعي) كما كان بالإمكان جمع مبحث الشعبوية العربية بمبحث الذكاء الاصطناعي أو ربما تقديم الشعبوية والشعبوية العربية في الفصل الاول على موضوعات الذكاء الاصطناعي والخوف والهوية والمدينة لاسيما أن التمثيل على الشعبوية العربية ـ بتسييس الدين وبالطائفية الدينية أو العصبوية وبالاستقطاب الحزبي والاقليات ـ بدا غير جديد فلقد كُثر الطرح والنقاش في هذه القضايا منذ النهضة الأدبية واذكر هنا عبد الرحمن الكواكبي وكتابه (مصارع الاستبداد) المنشور في نهاية القرن التاسع عشر والى يومنا هذا وهذه القضايا مثار الاهتمام ومن ثم تكون السردية الحرجة ضائعة وغير حاضرة في أي تمثيل من هذه التمثيلات.

وبسبب تمثيلات الدكتور الغذامي المعتادة على الشعبوية العربية وقع بشكل غير مباشر في الحرج فلم يضعنا أمام الطبيعة السردية للحرج الشعبوي العربي متجنبا بالعموم التطرق إلى دور السياسة العالمية وتبعية الانظمة العربية في تعزيز تلك الشعبوية.

وبسبب قصر المباحث وما اتسمت به من الاختزال والتحول من جهة والتركيز على موضوعة الشعبوية من جهة أخرى

بدا التناول الموضوعي للشعبوية بعيدا عن أية سردية صغرى حرجة تستقطب المتضادات كالهويات والجماعات والايدولوجيات والاقليات والاعراق والثقافات بل بقيت هذه المتضادات عبارة عن سردية كبرى لها سلطة اقوى من سلطة الأعلام وعلى صخرتها تنكسر العقلانية التي هي الاخرى سردية كبرى.

ويتضح القطع أيضا بما جاء به الفصل الخامس من تمحور حول موضوع جديد لا علاقة له بالشعبوية هو العلامات الثقافية المتصورة من خلال الاستقبال الجماهيري لها وكيف تغيرت صيغ هذا الاستقبال عبر الزمن وهو ما عُنيت الدراسات الثقافية به كثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن المسائل التي ناقشها الغذامي مناقشات سريعة ومختزلة الخطابة التي تمثل زمن الشفاهية/السماعية والجريدة التي تمثل زمن الكتابة/ البصرية بينما تمثل الشاشة التفاعلية الزمنين الشفاهي والكتابي/ السمعي والبصري، وفيها تتجلى أعلى درجات العلاماتية الثقافية.

ويتحول الحديث فجأة عائدا إلى زمن الجاحظ و ثقافة العصا واقناعية الخطابة ومتحولا فجأة أيضا إلى العصر الحديث والحاضر حيث نخبوية الكتاب وميلاد الجريدة وثقافة سماع الراديو ودور وسائل التواصل الاجتماعي في انقراض الكتاب والجريدة اما التلفزيون فاستطاع تحسين موقعه مع هذه الوسائل[8].

وما نراه هو أن أجيال الانترنيت ما زالت تطور نفسها ومع ذلك نجد الكتاب حاضرا وله سوقه الرائج في العقد الثاني من الالفية الثالثة وهو إن تغيرت هيأته من صورته الورقية الى الرقمية فان وسائل التواصل لم تستطع تغييب دور الكتاب أو التقليل من نخبويته.

وهو ما يؤكده الغذامي نفسه تحت مبحث مصير الكتاب ويضرب المثل بكتبه التي تزداد أرقام مبيعاتها الورقية منافسة الرقمية منها.

أما ما رآه الغذامي في ابتكارات الجوائز لاساليب تروج للكتب المرشحة وأن فيها مساهمة في تصعيد سوق الكتاب بالاعتماد على طريقة الموضة، فباعتقادنا هو الخطر الذي يهدد نخبوية الكتب ويجعل القراء يتحولون إلى المواقع الالكترونية باحثين فيها عن كتب اصيلة لا تلعب اساليب الترويج والموضة دورا في تسويقها.

والامر نفسه يقال مع الجرائد التي لن تنهار مع تحولها من الورقية الى الرقمية كما لن يؤثر ذلك التحول في نخبويتها بوصفها سلطة رابعة صانعة للراي العام والسبب النظامية الاخبارية التي تجعلها منافسا قويا لوسائل التواصل الاجتماعي الاخرى التي توسم بالفوضوية الاشهارية والدعائية الإعلانية.

وبانتهاء الفصل الخامس يتوكد للقارئ أن كتاب (السردية الحرجة العقلانية ام الشعبوية) عبارة عن مقالات ثقافية في موضوعات كان الدكتور الغذامي قد ناقشها في كتبه السابقة التي كان قد ألفها خلال العقدين المنصرمين.

بدليل أننا لا نكاد ان نجد هامشا في الكتاب أعلاه إلا فيه يحيل المؤلف قارئه إلى واحد من كتبه للاستزادة في الموضوع ذاته، واكثرها ذكرا هو كتابه الاول(الخطيئة والتكفير) ويأتي بعده بدرجة

ثانية كتابه (الليبرالية الجديدة) أما الكتب الأخرى فتأتي تباعا فمثلا عندما ذكر التمركز المنطقي لدريدا احال إلى (الخطيئة والتكفير) واذا ذكر الهوية والمرأة أحال إلى كتابه (المرأة واللغة) قائلا: "توسعت في هذا في كتابي المرأة واللغة"[9] وحين تحدث عن مفهومي جوزة الهند والبوتقة الصاهرة، قال في الهامش: "عن هذه المصطلحات ومزيد من الحديث عنها انظر كتابي القبيلة والقبائلية"[10] واذا تحدث عن المضمر النسقي والمماثلة والمغايرة احال الى كتابه (النقد الثقافي)[11] والامر نفسه مع كتابه (الثقافة التلفزيونية)[12].

وإذا حملنا هذا التذكير على محمل الاستزادة التي ينبغي على القارئ ان يتحصلها، فان الحراجة تظل قائمة بالتساؤل لماذا يعيد المؤلف مناقشة مسائل كان قد أفاض القول فيها في كتب مستقلة فضلا عن الانطباع الذي تتركه كثرة الاحالات على القارئ، واجدا في الكتاب خليطا مختزلا غير واف ولا متجانس من الموضوعات الثقافية فكأن الكتاب كشكول يقدم وجبة سريعة لكنها دسمة من الزاد الثقافي غير السريع الهضم.

وعلى الرغم من أن الكتاب موضع الرصد هو نفسه سردية حرجة مخترعة لا عن حاجة، وإنما هي حاجة وليدة اختراع فرض ترتيب الفصول بهذه الصورة المتشعبة وغير المتناسقة. فصار القطع والتحول سببا في جمع موضوعات ثقافية متنوعة تتمثل في: اللاعقلانية والهوية والخوف والشعبوية والعلامات بلا محدد منهجي سوى ثقافة الحرج التي عدّها المؤلف سردية صغرى لكنها صارت كبرى مع الشعبوية وضغط وسائل التواصل الاجتماعي والذكاء الاصطناعي.

---

* استاذة النقد الحديث في الجامعة المستنصرية

الإحالات

1. الخطيئة والتكفير، د. عبد الله الغذامي، منشورات النادي الأدبي بجدة، ط1، 1985، ص44.
2. السردية الحرجة العقلانية أم الشعبوية، عبد الله الغذامي، دار الشؤون الثقافية، طبعة بغداد، 2019.
3. المصدر السابق، ص36
4. المصدر السابق، ص28-29.
5. المصدر السابق، ص19
6. المصدر السابق، ص85
7. المصدر السابق، ص88
8. ينظر: المصدر السابق، ص141-142.
9. المصدر السابق، ص135.
10. المصدر السابق، ص54.
11. المصدر السابق، ص56.
12. المصدر السابق، ص42.

يوربيدس .. عراقياً

د. عقيل ماجد حامد *

ليس من اليسير الدخول في العوالم المسرحية للفترة الكلاسيكية، نظرا لما تتمتع به من فضاءٍ خلاق سواء على مستوى النص ام الرؤية الاخراجية وسينوغرافيا الفضاء، اذ تشتغل تلك الفترة على صناعة الطاقة الشعرية بالنسبة للنص المسرحي وشخصياته واحداثه، وعليه فإن أي محاولة او محاكاة او تقديم نص مسرحي كلاسيكي هي بمثابة الخوض في تلك العوالم الخيالية والرمزية المُتشعبة، بها حاجة الى مكان اشبه بالمفتوح لكثرة الشخصيات التي تتجاوز الخمسين ممثلاً وليس الى مكان صغير لا يستطيع المخرج والممثل رسم مشهده وفضائه الحركي والسينوغرافي.

وفي معهد الفنون الجميلة للبنات في الموصل قدم مؤخراً عرض مسرحي حمل عنوان (نساء طروادة) للكاتب المسرحي الاغريقي (يوربيدس) للمخرج (اياد الصفار) ولنفترض ان مخرجاً ما اراد ان يقدم هذا العرض في مكان أكثر اتساعاً من حيث معمارية المسرح، فلن يجد في هذه المدينة مكاناً للعرض غير قاعة مسرح الربيع التي طالتها ايدي العابثين في الحرق والسلب والنهب والتدمير، وعلى الرغم من مرور (5 سنوات) على تحرير المدينة ولكن ما زال الرماد يعتلي القاعة واجهزتها المسروقة وسقفها المهترئ فلم يعد فيها غير اسمها وتاريخها ومكانها، ومن هنا ندعو لإعادة تلك القاعة الى عهدها السابق لتكون المكان الاساسي في تقديم العروض المسرحية في داخل المدينة وخارجها.

وعودةً الى المكان البديل في معهد الفنون الجميلة التي حرصت ادارته ومدرسيه ومخرجه على تقديم هذا العرض على تلك القاعة القديمة التي لم يطَلها الاعمار على مستوى خشبة المسرح والاجهزة وصالة المتفرجين فهي تعاني من فقدان اهم اساسيات العروض المسرحية وتقنياتها، فضلا عن قلة التخصيصات المالية التي تصاحب المؤسسات التعليمية والتربوية وغيرها. لقد حاول المخرج صناعة العرض وتقديمه بجهودٍ ذاتية مع ما يمتلكه المعهد من امكانيات ساعدت في اظهار العرض وخروجه الى الجمهور بتفصيلاته كافة.

يذهب المتن الحكائي الى تقديم نص يوربيدس (نساء طروادة) الذي كُتب سنة (415 ق .م) وفيه معالجات لموضوعة الحرب والوحشية والقسوة والاستيلاء على طروادة ومعاناة زوجات وأطفال القادة المهزومين وبخاصة الملكة التي عانت من الاضطهاد والسبي حيث قُسمت تلك الملكات بنات القصر الى رجال وقادة أجا ممنون كعبيدات بعد الحرب، وعبر مزاوجة للعصر الحديث، ومقاربة لما حدث في مدينة الموصل في (2014) من قتل وتهجير وسبي والاستيلاء على الاملاك العامة والخاصة، قدم المشهد الاول عبر توظيفه للجسد وحركاته وتعبيراته مستعيناً بالتقنية الصورية (الداتاشو) في تأثيث جزء من الفضاء المسرحي عبر تمازج الصورة (السجن) مع حركة الممثل التي عن طريقها اعطت صورة السجين ابان احداث (2014) ، وفي انتقاله الى صورة اخرى عبر الاحداث الحقيقية لسقوط طروادة التي استعان المخرج بالفلم الاجنبي (troy) بمشاهد منه كصورة مرئية تساعد المتلقي على الربط التاريخي بأحداث المسرحية المُعصرنة، بيد أن تلك المُعالجة تذهب بصانع العرض الى احداث نوع من القطع التواصلي ما بين المرئي الفيديوي وبين الفعل المُمسرح القائم على التواصل الوجداني والشعوري بفعل الممثل الحي، فتعود احداث العرض بمغادرة المكان المُغلق وكسر الجدار الرابع، عن طريق دخول الممثلين/ الطالبات (المُحاربين) من بين الجمهور وهذا الفعل يذهب باتجاهين كمعالجة، الاول: صغر مساحة خشبة المسرح مقارنة بعدد الممثلين الذين تجاوز عددهم (33) ممثلة/ طالبة ليذهب المخرج الى تلك المعالجة كنوع من الهروب من ضيق المساحة، فلو كان هناك مسرح كبير لكان من السهل على المخرج ان يتعامل مع ذلك العدد بصورة طبيعية. كما ان مشاركة ومفاجأة المتلقي وكسر افقه في دخول الممثلين اثناء مشهد المعركة التي دارت بين (هيكتور وأخيل)، ويستمر المشهد الفيديوي كجزء داعم للفعل المسرحي، ولينتهي المشهد بدخول (السبايا) كما حدث عام (2014) وما تلاها من عمليات سبي للنساء.

ذهب المخرج في معالجته للفكرة اليوربيديسية عن طريق دخول الممثل ومعه السبايا وهو يحاول ان يهرب بهنّ ويخلصهنّ من الايدي الخبيثة، فاستعان باللهجة الموصلية في هذا المشهد كدلالة على ان الفعل الانساني والوطني الذي يحمله المواطن الموصلي اعمق وانبل من تلك النفوس الضعيفة التي حاول البعض الصاقها بهم، وهي مساعدة القوات الغازية التي استولت على المدينة، لينتهي المشهد وقد القي القبض على السجين من قبل القوات الغازية لكن المخرج قدم (تالثيبوس) بزيه التاريخي وهو يقوم بقطع رأس السجين عقاباً له على ما فعله من مساعدة لتلك النساء، ولو عدنا قليلاً لتلك السنوات وبحثنا لوجدنا ان هناك الكثير من الابرياء قد قتلوا بسبب مساعدتهم لأشخاص بمختلف الاماكن والقوميات للهروب من سيطرة القوات الغازية والعودة الى مساكنهم بسلام، وقد حاول المخرج ان يوظف

الاضاءة المسرحية بمختلف ألوانها واشكالها واحجامها بيد أنه سقط في بئر الوظيفة اللونية، فلكل لون وظيفة وفلسفة وحدث ودلالة تذهب باتجاه تأثيث الفضاء ومشهديته وعلاقاته الزمكانية وترابطه مع الجو العام والنفسي للشخصيات واحداثها وصراعها وتحولاتها الدلالية، حيث ملأ الفضاء المسرحي بمجموعة من الالوان (الابيض/ البنفسجي/ الازرق / الاحمر) اذ كان من المفترض ان يُعطي لكل لون مكانهُ الخاص ودلالته وابعاده الفنية والوظيفية لكننا نعود مرة اخرى ونقول بان امكانية معهد الفنون الجميلة (للبنات و للبنين) شبه معدومة وفاقدة للاهتمام من قبل المسؤولين عنها، كما في قاعة الربيع وغيرها من القاعات الموجودة في محافظة نينوى، باستثنائنا قاعة مسرح الجامعة الكبير الذي الان يُعد من الصروح المهمة والعالمية من حيث معمارية المكان وفضاءاته وملحقاته واجهزته المرئية والمسموعة وخشبته جميعها تذهب باتجاه عالميته فهو بمثابة

تحفة فنية وحضارية، صنعتها ادارة جامعة الموصل ورئاستها التي تسير نحو عودة الجامعة الى سابق عهدها العلمي والاداري والتقني والجمالي.

ومن الناحية التقنية المتمثلة بالأزياء فقد ذهب العرض في مقاربته للزي التاريخي / الاغريقي الذي حاك خيوطه فنيو العرض باختيارهم للون والشكل والملمس والخوذ العسكرية والدروع والسيوف والرماح التي اعطت صورة وان تكن قليلة من حيث جماليات الزي ومادته الحية بيد أنها اعطت صورة للمتلقي عن تلك الفترة التاريخية، وتكون مادة مرئية لدى الطلبة في معرفة طبيعة وشكل الزي التاريخي المُجسد.

ويذهب أداء الممثلين سواء المجاميع ام الناطقين بالحوارات الى المحاولة في تجسيد الاداء الكلاسيكي المتعارف عليه في بطء الحركة والاداء المُفخم والصوت الجهوري الى محاولة رسم ملامح تلك الصورة النمطية للأداء، وهنا نقف قليلاً فان ما قُدم ليس لممثلين محترفين ذكوراً وانما اناثاً/ طالبات مبتدئات يمتلكّن صوتاً رقيقاً نسائياً وهن يحاولن تقديم أداء كلاسيكي ذكوري لطالما وقف امامه الرجال وهم يدرسون طبيعته وطبقاته وحركاته المختلفة، فقد جاهدت الطالبات ومن معهنّ من المخرج وملاك العمل في رسم ملامح الاداء الكلاسيكي، على الرغم من اشتراك اساتذة من معهد الفنون الجميلة للبنات في العمل، حيث ابتعد مؤدي شخصية (تالثبيوس) الاستاذ (يحيى العاني) عن اظهار الشكل الكلاسيكي للأداء على الرغم من امتلاكه الصفات الجسدية التي تؤهله لأداء الدور بسهولة، إذ امتاز الاداء بسطحية الفعل والتشخيص وضياع الحركة والصوت ودقة اللغة العربية التي من المفترض ان يمتلكها الممثل (يحيى العاني) بوصفه ممثلاً متمرساً على اداء الشخصيات المسرحية. أما الممثل (مرثد العبيدي/ السجين)، في المشهد الاول والاخير وما بينهما في مشهد السبايا وهو يحاول ان يُخرجهنّ من الاسر، فقد ظهرت ملامح الفعل الادائي له وهو يُعبر بجسده وحركاته التعبيرية التي اقتصرت بشكل سريع على الرغم من اهمية المشاهد التي جسدها ولا اعرف لماذا لم يأخذ الفعل الادائي زمنه الحقيقي، وهي ملاحظة تُحسب على مخرج العمل الذي لم يملأ ذلك الفعل بشكل اوفى، لأنه من المشاهد التي اقحمها المخرج في مسرحيته ومن المفترض ان تأخذ فعلها وزمنها وفكرتها ودلالاتها، فكان على المخرج وحتى الممثل (مرثد) ان يُعطي صورة ادائية وطاقةً تعبيرية تتناسب وقوة الحدث وبنيته الفكرية .

ان ما قُدم يعد بصمة وضوءا لاح في الافق ونور في النفق المُظلم على أمل ان تعود الحركة المسرحية الى مؤسساتنا المختلفة الحكومية وغير الحكومية الى العلن، وان تكون نافذة حقيقية ذات مُعطى فكري يذهب باتجاه خدمة المجتمع.

• باحث واكاديمي

المثاقفة في لغة الخطاب النقدي الجمالي المعاصر

د. نجم حيدر

ابتداءً لا بد أن نقدم فكرة النقد وأهميته على نحو مبسط، على الرغم من اختلافات الرأِي في تثبت التعريف وبنيته، فالنقد بأبسط تعريف يعد منظومة معرفية تحاول تحقيق (الفهم والوصف والتحليل، وأخيراً التقييم، ونادراً ما يتجه نحو التقويم)، وهي تتابعية ترابطية تفاعلية، بمعنى ابسط أن علاقة إحداهما بالأخرى علاقة ضرورة ومسبب وغاية، فغاية الفهم الوصف وغاية الوصف التحليل ومن ثَمَّ يكون للتحليل رأي يعتمد فكرة أو عقيدة يعلن بها القيمة الافتراضية للمادة المنتقدة (التقييم). وعندما نقول من ان الندرة في النقد تحقيق (التقويم)، لأن في (التقويم) اشكالات واختلاف انتماء، والاختلاف في الاقيسة و المعايير، و لاسيما في ابداعات الحداثة و ما بعدها، فضلاً عن أن (المقوم) لابد أن يكون بدراية عالية في جزئيات ومرجعيات وتقنيات المنجز المفترض تقويمهُ، إلاَّ أن في تاريخ الفكر الجمالي المعاصر ما يرفض فكرة (التقويم) البتة، كما قدم (بنديتو كروتشه) فيلسوف الحداثة واحد منظري حدس الابداع في الفن. وعليه يمكننا ان نعرّف النقد بوصفه ظاهرة فكرية تعتمد على فهم دقيق وتحليل مبرمج لمنجزٍ ما، أو ظاهرة ابداعية معينة، فللنقدِ مستويات في مُركبهِ من البسيط الوصفي الى المركب التأويلي المتفلسف باعتماد أنظمة وأنساق مجاورة يحقق تفاعليتها في الخطاب النقدي، ولأنه متسلسل يبدأ بانعكاس الفهم الى الوصف وصولاً الى افتراضات منطقية تعتمد الرؤىً الفكرية المتفلسفة، نجده بهذا متسلسلا يستدعي معارف وظواهر فكرية ويجسدها في الخطاب النقدي، الأمر الذي أحال النقد الى اتجاهات ومناهج يتصف بها ويعتمدها في آليته.

إلاَّ أن في معادلة النقد مركزا مهما وفاعلا يتمثل بلغته أو لغته التي تكون البناء الظاهري للخطاب النقدي، ومنها تتولد (مثاقفة) تستدعي محيطها ومؤثراتها ومن ثم تعتمد تداولات المحيط الثقافي وضواغطه، وعندما نذكر الضواغط نجدها متنوعة، بعضها فاعلاً متميزاً، حسب معطيات الزمان والمكان، فضواغط الزمن المختلف تتبع بيئتها وظروف الحياة وطبيعة التعامل الانساني فرداً مع الآخر أو فرداً مع مجتمعه، ومنها الضاغط الاقتصادي النفسي الاجتماعي، فضلا عن الظروف السياسية والاقتصادية ، وصولاً الى اثر البيئة بأنواعه المتنوعة الشاملة .

إلاَّ أن ما قدمته التكنولوجيا ولا سيما وسائل الاتصال السريعة والمباشرة، اسس ضاغطاً جديداً وأنهى ضواغط كانت سائدة، على الرغم من أن هذه التكنولوجيا لم تكن مفاجأة بل لها تتابع تراكمي في النمو، الى أن وصلت في أعلى طاقاتها، ونقصد بها وسائل الاتصال السمعية والمرئية المتجسدة في (الانترنيت) بوصفه ضاغطاً جديداً يتمثل (بالعولمة) الذي أثر ويؤثر حتماً في بنية الانتماء الفكري وما يتبعها من سلوكيات تنتقل من ممارسة الثقافة الى ممارسة بناء وتشكيل الهيئات والتصرفات الفردية الانسانية.

ضاغط العولمة يشكل (مثاقفة) منتقلة من بناها الشكلانية الى الاعماق الفكرية، وفي نموها تؤسس البنى الفكرية

والسلوكية بضاغط (العولمة) بدعائمها التكنولوجية التواصلية، بآثارها في بنية التذوق الفردي والجمعي، ومن ثمَّ في بنية الخطاب النقدي الذي يعتمد في جزءٍ منه على هذه البنية التذوقية.

إلاَّ أن موضوعة (المثاقفة) في تفاعلاتها الفكرية عاشت متحولات انقلابية مع بداية القرن العشرين، بمرجعيات يمكن أن نلمسها مع الثورة الفرنسية وحركة العلم في تفسير الطبيعة كما هو الحال في آراء دارون وفرويد ومندل، وحركة الاقتصاد ونموه ومظاهر تطوره كما اشار (ماركس) و(انجلز)، وأخيراً انفعالية (نيتشه) ودعواته التي امتزجت بظاهراتية هوسرل وانقلبت الى وجودية مشاكسة فاعلةً نتلمسها عند (هيدجر) و(سارتر) لتشكل مع برجماتية (تشارلز بيرس) و(ليم جيمس) و(جون ديوي) بنية الظاهرة الحداثوية في الفكر من (كادامير) و(هابرماس) و(دولوز) و(دوتوروف) و(كوهن) و(فرانسسوا ليوتار).

و (كان هناك وقت اشترك فيه الله والانسان والطبيعة واللغة كل في الاخر وكانت العقيدة ... الرأي يتفق مع داريدا في ان السيناريو التاريخي أعيدت كتابته مرات كثيرة بمفردات وانظمة مختلفة)(1)، ويمكننا أن نزعم أن (نيتشه) بانفعالاته العدمية وبثوريته المشاكسة، أرسى فكرة الحداثة وما بعدها، واستشرف مظاهرها في كتابات المفكرين الحداثويين في القرن العشرين، حتى ان الكثير من محللي الفكر المعاصر يعدّوه (نيتشه) الملهم الأمثل للحداثة وما بعدها.

ولأن النقد خطاب (ثقافة) فهو بالنتيجة الموضوعية خطاب (رأي) يعتمد في آليته ونظمه على (تفلسف) يعدُّ ملهماً وموجهاً لهذا الخطاب الذي نسميه نقداً ولأنه خطاب واسطته (اللغة) بوصفها اداة فاعلة في ظاهرِ وباطنِ رؤيتهِ، فهو بالنتيجة (لغة نقدية) أو (نقد بتأسيسٍ لغوي)، وكما يقول (هابرماس): ''ان اللغة تلعب دورا رئيسيا كبيرا في الهرمونطيتا (التأويل) على وفق ما قدمه (كادامير)، فهي ليست مجرد نظام لغوي يخضع لبعض القواعد لأنها من الاساس حوار وعلامة بالاخر.....فيها ارساء الفهم، وبها النفاذ الى عقل آخر''[1].

وعليه، فان اللغة برغم انها ذات مؤسسة (صوتية) تعتمد النطق والسمع الا انها متعالقة بفكرة تصورية في الذهن الناطق والسامع، واساسها التواصل بين ذهنين وإذا انقطعت فتنقطع حتما البنية التواصلية في الفهم، ولأنها تعتمد الفرد والجمع فهي تعالق الفرد في الجمع والعكس صحيح، ويمكننا ان نقول ان اساس البناء الجمعي يتمثل في النظام او المنظومة اللغوية.

وعليه فان رأي (امبرتورايكو) في كتابة (السمياء وفلسفة اللغة) يعلن ان نجاح التواصل يتطلب نجاحا في عملية تواصلية، وعندما نقول عملية فهي تفاعلية تتركب مع منظومة دلالات ذات

تأسيس فكري توظف في سياق او مقام معين[2].

وعندما نستدعي برجماتية التواصل ابتداء من (تشارلس سندرس بيرس و وليم جيمس) وحتى في فلسفة اللغة التي قدمها (جون دوي) محاولين تفعيلها مع طروحات (جومسكي) في دراساته اللغوية يتبين ان لمنظومة اللغة مجموعة بواعث وتفاعلات اهمها الموضوع او الفكرة والرسالة وآلية الارسال ونظام الدلالة وامكانية الاستقبال. كل هذا حقق الصورة الكلية من البناء النهائي المشكل عند المتلقي او حتى آليات او الباعث للرسالة، وكما يقول رولان بارت في (درجة الصفر للكتاب): "ان اللغة مؤسسة على الكلام الاجتماعي، مأسورة بالوصف"[3].

وإذا ما اتفقنا على ان اللغة نسق تواصلي تحليلي في بنية الفكر نجد انها نظام يتفاعل جدليا، ويولد ما يعد نتيجة وتطورا للفكر ذاته، فهي منظومة وحدات تفاعلية تتشرب من محيطها الحيوي (الحياة) ما يمكن ان يحقق التطور الجديد.

فهي "ليست منظومة الفاظ فقط وآلية تركيب بكلمات لتؤسس الجمل، بل هي نظام تفاعلي لا بد ان يولد ما يعد جديدا"[4].

فاللغة يمكن ان تكون (نظاما من المفاهيم تحتاج الى اداة للتواصل فهي مبادئ مفسرة الى اللغة من كيانها بمقابلته بالأشياء او الظواهر التي تباشرها)[5].

وعندما نستدعي مؤسسات واركان نظريات اللغة عند (سوسير) نجدها (نظام من العلاقات لا يمكن حصرها وعدها. مؤسسة بأصوات معبرة عن افكار تعتمد نقلها، فاذا لم تكن بهذه الوحدات فهي مجرد اصوات. ان اللغة تكون جزءا من نظام من الاعراف يربط بين الاصوات والافكار، وبعبارة أخرى ينبغي لا ان تكون جزءا من العلامات، والعلامة هي اتحاد بين شكل وفكرة يدل عليها)[6].اذا ما آمنا أن (اللغة مولدة للأفكار حسب الألسنيين وفي مقدمتهم (فردناند دي سوسير)، بتأكيده ان اللغة (نظام اشاري لأي طبيعة فيزيائية)(5). ولأنها (نظام) فهي منتجة بفاعلية هذا النظام، ولأنها اشارية فهي تواصلية بين مرسل ومستلم ولأنها نظام منتج تواصلي فأنها معرفية تبين الأفكار ومن ثَمَّ فهي في دائرة الجدلية تفاعلية بين تواصليتها وبيئتها السسيولوجية، والامر يحيلنا على وفق (كادامير) الى ان تكون برجماتية تستشرف استدعاء انتماء الآخر الى رسالة المرسل. هنا تتجسد مهمة النقد، ولأننا في منطقة النقد الحداثة وما بعدها فان لغة النقد وبيئته (الأبستمولوجية) تستدعي بيئة هذا (القرن) وتفاعلاته بعده (قرناً استثنائياً) - القرن العشرين - في تاريخ المجتمع البشري.

والأمر يكشف عن تحولات ثقافة الحداثة وتطوراتها الى ما بعدها.

بذلك تنكشف المسلَّمة التي قدمتها الدراسات النقدية وفحواها: أن النقد

يتبع مادته المنتقدة ويتفاعل معها تفاعلاً جدلياً في الأثر والمؤثر، ومن ثمَّ النمو والتطور، نجد ان هذه المسلَّمة تستدعي في (نقد التشكيل) بوصفه فنا يعتمد أنظمة تركيبية للأشكال والألوان استدعاءً تداخلياً في بنية التذوق التي هي بنية وعي وانتماء، إذ أن المتحول من الرومانتيكية الى الانطباعية وما بعدها من حركات فكر في اداء وفكر في انتماء (سايكوابستمولوجي)، لم يكن تحولاً اعتباطياً صاغته الصدفة أو ظروف لحظوية تحكمت في هذا الوعي، المؤسس لبنية تذوقية انتقلت بسرعة من القلة المشاكسة الاستثنائية الى الكثرة، حتى صارت متداولة شائعة في المجتمعات الاوربية المختلفة.

ان نقد الحداثة في الفن ولا سيما فن التشكيل يعتمد الحداثة ذاتها في أدائها وانفعالها وأهدافها، فكان للرفض النيتشوي والتهكم الهيدجري والمشاكسة السارترية وتقويض الايقونات الشعرية لدى (رامبو) و (تازارا) و (بريتون)... أثر في بناء واضح في الرسائل الشكلية التعبيرية كما في (وحشية ماتيس) وتكعيبية (بيكاسو وبراك) ومستقبلية (بالا) ودادائية (دوشامب) وسوريالية (دالي) و(أرنست) و(ماركريت) والتعبيرية الوجودية لـ (البيرتو جياكومتي). انه نسيج ابستمولوجي تتفاعل به الأشكال والكلمات، لتصنع تذوقاً ظهر لنا بلغة نقدية نسميها (نقد الحداثة وما بعدها) كما هو حال النقد البنيوي والسيميائي والتفكيكي... وصولاً الى التداولية والتأويلية (الهيرمنيوطيقية).

ان هذه النتاجات الفنية الفكرية بتمثيل ابيستمولوجي لعصرها ما هي الا تعبير دقيق عن صورة الصراع بين الانسان كفرد وبين الانسان كجزء من مجتمع يحمل هوية يتصف بها ويحاول ان يؤكدها مع مجاوراتهِ التي يتصارع معها. انها بدايات للظاهرة العولمية الجديدة بآلية المثاقفة، بكل الطاقات التواصلية التداولية. وعليه تبين ان المثاقفة تعني التزاوج والتلاقح والتفاعل الثقافي بين شعوب العالم المختلفة، ولان الانسان يحاول جاهداً ان يعيش بأعلى مراحل التوازن والانتصار على كل معوقات حياتهِ، فنجد ان العوالم المتطورة تكنولوجياً واقتصادياً والمنفتحة اجتماعياً تغري العوالم المتعثرة. وهنا تنبري المثاقفة بقوة من تلك العوالم المتطورة في مجالات الحياة المختلفة ولاسيما الاقتصاد والمال والتكنولوجيا نحو العوالم التي تعد متخلفة في ذلك، والواقع العملي يمثل هذا الافتراض ويكشف كيف تتأثر شعوب الشرق المختلفة بمظاهر الحياة الامريكية والاوروبية الغربية.

الا ان فكرة المثاقفة لا تعني فقط ذلك السلب والنكوص بل انها تمتلك نوعاً من التلاقح الايجابي، وهذا ما تحقق مع المثاقفة البصرية في فن التشكيل على مستويات الدراسة الجامعية وعلى نحو خاص عند الفنانين الذين درسوا في اروبا الغربية (بريطانيا) واستطاعوا

بتناصاتهم ان يحققوا مثاقفة ايجابية باستدعاء المفيد المتطور الفاعل جمالياً وفنياً في جسد مظاهر الهوية الشرقية العراقية بمفرداتها ونظمها المختلفة، اذ تشبع فكر الفنان الشرقي وخزين بصرياتهِ الفنية الجمالية بمفردات الهوية الشرقية، فأحالها بتناصٍ تثاقفي الى نتاجات يمكن ان تكون معبرة عن تلك التي يهدف اليها الباحث في بيان تناص المثاقفة البصرية.

ان المثاقفة تؤكد التثاقف بتفاعلية منتجة مولدة بين مظاهر فنون تبدو مختلفة او بعيدة، وهذا التثاقف الذي هو اساس المثاقفة يحقق مختلف الاشكال والمظاهر، بعض منها امتصاصي المنحى وبعضها الاخر اقتباسي والاخر اسلوبي او اشاري، فالمثاقفةُ هنا لا بد لها من تناصّات بأشكالها المختلفة. ان تناص المثاقفة البصرية لأي منطقتين مختلفتين تعتمدُ القصد والدراية بل لا يمكن ان تتحقق الا بخبرة متميزة، وما يثبت هذا الرأي ان محققي التناص المثاقفي هم من المبدعين الذين يمتلكون نتاجات فنية لا خلاف على مستواها الابداعي والفني.

الهوامش

1. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية الى التفكيكية، الكويت، عالم المعرفة ،1998 ص 59-58.
2. ابو النور حمدي: يورجين هابرماس، الاخلاق والتواصل ، لبنان ، بيروت، دار التنوير، 2009 ، ص146.
3. رولان بارت ، (درجة الكتابة في الصفر) ترجمة محمد نجيب خشمه ، مركز الانماء الحضاري ، 2002 ، ص 107.
4. رولان بارت ، المصدر السابق ، ص 107 .
5. انظر ذلك: روبيرت مارتان ، مدخل لفهم اللسانيات ، ترجمة: عبد القادر المهيري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2007 ، ص413 . روبرت مارتان: عضو في المعهد الاكاديمي واستاذ في جامعة السوربون، درس اللسانيات العامة والفرنسية، وله مؤلفات عديدة في هذا الموضوع.
6. جونثان كلر ، فرديناند دي سوسير، اصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامة ، ترجمة : عز الدين اسماعيل ، القاهرة ، المكتبة الاكاديمية ،2000 ، ص72، نقلا عن عبد العزيز حمودة المرايا المفكرة ، الكويت ،2001،ص202.

هواجس تحاصرها غيوم

خالد الحلّي / ملبورن - أستراليا

- 1 –

ثَمَّةَ أشجارْ
لا تُثْمِرُ فاكهةً أو أزهارْ
إنْ لَمْ تُسْمِعْها أسرابٌ من أطيارْ
ما تحفظُ من أشعارْ
قَبْلَ طلوعِ الفجرِ،
و تَقْفُلُ راجعةً
قَبلَ شروقِ الشّمسِ،
لتأتي ثانيةً
عندَ تباشيرَ الفجرِ مُهلّلةً

- 2 –

ثَمّةَ إنسانْ
يحملُ أسئلةً لا عدّ لَها
كانت تتوالدُ مُسْرِعةً،
أوجَزَها
بسؤالٍ حَيْرانْ
هَلْ يكفيني العمرُ،
لأعرفَ أجوبَةً
عَنْ أسئلةٍ تتراكمُ
في الوِجْدانْ
منذُ زمانٍ
و زمانٍ
و زمانْ؟

- 3 –

ثَمّةَ عُشّاقْ
تَغمُرُهُمْ أمواجٌ من أشواقْ
إنْ كانوا في وقت وصالٍ،
أَمْ في وقتِ فراقْ
أشواقٌ تعجزُ أنْ تُوصفَها

كلماتٌ أو أوراقْ
أشواقٌ تَكْبُرُ .. تَكْبُرُ
والعُشّاقْ
لا يتمنى أحدٌ مِنهُمْ أن يَكْبُرْ

- 4 -
ثَمّةَ ساعاتْ
تُسرعُ في الركضِ، و ساعاتْ
تُبطيء في المشيِ،
تُراوغُها عَثَراتْ
هل ستُطِلُّ علينا أوقاتْ؟
لا تركضُ فيها مسرعةً
لا تمشي فيها مبطئةً
قافلةُ الخُطُواتْ

- 5 –
ثَمّةَ أحلامْ
لا تَتَشابهُ مهما اِتَفَقتْ
لا تتباعدُ مهما اِخْتلفَتْ
أحلامٌ تَكْبُرُ لا نعرفُ
كيفْ
تَكْبُرُ .. تَكْبُرُ رُغماً عنّا
ولهذا نخشى أن تُصبِحَ
غيمةَ صيفْ

الرجع .. ربما

شوقي العياش

بينه، وبين ما كان، بحيرة من صديد.. من زمان غير محسوب يبحث عن ضياعه .. عن – ربما - مخلوقات اختفت عنه، فجأة، ثم أشرقت بين عينيه .. مثلما تشرق الشمس، وتذوب في أصيلها .. عند ذاك البعيد. هذا ما أحس به، كأنه شجرة نخرتها العفونة . هكذا هو .. مسجى على فراشه ليل نهار أمام نافذة تتطلع – بشراهة – في عينيه . . ربما كان مشلول الذهن، أو مشلول الجسد، أو .. ما فكر، أو جرب أن يحرك – منذ الإفراج عنه – هذه الكومة المتقيحة من مرقدها.

ربما النسيان.

ربما الكسل.

ربما الملل.

وربما شيء آخر ما عرفه أو شعر به.

النافذة في غرفته، لم تغلق ابداً .. كأنها متفقة تماما مع أهوائه .. ربما لتعريه .. وتكشف دواخله المتضاربة .. المتصارعة .. و تحيله الى هاجس .

حتى الشمس، لا تشرق إلا ليعمي ضوؤها النافذ عينيه. وحين تغيب تدخل الظلمة روحه القلقة، الهائمة الى حيث لا يعلم .. وحتى النجوم شاهدة عليها .

وهذه الازقة المحيطة به .. والتي أحبها حتى العشق .. لا يرى حتى في صمتها الآن، إلا ضجيجا مكتوما، مزعجاً، يمزق مسامعه ويذكره بشيء غاب عنه، ويوقظه من نومه القلق . وحتى الفراش الذي يرقد فيه، يذكره – بخبث – انه واسع عليه .

ما نمتُ .

فاجأني الفجر .

آه .. انه الفجر .

ما أحلى طلوعه .

وما أشد مرارته في آن!

نهضت متكاسلاً (في الحقيقة لم أكن متكاسلاً، بل قلق .. وشيئا من رهبة دفينة ما عرفتها سابقا تحاصرني كطيف ..).

قبلت جبين زوجتي النائمة بعمق . وقفت وسط الغرفة وعيناي تمسحان سقفها وجدرانها وأرضيتها، وللمرة الأولى، أحسست ولا أعرف لماذا، ان رطوبتها تتسرب الى أحشائي وعظامي .

دخلت المطبخ. أحضرت شاياً ملأ جوفي دفئا. أما الاستكان الأخير فقد انعشني كليا.

لملمت ما أحتاج اليه، وما خبأته . وقبل ان افتح الباب لأخرج، وقفت أمامي – كأنها تترقبني – أُمي، بفوطتها الداكنة

الزرقة، وجلبابها الأسود الذي ما غيرته منذ ممات أبي، وضوع حليبها الذي أرضعتني، ما زال يفوح منها. قالت لي بحزم يغلفه حنان كبير: (سأنتظرك .. لا تتأخر عنا .. إحذر يا ولدي) . وهجمت تحتضنني . ترى من أين عرفت اني خارج بمهمة لها مخاطرها في هذه الأيام العصيبة، وعلي إنجازها بحذر شديد في هذا الفجر ووداعها لي أمام الباب بهذه الجرأة وهذا الهدوء القلق !؟ . ما من دمعة خرجت من عينيها .. تركت الليل وراءها – مثلي – لتنتظر الفجر .. تنتظر قبل أن أخرج لتودعني .. وزوجتي في فراشها.

خرجتُ.

كانت الأزقة تحتضن عتمة الغبش الضبابية. وخيوط الفجر الشباطي البارد تتسلل بين احضانها وسواقيها وتوقظها .

أحس معطفي بدفء رائحتها المتدثرة برطوبة جدرانها ومزاريبها. كانت المقاهي تغسل تواً أشياءها، وتغلفها أضوية مضببة، وتنبعث منها روائح شايها، ودخان أراكيلها العطن، وأنفاس زبائنها المتعرقة، المتأففة والمتحسرة، كأن نداوة الليل والفجر خمرَتها وبصقتها في جوفي . شعرت بغثيان سرعان ما تبدى حين رأيت أضوية الشارع الذي أقصده. كان الشارع خاليا. ومشواري غير بعيد، وضوؤه ما فارقني. وصلت الى تقاطع الطرق .أعرفه جيدا . تطلعت حولي . ما وجدتُ شيئا مقلقا . وحين عبرته، أحسست بضيق يغلف صدري، ويجعل قدميّ تقللان المسافة بينهما. شعرت بهاجس غريب ما عرفت كنهه.

أصبح صمت الشارع، ضجيجا في داخلي.. وخلاؤه هاجسا غير مريح. وصدى صوت أُمي قبل أن أخرج يصم أُذنيّ.

دلفت بأقرب دهليز معتم.. أعرفه جيداً، ويؤدي الى أزقة ضيقة ومتفرعة. توقفت برهة. تنفست عميقاً. ثم بدأت أراقب الشارع. كل شيء هادئ .. ربما هواجسي في غير محلها .. انتظرت بعضا من الوقت، وأنا أُفكر .. ما العمل !؟ أُغيبُ نفسي في هذا الدهليز وأنسى المشوار رغم أهميته الكبيرة !؟ أم انها هواجس لا غير .. قد تؤدي لا الى الحذر .. بل ربما الى جبن دفين أحيانا!؟

هالتني هذه الكلمة .. ثم كيف أُبرر غيابي !؟ مجرد خواطر؟ تنفست عميقا وبهدوء .. تحسست معطفي ناحية الصدر وما تحته .. احسست بالطمأنينة .. وطردتُ فكرة البقاء في الدهليز وعتمته وهواجسه .

ما زال الشارع خاليا .. واضواؤه الخافتة تنعكس ظلالها بين قدميّ. ما كان المشوار بعيداً .. عاودني الفرح .. وانتصرت على مخاوفي وقلقي وهواجسي التي كانت في غير محلها.

بيني وبين مشواري خطوات، ربما تعد بالأصابع. ابتسمتُ.. وتقدمتُ نحوه .. كانت عيناه جامدتين وسيجارته ترتجف بين أصابعه. وفجأة .. أضيئت مصابيح عربات سود وقذفوني داخل إحداها.

ما تركه النسيان أبداً. وهذه الذاكرة العنيدة، اللعينة تستعيد فحولتها، وتغلف شرنقتها جوفه، وتتحداه الرؤى، وتأتيه مكورة على بعضها، مثل كرة ثلج، تكبر وتكبر، ثم تسحقه عذابا ووهما. ودائما تستفيق أُمه على صراخه، وتستعيذ .. وتستعيذ . قال لي الطبيب : عليه أن يغادر فراشه، يتحرك داخل الغرفة، ربما خارجها أفضل، ويترك عفونتها. ماذا أعمل؟ يسمعني ولا يسمعني .. نظراته داكنة مهمومة، وفيها مزيج من حنان.. ندم .. ربما البحث عن شيء مفقود .. هكذا هو منذ ان أفرجوا عنه .. فاقداً كل أمل في الحياة .. أنا أتفهمه .. ولكن الى متى؟ سمعتُه مرة يقول كلاماً يتلجلج بين شفتيه : علام يلتئم الجرح ؟ ليفتح من جديد .. يتقيح .. ويأكلني الصديد ؟ هذا ما سمعته من وراء الباب .

كان ضوء الصباح يتكسر في عينيه فيؤلمه، وضجيج الزقاق يملأ غرفته. فُتحَ البابُ على مهل . ظهرت أمه حاملة صينية الشاي . بهتت حين رأته متربعا في فراشه وعلى وجهه ابتسامة باهتة ربما خجلة. كادت الصينية - من فرحتها تسقط من يديها .

سبحانك ربي!

صباح الخير أمي.

كانت كلماته متكسرة متلجلجة، وعيناه ما فارقتا فراشه. ارتشفا الشاي مع قطع قليلة من (الكليجة). وقبل أن تغادر قالت والابتسامة تحلي وجهها ذا التجاعيد الحزينة والجميلة في آن:

ماذا يعجبك أن تتغدى؟

لا داعي .. يعجبني كباب السوق . سأتغدى هناك. كانت الفرحة تملؤها. ثم أغلقت الباب .

كانت الظهيرة في باب المعظم، مشرقة، ما عدا بعض السحب الداكنة والبيضاء، تعج بالمارة والجالسين وأصحاب العربات. ساقته قدماه - دون أن يدري - الى (الموقف العام) وتسمرتا أمامه .. وكذلك عيناه . انزلقت قطرات العرق على جبينه وتجمدت.

أحس بكرب ثقيل يجثم كالوحش على صدره، وشعور بالتعاسة والخذلان. فـ(اللعبة) انتهت .. وربحها الآخرون.

همس بأسى:

وانتهيت أنا أيضاً .. كان علي أن أربحها أنا.. لا هم .. ما كان علي أن أنتهي هكذا! حين ترك أصواتهم وضجيجهم وقباحتهم خلفه، تملكه الكابوس الذي ما فارق لياليه ويشدد عليه الخناق أبداً .. سلبوه كل شيء.. نفسه.. هي .. أجهضوها فأُجهضت روحها .. وأصابع الإتهام تشير اليه بامتهان ومذلة. حاول أن يملأ رئتيه هواءً، فوجده عطناً.. نتنا .. فزفره وبصق بمرارة وندم .. فما خلفوه عنده لا ينسى أبداً . انطلقت من حنجرته صرخة مذبوحة .. مكتومة:

أولاد الـ .. سرقتموني يا أولاد الـ.. .

كانت (اللعبة) قاسيةً . تحمل الجزء الأعظم منها . .

ما غامره شك بإرادته .

أياماً ولياليَ ما حسبها، ولا فكر أن

يحسبها، ملقى في سرداب مظلم، تفوح منه روائح جثث آدمية متعفنة.. وأنين يدمي القلب، وخلجات مكتومة وسعال مذبوح . كل هذا ينبعث من جوف عميق .. لا يعرف قراره.

كان عارياً تماما، ممدداً على أرضية السرداب . لزوجة الدم والبول والغائط، تشرنق جسده المنتفخ قيحاً . ما تمتم أو اعترف بشيء. قضم لسانه. صر على أسنانه. لن ينهار أمام الممسوخين . آه .. لو انتهيت ساعتها .. لو حبست أنفاسي ومتُ مخنوقاً.

جحظت عيناه الداميتان، المنتفختان حين وجد زوجته الحامل، طرفاً في (اللعبة) .. وقد تحلقت الأكف حول جسدها وهي عارية تماما .. عارية بين غرباء تشبعت عيونهم وقذارتهم بدم الاغتصاب. كانت تستغيث به .. ولا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلها، سوى أن ينتهي وينهي عذابها وعريها.

قال قصيرهم وهو سيدهم:

أيُ زوج سيئ بلا رحمة أنت !؟ أليست عندك غيرة، أو ضمير؟ أهكذا علمتك المبادئ، ان تعرى زوجتك وتغتصب أمامك، ولا تنقذها بكليمتين أو ثلاث؟ أيُ خنزير حقير أنت؟

ما عادت عيناه تريان إلا أشباحا وصوتها المستغيث يكبر .. ويكبر صداه في كيانه فيمزقه الى شظايا. ما كان عليّ أن أستسلم أمام عريها، وأنهار أمام اغتصابها. اغتصبونا جميعا منذ أمد.. منذ ان أتوا.. أعطيتهم كل ما يمكن ليبقوها لي.. فخسرت نفسي وخسرتها. ثم عرفت بعدها أنهم أجهضوها باغتصابهم لها، فأُجهضت روحها.

تعبت قدماه في شارع الرشيد وأزقته ودهاليزه الضيقة. نسي حتى غداءه (الكباب). رغب في احتساء الشاي، عله يبدد بعضا من صداعه. سحبته قدماه الى مقهاه القديم، المنزوي في زقاق ضيق، لكنه نفه. هذا ما احس به . تطلع في وجوه زبائنها.. ما عادت القهقهات والابتسامات تعلوها .. بل شحوب وكآبة، وغمغمات وهمسات مكتومة، ومقامات (الكبنجي ويوسف عمر)، وقرقرات أراكيلها وضربات الطاولي والدومينو تملأ جو المقهى الضبابي الكئيب. أسند ذراعه على كرسي قريب منه. مسح العرق من جبينه. أغمض عينيه. تخيل ان في وجوه الجالسين خيوطا ونسجا من عنكبوت، تغلف أفياءهم، وبريقاً – سرعان ما يذوب – يقدح من عيونهم، ويحفر مثل المخيط اعماقه وذكرياته، ويهدم كامل وعيه، فهو قد انهار أمام (اللعبة). دفن رأسه بين راحتيه. هذا الرأس الذي كان بوصلته دائما.. لماذا خانه؟ .. أما تذكر ما قرأه (اذا أراد الرأس، فلا الفم أو المؤخرة ينطقان). تمنى ان يدفنه في الأرض لا بين راحتيه فحسب، وينتهي .. مثلما انتهى هو .

جلس على كرسي الغوص العتيق كان بجانبه، صرصرير أخرجه من كابوسه. نظر حواليه .. الكل منشغل ومهموم. أحس بشي ء من الطمأنينة.

طلب (نركيلة) و(استكان شاي ثقيل).

تأمل الزقاق، رغم ضيقه، يعج بأصوات متداخلة، وعربات حمل مستهلكة جرها أشباه مخلوقات آدمية، لا يغطي أجسادها سوى ثياب متهرئة، ممزقة ومرقعة يغطيها التراب، فاصبح لونها ترابياً.

أخذته حسرة عميقة. أخذ نفسا طويلا من دخان (نركيلته) وحبسه قليلا في رئتيه، وأخرجه من منخريه. احتسى شايه الداكن بلذة إفتقدها منذ زمن بعيد، وطلب آخر .

آه .. أيتها الذكريات. إتركيه هنيئا بهذا الشاي والاركيلة.

أما كفاه؟ لكنها عاودته .

اتهموه مرة بقتل شرطي في إحدى التظاهرات .. ربما كانت وثبة . وضعوه في سجن في محلة (الشواكة)، مع مجرمين وسراق وقتلة.

سأله أحدهم، يبدو كبيرهم:

لمَ أنت هنا ؟ !

متهم بالقتل !

غسلا للعار ؟

لا طبعاً - معاذ الله - قتل شرطي .

قرب فمه من أذنه وهمس بشماتة وتشفي:

قتلته؟

لا .. لم اقتل أحداً . كنا في تظاهرة، وحين وقعت بين أيديهم، كانت معي هراوة.

لم تضرب بها؟

لا .. للدفاع فقط .. لم أضرب بها الشرطي .

كيف اتهموك إذن؟

قالوا (اذا لم تعترف على رفاقك، سنتهمك بالقتل!).

إذن انت سياسي؟

نعم . .

ضد الحكومة؟

نعم.

ماذا تعمل؟

عامل مطبعة وطالب حقوق . .

هل اعترفت؟

لا .. ولن اعترف.

حسنا. اسمعني جيداً . انا مجرم .. قاتل .. سمني ما شئت . ربما سيحكم علي بالإعدام، أو المؤبد في أحسن الأحوال. طلبوا مني أن أخون (جماعتي)، وأعترف عليهم، ويخففون محكومياتي.

اعترفت إذن؟

أبعد رأسه عنه بسخرية وغضب، وأسند ظهره على الحائط، وهتف بانزعاج:

لا لم ولن أفعل. كيف أخون (جماعتي)؟ ما زلت شريفا وضميري حيا.

ما هو الشرف والضمير عندك.. أو . .

عب دخان سيجارته، ونفثها في وجهه بانفعال وقاطعه:

إسمع .. انا لست مثقفاً .. ولا حتى دارساً . لكن الحياة علمتني ان الشرف والضمير ان لا أخون (جماعتي) مهما

كان .. حتى لو أصلب . وهذا ينطبق عليك ايضاً .. حافظ على شرفك السياسي. عاوده الصداع من جديد. كيف نسي هذا في محنته الأخيرة، وفي اللحظة الحاسمة؟ وكيف انهار أمام عري زوجته ونسي شرفه السياسي؟

اغتصبونا قبل ان تعرى زوجتي أمامي. ضيعت شرفي وضميري أمام عريها. ماذا ابقوا لي أولاد الـ ... ؟ جسد بلا رأس ؟

سياسي بلا شرف ؟ زوج بلا زوجة ؟ حتى أمي، حين أفرجوا عني، رغم فرحتها الكبيرة، وهلاهلها الملعلعة، أحسستها تشاركني همومي وندمي. ما كان وجهها مشرقاً كما عرفته .. ما عدتُ موجوداً.. رموني في مستنقع .. وهاأنذا أغوص به حد الهامة .. حد القاع .

ترك المقهى. مشى بلا هدي ولا هوادة في الشوارع والازقة. توقف برهة ليستذكر. حول قدميه الى إتجاه آخر . استنفذ نصف سجائره حتى وصل.

وقف يتطلع عن بعد الى بيت قديم، منفصل عن البيوت الأخرى . كان يحفظ كل شبر منه.. خارجه وداخله . عاش فيه سعادة زمن مليء بالمخاطر والمسؤولية والقلق والخوف. لكن الفرح والطمأنينة ما فارقتاه أبداً.

في إحدى ليالي تموز المقمرة، وعندما انتهيت من طبع آخر المطبوعات، سمعت فجأة، لغطا وضجيجا يقترب من الدار، ووقع أقدام متسارعة. أوقفت ماكنة الطبع. رحت أسترق السمع جيداً . تحول وقع الاقدام الى ضربات قوية.. ثم طقطقة بنادق. انهم توزعوا.. انتشروا وحاصروا البيت. ماذا يمكنني فعله؟! لا شيء ابداً .. انتهى كل شيء .. ضاع .. تبخر .. المنشورات التي طبعت تواً، ورائحة الحبر تفوح منها.. ضاعت .. ماكنة الطبع .. عروستي .. أستولدها خبزنا الحزبي .. ضاعت .. كل شيء ضاع .. كبستنا الشرطة.

وانتهى كل شيء. لا مجال حتى للهرب . عبت رئتاي رائحة الحبر والورق الندي . خيل لي اني أتنفسها للمرة الأخيرة . بقيت هكذا .. ساكناً .. مصعوقا .. هذه البضعة دقائق خلتها دهراً . أرهفت السمع بتركيز شديد .. الحركة بدأت تخف.. وتخف .. حتى تلاشت تقريباً .. استرجعت شيئا من اعصابي المنهارة. أطفأت الضوء ..خرجت من السرداب بحذر وخوف، كان ضوء القمر الخافت يغطي نصف باحة البيت. كل شيء هادئ .. ساكن .. الا انا. دخلت الغرفة المطلة على الشارع. كانت معتمة . اصطدمت قدماي بكرسي ارعبني ضجيجه. ازدادت ضربات قلبي قوة وسرعة. تحركتُ بحذر مقلق نحو النافذة . تطلعت .. كان المشهد مضحكا حقا. حفنة كبيرة من عظام مرمية أمام مطعم (الباجة) الذي افتتح منذ أيام، وكلاب وقطط وربما جرذان أيضا، سائبة هجمت عليها، والمعارك بينهم ضارية.

فجأة.

ملأته فرحة لا توصف. أذهلته فعلا..

بقيت عيناه تلتهمان البيت القديم، والبيوت الأخرى، ومطعم (الباجة) على بعد امتار، والمارة تروح وتجيئ .. كل شيء عادي. جلس على صخرة قريبة منه.

وضع رأسه بين كفيه . وبدأ يستذكر ما حدث له في (السجن) .

ترى كيف حدث هذا .. وكيف يمكن تفسيره؟ هل كان رأسي مشطوراً نصفين في لحظة انهياري أمامهم وأمام عري زوجتي؟ فعقلي الظاهري خلال ضعفي كشف اعترافاتي على رفاق فحسب .. معظمهم معتقلون مثلي أو هاربون أو مختفون لا أثر لهم، الا القلة . اما عقلي الباطني .. اختفى .. غاب .. تبخر .. ما عاد موجداً .. فغاب عني هذا البيت .. ما اعترفت عليه .. بل ما تذكرته الا في هذا اليوم بالذات .. بل الآن . فأية رحمة كتبت علي؟ لو تذكرته وأنا في تلك الحال .. لاعترفت عليه .. أقولها صراحة . من يبتدأ بالحرف الأول، ينتهي بالحرف الأخير .. لكني ما تذكرته.. غاب عني كلياً .. غاب .. ترى هل يوجد تفسير لهذه الحالة؟!

ترى هل بقي البيت سالما حتى الآن؟!

ربت أحد المارة على كتفه .. تطلع اليه بتمهل وحذر .. كان يافعا .. وعلى كتفه حقيبة ربما مدرسية: عمي .. عمي .. أأنت مريض ؟! تحتاج مساعدة ؟ ! أشار له بلطف وهو يتمتم : شكرا وليدي .. أنا بخير .. مجرد صداع.

تذكر انه لم يأكل الكباب، ولا حتى تغدى. فجرته قدماه الى مطعم (الباجة) . وبقي يحلم ان تطرق يده من جديد باب البيت القديم.

الحبكة والبناء في الكتابة

تأليف: جيمس سكوت بيل
ترجمة: خضير اللامي*
السويد - خاص

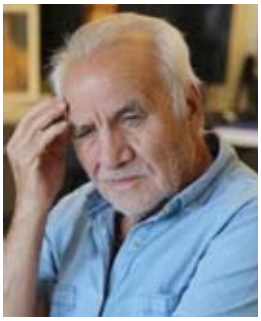

ضع الكذبة الكبرى كي تنام

أنفقتُ عشر سنين من عمري بسبب كذبة كبيرة.

وفي عشرينيات عمري، تخلّيتُ عن حلمي هذا في أنْ أكون كاتبا، لأنه قيل لي: إن الكتابة لا يمكن تعلّمها. لأنّ الكتّاب يولدون، هكذا يقول الناس. فأنت إما تأخذ بهذا أو لا تأخذ. واعتقد أنني مأخوذ بهذا.

وكانت جهود كتاباتي الأولى لم تأخذ بهذا، لأنني محكوم به. وفي مدرستي الثانوية في اللغة الانجليزية. وفي الكليّة، أخذت دورة تعليمية على يد راموند كارفر، واطلعت على المادة التي يكتبها، وقارنتها مع المادة التي في حوزتي. ولم اجد الى ما يؤشر ثمة تشابها بينهما، ذلك إنّ الكتابة لا يمكن أنْ تُعلّم. ورحت أصدّقها. وتوقعت أن أتعلّمها. وهكذا، اخترت مادة أخرى. كأن اذهب الى مدرسة الحقوق، واختار دراسة قانون صارم. وبذا، لنْ اتخلى عن ذلك، ففي الرابعة والثلاثين من عمري، قرأت مقابلة مع محام كان قد سبق له أنْ أصدر رواية. وما قاله لي كان كما لو أنّ سهما قطّع انفاسي. إذ كرر أنه تعرض لحادثة كادت أن تصيب مقتلا. وفي المستشفى وفروا له حياة أخرى. وقرر شيئا واحدا هو أنه يطمح أن يكون مبدعا بما يكتب، ويكتب، حتى وإنْ لم يطبع أي عمل من أعماله، وهذا ما يريده ايضا. حسنا ! انا ابغي هذا.

ولكن الكذبة الكبرى ما زالت هنالك، تحوم حول أعماق تلافيف مخي، وتسخر مني. وبخاصة حين شرعت أمارس حرفة الكتابة. وفي الرابعة والثلاثين من عمري، قرأت مقابلة مع محام سبق له وأنْ طبع رواية، قال لي كما لو ضربة قطّعت أعماق تنفسي. حيث قال: إنه تعرّض الى حادثة كادت أنْ تطيح به.

وفي المستشفى منحوه فرصة أخرى. وقرر شيئا واحدا هو ان يكون كاتبا. وسيكتب ويكتب حتى وإن لم يحصل على فرصة طبع النتاج، وهذا ما يريده، حسنا، ولكن انا أريده أيضا!

ولقد خرجت لشراء كتابي الأول عن هذه الحرفة، كما ابتعت رواية عقدة الرواية، كتابة لورنس. كما إشتريت كتاب حقل فيلد عن سيناريو الكتابة. ذلك أنّ أيّ شخص يسكن في لوس انجلز، والذي له إصبع منافس يتطلب منه أن يكتب عن سيناريو الكتابة. وخرجت لشراء كتابي الأول عن حرفة الكتابة. كما رواية Syd Field عن كتابة السيناريو، ذلك أنّ أيّ شخص يسكن في لوس انجلز ويملك ابهاما مناسبا يتطلب منه أن يكتب سيناريو. وقد اكتشفت اغلب الاشياء المعوقة. والكذبة الكبرى في الكتابة كانت كذبة كبرى حقا. وبامكان الشخص ان يتعلم كيف يكتب، لأنني متعلم وتحوّلت إلى مخطط سعيد، بينما كنت في وضع مخاض الكذبة الكبرى، فإنّ الشيء المحبط تعلّقا بي، كان هو الحبكة. لأن ما كتبته لم يكن بالمستوى المطلوب. فقد قرأت القصص القصيرة، فضلا عن الروايات، وأني لمندهش كيف انجز الكتّاب اعمالهم، وكيف حصلوا على مادة هذه القصص القصيرة؟

ولكن، حين شرعت أتعلم الحرفة، رأيت أنّ الحبكة، تتضمن عناصر ينبغي تعلّمها، ووضعها في مكانها المناسب، كي تكون النتيجة قصة قوية. مازلت أتذكر، ذلك اليوم الذي هبط عليّ الوحي كما أزعم، وكنت مستوعبا له. وفجأة، شعرت أنّ ثمة شيئا ما ينقر في رأسي، وراحت الدرر تنثال متساوقة في أعماقي. وبعد مرور عام، إخترت شاشة، ومن ثم أخرى، وكتبت رواية. وطبعتها أيضا. وفجأة، تنفست الصعداء، وتطلّعت من حولي. وبطريقة ما، تساءلت، كيف قد تعلّمت كتابة سرد الرواية. وانتهت مباراتها، وشرعت بتدريس الآخرين ما قد درسته، وتعلّمت كيف اكتب روايات بعد ذلك. ورأيت أنْ يظهر كتّاب جدد، ليعرفوا أنهم ليس محكوم عليهم أن يراوحوا في مكانهم. فبإمكانهم أن يتعلموا الحرفة. كما تعلمتها انا. فأنا لا اعلم نظرية خيالية هي عبارة عن مصاميل ومسامير حسب، واشياء تعمل من اجلي، ولأولئك الكتّاب الجدد الذين استطاعوا أن يفهموا ويستخدموا بصورة صحيحة الان. وثمة شيء مضحك قد حدث. إنّ بعض طلابي شرعوا يبيعون نتاجاتهم المطبوعة. ما زلت أجد هذا، اكثر اقناعا للصفقة برمتها، وهذا ما آمله أنك ستتعلمه. ودعنا نحلّ محلّ الكذبة الكبرى محل الحقيقة، تلك الحقيقة هي الحرفة التي يمكن تدريسها، وتلك التي تتعلمها بإجتهاد وممارسة ومكابدة بامكانها أنْ تحسّن كتابتك. ويعد هذا أحد الكتب التي يمكن ان تكون ممارسة ونتيجة كما حدث لي. الحصول على الدافع: أتذكر التاريخ الدقيق الذي قررت فيه أن اكون كاتبا، ونقشت هذا في دفتر يومياتي.

إن مدرّستي لكرة السلة كانت صارمة، فإنْ كان الأمر يعود لي، فإنني سأنفق ممارسات لإطلاق إشارات القفز. بيد أنّ عربة القفز تطلبت منا أن نقوم بتمارين رئيسة، مثل سباقات الركض السريع. ولكن العربة تجعلنا نقوم بتمارين أساسية مثل، دحرجة الكرة، مناولة الكرة، تحديد اللقطات، ولكن، بالطبع، ان سباقات الرياح المرعبة لا تني أن تكون عابثة. فأننا جميعا حين يحين وقت اللعبة فإننا جميعا نكره ما يسمى بالكدح، ولكن ماذا نفعل، فقد حان وقت اللعبة. ورغم ذلك، فإننا نعرف تماما نحن اللاعبون الافضل، وإنّ كل فرقه تنجز عملها. وإن كنت تريد تكسر من خلال هذا الشيء الذي يطلق عليه الحرفة او المنجز، فإن بك حاجة الى عربة التخطيط. اسحبهم ليناسب الافضلية. ولكن استخدمهم. إنك ترغب في الحصول على النتائج. انا اتذكر، كان هذا اليوم بالضبط الذي قررت فيه تماما ان اكون كاتبا في الكذبة الكبيرة. وهكذا، ففي عمل منقوش في المجلة التي اكتب : وفي هذا اليوم بالذات قررت، ان اكون كاتبا مستقلا. وانت، لماذا لا تفعل كما فعلت انا؟ وتُصدر بيانا توضح الهدف منه، فهذا يثير عواطفك، وتطبعه. وتعلقه على جدار بيتكم وستراه في كل يوم المارة، وبالطبع سيثير عواطفك. والعمل الآخر الذي قمت به كان هو أنني اشتريت كمية من القهوة السوداء، وقدحا تزيّن جوانبه باللون الذهبي. وساتطلع الى هذا القدح في كل يوم يمر علي، ليذكّرني بالتزامي الذي اتخذته على نفسي. وفي الحقيقة، ففي الايام التي تجري، سانظر اليه مرة ثانية. اذ ستمنحني هذه الايام التزاما يتسم بالنشاط والحماس في آن. هيا، أقدم مصحوبا بمادتك التي هي دافع بصري أو مرئي، وربما تكون عبارات مرئية مطبوعة على آلتك الكاتبة وصورة لكاتب يعجب بها على جدار منزلي الذي اتخذت له لقطة صورة لستيفن كنك ومنضدته للكتابة وكلبه مستلق أسفل الكرسي، ومخطوطة محققة)، او مخطوطتك لأول غلاف رواية لك؟ كانت مسرفة في سعرها النقدي في الغلاف الثاني لها. وكنت ايضا مدفوعا مبكرا للذهاب الى مخزن الكتب لتصفح قسم افضل مبيعات الكتب. وسألقي نظرة على صور الكتّاب، وسأطلع على صورهم الشخصية وانفتاحهم واعتقد ان بإمكاني ذلك. وسأتخيّل كيف سيبدو وجهي خلف سترتي المغبرة، وبعد ذلك أعتقد أنّ هذا أمر حاسم). وسأعود سريعا الى مكتبي، وساشرع بالكتابة التي تجعل عصائرك تتدفق، ولا تفقدها. وحولّها الى عبارات على الصفحة. جرّب الاشياء. اقرأ كتابا حسب عن التحبيك فهو لن يجعلك افضل كاتب. وينبغي ان تجرب ماذا تعلمت. وفكر ان كنت قد فهمتها، وحاول ان تفهم اكثر. فإنك الان. تختبر. انك تختبر ايضا اكثر. فأنك تختبر النار من بين فراغات الصفحات. وانت تقرأ هذا الكتاب عن الكتابة. خذ الوقت للتطبيق،

ومن ثم اختر الكثير والافضل. ومن ثم طبق ما قد تعلمته عن الحبكة والبناء في كتاباتك. فانا احب الكتب التي تتناول الكتابة. واملك رفا يحتويها. فأنا فضلا عن ذلك، اقرأ كل كتاب بحروف مميزة. وغالبا ما أعيد قراءة تلك الكتب كلها، التي تؤشر بالقلم الاحمر. ومن ثم، أسجل ملاحظاتي واطبعها. وما قد ألاحظه فإنه هضم للمادة بأعمق ما يمكن أنْ تكون. فأنا أريدها ان تكون جزءا مني. وانا اريدها هناك حين اقدم على كتابة روايتي القادمة. لذا، من فضلكم كونوا على انتباه للتقنيات الجديدة بما فيها الحرفة الجديدة للرواية وجربوها اولا. وهذا ما قد تتعلمونه. ولا ابق فضفاضا. ان الكتابة لم تبق فضفاضة هي الاخرى، ابدا محتفظة بجودتها حين تبقى بين مخالب القلق. إن العقل المتوتر يجمد الابداع. فإن حاولت او جربت الكتابة ايضا كثيرا كما تمارين وحدة عسكرية، فإن ذهبت بفك مشدود ومحموم، فإنك بهذا تعمل ضد نفسك. فخط القيادة في هذا الكتاب، يمنحك مادة للعمل مصحوبا بتقنيات بامكانها مساعدتك في العمل؟ فعملك هو أن تكتب وقد قالها بريندا يولندا بحرية وبقوة. أولا اكتب ومن ثم نقّح.. انا لا اتذكر بالضبط، من قال هذا. بيد أنّ هذه الكلمات هي كلمات حكمة. لا تنفق المزيد من الوقت، كي لا ينتابك القلق والترقيع مع مسودتك الأولى. فخطوط دليلك في هذا الكتاب ستساعدك ؛ ليس في عملية التخطيط حسب، بل، إنك ستشرع في كتابتها. ولكن في الاغلب الأعم، ستبدأ في تنقيحها، فانّ عملك مع المسودة الأولى، عليك ان تسكب نفسك في الصفحة. فخطوط القيادة في هذا الكتاب ستساعدك ليس في تخطيط حبكتك وكتابتها حسب، ولكن في الاغلب الاعم حين تقوم بتحقيقها. فعملك في مسودتك الاولى هو ان تسكب نفسك في محتويات الصفحة. ففي عمل لكتابة مقالات الابداع تاليف فري برادبري يقول: "دع العالم يحترق في اعماقك فهكذا نتعلم الكتابة اكتب كل يوم. من خلل منشور زجاجي شفيف، حرارة بيضاء، على الصفحة". من خلل منشور زجاجي شفيف، تحديد الحصة سينظم حياتك. وهذا هو الطريق الوحيد في ان تتعلم الكتابة. ان معظم كتاب العمل السردي الناجحين يجعلون من الكلمة هدفا زمنيا من السهولة بمكان الالتزام به، كما تجلس وتتألم على الجمل او فقراتها. وتأكد تماما تماما انك تجلس على رحلة الكتابة لمدة ثلاث ساعات، ولكن، ماذا انتجت؟ اكتب رقما ثابتا بدلا من الكلمات..وسجل جدول بيانات، يسجل الكلمات التي تكتبها عن مشروع. يسجل كلمات حسب الايام او الاسابيع أوتوماتيكيا. ومن ثم استعرض هذا الجدول كل يوم واسبوع. سجل الحصة الاسبوعية. وذلك ان الكتابة اليومية للكلمات، سرعان ما تتحول الى عادة، وستكون مثمرة ومنضبطة في كتاباتك في الحياة. وستشعر بمتعة كيف انك تحولت الى كاتب منتج، وكيف تعلمت

الحرفة. ولكن، ان كنت احد أولاء الكتاب في حياتك الذي يفكر ان به حاجة الى ايحاء الكتابة، ومن ثم سأطرح عليك سؤالا ان تتبع نصيحة بيتر ديفرايس "انني اكتب حسب حين اشعر بالوحي. وتاكدت انا يوحى الي في كل صباح الساعة التاسعة!".

إن الإختلاف الرئيس بين الكتّاب الناجحين وغيرهم من الكتّاب الفاشلين والمثابرين، أن هناك جحافل من الروايات الناجعة، والتي ما زالت في صدارة الكتب دون أن تحقق نجاحا. وما زالوا يثابرون لأنّ ما يكنّون في أعماقهم، كتابا، وما زالوا يكتبون اذ ثمة ما في دواخلهم، وهذا ما انت عليه الان. وهذا السبب الذي يدعوك الى ما أنت عليه. حينما سمعت من الطلبة إنني علمت في مؤتمرهم، وهذا السبب الذي يدعوك الى قراءة كتابي. وحين اسمع من الطلبة إنني القي محاضرات على الطلبة، وهذا ما اسمعه دائما. انني ادرّس طلبة في مؤتة خاصة، وغالبا ما أتواصل معهم وبكلمتين ليس ألا هما: واظبوا على الكتاب.

• كاتب ومترجم عراقي يقيم في السويد

مطبوعات وصلتنا :

- قحطان محمد صالح (هيت مدينة ورجال)، دار الرافدين- بغداد 2022.
- صباح قدوري، محاسبة التكاليف - دراسات، الطبعة الاولى، 2022 (نسخة الكترونية).
- جلال مرقص عبدوكا، زوجة لثلاثة أشقاء، مطبعة منارة، ط1 – اربيل 2022.
- جلال عبدوكا، النصيحة ليست قبيحة، مجموعة قصصية - دار أمل الجديد - دمشق 2022.
- جلال عبدوكا، الانثى بدون ضمير (رواية) دار امل الجديد – دمشق2022 .
- يوسف شواني ، رحيق الحاسة العاشقة (شعر) منشورات اتحاد الادباء – بغداد 2021.
- جواد غلوم ، حجر نبيل وآخر من سجيل (شعر) منشورات اتحاد الادباء – بغداد2022.
- مالك مسلماوي، تدجين اللغة الهاربة – تحولات بنية الخطاب في تجربة الشاعر جبار الكواز (نقد) اتحاد الادباء – بغداد 2022.